النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط

خلال القرن السادس عشر

إطروحة تقدم بها

أنيس عبد الخالق محمود القيسي

إلى مجلس كلية الآداب / جامعة بغداد

وهي جزء من متطلبات نيل درجة دكتوراه فلسفة

في التاريخ الحديث

بإشراف

الأستاذ الدكتور إبراهيم خلف ألعبيدي

ربيع الأول 1429 هـ **آذار 2008م**

إقرار المشرف

أشهد إن إعداد هذه الأطروحة جرى بإشرافي في قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة بغداد، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث.

الأستاذ الدكتور
إبراهيم خلف ألعبيدي

بناءً على توصية الأستاذ المشرف أرشح هذه الأطروحة للمناقشة

الأستاذ الدكتور
مرتضى حسن النقيب
رئيس قسم التاريخ

إقرار المشرف

أشهد إن إعداد هذه الأطروحة جرى بإشرافي في قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة بغداد، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث.

الأستاذ الدكتور
إبراهيم خلف ألعبيدي

بناءً على توصية الأستاذ المشرف أرشح هذه الأطروحة للمناقشة

الأستاذ الدكتور
مرتضى حسن النقيب
رئيس قسم التاريخ

شكر وتقدير

بعد أن انعم الله تعالى عليّ بإكمال هذا الجهد المتواضع لا يسعني إلا ان أتقدم بوافر الشكر والإمتنان إلى أستاذي الكبير الأستاذ الدكتور صالح محمد العابد، مشرفي الأول، الذي كان لي أبا عزيزا ومشرفا قديرا، لا تستطيع الكلمات أن تفيه حقه، إذ كان له الفضل الأول في إختيار هذا الموضوع الشيّق الذي كان يتمنى أن يرى ثمرته قبل أن يفارقنا، فله مني أسمى مشاعر الإخلاص. وبالمشاعر نفسها أقدم عظيم إمتناني لأستاذي العزيز الدكتور إبراهيم خلف ألعبيدي الذي غمرني بعطفه الأبوي وأمدني بوافر علمه حينما تفضل بالموافقة على الإشراف على هذه الإطروحة بعد وفاة مشرفي الأول، وإسداء النصح والتوجيه وإبداء الملاحظات القيّمة وتزويدي ببعض المصادر المهمة في دراستي ومتابعة الإطروحة على الرغم من الظروف الصعبة التي مرّ بها، وأسأل الله تعالى أن يمتعه بالصحة والعافية لننهل من نبع علمه وعطائه الوافر، فله مني كل التقدير والثناء.

وأسجل هنا شكري إلى أساتذتي في السنة التحضيرية، وهم كل من: الأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد، والأستاذ الدكتور هاشم صالح التكريتي، والأستاذ الدكتور نوري السامرائي، والأستاذ الدكتور صادق حسن السوداني. ولا يفوتني ان أوجه شكري العميق وإمتناني إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور مرتضى حسن النقيب لجهوده في تذليل العقبات العلمية أمامي وتوجيهي ومتابعة مسيرتي العلمية، كما فعل معي في مرحلتي البكالوريوس والماجستير. ولا أنسى أيضا المشاعر الطيبة التي غمرني بها كل من الأستاذ الدكتور بهجة كامل عبد اللطيف التكريتي والأستاذ الدكتور عبد الجبار ناجي، اللذان أكن لهما كل الاحترام والتقدير.

وأجد لساني عاجزا عن تقديم الشكر للسيد خالد عبد اللطيف حسين لجهوده الكبيرة لا في ترجمة النصوص الفرنسية وتوفير المصادر الضرورية للباحث فحسب . كما فعل في مرحلة الماجستير . وإنما لمشاعره النبيلة ومساندتي ماديا ومعنويا طوال مرحلة إعداد هذه الأطروحة، وبذلْ أقصى الجهود لتمكيني من إتمام دراستي. كما لا أنسى جهود زميلي وأخي العزيز الدكتور محمود عبد الواحد محمود القيسي، الذي ما فتئ يتابع مسيرتي العلمية ويقدم لي من المساعدة الشئ الكثير، فله مني كل الشكر والعرفان. وأسجل بعظيم الإمتنان الجهود المشكورة التي قدمها لي الزميل ضياء نور الدين محمد، والزميلة هدى حسن في قسم اللغة التركية بكلية اللغات في ترجمة بعض النصوص التركية خلال المراحل

المبكرة من إعداد الإطروحة. كما أوجه شكري إلى الإخوة الزملاء محمد جبار إبراهيم ، والأخ أحمد عبد حسين من جامعة الموصل، والأخ نهار محمد نوري من الجامعة المستنصرية، والأخ العزيز المهندس عبد الرحمن سعدون لجهودهم في توفير المصادر لي ومشاعرهم المخلصة خلال مراحل إنجاز هذه الإطروحة.

ويطيب لي ان أسجل ببالغ الإمتنان شكري وتقديري العاليين للباحثين والمؤرخين الأجانب، وموظفي المكتبات في الجامعات والمؤسسات الأكاديمية التركية والغربية، الذين لولا جهودهم وتعاونهم في إبداء المساعدة لي لكان من الصعب إتمام دراستي. وأخص بالذكر منهم البروفيسور العالمي ستانفورد شو (Stanford J. Shaw)، المتخصص بالتاريخ العثماني بجامعة كاليفورنيا (1968–1992) وبجامعة بلكنت بأنقرة فيما بعد، الذي كان يأمل ان يرى أطروحتي بعد إنجازها قبل وفاته في أواخر سنة 2006، بعد أقل من شهر واحد من إتصالي به. وأزجي بالغ شكري للبروفيسور التركي خليل إنالجك (Halil Inalçik)، الذي أرسل لي مجموعة قيمة من مؤلفاته. وأثمن عاليا المساعدة التي قدمها المستشرق الأمريكي، السويدي الاصل، أندرو هِس (Andrew C. Hess)، في إرساله نسخة مصورة من كتابه القيّم "The Forgotten Frontier". كما أسجل عظيم إمتناني للبروفيسورة الإيطالية ميشيلا دي أنجيلو (Michela d'Angelo)، من جامعة مالطا، التي أرسلت لي العشرات من بحوث المؤتمر العالمي السنوي عن تاريخ البحر المتوسط خلال السنوات 2005–2007، فضلا عن بحثها عن النشاط الإنجليزي في البحر المتوسط. كما أسجل بإمتنان الجهود الطيبة التي قدمها البروفيسور الإيطالي كارمل فازاللو (Carmell Vassallo)، مدير معهد دراسات البحر المتوسط في مالطا، ومستشار سفارة الولايات المتحدة فيها، الذي دعاني أكثر من مرة لحضور أعمال المؤتمر السنوي لمؤرخي البحر المتوسط. كما لا أنسى المساعدة القيّمة التي أبداها البروفيسور البريطاني كولن إمبر (Colin H. Imber)، المتخصص بالتاريخ العثماني في جامعة مانشستر، الذي زوّدني بآخر إصدارته، ولاسيما كتاب "The Ottoman Empire 1300-1650: The Structure of Power"، وهو من الإصدارات الحديثة، فضلا عن عدد من أبرز بحوثه في الدوريات العالمية. وجزيل الشكر والثناء أيضا للجنرال الأمريكي المتقاعد البروفيسور جون فرانسيس غلمارتن (John Francis Guilmartin)، المتخصص بتاريخ الحروب البحرية المتوسطية والأطلسية في جامعة أوهايو، الذي قدم لي ملاحظات قيّمة عن معركة ليبانتو. كما لا أنسى الجهود الطيبة التي قدمها لي البروفيسور التركي أنور يلدرم (Onur Yildirim)، في قسم العلوم الاقتصادية في جامعة الشرق الأوسط بتركيا، الذي قدم لي

مجموعة من البحوث الرائعة التي مكنتني من تكوين أفكار مختلفة عن موضوع دراستي في المراحل الأولى من الكتابة، فضلا عن إبدائه النصح والتوجيه خلال مراحل الكتابة. وأسجل أيضا ببالغ الإمتنان المساعدة التي لا توصف للبروفيسورة الأمريكية بالميرا برومت (Palmira Brummett)، المتخصصة بالتاريخ الدبلوماسي العثماني خلال أوائل القرن السادس عشر في قسم التاريخ بجامعة تينيسي في الولايات المتحدة، التي أهدتني كتابها القيّم: الدبلوماسية البحرية العثمانية في عصر الإستكشافات، وهو رسالتها للدكتوراه، وبحثها القيّم المعنون "العثمانيون والبحر"، المنشور في مجلة الشرق الحديث الإيطالية (Oriente Moderno)، فضلا عن كم هائل من المصادر التي إستخدمتها أثناء إعدادها رسالتها للدكتوراه. كما أوجه شكري للأستاذ التركي تونكاي زورلو (Tuncay Zurlo)، من معهد أتاتورك للتاريخ التركي الحديث الذي أرسل لي بعض الكتب التركية. ولا يفوتني أن أقدم عظيم إمتناني للبروفيسور دينس سينور (Denis Sinor)، الأستاذ المتمرس بالدراسات المتوسطية والأطلسية المقارنة في جامعة إنديانا، الذي أرسل لي مجموعة من البحوث المنشورة في مجلة التاريخ الآسيوي (Journal of Asian History)، التي يعمل حاليا رئيس تحرير لها. كما أثمن ببالغ الإمتنان المساعدة القيّمة التي قدمها البروفيسور جيمس ترَيس (James D. Trace)، المتخصص بتاريخ أوربا القرن السادس عشر وإمبراطورية آل هابسبرك في جامعة مينيسوتا، الذي أرسل لي فصلين من آخر إصداراته عن حملات الإمبراطور شارل الخامس في البحر المتوسط. كما أثمن عاليا جهود البروفيسورة كيت فليت (Kate Fleet)، المتخصصة بالتاريخ الإقتصادي والدبلوماسي العثماني خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر في جامعة كامبردج، التي أرسلت لي كتابا خاصا لمجموعة من الباحثين عن تاريخ البحرية العثمانية. ولا أنسى أن أذكر أيضا التعاون الذي أبدته الدكتورة كرستين إيسوم . فيرهارن (Christine Isom-Verhaaren)، المتخصصة بتاريخ العلاقات الفرنسية . العثمانية، وتاريخ الشرق الأوسط والتاريخ العالمي في الجامعة البندكتية بواشنطن (Benedictine University)، التي أرسلت لي بحثها القيّم المنشور في المجلة التاريخية الفرنسية في صيف 2007، عن آخر حملة بحرية لخير الدين بربروسا. ولا أنسى الجهود المشكورة التي قدمها لي الأستاذ خالد إرِن (Halit Eren) المدير العام في مكتبة مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية في إسطنبول (IRCICA). كما أثمّن عاليا فضل الأخ الدكتور محمد درّاج من الجزائر، الأستاذ حاليا في جامعة مرمرة، الذي تفضل مشكورا بإرسال مسودة الترجمة العربية لمذكرات خير الدين بربروسا، وهي لا تزال قيد الترجمة من التركية قبل طبعها.

شكر وتقدير

ويطيب لي ان أتقدم بوافر شكري وإمتناني إلى الإخوة والزملاء الباحثين الذين أهدوني ثمرة جهودهم من رسائل وإطروحات، وهم كل من: الزميلة الدكتورة رابحة محمد خضير الجبوري من جامعة الموصل، والدكتورة التركية عائشة ديرم أتاوس (Ayşe Devrim Ataus) من جامعة تكساس، والدكتورة الأمريكية إيللا . ناتالي روثمان (Ella-Natalie Rothman)، من جامعة مشيغن، والأستاذ التركي إيمراح صفا غوركان (Emrah Safa Gürkan)، من جامعة بلكنت بأنقرة.

أسجل تقديري العالي أيضا إلى كل من: كارل كورونيل (Carl Coronil)، من مكتبة الكونجرس الأمريكي، الذي أتاح لي حرية الدخول للمكتبة ألكترونيا مدة أسبوع والحصول على خمسة كتب بترخيص خاص، وهيلين تايلور (Helen Tylor)، من مكتبة جامعة أوكسفورد، وديانا ديفيد (Diana David)، من مكتبة جامعة هارفرد، والآنسة ماريا مجدي رزق من مكتبة جامعة الإسكندرية بمصر، والآنسة عبير صالح العريبي الصحافية في مجلس الثقافة بليبيا، لتعاونهم في تزويدي ببعض المصادر القيّمة.

أجد لساني عاجزا عن تقديم الشكر لأسرتي، والدتي وأخويّ العزيزين نبيل ولبيب، الذين تحملوا عبء تفرغي للدراسة لسنوات طوال، ووفروا لي الأجواء المناسبة قدر الإمكان لإكمال دراستي، فلهم مني كل التقدير والثناء. ويفرض عليّ واجب الوفاء إستذكار إخوتي وزملائي في السنة التحضيرية الذين سبقوني في إنهاء دراستهم، وهم كل من: الدكتور سامي محمد صالح الصياد، والدكتور طالب محيبس حسن الوائلي، والدكتور فواز مطر، الذين كانت لمشاعرهم الصادقة مكانة خاصة في نفسي.

تقديري العالي وإمتناني العميق مقدمان سلفا إلى السادة رئيس وأعضاء لجنة المناقشة الكِرام، لما سيبذلونه من جهد في قراءة الإطروحة ووضع ملاحظاتهم ولمساتهم العلمية القيّمة عليها لغرض تصويبها والخروج بها على نحو أفضل.

الباحث

ثبت المحتويات

المـــــــــــلاحق

المقدمة

(نطاق البحث وتحليل المصادر)

البحث الحالي محاولة أولية لفهم طبيعة النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر.

يكتسب هذا الموضوع أهميته من المرحلة التاريخية التي يتناولها، إذ إرتبطت حقبة القرن السادس عشر بمتغيرات تاريخية كبرى، شهدت عصر النهضة الأوربية، وما رافقها من إستكشافات جغرافية وإنتشار المستعمرات الأوربية في أصقاع الارض. وهذه المتغيرات أثرت، ولا تزال، في مسيرة التاريخ العالمي. ودراسة التجربة البحرية العثمانية ضمن سياق المتغيرات العالمية المعاصرة من شأنه أن يوضح لنا، على نحو أفضل، مكانتها في التاريخ العالمي، التي هي جزء أساس فيه.

تأتي أهمية الإشارة إلى هذه المسألة من حقيقة مفادها إن المؤرخين الغربيين، في كثير من الأحيان، كانوا قد أولوا إهتماما خاصا بالإنجازات الأوربية الكبرى التي تحققت في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، بهدف إبراز التفوق الحضاري للغرب على حساب الحضارة الإسلامية. ضمن هذا السياق، فإن هؤلاء المؤرخين، حتى وقت متأخر، لم يتوقفوا إلا عند مسألة واحدة عند إشارتهم للعلاقة بين الشرق والغرب، تجسدت بالعامل الإقتصادي المؤثر في حركة التجارة العالمية، ومدى تأثير الفعاليات الإسلامية في مسار التاريخ الأوربي، وأثاروا تساؤلا: هل تسبب تقدم العثمانيين وتوسعهم غربا في تحفيز الأوربيين للقيام بالإستكشافات الجغرافية؟

من الواضح هنا إن التساؤل يشير إلى أهمية هيمنة العثمانيين على الأجزاء الشرقية من البحر المتوسط. لكن من المؤكد أيضا إن لفتح مصر سنة 1517، والسيطرة على الطريق التجاري الذي يربط سواحل المحيط الهندي بالبحر المتوسط عبر البحر الأحمر، يسوّغ مثل تلك الهواجس التي ربما ضاعفت من دوافع الإستكشافات الجغرافية التي بدأت مع نهاية القرن الخامس عشر. وقد أدى ذلك إلى مزيد من إهتمام الغربيين بدراسة جوانب مختلفة من تاريخ العالم الإسلامي، ومن ضمنه التاريخ العثماني، مما أدى إلى تقليل الفجوة بين العالمين الإسلامي والمسيحي. وكانت إحدى مظاهر التقارب الحاصلة إعادة إهتمام الغربيين بدراسة مسألة التفاعل بين العالمين الإسلامي (الشرقي)، والمسيحي (الغربي)،

خلال المرحلة المبكرة من العصر الحديث . القرن السادس عشر تحديدا. وقد حاول كثير من المؤرخين أن يثبتوا إن ميزان القوة العالمية إنتقل إلى الدول الأوربية حينما بدأ المسيحيون الإبحار إلى مسافات طويلة على متون سفن ضخمة قوية، في حين سعى البعض الآخر منهم إلى تفسير تأثير العامل البحري خلال حقبة القرن السادس عشر في تاريخ المشرق الإسلامي. وبوضع هذه الإعتبارات نُصب الأعين، فقد إحتلت القوة البحرية العثمانية مكانة كبيرة في التفسيرات الجديدة لفهم التاريخ البحري للقرن السادس عشر. بيد إن تعامل هؤلاء المؤرخين، بإستثناءات قليلة، مع تأثير القوة البحرية الغربية في العالم الإسلامي لا يحتوي إلا على قدر محدود من المعلومات بشأن قضايا أساسية، مثل قدرة العالم الإسلامي خلال القرن السادس عشر، ممثلا بالدولة العثمانية، في الدفاع عن نفسه إزاء القوى البحرية الغربية، والستراتيجيات التي إتبعتها القوة البحرية العثمانية، إبتداءً من فتح القسطنطينية حتى نهاية القرن السادس عشر، في السيطرة على مراكز القوة الرئيسة في البحر المتوسط، وهي مسائل جوهرية في فهم تفاعل الدولة العثمانية مع خصومها الرئيسين في ذلك الحين.

ولكن، مع قيام المؤرخين الأتراك، والمؤرخين الغربيين المتخصصين بالتاريخ العثماني، بإماطة اللثام عن المصادر العثمانية والإسلامية المعاصرة، أصبح بالإمكان مقارنة تلك المصادر بالمصادر الأولية الغربية والدراسات التي إستندت إليها لتقديم فهم أوسع عن التاريخ البحري العثماني خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وفي الوقت نفسه، أصبح بالإمكان إخضاع التفسيرات الغربية على ردود الفعل العثمانية للمزيد من التحليلات المقارنة. ضمن هذا الإطار ينبغي أن يُدرس تاريخ التجربة البحرية العثمانية في البحر المتوسط.

وبتزايد ظهور المصادر العثمانية ومقارنتها مع ما هو متاح من دراسات منهجية عن التاريخ البحري، تظهر الحاجة إلى وجهة نظر جديدة توضح المسارات الرئيسة للتاريخ العثماني عموما، والنشاط البحري على وجه التحديد، إنطلاقا من ثلاثة إعتبارات رئيسة: **الأول**، إن موضوع ظهور المؤسسة البحرية العثمانية إلى الوجود ونشاطها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر لم يُدرس على نحو مستقل في مؤسساتنا الأكاديمية؛ **والثاني**، إن حقبة القرن السادس عشر نفسها مازالت بحاجة إلى المزيد من البحث كونها حلقة وصل بين نهاية العصر الوسيط والحقب اللاحقة من العصر الحديث، وإن إرتباط موضوع الدراسة بأكثر من دولة وبأكثر من حدث تاريخي يساعد في فهم قضايا كثيرة ترتبط

جذورها بالنشاط البحري الذي جرى خلال القرن السادس عشر. وإن أي حكم صائب على رد الفعل العثماني تجاه التوسع البحري الغربي لابد أن يأخذ بنظر الإعتبار تلك الجوانب التي أثر كل منها في الطريقة التي إستجاب بها السلاطين العثمانيون لظهور التحدي الأوربي؛ **وأخيرا**، فإن التصادم الذي حصل بين الدولة العثمانية والقوى الأوربية في البحر المتوسط قد جمع بين حضارتين ذات خلفيات مختلفة. ولغرض تقويم نجاح السياسة البحرية للعثمانيين أو إخفاقها، مقارنة بتلك التي حققها الأوربيون، لابد من دراسة إلى أي مدى تمكن العثمانيون من تحقيق أهدافهم خلال عملياتهم البحرية الكبرى. ولكن يبقى السؤال: ما المقصود بالنشاط البحري تحديدا؟

قبل أن نجيب عن هذا التساؤل، ينبغي علينا أن نذكر أولا إن التاريخ البحري، عموما، يكمن في تداخل مكونين: القوة البحرية (The Navy)، والتجارة البحرية (The Marine Trade)، في كل مرة يعتمد أحدهما على الآخر بمستوى عالٍ من التفاعل. ولكن، في حالة الدولة العثمانية، فإن التاريخ البحري، بمعناه الحربي (Naval History) يغلب على التاريخ الملاحي . التجاري (Maritime History)، وهذا يعزى إلى عاملين أيضا: **الأول** إن الدولة العثمانية أولت إهتماما خاصا للجانب البحري في عملياتها العسكرية، وإعتمدت في ستراتيجيتها العسكرية إعتمادا كبيرا على ترجيح الكفة أو تغطية التوازن لصالح القوة البحرية (Navy). أما **الثاني**، فهو إن التاريخ البحري العثماني، بصفته مؤسسة قائمة بذاتها، قد فاق التاريخ التجاري إلى حد بعيد. بعبارة أخرى، فإن المصادر الأرشيفية العثمانية، فضلا عن الأدبيات الثانوية، قد حوّلت مسار الحديث عن هذا الموضوع لصالح القوة البحرية . بمعناها الحربي. يضاف إلى ذلك، إن العثمانيين أنفسهم لم ينظروا إلى البحرية التجارية أو يتعاملوا معها بصفتها شرطا رئيسا لتطور النظام البحري. كما إن الأحوال الملاحية في البحر المتوسط قد شجعت هذا الوضع أيضا؛ فالبحر المتوسط معروفٌ برياحه غير المنتظمة وغير المعوّل عليها، وقد تطلب ذلك الإعتماد أكثر على المراكب الصغيرة التي تحركها المجاديف في العمليات الحربية، وعلى السفن التجارية الشراعية. وقد أسفر ذلك عن ظهور فرق واضح بين القوة البحرية بمعناها الحربي (Navy)، والملاحة التجارية، وظهرت لذلك الفروق والتمايزات بين البحرية وبين تاريخ صناعة السفن العثمانية. لذا، كان من العملي أن يُنشئ العثمانيون قوة بحرية ضخمة قادرة على الصمود خلال العمليات البحرية الكبرى في مرحلة توسعهم الكاسح، كما حدث خلال القرن السادس عشر.

على هذا الأساس فإن دراسة تاريخ التجربة البحرية خلال مدة زمنية طويلة نسبيا، كما هو الحال هنا، يمكن أن يُعمم لدراسة تواريخ أكثر شمولا. والتاريخ العثماني هنا خير تطبيق على ذلك؛ إذ سيكون بالإمكان دراسة الحروب الرئيسة الكبرى، فضلا عن مراحل السلام الطويلة نسبيا. الموضوع نفسه يُمكن أن يُدرس من زوايا عدّة، ومن وجهات نظر مختلفة، فضلا عن إنه يتناول قضايا متشعبة ومتداخلة يُمكن أن يُدرس كل منها على نحو منفرد. ومع ذلك، فإن هذه الدراسة ستركز على مراحل التحول الرئيسة في النشاط البحري العثماني. وخلال الحقبة التي نحن بصددها كانت هناك، في الأقل، بعض من هذه التحولات في محورين رئيسين: **الأول** يختص بالعمليات الحربية، و**الثاني** يختص بالتحولات الخاصة ببناء السفن. ولكن حديثنا هنا سيركز على المحور الأول؛ فكما هو معلوم، فقد ظهر دور السيادة العثمانية، بوصفها قوة بحرية، في ميدانين: البحر المتوسط والمحيط الهندي. وبقدر تعلق الأمر بهذا الموضوع فإننا معنيون بالبحث في الميدان الأول، البحر المتوسط؛ ففي البحر المتوسط برزت قوة الدولة العثمانية وباتت محور أحداث التاريخ البحري، حتى بات بعض المؤرخين الأتراك والغربيين، ومنهم أنور يلدرم (Onur Yildirim) وبالميرا برومت (Palmira Brummett) وأندرو هِس (Andrew C. Hess)، يركزون على مسألة إن الدولة العثمانية لم تتحول إلى قوة عالمية إلا بفضل قوتها البحرية. وعلى الرغم من إن أيا من هؤلاء لم يحدد ما المقصود بمفهوم "العالمية"، أو ما هي المعايير التي ينبغي أن تتوافر لدولة ما كي ينطبق عليها هذا المفهوم، إلا إننا يجب أن نميز بين ما كان يقصده العثمانيون، وما يقصده المؤرخون الحاليون. فالعثمانيون كانوا يرون في السيطرة على روما، وعاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فيّنا، فضلا عن البحر المتوسط، تجسيدا لمفهوم "العالمية". أما المؤرخون الحاليون فإنهم ينظرون إلى هذا الموضوع من وجهة نظر مقارنة، ويربطون ما حققه العثمانيون بالإنجازات التي حققتها الدول الأوربية في هذه المرحلة دائما. ومهما يكن، فلدراسة هذا الموضوع، ينبغي علينا أن نطرح بعض التساؤلات المهمة مثل:

1. ما المقصود بتعبير "قوة عالمية" (خلال القرن السادس عشر تحديدا)، وهل ينطبق هذا التعبير على الدولة العثمانية؟
2. ما المقصود تحديدا بتعبير "قوة بحرية"، وهل ينطبق هذا التعبير على الدولة العثمانية؟
3. متى وكيف يمكن أن نزعم إن الدولة العثمانية أصبحت قوة بحرية، وهل كان هذا التعبير منسجما مع طبيعة الدولة العثمانية، أم كان طارئا عليها؟

4. ما هي طبيعة الطموحات التوسعية العثمانية بالضبط، وإلى أي مدى تمكنت القوة البحرية من تلبية تلك الطموحات، وما هي الأسس التي يمكن أن نبني عليها مزاعمنا بشأن الآيديولوجية العثمانية بهذا الشأن؟
5. ما هي السياسة العثمانية نحو البحر تحديدا، وهل كانت منسجمة مع السياسة التوسعية العثمانية العامة أم دخيلة عليها؟
6. إلى أي مدى تمكن العثمانيون، بجهودهم البحرية خلال القرن السادس عشر، من مواكبة التغيّرات المتسارعة التي كانت تشهدها أوربا عصر النهضة والإستكشافات الجغرافية، وهل نجحوا في مسايرتها أم لا؟

على الرغم من إننا لا نمتلك إجابات وافية عن هذه التساؤلات كلها، إلا إننا سنحاول في هذه الأطروحة إثبات مزاعم المؤرخين الذين تبنوا فرضية "العالمية" أو رفضها، على الرغم من إن الدليل المتوافر، مبدئيا، يشير إلى إن وجهة النظر هذه مبالغٌ بها إلى حد كبير، فضلا عن إنها غير منطقية، إستنادا إلى أساسين: **الأول**، عدم وجود رؤية سياسية توسعية واضحة لدى السلاطين العثمانيين، لاسيما خلال القرن السادس عشر؛ **والثاني**، الطبيعة التوسعية للعثمانيين أنفسهم. فإذا ما تفحصنا السياسات الطموحة للسلاطين العثمانيين العِظام خلال القرن السادس عشر، لاسيما سليم الأول (1512–1520) وسليمان القانوني (1520–1566)، فإن هذه الصورة تنقلب رأسا على عقب عندما تخضع لرؤية علمية منهجية مستندة إلى وقائع تلك الحقبة. صحيح إن الدولة العثمانية شهدت تضاعف مساحتها خلال عصر السلطان سليم الأول، بعد قلب إتجاه توسعها من الغرب إلى الشرق خلال مدة قياسية جدا، وشهدت أقصى إتساع لها في عهد إبنه السلطان سليمان القانوني ووصلت إلى حدود عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فيّنا، في يوم ما (1529)، وفرضت هيمنتها على معظم سواحل شمالي أفريقيا. ولكن ينبغي علينا أن لا ننسى إن هذا التوسع لم يكن في صالح الدولة العثمانية دائما، بالأحرى فإنه زرع البذور الأولى لتقويضها فيما بعد؛ إذ كان السلطان سليمان القانوني يحارب في الشرق كما يحارب في الغرب. وفي الوقت الذي كان يطمح فيه أن يكون إمبراطور روما وسيد العالم، كانت أنظاره تتجه دائما نحو الشرق لمحاربة الصفويين، وكرس جهدا ووقتا كبيرين في سبيل ذلك. وفي الوقت الذي كان يحارب فيه الروس على حدود البحر الأسود، كانت أساطيله تشاغل البرتغاليين دوما في جنوبي البحر الأحمر. بعبارة أخرى، كان السلطان مشتتا بين أهداف شتى ولم يركز إهتمامه على هدف واحد، مما أوقعه في مأزق ما يمكن أن نسميه "إشكالية التوجه"، أو إنعدام وضوح الهدف. ولو أضفنا إلى ذلك الصراعات التي كانت تضرب في

قلب الدولة لأدركنا حجم المأزق الذي كانت تمر به الدولة العثمانية. فهل كان ذلك من دون ثمن؟

من جانب آخر، ينبغي علينا أن لا ننسى إن الأقوام التركية، والعثمانيين فيما بعد، عندما إنطلقوا من مواطنهم الأولى من آسيا متوجهين غربا، فإنهم حملوا معهم عقلية التوسع البرية أساسا، ولم تكن لديهم سياسة واضحة نحو البحر. وعندما وصلوا الحدود البحرية، إصطدموا بأمم لها باعٌ طويل في ميدان الملاحة والحروب البحرية، كالبندقية وجنوا أولا، وإسبانيا . هابسبرك فيما بعد. وكان لكل من هذه الأمم فلسفتها الخاصة في ميدان البحر. ففي الوقت الذي كانت تركز فيه كل من البندقية وجنوا على النشاط البحري . التجاري وتأمين الإستقرار للجزء الشرقي من البحر المتوسط، كانت إسبانيا قد وجهت أنظارها نحو العالم الجديد عبر المحيط الأطلسي. وحينما وصل العثمانيون ميدان البحر، فإنهم لم يدركوا المتغيرات الجديدة التي أفرزتها نتائج عصر النهضة والإستكشافات الجغرافية في البنية الأساسية لأوربا، وظلوا يحملون فلسفة التوسع العسكري الصِرف، غير المنسجم مع متطلبات المرحلة الجديدة. وقد أدى ذلك إلى تحقيق نجاحات، ولكنها ظلت نسبية وغير حاسمة؛ فبإستثناء سواحل شمالي أفريقيا، التي كانت مهيّأة، لأسباب عدّة، لتقبل توسع النفوذ العثماني سلميا فيها، فإن العثمانيين لم يتمكنوا من تحقيق هيمنة بحرية كاملة في البحر المتوسط.

على هذا الأساس، يفترض الباحث إن السياسة البحرية العثمانية كانت سياسة مضطربة، وإنها مرت بمراحل مدّ وجزر عبر تاريخها الطويل، أو خلال مرحلة التوسعات الكبرى في الأقل. ولا شك إن العثمانيين أخفقوا في جوانب، ولكنهم حققوا نجاحات لا يُستهانُ بها في جوانب أخرى أيضا. وعليه، ولفهم الموضوع على وفق هذا الطرح، ينبغي علينا تحقيب التاريخ البحري العثماني، لمعرفة نقاط التحول الرئيسة . بما فيها من مراحل قوة وضعف . التي حدثت خلال هذه المدة الزمنية الطويلة.

لو تناولنا مسألة تحقيب تاريخ النشاط البحري العثماني خلال القرن السادس عشر، فإننا نرى إن هناك اختلافا بين المؤرخين أنفسهم بخصوص هذه المسألة. فالأستاذ هاملتون جب يرى إن التاريخ البحري العثماني، إبتداءً من النصف الثاني من القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر، يمتد على مرحلتين: تبدأ الأولى من فتح القسطنطينية سنة 1453 حتى نهاية القرن الخامس عشر. وكان أهم ما يميزها تحوّل البحر الأسود إلى بحيرة

عثمانية. بعد ذلك، حدثت مرحلة توقف خلال إنشغال السلطان سليم الأول بحروبه ضد الصفويين والمماليك. أما المرحلة الثانية فتمتد من طرد فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس سنة 1522، وتستمر خلال حكم السلطانين سليمان القانوني وسليم الثاني، لتنتهي بفتح قبرص ومن ثم بمعركة ليبانتو سنة 1571. أما المؤرخ الفرنسي جاك هيرس (Jacques Heers)، فيرى إن التاريخ البحري العثماني يبدأ منذ سنة 1480، وينتهي بسنة 1580. ففي سنة 1480 تمكن العثمانيون من السيطرة على أوترانتو ذات الأهمية الستراتيجية بسبب قربها من الحدود الإيطالية. أما سنة 1580، فقد شهدت نهاية العمليات البحرية في البحر المتوسط بين الدولة العثمانية وإمبراطورية آل هابسبرك وبداية المفاوضات بينهما التي استمرت نحو عشرين سنة، لينتهي بذلك الصراع الذي إستمر نحو قرن من الزمان. وبين هذين الرأيين توزعت وجهات نظر المؤرخين الآخرين.

ففي سنة 1970 طرح المؤرخ الأمريكي، المتخصص بتاريخ الحدود البحرية العثمانية، أندرو هِس، في بحثه الرائد عن نشوء القوة البحرية العثمانية، الفكرة نفسها ضمن سياق بحثه عن الفلسفة السياسية البحرية العثمانية إزاء التوسع في البحر المتوسط والمحيط الهندي. ولكنه تناول هذا الموضوع من زاوية النشاط البحري للعثمانيين في البحر المتوسط والمحيط الهندي والبحر الأحمر من وجهة نظر مقارنة، أكد من خلالها إن تصاعد النشاط البحري للعثمانيين وإندفاعهم نحو شرقي البحر المتوسط خلال أواخر القرن الخامس عشر، وتواجدهم في سواحل البحر الأحمر والخليج العربي، أشعر البرتغاليين بالخطر، وربما كان ذلك من أهم الأسباب التي دفعتهم للإلتفاف حول رأس الرجاء الصالح والوصول إلى سواحل الهند وشبه الجزيرة العربية عن طريق السيطرة على المنافذ البحرية التي كان العثمانيون يسيطرون عليها في مضيقي هرمز وباب المندب، لتحطيم الوجود المادي للعثمانيين في السواحل الجنوبية. من جانب آخر، فإنه يشير في حديثه عن نشاط العثمانيين في البحر المتوسط إلى إن سنة 1522 تمثل نهاية المرحلة الأولى من نشاط العثمانيين في البحر المتوسط، متفقا بذلك مع تقسيم هاملتون جب، لأن تلك السنة شهدت السيطرة على جزيرة رودس وتأمين الشطر الشرقي من البحر لصالح العثمانيين.

وفي السياق نفسه، تبنت الباحثة الأمريكية بالميرا برومت الفكرة نفسها في دراستها عن القوة البحرية العثمانية والدبلوماسية المشرقية في عصر الإستكشافات، ولكنها تنهي نقاشها بسنة 1517، السنة التي فتح بها العثمانيون مصر. وهنا، فهي تلتقي مع أندرو هِس في عدّ فتح مصر نقطة تحول كبرى لا في تاريخ الدولة العثمانية فحسب، وإنما في تاريخ

العالم الإسلامي أيضا. بيد إن أندرو هِس لا يتناول هذا الحدث من زاوية أهميته في التاريخ المتوسطي فحسب، وإنما لدوره في شطر العالمين الإسلامي والمسيحي لدرجة إقترب فيها الطرفان من حافة ما أسماه بـ"حرب عالمية"، بسبب تحول مركز الثقل الإقتصادي من البحر المتوسط إلى مناطق أخرى بعيدة عن سيطرة العثمانيين والبنادقة على حد سواء. ومع تقهقر العثمانيين أمام البرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر، ظهرت مجموعة من المؤرخين الأتراك الذين أولوا إهتماما خاصا بالجوانب المضيئة من التاريخ البحري العثماني. وهنا، مجددا، كان البحر المتوسط ميدانا خصبا لمؤلفاتهم ودراساتهم. ولكن أيا من الفريقين لم يولِ إهتماما خاصا بمسألة التحقيب نفسها.

يرى الباحث إن التاريخ البحري العثماني خلال القرن السادس عشر شهد أربع مراحل أو نقاط تحول رئيسة، إبتداءً من سنة 1453 حتى سنة 1580، وهي: مرحلة النشوء (1453–1503)، ومرحلة التفوق والإزدهار (1546–1513)، ومرحلة التذبذب أو التأرجح (1547–1565)، وأخيرا مرحلة الأفول (1580–1566). وعلى وفق هذا التحقيب تم تقسيم فصول الإطروحة. فقد تناول **الفصل الاول** المرحلة الأولى، الممتدة من فتح القسطنطينية سنة 1453 حتى نهاية الحرب العثمانية . البندقية سنة 1503. وعلى الرغم من إن فتح القسطنطينية لم يكن حدثا بحريا متوسطيا، إلا إنه أتاح للعثمانيين الإستيلاء على دار صناعة السفن البيزنطية فيها، الكائنة في غاليبولي، ومن ثم إتخاذها قاعدة إنطلاقٍ لفتح المزيد من الموانئ والجزر في بحر إيجة وسواحل المورة والوصول إلى حدود البندقية في البحر المتوسط. وقد تناول الباحث في هذا الفصل خمسة محاور رئيسة هي أساس لما سيتم تناوله في الفصول اللاحقة، أو بالأحرى المراحل اللاحقة من النشاط البحري العثماني خلال القرن السادس عشر. ففي المحور الأول، قدم الباحث لمحة جغرافية . تاريخية موجزة عن البحر المتوسط، وبيّن المتغيرات المناخية التي تؤثر في حركة السفن التي كانت تجوب مياهه لما لها من أهمية كبيرة في معرفة مواسم تحرك الأساطيل، ومن ثم تطرق إلى بيان الخصائص الملاحية المختلفة لأجزاء البحر المتوسط، وإختلافها عن بعضها البعض. وتناول المحور الثاني وصفا عن أهم أنواع السفن العثمانية المستخدمة في الحروب البحرية، وإختلافها عن بعضها البعض من حيث الأشكال والأحجام، مقارنة مع غيرها من السفن المتوسطية الأخرى. كما خصص الباحث في المحور الثالث من الفصل مجالا للإشارة إلى مسألة غالبا ما تتردد في المؤلفات التي تتناول موضوع البحرية العثمانية في البحر المتوسط، ألا وهي مسألة القرصنة. وقد تم توضيح المصطلح من الناحية اللغوية، وما هو المقصود به. والباحث هنا يقدم رؤية أولية لما يمكن أن يكون موضوعا

مستقلا للبحث فيما بعد، ربما يتمكن باحث آخر من تغطية جوانبه المختلفة وإيفائه حقه في دراسة مستقلة. ولكن طرح هذه المسألة ضروري هنا لتمييز ما كان يقوم به القباطنة العثمانيون عمّا كان يقوم به القراصنة الأوربيون. بعد ذلك يبدأ الحديث عن النشاط البحري العثماني في محورين هما الرابع والخامس: كُرس المحور الرابع لإهتمام العثمانيين الأوائل بالملاحة ونشأة الإسطول، في حين عالج المحور الخامس الحملات البحرية العثمانية ابتداءً من فتح القسطنطينية سنة 1453، وهي أول حرب بحرية . برية عثمانية، حتى نهاية الحرب العثمانية . البندقية في سنة 1503، تمكن بعدها العثمانيون من تحييد البندقية من ميدان الصراع البحري ليواجهوا قوة متوسطية أخرى.

وفي **الفصل الثاني** تبدأ المرحلة الثانية من النشاط البحري العثماني (وهي أطول مرحلة نسبيا)، وتبدأ خلال العقدين الأولين من القرن السادس عشر. وهذه المرحلة لم تكن في شرقي البحر المتوسط، وإنما في غربه، حيث برزت إسبانيا . هابسبرك قوة متوسطية كبرى في ميدان الصراع البحري لتحل محل البنادقة في الصراع مع العثمانيين. ولكن المُلاحظ في المراحل المبكرة من هذا القرن إن الدولة العثمانية لم تصطدم مع إسبانيا مباشرة، وإنما برزت شخصيات بحرية أخذت على عاتقها مهمة مقاومة المدّ الإسباني المتوسع نحو شمالي أفريقيا لاسيما بعد طرد المسلمين من إسبانيا إبتداءً من سنة 1492، وأسهم هؤلاء في تخليص المسلمين من النير الإسباني ونقلهم إلى سواحل شمالي أفريقيا وضرب الأساطيل الإسبانية التي كانت تهدد تلك السواحل، فضلا عن تحرير الكثير من المواقع والثغور التي كانت تحت سيطرة الإسبان، ومن ثم إلحاقها بسلطة الباب العالي. ويعدّ خير الدين بربروسا من أهم الشخصيات التي برزت خلال هذه المرحلة، إذ كان شخصية ملفتة للإنتباه بكل المقاييس. لذلك، سلط الباحث جانبا كبيرا من هذا الفصل، أو معظمه تقريبا، لدراسة دور هذه الشخصية في التاريخ البحري العثماني، وتاريخ شمالي أفريقيا، بإسلوب علمي وحيادي حاول أن يبتعد فيه عن الإسلوب العاطفي الذي تتسم به معظم المؤلفات العربية التي تناولت هذه الشخصية، وبعيد، في الوقت نفسه، عن الإجحاف الذي نراه في بعض المؤلفات الغربية. وقد قُسّم هذا الفصل على خمسة محاور أيضا. تناول المحور الأول الوضع في غربي البحر المتوسط وجذور الصراع مع آل هابسبرك، وتطرق الباحث فيه إلى المطامح التوسعية الإسبانية، نظير مثيلتها لدى السلطان سليمان القانوني، ثم بداية الحملات الإسبانية لإحتلال المواقع الحصينة في شمالي أفريقيا ضمن حملة ما يُسمى بـ"حروب الاسترداد". وعالج المحور الثاني من الفصل ظاهرة بروز الأخوين عُرُوج وخير الدين بربروسا في التاريخ البحري العثماني. ففي الوقت الذي كان فيه السلاطين

العثمانيون منشغلين بحروبهم في الشرق، وتوقفت فيه الحملات الإسبانية مؤقتا في شمالي أفريقيا، لاسيما بعد حملتهم الفاشلة على جزيرة جربة سنة 1510، سادت حالة من الفراغ السياسي، تعززت بضعف الأسر الحاكمة في شمالي أفريقيا، مما أدى إلى ظهور الأخوين في ميدان الأحداث المتوسطية، إبتداءً من المراحل المبكرة من القرن السادس عشر حتى سنة 1519، حينما أصبحت الجزائر قاعدة لعمليات خير الدين البحرية بعد مقتل أخيه في سنة 1518. وأشار المحور أيضا إلى حملة السلطان سليم الأول لفتح مصر في سنة 1517، ثم حملة السلطان سليمان القانوني لطرد فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس سنة 1522، وهي العمليات التي أمّنت الشطر الشرقي من البحر المتوسط للعثمانيين، ومهدت لربط السواحل الشرقية من شمالي ايطاليا بسواحلها الغربية، ومن ثم إخضاعها لنفوذ الباب العالي بجهود الأخوين بربروسا. وفي المحور الثالث تمت معالجة مسألة إمتداد النفوذ العثماني إلى الجزائر، أهم قاعدة بحرية للعثمانيين في شمالي أفريقيا (1519-1528). ففي الوقت الذي بلغت فيه الدولة أوج قوتها بعد إيقاع الهزيمة بالصفويين في سنة 1514، وإلحاق كل من بلاد الشام ومصر بالدولة العثمانية، كان الأخوان بربروسا يتقدمان من الجهة الأخرى ضمن عملية كانت كل المؤشرات تدل على إنها ستؤدي إلى قيام تحالف بين الطرفين وتكوين قوة عسكرية مشتركة لمواجهة التوجهات التوسعية الإسبانية المتزايدة في المنطقة وتقف بوجهها، وتزامن ذلك مع دعوة لإلحاق الجزائر بسلطة الباب العالي سنة 1519. أما المحور الرابع فقد بحث مسألة التحالف الرسمي بين السلطان سليمان القانوني وخير الدين؛ فبعد أن كانت الجزائر ولاية تابعة إسميا للدولة العثمانية، فكر السلطان سليمان بالتحالف رسميا مع خير الدين لإلحاق الجزائر بالدولة العثمانية رسميا، فإستدعى خير الدين لهذا الغرض، وقلده منصب الأميرال الأعظم للإسطول العثماني، فضلا عن تعيينه واليا (بايلرباي) على الجزائر، وهو أعلى منصب يحصل عليه قبطان بحري. وهكذا أصبحت الجزائر تابعة رسميا للدولة العثمانية إبتداءً من سنة 1534. وأخيرا، تناول المحور الخامس لهذا الفصل أبرز الحملات والنشاطات التي أعقبت ترقية خير الدين، ومن أهمها حملة إحتلال الإمبراطور الإسباني شارل الخامس لتونس سنة 1534، وإسترجاعها في السنة اللاحقة، وحملة بريفيزا سنة 1538، وأخيرا دور خير الدين في التقارب العثماني - الفرنسي منذ ثلاثينيات القرن السادس عشر حتى وفاته في سنة 1546.

وتغطي المرحلة الثالثة . وهي موضوع **الفصل الثالث** . مدة عشرين سنة تقريبا، منذ وفاة خير الدين حتى سنة 1565، وشهدت بداية إضمحلال القوة البحرية العثمانية بعد الإخفاق في حصار مالطا. وإتسمت هذه المرحلة بظهور متغيرات دولية جديدة، ساد فيها

الهدوء ساحة البحر المتوسط بعد معاهدة السلام بين الدولة العثمانية وإمبراطورية آل هابسبرك سنة 1547. وفي هذه المرحلة ظهر قادة بحريون جُدد ملأوا الفراغ الناشئ عن وفاة خير الدين بربروسا، من أبرزهم طُرغُد باشا الذي قاد العمليات البحرية العثمانية إبتداءً من منتصف القرن السادس عشر حتى إستشهاده أثناء حصار مالطا سنة 1565. إتسمت هذه المرحلة بتأرجح كفتي الصراع بين القوتين، وعدم تمكن إحداهما من التغلب على الأخرى. كما شهدت إعتلاء الإمبراطور فيليب الثاني عرش إمبراطورية آل هابسبرك سنة 1556، ليزيد من حدّة الصراع بين القوتين. قُسّم هذا الفصل على أربعة محاور رئيسة. تناول المحور الأول الوضع في البحر المتوسط خلال المدة المحصورة بين سنتي 1545 و 1550، التي شهدت تطورات في الساحة الأوربية إنعكست على الوضع في البحر المتوسط، وأدت إلى بروز شخصية طُرغُد باشا الذي تمكن من إستعادة مدينة المهدية على الساحل التونسي سنة 1550. وتناول المحور الثاني جهود طُرغُد باشا في فتح طرابلس الغرب في سنة 1551، بعد أن كانت خاضعة للإسبان ولفرسان القديس يوحنا (1510-1551). وبغض النظر عن عملية الفتح نفسها، فقد ركز الباحث على أثرها اللاحق في المنطقة، وأثرها البعيد المدى في العلاقات الدولية في أوربا وفي البحر المتوسط، وبهذا فهو يعطي لهذا الحدث أهمية خاصة تتجاوز حادثة الفتح نفسها، بخلاف المؤلفات الأخرى التي تتناول هذا الحدث مجردا عن محيطه العام. وبحث المحور الثالث الإنتصار العثماني الكبير في جزيرة جربة ضد الإسطول المسيحي الذي كان متوجها لإستعادة طرابلس من العثمانيين، وعرض نتائج الحملة وأهم الدروس المستنبطة منها. وأخيرا، تناول المحور الرابع آخر حملة بحرية قام بها السلطان سليمان القانوني ضد فرسان القديس يوحنا في مالطا سنة 1565، وبيّن فيها أسباب الإخفاق العثماني وأثره في النشاط البحري اللاحق للعثمانيين في البحر المتوسط.

وتمثل المرحلة الأخيرة ـ وهي حقبة **الفصل الرابع** ـ الممتدة من نهاية عصر السلطان سليمان حتى سنة 1580، أفولا واضحا في مسألة فرض هيمنة بحرية عثمانية في البحر المتوسط. في هذا الفصل تناول الباحث أهم حدثين بحريين في تلك المرحلة، وهما فتح جزيرة قبرص (1570-1571) ومعركة ليبانتو الشهيرة 1571. إذ قرر العثمانيون، إستجابة للمتغيرات الدولية التي كانت تجري في البحر الأحمر، وتزايد الخطر البرتغالي في السواحل الجنوبية، السيطرة على جزيرة قبرص لتكوين حلقة وصل بين الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط، على الرغم من وجود إتفاقية بينهم وبين البنادقة تجيز للأخيرين إشغال الجزيرة. وقد تسبب هذا الحدث في تحالف القوى الأوربية لشن "حرب صليبية" ضد العثمانيين من

أجل الحدّ من نفوذهم المتوسع في البحر المتوسط، فحدثت معركة ليبانتو التي تعدّ أشهر معركة بحرية في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر على الإطلاق. ونظرا لأهمية المعركة، إرتأى الباحث تناولها من جوانب عدّة؛ إذ بحث في الأساليب الفنية (التكتيكية) التي جرت بها، لأن أغلب الباحثين الذين تناولوا هذا الحدث إكتفوا بعرض معلومات عامة عنه من دون الخوض في الأسباب التي أدت إلى هزيمة الإسطول العثماني، فكان لابد من توضيح هذه المسألة التي أغفل الباحثون عنها. من ناحية ثانية، تناول الباحث أيضا أثر هذه المعركة في التاريخ العثماني. وأخيرا تناول أثر المعركة في تاريخ البحر المتوسط وتداعياتها حتى سنة 1580، وهي السنة التي توقفت بها العمليات العسكرية البحرية بين العثمانيين وآل هابسبرك. وعلى الرغم من حدوث بعض المعارك البحرية بعد معركة ليبانتو، إلا إن الباحث ارتأى الإكتفاء بالمرور عليها مرورا سريعا ووضعها ضمن سياق تداعيات معركة ليبانتو، من دون الخوض في المزيد من التفاصيل خشية الوقوع في مطب التكرار والإطالة المملة. وبين الباحث في هذا الفصل إن معركة ليبانتو لم تؤدّ إلى القضاء على القوة البحرية العثمانية، إذ سرعان ما تمكن العثمانيون من إعادة بناء إسطولهم خلال بضعة أشهر، وهي حالة فريدة في التاريخ البحري، وإن معركة ليبانتو كانت إنتصارا معنويا للمسيحيين أكثر من كونها إنتصارا ماديا؛ فبعد هزيمة ليبانتو . يميل الباحث إلى تسميتها نكسة . تمكن العثمانيون من إسترجاع تونس من الإسبان في سنة 1574، التي تعدّ آخر معركة بحرية يخوضها العثمانيون في البحر المتوسط، لأن معركة وادي المخازن التي جرت بعد أربع سنوات، أي في سنة 1578، لم تكن من المعارك البحرية، ولكنها عملت أيضا على توسيع نطاق النفوذ العثماني إلى أقاصي المغرب العربي.

وبالإجمال، يمكن القول إن الصراع البحري بين العثمانيين وآل هابسبرك إنتهى في سنة 1580، بعد أن توصل الطرفان إلى قناعة عدم جدوى المزيد من الحروب، وإن الحاجة تتطلب عقد المفاوضات لإنهاء حالة الصراع التي إستمرت نحو قرن من الزمان. ومع بدء المفاوضات ينتهي الصراع البحري العثماني في البحر المتوسط. من هنا، فإن الحقبة الزمنية الدقيقة للنشاط البحري العثماني في البحر المتوسط تبدأ من سنة 1453 وتنتهي بسنة 1580.

تضمنت خاتمة الإطروحة أهم الإستنتاجات التي خرج بها الباحث بعد تحقيب تاريخ البحرية العثمانية إلى أربع مراحل. أما الملاحق، فقد تضمنت محاور متعددة لتعزيز المعلومات الواردة بين ثنايا الإطروحة، من بينها خرائط جغرافية وتاريخية للمواقع التي

جرت بها العمليات العسكرية في البحر المتوسط، وبعض الوثائق النادرة، وعددا من الجداول التوضيحية، فضلا عن بعض الصور التوضيحية لأهم أنواع السفن التي ورد ذكرها، وأخيرا نماذج من بعض إجابات المؤرخين الأجانب على مراسلات الباحث خلال مرحلتي جمع المادة والكتابة.

حاول الباحث قدر الإمكان معالجة محاور أطروحته بإسلوب علمي جاد يعتمد الطريقة التحليلية. ولكن، نظرا لتشعب المادة العلمية، وتوزعها على مواضيع متعددة، لكلٍ منها طبيعتها وظروفها وملابساتها، فضلا عن طول الحقبة الزمنية لموضوع الدراسة، اضطر الباحث إلى تنويع طريقة تناوله لمحاور إطروحته، لكنه حاول المحافظة على ترابط الأحداث التاريخية بإسلوب يجمع بين التسلسل الزمني وتحليل الحوادث التاريخية لمحاور الأطروحة بالقدر الذي تسمح به طبيعة كل موضوع والمصادر المتوافرة عنه.

إن مسألة الحصول على مصادر لهذا الموضوع في مكتباتنا ليست بالمهمة اليسيرة أبدا، وإن معظم المصادر الواردة بين ثنايا الإطروحة قد تم جمعها من شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت)، وعن طريق مراسلة الباحثين والمؤرخين الأجانب المتخصصين في هذا المجال من الدراسات، والعراقيين والعرب إلى حد ما. وقد تمكن الباحث، بعد جهود مضنية، من العثور على كم هائل من المصادر المعاصرة والحديثة جدا، أفادته في إكمال دراسته بعد أن عجزت مكتباتنا عن توفير الحد الأدنى من المصادر المطلوبة. من جهة أخرى، حرص الباحث على تقديم المعلومات الجديدة من المصادر التي لا تتوافر في مكتباتنا. وتوزعت تلك المصادر على مذكرات وكتب معاصرة للأحداث ودراسات حديثة، فضلا عن معظم ما كُتب عن الموضوع في الدوريات العالمية المتعددة، وبحوث المؤتمرات الدولية المتخصصة بالبحر المتوسط.

من بين أهم المصادر التي تمكن الباحث من الحصول عليها مخطوط "**مذكرات خير الدين بربروسا**"، الذي يعد، عند إكتمال ترجمته ونشره باللغة العربية، المصدر الأساس للأحداث التي جرت في عهد هذا القبطان العثماني. وقد تمكن الباحث من الحصول على ترجمة غير مكتملة لهذا المخطوط يقوم الباحث الجزائري الدكتور محمد درّاج من جامعة مرمرة بترجمته حاليا. وهذه المذكرات أملاها خير الدين بربروسا على زميله البحار الأديب الشاعر سيد علي ألمرادي بناءً على طلب من السلطان سليمان القانوني. وتوجد نسخة من المخطوط بمكتبة جامعة إسطنبول، ونسخة أخرى بمكتبة طوب قابي سراي بإسطنبول

أيضا، وتُرجم منذ القرن التاسع عشر إلى لغات عدّة، كالفرنسية والإيطالية والإنجليزية والألمانية، ولكن بتعديلات كثيرة، وبأسماء مختلفة، ومنسوبا إلى غير كاتبه أو بإسم "مؤلف مجهول"، أو بأسماء مَن ترجموه إلى اللغات الأخرى؛ فبدت النسخ المترجمة .كما يقول المترجم .بعيدة الصلة عن المخطوط الأصلي. وبعد مدة، قام الباحث التركي أرطغرل دوزداغ بتحويل المذكرات إلى قصة ملحمية بعنوان "**غزوات خير الدين بربروس**". كما قامت القيادة العامة للبحرية التركية بنشرها باللغة التركية الحديثة مع تعديلات بسيطة في صياغتها. أما المؤرخ التركي يلماز أوزتونا فقد قام بتهذيبها ونشرها باللغة التركية الحديثة في مجلة الحياة التاريخية الصادرة سنة 1967 قبل أن يعيد نشرها كاملة في كتاب سنة 1995. وقد قام الدكتور درّاج بإختيار النسخة المهذبة التي نشرها الأستاذ أوزتونا لكونه لم يتدخل في النص إلا على نحو بسيط جدا، كما يقول، للحفاظ على روح النص الأصلي، بما يسمح للقارئ أن يعيش في الجو الفكري والنفسي الذي كُتبت به تلك المذكرات.

تُعدّ هذه المذكرات ذات أهمية بالغة، كونها شهادة خطية كتبها أبرز رجال البحرية العثمانية ودوّن من خلالها أحداثا كثيرة إتسمت بالإحاطة والتفاصيل الدقيقة المطابقة للمعلومات الحديثة، غالبا، عند مقارنتها بها. ويُلاحظ فيها أيضا إهمال خير الدين لذكر السنوات، مما إضطر الباحث إلى مقارنة الأحداث مع غيرها من المصادر للتأكد من تاريخها. كما تتضح من المذكرات غلبة الطابع الديني على شخصية خير الدين. إلا إن مما يؤسف له إن النسخة العربية التي تمكن الباحث من الحصول عليها لم تكن مكتملة، فهي تنتهي تقريبا قُبيل وفاة عُرُوج. لذلك، وإستكمالا للفائدة العلمية من هذه المذكرات، استعان الباحث بالنسخة التركية التي نشرها الباحث التركي مصطفى يلدز، الصادرة في سنة 1993.

أما الكتاب الثاني الذي يلي كتاب "مذكرات خير الدين" بأهميته فهو كتاب حاجي خليفة (المشهور بإسم كاتب جلبي) المعنون "**تحفة الكبار في أسفار البحار**"، الذي يُعدّ من بين أهم الكتب التي إعتمد عليها الباحث. وللكتاب أكثر من ترجمة، أبرزها الترجمة الإنجليزية التي إعتمد عليها الباحث أكثر من غيرها، وصدرت بعنوان "**تاريخ الحروب البحرية للأتراك**"؛

(The History of Maritime Wars of the Turks);

والترجمة التركية الحديثة:

(Katip Çelebi; Tuhfetü'l-Kibâr fi Esfâr'l-Bihâr, ed. Şaik Gökyay);

يرجع تأليف هذا الكتاب إلى سنة 1656، وهو يرتبط بميدان برع به العثمانيون، وهو ميدان الجغرافيا الملاحية، وينقسم على قسمين: يبحث الأول في تاريخ الإسطول القديم وإنتصاراته، مُركزا على الحروب مع البندقية وجنوا وغيرهما، فضلا عن إنه لا يهمل الحديث عمّا قام به العثمانيون في البحرين الأسود والأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي. أما العرض، فيرد بصورة تراجم لقادة الإسطول الكبار، وفقا للتتابع الزمني. وبهذا نستطيع تكوين فكرة جيدة عن قباطنة البحر العثمانيين ممن تركوا أثرا بارزا في تاريخ النشاط البحري العثماني، إبتداءً من عُرُوج وأخيه خير الدين، مرورا بكمال ريّس والعالمين البحريين بيري علي ريّس وسيدي علي ريّس، وإنتهاءً بالجيل اللاحق من القباطنة الأصغر سنا، أمثال طُرغُد باشا وعُلُج (قيليج) علي وغيرهما، مما يجعلنا نقف أمام لوحة متنوعة حافلة تتسم بالكثير من التفاصيل الحيوية، يمتزج فيها وصف الحملات والرحلات البحرية بالآراء الجغرافية السائدة في ذلك العصر. أما القسم الثاني من الكتاب فيتحدث عن "ديوان البحرية"، والإسطول آنذاك، ويقدّم قائمة بجميع قادة الإسطول، مع تحليل لنظامه الإداري، ووصف مفصل لأنواع السفن وأساليب القتال البحري. ويبدأ الكتاب بمقدمة موجزة ذات طابع جغرافي تعالج الحديث عن البحار وسواحل أوربا، مع وصف مفصل تفصيلا وافيا لجمهورية البندقية والأراضي التابعة لها، إذ كانت تحتل المكانة الأولى لدى الدولة العثمانية التي كانت تقيم لها وزنا خاصا بين الدول الأخرى، لاسيما في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر. وأغلب الظن ان عددا من أبناء جيله كانوا معاصرين لتلك الأحداث، إذ إن جانبا من رواياته قد دُوّن شفاها. ومن المحتمل إن مذكرات خير الدين كانت من بينها.

وبخصوص وجهات النظر المقابلة، هناك كتاب الاسقُف الإسباني فراي ساندوفال (1620-1553) (Fray Sandoval)، المعنون:

(History of Life and Facts of Emperor Charles V);

نُشر الكتاب بجزأين ضخمين، ويضم مجموعة من الوثائق الإسبانية القيّمة المعاصرة لحقبة الإمبراطور شارل الخامس. يتسم إسلوبه بالطابع النقدي، ولا يخلط بين الأسطورة والحقائق الواقعية إلا ما ندر. كما يضم تفاصيل وافية جدا عن الحملات الإسبانية في شمالي أفريقيا. لكن معلوماته عن البر الأفريقي ليست دقيقة جدا لأنه لم يرافق الجيش الإسباني في حملاته كلها، فكان ينقل بكتابه الأخبار التي يسمعها من العائدين من تلك الحملات.

من جانب آخر، يبرز لدينا كتاب "المدوّن" البندقي مارينو سانوتو (1466–1536) (Marino Sanuto)، المعنون "The Diaries"، الذي صدر في البندقية بين سنتي 1879–1902، ويقع في 58 جزءا، تتضمن آلافا من المخطوطات الإيطالية، وتم نشر ترجمة موجزة لهذه المجموعة إلى اللغة الإنكليزية بأربعة أجزاء، سنة 1976. تعدّ هذه المجموعة الوثائقية مصدرا إستثنائيا للمعلومات عن البندقية وأوربا من سنة 1497 حتى سنة 1533، وربما هي المصنّف الأكثر تفصيلا للأحداث التي يمكن أن يجمعها شخص واحد. وهذا المصنّف ليس كتاب يوميات بالمعنى الحرفي لليوميات . بمعنى تسجيل النشاطات الشخصية والإنطباعات والمشاعر . بالأحرى، فهو من كتب التواريخ الشاملة، المتعددة الأجزاء، التي تتناول الكثير من الأحداث والأسر الحاكمة. إلا إن نقطة الضعف عند سانوتو في كتابته للتاريخ لا تكمن في قلة التمييز لديه، وإنما لعدم قدرته على فرض نمط خاص على مصادره، لإستنباط إسلوب للأحداث التي دونها. وفي الوقت نفسه، فإن نقطة الضعف هذه تعزى إلى تفوقه بصفته مدوّن يوميات؛ إذ كان يجدُّ في طلب الحصول على أي حدث مهما كان بسيطا، لأنه يعتقد إن صحة الأحداث لايمكن أن تتم إلا من خلال وفرة الحقائق وغزارتها. ومن المؤكد إن وجوده في البندقية أتاح له جمع ذلك الكم الهائل من المعلومات والحقائق. فبسبب كونها مركزا سياسيا وتجاريا مهما، كانت البندقية تتلقى الأخبار من كل مكان، لا من الموظفين والتجار البنادقة العائدين إلى ديارهم فحسب، وإنما من الأجانب في البندقية، كالألمان، واليونانيين، فضلا عن اليهود الذين كانوا مصدر معلومات لسانوتو أيضا. وفي هذا المصنّف التاريخي الضخم يورد سانوتو معلومات مهمة، مثلا، عن تقدم السلطان سليمان القانوني إلى فيّنا في صيف1532، كما يقدّم للقارئ وصفا لإثنين وسبعين نوعا من القوادس التي كانت تُستخدم في شمالي أفريقيا سنة 1519، وغيرها من المعلومات القيّمة.

أما بخصوص المؤلفات الحديثة، فهناك عدد من المؤلفات القيّمة التي أفاد منها الباحث كثيرا، من أبرزها كتاب المؤرخ الفرنسي فرناند براودل (1902–1985) المعنون "**البحر المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فيليب الثاني**"؛

(The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Phillip II);

الذي إعتمد عليه الباحث في تغطية جوانب وثغرات مختلفة توزعت على معظم فصول الإطروحة، لاسيما في الفصلين الثالث والرابع. والكتاب يمثل إطروحة الدكتوراه التي قدمها المؤلف إلى جامعة السوربون وإستغرق في جمع مادتها وكتابتها نحو ربع قرن (من سنة 1923 إلى سنة 1947)، ولم تمنعه ظروف الحرب والأسر في ألمانيا من متابعة كتابته؛

إذ كان يكتب من ذاكرته إلى أن أُطلق سراحه. وكان جانب كبير من دافعه للكتابة هو ولعه بالبحر المتوسط. صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة 1949، بثلاثة أجزاء، وكان ثورة في منهج كتابة التاريخ في حينه. ثم صدرت الطبعة الثانية بجزأين ضخمين . بنحو 1400 صفحة . سنة 1966، أضاف لها المؤلف ما إستجد من معلومات، لاسيما تلك المتعلقة بالدولة العثمانية. وفي سنة 1974 صدرت الترجمة الإنجليزية لهذا الكتاب، فأتاحت المجال لقطاع كبير من الباحثين والمؤرخين للإطلاع على قيمته العلمية العالية.

يطرح براودل نظريته بسياق جدلي متصل ضمن منظور خلّاق مبتكر يرى في الحدث التاريخي وحدة متجانسة تعززها المعطيات التاريخية الناشئة عن تفاعل عوامل الترابط بين البيئة والإنسان بطريقة يصعب أن تتكرر عند أي باحث آخر. ومن هنا، فهو لا يتحدث عن الحدث التاريخي بصفته حادثة مجردة، وإنما بصفته نتاجا لعوامل جغرافية وإقتصادية أثرت في الإنسان وفي علاقته بالبحر، وهو يذكرنا بتلك العبارة التي طالما كان يرددها أستاذنا الراحل الدكتور سامي سعيد الأحمد من إن "التاريخ بلا جغرافيا علمٌ بلا هوية". وفي تناوله للنصف الثاني من القرن السادس عشر، فإن براودل لا يعالج حقبة الإمبراطور فيليب الثاني فحسب، وإنما يرجع بك إلى الوراء ويتجاوز تلك الحقبة أحيانا ليجعلك في مناخ تاريخي مقارن يسهّل لك فهم الأحداث وإستيعابها. ليس هذا فحسب، وإنما يتجاوز الأطر الجغرافية لعالم البحر المتوسط برمته، فيحدثك عن البرتغاليين في المحيط الهندي كما يحدثك عن الإسبان في العالم الجديد، لكن ضمن نسق متجانس في سياق معالجته لمسألة معينة عن البحر المتوسط. وهو بذلك يعرض لك أحداث البحر، بدوله، وشخوصه، وجزره، ومكوناته، بصورة مترابطة رصينة، ليقدم لنا قطعة أدبية متجانسة رائعة من العمل الأكاديمي، بحيث من النادر أن ترى كاتبا غربيا يدرس البحر المتوسط من دون أن يستخدم هذا الكتاب، الذي أصبح أساسا لكل دارس في تاريخ البحر المتوسط، بغض النظر عن الحقبة الزمنية التي تناولها.

إستخدم براودل المراسلات الشخصية وكتب المذكرات والوثائق المعاصرة بلغاتها الأصلية: الإسبانية، والفرنسية، والإيطالية، واللاتينية، واليونانية إلى حد ما، التي جمعها من المتاحف والأديرة والكنائس والمكتبات هنا وهناك، فضلا عن الجزائر التي زارها في سنة 1923 حينما كانت مستعمرة فرنسية، بحيث انك لا تجد هذا الكم الهائل من المصادر في كتاب آخر، بطريقة جعلت مؤلّفه الضخم يرقى إلى مستوى المصادر الأصيلة. ولكن ما يُسجّل على براودل إنه لم يطّلع على الملفات الأرشيفية العثمانية لحقبة دراسته، وهو يعترف

بذلك في مقدمته. ومع ذلك، فإنه إستعان، لسد هذا النقص، بالوثائق والمدوّنات البندقية التي كانت تسجل الأحداث المعاصرة في الدولة العثمانية. من هنا، فإنك لا تجد في كتابه الدولة العثمانية محركا للأحداث، وإنما يعرضها لك من وجهة نظر (الآخر)، منافستها إسبانيا.

وقد أمكن تغطية الثغرة الموجودة في كتاب براودل بعدد من المؤلفات والدراسات الحديثة التي أفادت من الملفات الأرشيفية العثمانية على نطاق واسع. في مقدمة هذه المؤلفات كتاب هانز بيتر ثيونيسن (Hans P. Theunissen) عن **العهدنامة العثمانية**، ولاسيما الفصل السابع منه الذي تناول موضوع العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية حتى سنة 1640. ويعدّ هذا الكتاب من المصادر القيّمة من حيث مادته العلمية الغزيرة، إلا إن القارئ له لا يجد أي أثر للتحليل العلمي بقدر ما يجد من ربط للأحداث. ومع ذلك، فهو يوفر مادة غنية للباحثين والدارسين في هذا الموضوع.

وضمن الإطار نفسه، قدّم سيدني نيتلتون فِشر في كتابه المعنون "**العلاقات الخارجية لتركيا 1481−1512**" (Sydney Nettleton Fisher; The Foreign Relations of Turkey 1481-1512) رؤية جديدة لعهد السلطان بايزيد الثاني بخلاف الرؤى السائدة عنه في الدراسات الأخرى. وفي الفصلين الخامس والسادس من كتابه، الذي هو بالأساس أطروحة الدكتوراه للمؤلف، يركز فِشر على العلاقات العثمانية . البندقية، ويصف الأحداث التي أدت إلى الحرب بينهما خلال 1499−1503. وكان المصدر الرئيس لمعلوماته في هذه الأحداث كتاب سانوتو السالف الذكر. وهو في الواقع من أوائل المتخصصين بالعلاقات العثمانية . البندقية الذين إستخدموا هذا المصدر القيّم إستخداما منهجيا، وأسهم إستخدامه لهذا المصدر في إضفاء قيمة علمية كبيرة لدراسته.

وفيما عدا ذلك، فهناك كتاب دانييل غوفمان، المعنون "**الإمبراطورية العثمانية وأوربا أوائل العصر الحديث**" (Daniel Goffman; The Ottoman Empire and Early Modern Europe)، ويقع في قسمين، ويغطي الحقبة الممتدة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. وهو من الإصدارات الحديثة التي تناولت جوانب مختلفة من أوجه الحياة في الدولة العثمانية ومؤسساتها. والكتاب يقع في قسمين، ويركز على تعامل الدولة العثمانية مع مسألة توازن القوة أوربا. وبما إن الهدف الأساس من هذا الكتاب، كما يقول المؤلف في مقدمته، هو النظر إلى أوربا من منظور عثماني، فقد أولى القسم الأول من الكتاب إهتماما كبيرا للجوانب الإجتماعية والمؤسساتية في الدولة العثمانية، بينما عالج

القسم الثاني الطريقة التي أثرت بها تلك المؤسسات في العالمين المتوسطي والأوربي. وقد إعتمد المؤلف في جانب كبير من معلوماته على تقارير المبعوث العثماني في البندقية جاووش قباذ.

وإحتلت مسألة الصراع البحري بين العالمين الإسلامي والمسيحي حيزا كبيرا في مؤلفات الباحثة سوزان روز (Susan Rose)، وكرست عددا من دراساتها لهذا الموضوع، ولاسيما كتابها المعنون "**الحروب البحرية خلال العصر الوسيط من سنة 1000–1500**":(Medieval Naval Wars 1000-1500)، ثم بحثها **المعنون "العالم الإسلامي إزاء العالم المسيحي: البُعد البحري 1000–1600**" (Islam versus Christendom: the Naval Dimension) . وقد سلطت فيهما الضوء على قضايا حيوية بخصوص مسألة الصراع بين العالمين الإسلامي والمسيحي من وجهة نظر مقارنة، وزودتنا بتحليلات عن طبيعة ردود الأفعال العثمانية إزاء التوسع الغربي الأوربي. ولكن، مما يؤسف له إن هذين المؤلّفين لا يشملان مدة الأطروحة بكاملها، وإنما الفصل الأول فقط.

من جانب آخر، أولى المؤرخون الأتراك المحدثون إهتماما خاصا بهذا الموضوع، وتركوا لنا كما وافرا من البحوث والدراسات الحديثة التي أخذت تحتل مكانتها المتميزة بين الدراسات العالمية. وتأتي مؤلفات البروفيسور التركي خليل إناجك (Halil Inalcik) من جامعة بلكنت (University of Bilkent) في أنقرة، في طليعة الدراسات القيّمة عن الدولة العثمانية، لاسيما خلال مراحلها المبكرة حتى نهاية حقبة السلطان سليمان. كما رفدت أبحاثه التي نشرها في موسوعة الإسلام (Encyclopedia of Islam)، الأطروحة بكمّ وافر من المعلومات، ولاسيما في الفصل الثاني. وإتّسمت مؤلفات إنالجك بالإحاطة والشمول، وتنوعت المواضيع التي تناولها في دراساته، فغطت جوانب عدّة من التاريخ العثماني، إستنادا إلى الملفات الأرشيفية العثمانية والمصادر الأصيلة. والدارس في التاريخ العثماني يدرك حجم الإنجازات الكبيرة التي قدمها هذا المؤرخ للتاريخ العثماني.

من المؤلفات التركية الحديثة أيضا كتاب يلماز أوزتونا المعنون "**تاريخ الدولة العثمانية**"، الذي نُشرت ترجمته العربية في إسطنبول سنة 1988. يقع هذا الكتاب بمجلدين ضخمين، وهو أشبه بالمؤلفات الموسوعية الشاملة، حاول فيه المؤلف تقديم عرض كامل عن الدولة العثمانية إبتداءً من تأسيسها حتى سقوطها، وافرد للنشاط البحري حيزا كبيرا جدا

في الجزء الأول، مع ملحق عن الإسطول وأنواع السفن في الجزء الثاني. ويغلب على كتابات أوزتونا عموما تمسكه بالمدرسة التركية التقليدية في كتابة التاريخ؛ فهو يميل إلى تقديم أكبر قدر من المعلومات على حساب المنهج العلمي الذي يوجب إعتماد الطريقة التحليلية، كما يميل إلى تمجيد أعمال السلاطين العثمانيين من دون إخضاعها للنقد التاريخي. لذلك، فقد جاء كتابه بمعلومات غنية ومفصلة جدا، لكنها تفتقر إلى الترابط المنهجي والحيادية، مما أفقد الكتاب صفة الأكاديمية، على الرغم من إنه إعتمد على أفضل المصادر التركية والأجنبية التي تناولت تاريخ الدولة العثمانية، وفي مقدمتها كتاب المؤرخ النمساوي فون هامر عن تاريخ الدولة العثمانية. ومع ذلك، فإن المعلومات التي قدمها توفر أرضية خصبة من المعلومات للمتخصصين بالتاريخ العثماني، ولكن يجب الحذر عند الأخذ من هذا الكتاب لتناقض المعلومات والتواريخ الواردة بين ثناياه.

من جانب آخر، إحتلت الدراسات والبحوث المنشورة في الدوريات العالمية حيزا كبيرا من الأطروحة، وأغنتها بالكثير من الأفكار والتحليلات. وحرص الباحث على جمع كل ماهو متيسر من دراسات وبحوث عن موضوع دراسته. وتأتي دراسات المستشرق الأمريكي أندرو هِس، الذي سبقت الإشارة إليه، في طليعة تلك الدراسات، إذ قدّم أربعة بحوث قيمة تناول فيها جوانب مختلفة من تاريخ الحدود البحرية العثمانية بإسلوب علمي مبتكر، بزّ في بعض نتائجه حتى تلك النتائج الباهرة التي خرج بها فرناند براودل في مؤلّفه القيّم، ولاسيما الرؤية الجديدة التي قدمها بشأن معركة ليبانتو، التي رأى إن نتائجها أدت إلى نقل الصراع من شرقي البحر المتوسط إلى غربه، فضلا عن إنها شطرت البحر المتوسط إلى شطرين متضادين.

ولدينا أيضا دراسات الجنرال الأمريكي، المتخصص بتاريخ القوة البحرية، جون غلمارتن (John F. Guilmartin) ، الذي قدّم دراسات قيّمة في تفسيره لظاهرة التوسع البحري العثماني، لاسيما بحثه الرائد"**الأيديولوجية والصراع**" :Ideology and Conflict) The Wars of the Ottoman Empire, 1453-1606) ، إذ يرى إن العامل الإقتصادي، المتمثل بالسعي للحصول على التيمارات، كان من أهم الدوافع وراء التوسع العثماني. ولا شك إن وجهة نظره صحيحة إلى حد بعيد، ولكنه أغفل الدوافع الأخرى.

أما دراسات البروفيسور كولن إمبر (Colin Imber)، المتخصص بالتاريخ العثماني في جامعة مانشستر، فهي من الدراسات التي أفادت الباحث كثيرا في تغطية جوانب مختلفة من أطروحته. ولكن المُلاحظ على مؤلفاته إنه غالبا ما يحرص على عرض المعلومات

أكثر من حرصه على تقديم فكرة أو نظرية جديدة، وربما ساعده في ذلك توافر كم هائل من الملفات الأرشيفية العثمانية، بحيث ارتأى عرضها للباحثين، تاركا مهمة تفسيرها وتوظيفها لهم، لاسيما في بحثه الموسع جدا عن القوة البحرية في عهد السلطان سليمان القانوني. وبهذا الخصوص، يأتي كتابه المعنون "**الدولة العثمانية 1300–1650: تركيب القوة** (The Ottoman Empire: 1300-1650, The Structure of Power)"، من بين أهم الكتب الحديثة التي إعتمد عليها الباحث في دراسته، لاسيما الفصل الثامن منه الذي كُرّس للإسطول العثماني.

أما المؤرخون الأتراك فقد قدموا لنا مؤخرا بحوثا ذات أهمية بالغة، في مقدمتها دراسات أنور يلدرم، الذي قدّم . بالتعاون مع البروفيسور صالح أوزبران . بحوثا رائعة عن تاريخ البحرية العثمانية، حاول من خلالها الخروج عن النمط التقليدي المألوف في الدراسات التركية وإتباع المنهج الغربي، وقد وُفق في ذلك إلى حد كبير. وتأتي دراسته المعنونة "**لمحة عامة لتاريخ البحرية العثمانية خلال القرن السادس عشر**" (An Outline of Ottoman Maritime History)، من بين أهم الدراسات التي أفادت الباحث في تكوين أفكار مختلفة عن موضوع دراسته. ثم قدم بعد ذلك رؤية جديدة عن معركة ليبانتو من وجهة نظر المؤرخين الأتراك، وهي مسألة جوهرية لفهم رد الفعل العثماني تجاه هذا الحدث البحري الكبير، بعد أن أحجمت المؤلفات التركية السابقة عن تناوله.

إلا إن أروع الدراسات التي قدمت رؤية شاملة وموضوعية عن السياسة البحرية العثمانية خلال القرن السادس عشر، وحقبة السلطان سليمان القانوني تحديدا، هي تلك التي قدمها البروفيسور صبحي لبيب من جامعة يوتا الأمريكية. فخلافا لكل المؤرخين الذين سبقوه، فإنه قدم لنا رؤية جديدة لفهم التاريخ العثماني خلال مرحلة التوسع الشاملة في عهد السلطان سليمان، وهو يقود القارئ لتعقّب الأحداث التي ميّزت تلك المرحلة، ليقدم صورة واقعية مبتكرة عن إشكالية الفلسفة السياسية لدى السلطان سليمان، مبينا نقاط القوة والضعف في سياسته. وبدراسته هذه، تجاوز كثيرا من المؤرخين الذين سبقوه.

المؤلفات والدراسات العربية الحديثة خدمت الباحث أيضا في مواضع متفرقة من الإطروحة، وفي مقدمتها الدراسات التي قدمها الأستاذ عبد الجليل التميمي الذي قدم رؤى علمية منهجية عن المواضيع التي عالجها في دراساته التي تخص دور العثمانيين في شمالي أفريقيا، ومن أبرزها بحوثه الوثائقية المنشورة في المجلة التاريخية المغربية،

مثل: "**الخلفية الدينية للصراع الإسباني . العثماني على الإيالات المغربية خلال القرن السادس عشر**"، و "**رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية . المغربية في القرن السادس عشر**"، وأخيرا بحثه المنشور باللغة الفرنسية عن "**أول رسالة من أهالي الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519**"، التي شكلت مفتاح التوسع العثماني نحو سواحل شمالي أفريقيا.

ومن الكتب العربية القيمة كتاب أحمد توفيق المدني، المعنون "**حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492–1792**"، الذي عرض فيه مجموعة كبيرة من الوثائق المهمة. لكن، مما يؤخذ على المؤلف إنه لم يُشِر إلى المصادر التي إستقى منها وثائقه، كما لم يخلُ إسلوبه من الطابع العاطفي الذي تتسم به معظم المؤلفات المغاربية عن هذا الموضوع.

فضلا عن هذا وذاك، فقد توافرت للباحث مجموعة جيدة من الرسائل العلمية الأجنبية والعراقية التي تناولت جوانب مختلفة من موضوع الإطروحة، تأتي في مقدمتها رسالة الماجستير التي قدمها الباحث التركي إيمراح صفا غوركان (Emrah Safa Gürkan) بعنوان "**القراصنة العثمانيون في غربي البحر المتوسط ودورهم في التنافس بين العثمانيين وآل هابسبرك 1505–1535**" (Ottoman Corsairs in the Western Mediterranean and their Place in the Ottoman-Habsburg Rivalry 1505-1535). في هذه الرسالة قدم الباحث معلومات جيدة عن موضوع دراسته، وتناول دور القباطنة العثمانيين والمسيحيين أمثال خير الدين بربروسا وأندريا دوريا بصفتهما ممثلين عن القوتين العثمانية والإسبانية في صراعهما في البحر المتوسط، مستندا في ذلك إلى مصادر أساسية، كما إعتمد إلى حد كبير على مؤلفات مشرفه الأستاذ خليل إنالجك. أما إطروحة الباحثة الأمريكية ديانا غيليلاند رايت (Diana Gilliland Wright)، التي تناولت فيها جانبا من الصراع العثماني . ألبندقي، فهي من المصادر المهمة، قدمت فيها الباحثة معلومات مهمة عن الصراع البحري العثماني . البندقي خلال أواخر القرن الخامس عشر، ولاسيما الحرب العثمانية . البندقية 1499–1503. وعلى الرغم من إنها إستندت إلى المصادر نفسها التي إستخدمها سيدني نيتلتون فِشر، إلا إن تركيزها على الجانب التحليلي كان أكثر منه.

إهتمت المؤسسات الأكاديمية العراقية أيضا منذ مدة بتناول جوانب مختلفة من الدراسات التي تختص بالتاريخ العثماني. وقد بذل باحثون عراقيون جهودا طيبة في هذا المضمار،

من المؤمل أن تستمر في المستقبل لتوضيح المزيد من الجوانب الغامضة في هذا الحقل الشائك من الدراسات. وقد أفاد الباحث من بعضها بحسب قربها من موضوع دراسته. ومن بين أهم الدراسات في هذا المجال إطروحة الدكتوراه التي قدمتها الزميلة رابحة محمد خضير الجبوري من جامعة الموصل سنة 2006، بعنوان **" موقف القوى الإسلامية من التوسع الأوربي في المغرب العربي 1492-1578"**، التي جمعت فيها معلومات جيدة إتسمت بالربط الجيد للأحداث، معتمدة في ذلك على كم وافر من المصادر القيّمة التي أغنت إطروحتها بالكثير من المعلومات القيمة. كما أفاد الباحث من رسالة الماجستير التي قدمها ضياء محمد جميل من جامعة الموصل بعنوان **"الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الثاني 1451-1481: دراسة في التاريخ السياسي"**، التي غطى فيها جوانب مختلفة من النشاط البحري في عهد هذا السلطان، معتمدا بذلك على المصادر التركية (القديمة والحديثة). وقد حاول الباحث تغليب جانب التحليل على السرد.

أفاد الباحث أيضا من مجموعة كبيرة من البحوث والدراسات والكتب التي نُشرت على شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت). وتم إدراج أسماء الكتب والدوريات المنشورة ضمن أماكنها في قائمة المصادر والمراجع، اما البحوث المنشورة في الشبكة حصرا بصيغة ملفات (PDF)، و (html)، فقد تمت الإشارة إلى إسم المؤلف وعنوان بحثه متبوعا بعلامة (*) في هوامش الإطروحة، وذُكر الرابطُ الالكتروني كاملا ضمن الحقل الخاص بالمصادر المنشورة على شبكة المعلومات الدولية (الانترنيت) في قائمة المصادر والمراجع. كما أفاد الباحث من مجموعة من الموسوعات، نُشر بعضها على شبكة الانترنيت، مثل موسوعة ويكيبيديا الحرة (Wikipedia)، بينما سُجّل البعض الآخر على أقراص ليزرية، مثل الموسوعة البريطانية (Encyclopaedia Britannica)، فضلا عن عدد من الأطالس التاريخية.

أرجو أن يكون هذا الجهد المتواضع ثمرة طيبة يقدمها الباحث لطلاب العلم والباحثين المهتمين بهذا الحقل من الدراسات، وهي محاولة أولية لاشك إنها لا تخلو من أخطاءٍ هنا وهناك سيكون الباحث مسرورا بتجاوزها بمساعدة السادة أعضاء لجنة المناقشة الكِرام.

الفصل الأول

تأسيس الإسطول العثماني وحملاته الأولى
(1503-1453)

الفصل الأول
تأسيس الأسطول العثماني وحملاته الأولى
1503-1453

أولا: البحر المتوسط والملاحة البحرية

البحر المتوسط[1] امتداد مائي واسع يتوسط قارات العالم القديم الثلاث؛ فإلى الشمال تحده أوربا، وإلى الجنوب تحده أفريقيا، وإلى الشرق تحده آسيا[2]. وبسبب توسطه بين قارات ثلاث، أصبح منطقة تفاعل حضاري وصراع سياسي وعسكري عبر تاريخه. وخلال تاريخه الطويل شهد البحر المتوسط ظهور الكثير من الحضارات، كانت أقدمها الحضارتان اليونانية والفينيقية. ففي الوقت الذي توسع فيه اليونانيون نحو المناطق الممتدة بين البحر الأسود والبحر الأحمر، انتشر الفينيقيون في غربي البحر المتوسط، بضمنه مناطق شمالي أفريقيا وشبه الجزيرة الايبيرية. وخلال العصر الوسيط سادت حقبة الهيمنة الإسلامية، إذ تمكن المسلمون خلال فتوحاتهم من فتح الكثير من مناطق شمالي أفريقيا والأندلس، وانتشر النفوذ الإسلامي ليصل إلى حدود جبال البرانس في جنوبي فرنسا[3]. ولكن مع بداية ظهور الدول الأوربية خلال أواخر العصر الوسيط، وتصاعد حمّى الدعوة إلى الحروب الصليبية، وما رافقها من أعباء مالية ضخمة، ضعفت الإمبراطورية البيزنطية وفقدت كثيرا من ممتلكاتها لصالح العثمانيين الذين كانوا

---

(1) كلمة البحر المتوسط (Mediterranean) مشتقة من كلمة (Mediterraneus)، اللاتينية، المكوّنة من مقطعين: (Medius)، التي تعني (المتوسط)، و (Terra)، التي تعني (الأرض)؛
"Mediterranean"; The New Encyclopaedia Britannica, Vol. VI, Chicago, 1979, p.7;
ومن هنا فإن كلمة "الأبيض" التي يُقحمها بعض الكتاب العرب في عبارة "البحر المتوسط"، دخيلة ولا أساس لها من الصحة. ويبدو إنها جاءت محاكاة لتسميات البحر الأسود والبحر الأحمر.

(2) تبلغ مساحة البحر المتوسط نحو مليونين ونصف المليون كم2، أو ما يساوي 965 ميلا مربعا.

(3) Francesco Gabrieli; "Greeks and Arabs in the Central Mediterranean Area", *Dumbarton Oaks Papers*, Vol. 18, 1964, pp. 57-65.

يتقدمون غربا، وأسهموا، فيما بعد، في عملية توازن القوى في البحر المتوسط، لاسيما بعد سقوط عاصمة الخلافة الإسلامية، بغداد(1).

على امتداد هذا البحر ينتشر عدد من الجزر التي كان لها دور في أحداثه التاريخية، من أهمها: قبرص، وكريت، ورودس، وخيوس، وكورفو، في الجزء الشرقي؛ وسردينيا وكورسيكا، وصقلية، ومالطا، في الجزء الأوسط؛ وإيبيزا، وجزر البليار (مايورقا ومينورقا)، في الجزء الغربي(2).

من الناحية الجغرافية ـ الملاحية، كان للبحر المتوسط، كما هو حاله الآن، ثلاث نقاط للدخول؛ أول اثنتين منها، مضيق جبل طارق ومضيق الدردنيل، يمكن التحكم بهما، في الأقل نظريا، باستخدام القوة البحرية. أما الثالثة، التي تسمى الآن "قناة السويس"، وتربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر، فيبدو إنها كانت تنطوي على استنزاف القوى البرية والبحرية على حد سواء(3). ومن المؤكد إن مسالك طرق الإبحار الرئيسة، التي استخدمتها المراكب التجارية، والمراكب المصممة للأغراض الهجومية، قد تحددت، إلى حد كبير، بالرياح والتيارات السائدة، التي تمر بالقرب من الجزر ومن خلال المضائق أيضا؛ والسيطرة على تلك الجزر وعلى شواطئ تلك المضائق كانت لها أهمية استراتيجية دائما، وربما تكون قد أثرت في ميزان القوى على منطقة واسعة من البحر(4)؛ إذ نلاحظ إن اهتمام العثمانيين، بعد فتحهم القسطنطينية سنة 1453، قد ازداد بالقوة البحرية، وبدأوا يتحركون تدريجيا للسيطرة على ساحل بحر إيجة والبليوبونيز وجزرهما؛ فانتزعوا جزيرة نيغروبونتي (إيوبيا) من البنادقة سنة 1470؛ وكلا من مودون

---

(1) للتفاصيل عن تداخلات هذه المرحلة ثمة بحث معمّق للبروفيسور أرشيبالد لويس:
Archibald R. Lewis; "The Islamic World and the Latin West, 1350-1500", *Speculum*, Vol. 65, No. 4, Oct., 1990, pp. 833-844.

(2) عن هذا المدخل لدراسة البحر المتوسط؛
Orhan Koloğlu; The "Mediterranean" of the Turks (*); David Abulafia; The Great Sea: The Human History of the Mediterranean, (*);
وللإطلاع على معالم المواقع المذكورة: الملاحق، (الخارطتان 4 و5).

(3) Stanley Fischer, W. Makram Ebeid, J. W. Michelin; "Mediterranean Colonies", *Journal of Comparative Legislation and International Law*, 3rd Ser., Vol. 1, No. 2, 1919, pp. 174-181.

(4) Susan Rose; "Islam versus Christendom: The Naval Dimension 1000-1600", *The Journal of Military History*, 63, July 1999, p. 563.

وكورون سنة 1499. وبحلول منتصف القرن السادس عشر كانوا قد هيمنوا على الساحل الشرقي للبحر المتوسط(1).

من جانب آخر، أدت الأحوال الملاحية دورا كبيرا قي النشاط البحري في البحر المتوسط. فقد كان من غير الممكن، في ذلك الوقت، الإبحار بعيدا في البحر المتوسط من دون ملامسة الأرض؛ إذ إن بقاء الخط الساحلي على مرمى البصر دائما كان أفضل ضمان للملاح، لاسيما من عمليات القرصنة المستمرة، فضلا عن فائدة ذلك فيما يخص أسعار السلع(2). وكانت رحلات السفن تتم عبر الأجزاء الرئيسة للبحر المتوسط: فإلى الشرق البحر الأسود، وبحر إيجة أو بحر الأرخبيل؛ وفي الوسط بحر الأدرياتيك والبحار الممتدة بين المهدية(3) وصقلية التي ليس لها اسم معين؛ وإلى الغرب البحر التيراني، وهو بحر خالص لإيطاليا، والبحر الأتروسكاني بين كل من صقلية، وسردينيا، وكورسيكا، والساحل الغربي لإيطاليا؛ وإلى أقصى الغرب، بين جنوبي إسبانيا وشمالي أفريقيا، هناك بحر أخر لا اسم له، هو "قناة البحر المتوسط" الذي يربط المحيط الأطلسي بمضيق جبل طارق.

كان البحر الأسود في هذه المرحلة، كما هو حاله دائما، منطقة تجارية مهمة، أفاد منه العثمانيون في الحصول على الخشب اللازم للأسطول العثماني، فضلا عن الحديد والحبوب وغيرهما. وكانت البضائع تنقل عن طريقه؛ إذ تمر

---

(1) في منتصف القرن السادس عشر، كانت هيمنة العثمانيين قوية على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، في حين كانت إسبانيا تسيطر على مناطق غربي البحر المتوسط الممتدة على الخط الساحلي لإيبيريا، ولاسيما في جزر البليار؛

"Mediterranean", Wikipidea Free Encyclopedia, (hereafter Wikipidea),(*).

(2) كان الإبحار بالقرب من الساحل يضمن السلامة من عمليات القرصنة المستمرة، فضلا عن إن سهولة تحميل سفن الشحن غير النظامية كان ينعكس إيجابا على أسعار السلع لصالح الملاحين، سواء كانوا قباطنة أو مستخدمين، إذ كانوا يرزمون البضائع على ظهر السفينة، ليقوم التجار أو وكلاؤهم بحملها في عرض البحار.

(3) يطلق عليها في المصادر الغربية تسمية (Africa). تقع على الساحل الشرقي لتونس، وهي عبارة عن شبه جزيرة يحيطها البحر من ثلاث جهات، وتتصل بالبر من الجهة الغربية بوساطة برزخ محدود الأبعاد. (المهدية)، موسوعة ويكيبيديا الحرة (*)؛ ولكن المؤرخ الإنجليزي ستانلي لين ـ بول يرى إن المقصود بالمهدية في حينه كان يعني تونس عامة؛

Stanley Lane- Poole; The Story of Barbary Corsairs, London, 1890, pp. 125-126.

عبر آسيا الوسطى إلى بلاد فارس، فتقوم القوافل بنقلها من هناك إلى اسطنبول، فالغرب. كما كان البحر الأسود منطقة تجهيز مهمة لرأس المال[1]، لاسيما فيما يخص السلع القادمة من البحر الأحمر عن طريق الإسكندرية[2]. وأفضل وصف للأهمية الاقتصادية للبحر الأسود هو ما ذكره الأستاذ فرناند براودل بقوله:"كان البحر الأسود منطقة تجهيز لا يمكن لأية عاصمة قوية إن تحيا من دونه "[3].

أما الأرخبيل البندقي والجنوي[4] فهو مجموعة من الجزر والسواحل الممتدة على امتداد إيطاليا. وبمرور الوقت أصبح قاعدة القوة البحرية البيزنطية، التي أصبحت، من خلال سيطرتها على هذا الأرخبيل، قادرة على حماية بحر إيجة، ومن ثم طرد المسلمين الذين كانوا قد استوطنوا، لمدة وجيزة، في جزيرة كريت خلال القرن التاسع الميلادي[5]. ومن خلال هذا الأرخبيل أيضا كانت خطوط المواصلات مع الغرب، عن طريق المياه اليونانية والصقلية وطرق الأدرياتيك، آمنة، قبل أن تتعاظم قوة البندقية[6]. وبمرور الزمن أصبح هذا الأرخبيل تحت سيطرة البنادقة والجنويين، الذين دافعوا عن مواقعهم بسهولة وكفاءة أكبر مما فعلوا في البحر الأسود، بوسائل كانت، لمدة من الزمن، متفوقة على وسائل العثمانيين خلال مراحل توسعهم الأولى. ومع ذلك، فقد استولى العثمانيون على

---

(1) Fernand Braudel; The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Phillip II, translated from the French by: Siân Reynolds, Vol. I, 2nd ed., London, 1974, p. 110.

(2) إن أفضل دراسة متاحة عن الأهمية الإقتصادية للبحر الأسود خلال القرن السادس عشر هي:

Carl M.Kortepeter; "Ottoman Imperial Policy and the Economy of the Black Sea Region in the Sixteenth Century", _Journal of the American Oriental Society_, Vol. 86, No. 2, Apr. 1966, pp. 86-113.

(3) Braudel, Op. Cit.

(4) الملاحق، (خارطة رقم 6).

(5) Ibid, p. 110.

(6) Richard T. Rapp; "The Unmaking of the Mediterranean Trade Hegemony: International Trade Rivalry and the Commercial Revolution", _The Journal of Economic History_, Vol. 35, No. 3, September 1975, pp. 499-525.

كل من نيغروبونتي[1] للمرة الثانية سنة 1479؛ ورودس سنة 1522؛ وخيوس سنة 1566[2] من دون إطلاق قذيفة واحدة؛ وقبرص بعد عملية إنزال سهلة وحصارين في كل من نيقوسيا وفاماغوستا، بين سنتي 1570-1571. ولاشك إن هيأة الأرخبيل قد أسهمت في الانتصارات التي حققها العثمانيون[3].

أما بين تونس وصقلية فيوجد بحر يمتد بمحور شمالي ـ جنوبي، بين مدينة المهدية وصقلية. وخلال القرن السادس عشر، بدأت أسبانيا تفكر بغزو شمالي أفريقيا عن طريق توحيد الشواطئ والجزر في هذه المنطقة، ووضع السلع التجارية في صقلية وجربة[4] تحت السيطرة وتأمينها من هجمات القباطنة العثمانيين، لاسيما بعد تعاظم نفوذهم خلال تلك المرحلة[5].

وبخلاف الأجزاء التي مرّ ذكرها، فإن الجزء الواقع في أقاصي غرب البحر المتوسط يعدّ مستقلا. وهذا الجزء، الذي يسمى "قناة البحر المتوسط"، هو ممر ضيق بين الكتل البرية. وهو عالم منفصل بذاته، يقع بين مضيق جبل طارق غربا حتى بلنسية، فالجزائر شرقا. والممر الشرقي ـ الغربي لهذا الجزء ليس سهلا للملاحة أبدا؛ فلغرض الإبحار بالاتجاه الغربي، ينبغي ولوج الامتداد العظيم لغربي البحر المتوسط؛ ولغرض الإبحار شرقا ينبغي اختراق الامتداد الهائل للمحيط الأطلسي، عن طريق مضيق جبل طارق الذي هو نفسه خطير بسبب الضباب الكثيف، والرياح العاتية، وسلاسل الصخور المرجانية، والكثبان الرملية الممتدة على طول الشواطئ. فضلا عن إن المرور من هذا المضيق يكون عُرضة للتغير في التيارات والرياح. وعليه، فإن مسألة المرور فيه عملية معقدة دائما.

---

(1) Stanford J. Shaw; History of Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol. I, Cambridge, 1976-1977, p. 69.

(2) Lord Kinross; The Ottoman Centuries: The Rise and Fall of the Turkish Empire, New York, 1977, p. 69; Shaw, Op. Cit., p. 110.

(3) Daniel Goffman; The Ottoman Empire and Early Modern Europe: War in Early Modern World, Jermy Black (ed.), Cambridge, 2003, p. 153; Braudel, Op. Cit., p. 110.

(4) جزيرة صغيرة في شمالي أفريقيا، تقع عند خليج قابس جنوب الساحل التونسي. تبلغ مساحتها 514 كيلو مترا مربعا (نحو 336 ميلا مربعا).

(5) Braudel, Op. Cit., p. 117.

لكن الإبحار بالاتجاه الشمالي – الجنوبي سهل نسبيا؛ إذ إن البحر لا يشكل حاجزا صعبا بين الكتلتين القاريتين لأسبانيا وشمالي أفريقيا[1].

كانت هذه القناة واحدة من المناطق التي فتحها المسلمون خلال العصر الوسيط عندما دخلوا قرطبة في سنة 711م على يد القائد طارق بن زياد. وكان آخر فتح لها في القرن العاشر الميلادي خلال ذروة مجد الخلافة في قرطبة[2]. وقد ضمن تولي الأمويين جلب الرجال، والقمح، والسلع من المغرب، وتصدير سلع المدن الأندلسية بالمقابل. وقد أدى الاقتراب الحر، أو في الأقل السهل، من هذه الشقة المائية الضيقة إلى جلب الكثير من الثروة، بحيث إن ميناء الوادي الكبير[3] بدأ بمنافسة العاصمة القديمة، قرطبة[4].

وعلى نحو مشابه، أدى تفوّق المسلمين في غربي البحر المتوسط إلى ظهور المدن البحرية في الساحل الأفريقي وانتشارها، مثل: بجاية[5]، والجزائر، ووهران. كما تمكن المرابطون والموحدون من إنقاذ الأندلس من الضغط المسيحي مرتين، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. ومنذ القرن الثالث عشر وما بعده، بقيت هذه "القناة" بأيدي المغاربة العرب. وكان المسلمون قد أشغلوا هذه المنطقة حتى انتزع البرتغاليون سبتة (Ceuta) سنة 1415[6]. ومنذ ذلك التاريخ

---

(1) Braudel, Op. Cit.

(2) كان ذلك خلال حكم الخلفاء الأمويين، وهم كل من: عبد الرحمن الناصر (961-921)، وإبنه الحكم الثاني (976-961)، ثم الحاجب المنصور بن أبي عامر (1002-981).

(3) نهر في إسبانيا يجري في مناطق متعددة من إسبانيا ويصب في المحيط الأطلسي. أطلق المسلمون عليه هذه التسمية في حين كان الرومان يسمونه بيتيس (Baetis). يبلغ طوله 657 كيلو مترا (نحو 408 ميلا).

(4) E. Cabrera; " The Medieval Origins of the Great Landed Estates of the Guadalquivir Valley", *The Economic History Review*, New Series, Vol. 42, No. 4, Nov., 1989, pp. 465-483.

(5) بجاية مدينة جزائرية تقع على ساحل البحر المتوسط. تعاقب على حكمها البربر وسلالات المسلمين الحاكمة، كالأمويين والعباسيين ثم العثمانيين. من أبرز معالمها الجامع الذي بُني في القرن السادس عشر وقلعة بناها الإسبان سنة 1545. إقترن إسمها بصناعة الشموع، إذ كانت تصدر مادتها الخام، لذلك أخذت الشموع إسمها بالفرنسية (Bougie)، وكذلك شموع الإحتراق "بوجيات" المستخدمة في محركات السيارات؛

"Bougie"; The New Encyclopaedia Britannica, Vol. I, p. 938;

"بجاية"، موسوعة ويكيبيديا الحرة (*).

(6) H. V. Livermore; "On the Conquest of Ceuta", *Luso-Brazilian Review*, Vol. 2, No. 1, Summer, 1965, pp. 3-13; John Vogt; "Saint Barbara's Legion:

أصبح المرور إلى أفريقيا مفتوحا[1]. وبعد طرد المسلمين من أسبانيا ابتداءً من سنة 1492، اتجه المسيحيون لاحتلال القناة الايبيرية ـ الأفريقية، كما إحتلوا عددا من سواحل شمالي أفريقيا، وهي كل من: المرسى الكبير سنة 1505، وقلعة بينون فيليس (حجر باديس)[2] سنة 1508، ووهران سنة 1509، وكلا من مستغانم، وتلمسان، وتِنِس، وبينون الجزائر سنة 1510، على التعاقب.

على امتداد هذا الحد كانت هناك عمليات حربية مستمرة، وهي إشارة لوجود عُقد اتصالات مهمة، فضلا عن تلك الموجودة بين مدينة المهدية وصقلية. لذا، أصبح عبور "القناة" صعبا. ويمكن تلمس ذلك في تجهيز وهران التي أصبحت هدفا خطرا للعمليات الحربية خلال القرن السادس عشر. وتجنبا لهذا الخطر، يروي فرناند براودل: "كان المبعوثون ينطلقون من ملقة بسفن وزوارق مرخصة ترسل إلى حامياتهم خلال فصل الشتاء، مستفيدين من رداءة الجو لمدة كافية للقيام بعبور سهل"[3]. ومع ذلك، نجح القباطنة العثمانيون في الاستيلاء على سفن التجهيز، كما حدث في سنة 1563، عندما حوصرت إحدى الحاميات الأسبانية بقوات جزائرية[4].

أما البحر التيراني فتمثله قناتا كورسيكا وسردينيا، وتحده أراضٍ غنية مأهولة. وهو لم يخضع لسيطرة أية قوة متوسطية.

Portuguese Artillery In the Struggle For Morocco", 1415-1578, *Military Affairs*, Vol. 41, No. 4, Dec., 1977, pp. 176-182; Arthur Davies; "Prince Henry the Navigator", *Transactions and Papers*, *Institute of British Geographers*, No. 35, Dec., 1964, pp. 119-127; C. Raymond Beazley; "Prince Henry of Portugal and the African Crusade of the Fifteenth Century", *The American Historical Review*, Vol. 16, No. 1, Oct., 1910, pp. 11-23.

(1) Helen Nader; "The End of the Old World", *Renaissance Quarterly*, Vol. 45, No. 4, Winter, 1992, pp. 797-801.

(2) إحدى المناطق الصخرية التي كانت تابعة لإسبانيا في شمالي أفريقيا جنوبي الساحل المغربي على إمتداد الأخاديد الساحلية لسبتة ومليلة. تقع الى الجنوب الشرقي من سبتة بمسافة 119 كيلومترا، أي 72,7 ميلا، وهي منطقة إسبانية كبيرة في شبه القارة المغربية.

(3) Braudel, Op. Cit., p. 119.

(4) Ibid.

فضلا عن تلك الأجزاء، تنتشر في البحر المتوسط الكثير من البحار الصغرى، مثل البحر ألايوني والبحر ألسرديني. يمتد البحر ألايوني من منتصف البحر المتوسط بإتجاه الصحراء الليبية، مشكلا منطقة تميزها المظاهر الفراغية والملاحية والقارية المنتشرة من الشرق إلى الغرب(1). أما البحر ألسرديني، فيمتد من الشواطئ الصقلية والسردينية إلى جزر البليار، وإسبانيا، فالمغرب. وبسبب سواحله المتعرجة ورياحه المفاجئة، كان صعب العبور. وتميزت المنطقة الشمالية من هذا البحر، التي كانت هدفا مستمرا للعثمانيين، بطبيعتها القاسية، مما صعّب عملية اختراقها، بخلاف المناطق الجنوبية التي كان من السهل للقراصنة المسيحيين تفاديها بسلوك الساحل الأفريقي، الذي كان، تبعا لذلك، منطقة ملاحية مزدهرة. لذا، كان أفضل طريق لمسار الملاحين يبدأ من مصر، أو طرابلس (الغرب)، أو جزيرة جربة، وأحيانا يبدأ من الجزائر. وفي بداية القرن السادس عشر كانت القوادس(2) البندقية تصل إلى الساحل الأفريقي عن طريق ساحل صقلية. وكانت خطوط الرحلات تمر عبر البحر الأيوني وبحر سردينيا، وتتجنب عبورهما، مكونة بذلك حلقة وصل رئيسة بين شرقي البحر المتوسط وغربه(3).

من جانب آخر، أدت الأحوال المناخية السائدة في البحر المتوسط دورا مهما في الحركة الملاحية بالبحر المتوسط، وأفضل دراسة في هذا المجال هي تلك التي قدمها الأستاذ جون بريور (John H. Pryor)(4)، الذي وضع خارطة للتيارات والرياح الصيفية السائدة في البحر المتوسط. ويُلاحظ إن أحد أكثر المظاهر إثارة للملاحظة في هذه الخارطة هو التيارات المتماشية مع حركة عقارب الساعة حول البحر المتوسط. وهذه الرياح تدخل البحر المتوسط من المحيط الأطلسي عند مضيق جبل طارق بسرعة كبيرة. وفي أحوال مختلفة، كان ذلك يشكل حاجزا

(1) Braudel, Op. Cit., p. 119.

(2) تسمى في بعض المصادر (الغالي)، ولكن التسمية العربية لها هي القادس وجمعها قوادس.

(3) Miller William; "The Ionian Islands under Venetian Rule", *The English Historical Review*, Vol. 18, No. 70, April, 1903, pp. 209-239.

(4) John H. Pryor; Geography, Technology and War: Studies in the Maritime History of the Mediterranean 649-1571, Cambridge, 1988, pp. 161-163.

كبيرا أمام سلامة السفن الشراعية أو تلك التي تستخدم المهارات البشرية في تحريكها. وهذه الرياح تضرب بشدة باتجاه الشمال نحو سواحل سوريا وفلسطين؛ وتحاذي الساحل الدلماشي، فتسبب أخطارا ملاحية بين البر الرئيس لإيطاليا وصقلية. والرياح السائدة في الصيف كانت تضرب من الاتجاه الشمالي الغربي، وهي مناسبة لحركة المراكب. لكن ذلك كان ينطوي على مخاطر جسيمة لأولئك الذين ينوون الإبحار بالاتجاه المعاكس. والحقيقة إن ذلك كان يشكل حاجزا طبيعيا كبيرا أمام أي حاكم أو دولة عند الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط ممن كانوا ينوون أو يعتزمون متابعة سياسة بحرية هجومية[1]. وبالنتيجة، كانت الملاحة في تلك الشواطئ أكثر صعوبة وأكثر خطورة[2]. وربما يفسر لنا ذلك لماذا كانت معظم الحملات العثمانية تتم في فصل الصيف، بمعنى إن جودة الطقس واعتدال درجات الحرارة في شرقي البحر المتوسط، لاسيما في بحر إيجة، ربما تكون السبب الأساس في تقدم الأسطول العثماني وتفوقه على منافسيه. إذ كانت حركة السفن تخضع لقوة الرياح والمد والجزر. وربما كانت هذه القوى هي التي حددت الطريقة التي صُممت بها السفن العثمانية وغيرها من سفن البحر المتوسط.

وأخيرا، لابد أن نشير، عند دراستنا البيئة الملاحية للبحر المتوسط إلى مسألتين جوهريتين كان لهما دور بارز في مسألة الصراع بين الدولة العثمانية والقوى المسيحية المنافسة، وهما تتعلقان بالمظاهر الطبيعية للبحر المتوسط: أولهما، إن الجزر الرئيسة ـ صقلية، وسردينيا، وكورسيكا، وجزر البليار، وكريت، ومالطا ـ كانت أقرب إلى الجانب المسيحي من قربها إلى الجانب الإسلامي؛ والاستثناء الوحيد هو قبرص؛ في حين تقع الجزر الأخرى، مثل جربة وقِرقِنة بالقرب من الساحل التونسي. أما المسألة الثانية فهي إن كل نهاية من نهايات البحر المتوسط كانت تهيمن عليها شبه جزيرة واسعة، وهما شبه جزيرة

---

(1) Rose, Islam versus Christendom, p. 563.
(2) Pryor, Op. Cit., pp. 14, 24, 163.

الأناضول، وتسيطر عليها الدولة العثمانية، وشبه الجزيرة الايبيرية وتسيطر عليها إسبانيا[1].

ثانيا: الأسطول العثماني: تكوينه وطاقمه

إن أي نقاش عن الحروب البحرية لابد أن يضع بالحسبان تركيب وتصميم السفن المستخدمة في حينه. وتشكيل الأسطول العثماني مرتبط إلى حد بعيد بالتطورات التقنية البحرية التي حدثت في أوربا خلال القرن الخامس عشر[2]. يؤكد الأستاذ كارلو سيبولا (Carlo Cipolla) إنه من دون التطورات التي حدثت في التقنية البحرية خلال القرن الخامس عشر لم يكن بإمكان أوربا أن تتوسع إلى ما وراء البحار[3]. وقد تابع العثمانيون، عن كثب، تلك التطورات مثلما شاهدوها خلال حروبهم مع القوى البحرية لذلك العصر، لاسيما في الجمهوريتين البحريتين الإيطاليتين، البندقية وجنوا[4]، وطبقوا ما شاهدوه في بناء سفنهم.

يمكن تقسيم السفن العثمانية على قسمين أساسيين: السفن المجدافية والسفن الشراعية. من بين النوع الأول، أي السفن المجدافية، هناك القوادس[5]

---

(1) Charles Issawi, "The Christian-Muslim Frontier in the Mediterranean: A History of Two Peninsulas", *Political Science Quarterly*, Vol. 76, No. 4, December, 1961, p. 549;
وفي هذه المقالة حاول شارل عيساوي تعقب الخطوات التي أوصلت العالمين الإسلامي والمسيحي إلى حدودهما الحالية.

(2) Carlo Cipolla, Guns, Sails and Empires: Technological Innovation and the Early Phases of European Expansion, 1400-1700, New York, 1965, pp. 78-81; see also: Pryor, Op. Cit, pp. 25-86; Susan Rose; Medieval Naval Warfare 1000-1500, London & New York, 2002, p. XV; The Military Revolution Debate: Readings on the Military Transformation of Early Modern Europe, edited by Clifford J. Rogers, West view press, Boulder, San Francisco, Oxford, 1995, pp. 299-333, (*); Frederic Chapin Lane, Ships and Shipbuilders of the Renaissance. Baltimore, Maryland, 1992, pp. 54-76.

(3) Ibid., p. 137.

(4) Eyüp Özveren and Onur Yıldırım, "An Outline of Ottoman Maritime History", *Maritime History*, No. 28. New Directions in Mediterranean Maritime History, Gelina Harlaftis and Carmel Vassallo (eds.), St. John's Newfoundland, Canada, pp. 157-158. (hereafter: Özveren & Yıldırım).

(5) عن أنواع القوادس وتطورها عبر العصور؛
Colin Imber; The Ottoman Empire: 1300-1650, The Structure of Power, London, 2002, pp. 288ff.

(Galleys)، التـي إسـتخدمت بصـفة بـوارج (men-of-war)، وتُسـمى فـي المصادر التركية (قادرغات)، وهذه بقيت قيد الاستعمال مدة طويلة، لكن طرأت عليها بعض التعديلات على مرّ الزمن[1]. ولهذه القوادس أبدان مستطيلة، وأحجام مختلفة، ولها في العادة صفين أو ثلاثة صفوف من المجاديف (25 – 30 منصة في كل جانب)[2]. وإلى جانب وظيفتها سفن حرب، فإنها كانت تُستخدم لحمل البضائع عند الضرورة أيضا، ولكن بقدر محدود[3].

---

(1) Imber, The Ottoman Empire…, pp. 287-307; Rose, Islam versus Christendom, p.572.

(2) Özveren & Yıldırım, Op. Cit., p. 158; cf: Svat Soucek, "The Ottomans and Their Rivals, Galleys and Galleons, Portolan Charts and Isolarii", from his Piri Reis and Turkish Mapmaking after Columbus: The Khalili Portolan Atlas, Nour Foundation, 1995, p.14.

إذ يذكر إن معدل ما كان للقوادس العثمانية خلال القرن السادس عشر يتراوح بين 24 و 26 منصة مجداف.

وقد أوردت الباحثة سوزان روز (Susan Rose) معلومات مهمة عن القادس مفادها إن القوادس التي كانت موجودة في الأساطيل البحرية الإسلامية كانت اصغر حجما من قوادس ألبندقية، لكن هناك القليل من الإختلاف الجوهري من حيث التصاميم. وفي القوادس الكبيرة، ترتب المجاديف في ثلاث مجموعات؛ فهناك مسند أو ذراع يطوّق بدن السفينة لإسناد المجاديف. وفي طراز قوادس القرن الخامس عشر، كان هناك في العادة ثلاثة رجال يصطفون، كل واحد منهم يسحب مجدافا واحدا، وهذا النظام يعرف لدى الإيطاليين بإسم (*al sensile*)، الذي أصبح أكثر شيوعا خلال معركة ليبانتو سنة 1571. وفي هذا النظام، فإن كل مجداف كان يُسحب بوساطة مجموعة من الرجال، عادة ما يكونوا ثلاثة، ولكن قد يصل عددهم أحيانا إلى تسعة. وكانت تلك القوادس تجهزُ بالزفت والأشرعة والمجاديف للمناورة في ميناء المعركة، حيث تصبح السفن الشراعية غير قادرة على الاشتباك مع العدو عند إشتداد الرياح أو تحول مسارها على نحو مفاجئ. وكان الرجال يتخذون وضعا مستعدا لنزول إلى مركز المركب، في حين كان المجدفون محميين بحاجز على طول الحافات العليا من جانب المركب. أما الحافة الأمامية للقادس أو القادرغة فلم تصمم لتستخدم ناطحاً لإحداث ثقب في سفن العدو، بل بالأحرى كجسر للسماح لتحميل المقاتلين لتمكينهم من الاقتراب، أو كوسائل لكسر أشرعة سفن العدو كي لا تتمكن من المناورة. وعلى الرغم من إن القوادس الحربية كانت تحمل عددا أكبر من المحاربين، فليس بالضرورة أن تكون مختلفة في تصميها عن تلك التي كانت تستخدم للأغراض التجارية؛

Rose, Islam versus Christendom, p. 573.

(3) Jan Glete; The Sea Power of Habsburg Spain and the Development of European Navies 1500-1700, prepared to the Conference Gurra y Sociedad en la Monarquí Hispánica: Politica, Estrategia y Cultura en la Europa Moderna (1500-1700), Madrid, 9-12 March 2005, (*).

وفي هذا السياق ذكر البحّار ورسام الخرائط العثماني الشهير بيري علي ريّس[1] (1470- 1554) في كتابه الملاحي (كتاب البحرية)، معلومات مهمة عن أنواع السفن العثمانية، لاسيما القادرغات، إذ يقول:"... والقادرغة سفينة شراعية طويلة، واطئة، وضيقة ذات مِسحبة مسطحة قليلا. وعندما كانت تدخل الموانئ وتغادرها، فإنها كانت تتعقب العدو أو تفرّ منه لقابليتها الكبيرة في المناورة"[2].

وهناك أنواع اصغر من القوادس وأكبر منها. من بين النوع الأول (الأصغر)، ما يسمى كاليتا (kalita) بالتركية، أو (الغليوط) بالعربية، ولها 19-24 منصة للمجذفين[3]، وهي سفينة يفضلها الملاحون لسرعتها وقدرتها على العمل في الأحوال المختلفة، إذ كانت تخترق المراسي الضحلة، وتختفي في التجاويف أو الممرات الضيقة، لتنقض فجأة على فريستها أو تنسحب إلى مرافئ يصعب الوصول إليها. أما الأنواع الأكبر من النمط القياسي فقد كانت نادرة عند العثمانيين، ولكنها مألوفة لدى منافسيهم وجيرانهم، البنادقة. وكانت إحدى هذه الأنواع هي الباشتردة (Baştarda)[4]، وهو مصطلح استعمل باللغة التركية على قادرغات أو قوادس خاصة كان آمر الأسطول العثماني يستعملها[5].

وللقوادس وأنواعها، لاسيما الصغيرة منها، تاريخ طويل في البحر المتوسط. وقد ورد ذكرها في الأساطير اليونانية؛ ففي إحدى الأساطير يصوّر المؤرخ اليوناني هوميروس أوديسيوس ورفاقه وهم يبحرون في إحدى القوادس

---

(1) Svat Soucek; "Piri Reis and the Ottoman Discovery of the Great Discoveries", *Studia Islamica*, No. 79, 1994, pp. 121-142.

(2) Soucek; The Ottomans and their Rivals..., p. 14.

(3) Özveren & Yıldırım, Op. Cit., p.158;

ربما هي تطابق كلمة غاليوتا (*galiotta*) الإيطالية، أو فوستا (*fusta*).

(4) الباستردة أكبر من القادس، ولها بدن أوطأ قليلا إلى حد ما.

(5) وهذه الكلمة نادرا ما كانت تستخدم من جانب بيري ريّس، لأن كتابه، المذكور آنفا، كان يولي الإهتمام أساسا بالجانب التجاري" المدني" من التجارة البحرية.

فضلا عن ذلك، هناك أنواع أكبر لكنها اقل إستخداما من جانب العثمانيين، مثل ماعونة (*mavna*)- ربما مشتقة من الكلمة العربية "مؤونة"- وهي أكبر نوع من أنواع القوادس التجارية، التي تعرف بالإيطالية بأسم (*galera di mercato*)، أي (القادس التجاري الكبير). وكانت هذه هي السفينة القياسية لمبعوثي جمهورية ألبندقية، تجلب بعض الحمولات مثل الفلفل أو الحرير من الإسكندرية وغيرها من موانئ الشرق إلى ألبندقية. أما تجارة الحجاج التي كانت تأخذ الحجاج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة فقد كانت تستخدم القوادس غالبا أيضا؛

Ibid., pp. 158-159.

ويمارسون القرصنة[1]. وكانت الأساطيل القديمة تستخدم القوادس في معاركها، كما كان عليه الحال عند البيزنطيين والعرب، عندما كانوا يتحاربون خلال القرون الأولى للفتوحات الإسلامية، أو عندما كانوا يُغيرون على بعضهم البعض[2]. أما العرب المغاربة فقد كانوا يغيرون على الجانب المسيحي من غربي البحر المتوسط على نحو مشابه، كما كان يفعل الكتالونيون، ضد الأجزاء الشرقية من الجانب الإسلامي، حيث كانوا يُغيرون على بعض السواحل الشرقية في شمالي أفريقيا. وبوجود القادرغات والكاليتات تمكن الأخوان عُرُوج وخير الدين بربروسا من استكمال الفتح العثماني لشمالي أفريقيا والثأر من الهجمات الأسبانية[3].

وعموما، فقد أولى العثمانيون، متأثرين في طراز بناء السفن التجارية البندقية، اهتماما بالسفن المجدافية التي اتسمت بقابليتها على الإبحار لمسافات قصيرة محدودة عند حدود السواحل، بينما أهملوا الاهتمام ببناء السفن الشراعية حتى وقت متأخر[4]. لكنهم تخلوا عن محاولة تقليد أوربا بعد سلسلة الهزائم التي تعرضوا لها أمام البرتغاليين في المحيط الهندي ومن ثم التحالف المسيحي في ليبانتو سنة 1571، وفي الوقت نفسه لم يطوروا أنماطا خاصة بهم. وعليه، فإن أنواع السفن المشار لها استمرت تشكل أساس البحرية العثمانية حتى منتصف القرن السابع عشر[5].

---

(1) Soucek, The Ottoman and their Rivals…, p. 14.

(2) Ibid.

(3) تسمى في الأدبيات الغربية حروب الاسترداد (Reconquesta)، وهي تسمية تنطوي على مغالطة تاريخية كبيرة.

(4) عن الفروق بين المراكب الحربية والتجارية؛

Rose, Medieval Naval Warfare, p. 1.

(5) Murat Çizakça; "The Ottoman Empire: Recent Research on Shipping and Shipbuilding in the Sixteenth to Nineteenth Centuries", *Research in Maritime History*, 9, 1995, pp. 213-228; Joseph F. Grima; "Rowers on the Orders' Galley (c. 1600-1650)", *Journal of Maltese Historical Society*, No. 13, Vol. 2, 2001, pp. 113-126.

يفسر الأستاذ التركي أنور يلدرم سبب تأخر العثمانيين النسبي في تبني السفن الشراعية عن الإيطاليين بعدم وجود تجارة بحرية يمكن مقارنتها بالتجارة البحرية للجمهوريات الإيطالية أو بتجارة الدول الأوربية، فلم يولوا إهتماما بإنشاء بحرية تجارية متخصصة[1]. وثمة عوامل إقتصادية مهمة أسهمت في ذلك، إذ أدت كل من الكلفة المنخفضة والطبيعة الآمنة نسبيا للبحر إلى إعتماد الدولة على خدمات السفن التجارية. ويذكر إن نقل الحبوب من مكان إلى آخر خلال مدة تتراوح ما بين ثلاثة عشر إلى خمسة عشر يوما كان أرخص بنسبة الثلثين تقريبا بالبحر مما لو كان عليه برا[2].

أما السفن الشراعية فلها تاريخ طويل أيضا في البحر المتوسط، لكونها كانت المراكب القياسية للتجار اليونانيين والفينيقيين. ولكن إستخدام العثمانيين لها كان نادرا، بحيث إننا لا نجد لها في مفرداتهم مصطلحا مميزا. كما إن التعبير العام لكلمة سفينة (gemi)، لم يكن يُستخدم لتمييز المراكب الشراعية عن المراكب المجدافية؛ لكن ثمة إشارات عن استخدام أنواع من تلك السفن، مثل: الباركة (barca)، والكركة (karaka)، والكايلون (kaylon)[3].

---

(1) Özveren & Yıldırım, Op. Cit., p.159.

(2) Lütfi Güçer; The Grain Problem and the Taxes on Grain in the Ottoman Empire during the Sixteenth and Seventeenth Centuries, Istanbul, 1964, pp. 32-36.

(3) وهذه كلها كانت كلمات مستعارة من اللغات الأجنبية، الإيطالية تحديدا. فالباركة، المشتقة من كلمة *barza* البندقية، تشير إلى السفن التجارية الكبيرة الحجم، الطويلة، ذات الأشرعة المربعة. وهي من الأنواع السهلة الإقتناص، بحيث كانت تشكل "غنيمة كبرى" للبحارة العثمانيين، الذين كانوا عادة ما يبيعونها هي وحمولاتها، أو يضموها أحيانا إلى أساطيلهم. ويبدو إن كلمة (بركة) قد اكتسبت هذه الدلالة بالتركية العثمانية، لاسيما بصيغة (*parka*):

Soucek, The Ottomans and their Rivals…, p. 16.

تشير الباحثة سوزان روز إلى إن تصميم هذا النوع من السفن المستديرة قد تأثر إلى حد كبير، بعد بداية القرن الرابع عشر، بتصميم سفينة تدعى (*cog*) كانت تستخدم في شمالي أوربا، وهي ضربٌ من السفن التي تتميز بالمتانة البالغة والفائدة الكبيرة سواء للرحلات التجارية أو البحرية. وإن أنجح التصاميم التي إشتقت منها هي السفينة المعروفة بإسم (*carracke*)، وهو تصميم إرتبط بالجنويين أكثر من غيرهم. وهذا النوع من المراكب كان يحتاج إلى طاقم أقل مما كان يحتاجه القادس (أو القادرغة)، وبإمكانه أن يحمل حمولة أكثر، ولم يكن مقيدا بالحاجة للبقاء قريبا من الشاطئ على نحو مستمر للحصول على التجهيزات، لاسيما المياه العذبة لطاقم السفينة. ولكن يصعب إستخدامه على نحو هجومي فاعل لصعوبة تحميله؛

Rose, Islam versus Christendom, p. 575.

ومثلما هو واضح، فإن المفردات المستعملة في الأسطول العثماني مطابقة إلى حد كبير للمفردات المستعملة في الأساطيل الإيطالية، حتى إن معظم الكلمات المستعملة للإشارة إلى رجاله وقوامه كانت تحريفا للمصطلحات الإيطالية المقابلة[1]. وربما يرجع سبب ذلك إلى تفوق الإيطاليين في المشرق. ولهذا، فعلى الرغم من إن القباطنة الذين دخلوا في حوزة السلطان كانوا من المسلمين أو المسيحيين اليونانيين، فإنهم تتلمذوا على يد البنادقة والجنويين[2]. ولكن من المؤكد إن ذلك تم بفعل سياسة السلطان محمد الفاتح؛ إذ إن الإمبراطور جون السابع (John VII)(1408-1399/1390) كان قد سمح للجنويين المقيمين في غالاطة[3] أن يحكموا هذه الضاحية من ضواحي العاصمة بصفة مستعمرة ذات استقلال ذاتي، مكافأة لهم على مساعدتهم إياه في إعادة أسرته إلى الحكم سنة 1261[4]. وحين تم فتح القسطنطينية كلفهم السلطان محمد الفاتح بمساعدته في تعزيز أسطوله. ولكن ليس من الواضح كيف بوشر هذا النفوذ الجنوي بوجه عام، أو إلى أي مدى إستمر. ولكن بحارة السفن المقاتلة المستعملة حينذاك كانوا يتكونون أساسا من رجال مسلحين ومجدفين. وكان البحارة الذين يُعتمد عليهم قليلين، وما كان الجنويون يصلحون إلا بحارة. وقد يفسر لنا هذا لماذا كانت معظم

(1) هاملتون جب و هارولد بوون، المجتمع الإسلامي والغرب، ترجمة احمد عبد الرحيم مصطفى، ج 1، دار المعارف، القاهرة، 1970، ص 132؛ وعن تاريخ صناعة السفن في إيطاليا:
Theodore Ropp; "The Modern Italian Navy, _Military Affairs,_ Vol. 5, No. 1, Spring 1941, pp. 32-34;
ويمكن ملاحظة أوجه التقارب والمقارنة في أسماء السفن العثمانية مع مثيلاتها الأوربية في:
Galley Terms, (*).

(2) جب وبوون، المصدر السابق.

(3) تقع غالاطة في الجانب الشمالي من القرن الذهبي، بإتجاه حي تقسيم (Taksim) التركي حاليا، أسسها الجنويون، وتحيط بها الأسوار. وبرج غالاطة هو المشهد الأكثر ارتفاعا في أقصى الشمال. للتفاصيل عن المدينة وعن دور الجنويين فيها؛
Louis Mitler; "The Genoese in Galata: 1453-1682", _International Journal of Middle Eastern Studies_, Vol. 10, No. 1, February 1979, pp. 71-91.

(4) Subhi Labib; "The Era of Suleyman the Magnificent: Crisis of Orientation", _International Journal of Middle East Studies_, Vol. 10, No. 4, November 1979, p. 438.

مصطلحات الأسطول العثماني ذات أصول إيطالية. فمثلا، إن كلمة (لوند) [1] ، التي تعني (البحارة)، مشتقة من كلمة ليفانت (Levantino) البندقية[2]، وكلمة قبطان أو قبودان مرادفة للكلمة البندقية (Capitano)[3]. كذلك كان الحال بخصوص الأسماء التي أطلقت على السفن الشراعية الرئيسة في الأسطول العثماني. وهي من حيث الأهمية: قبطانة (Capitano)، وبطرونة (Patrona)، وريالة (Riyala)، وباشتردة (Baştarda)، وغيرها [4].

وعموما، كانت الوحدات البحرية العثمانية تتأتى من ثلاثة مصادر رئيسة: البناء، والشراء، والاستيلاء. وخلال القرن السادس عشر، كانت مراكب القباطنة مسؤولة إلى حد كبير عن الإستيلاء على السفن الأجنبية لصالح البحرية العثمانية. وكانت هذه إحدى القنوات الرئيسة التي تحولت من خلالها التقنية فعليا من النصف الغربي للبحر المتوسط إلى نصفه الشرقي. أما بخصوص موقع المسافن فقد كان محكوما غالبا بالسهولة في حرية الوصول إلى مواد بناء السفن، أولا وقبل كل شئ، مصادر أخشاب الغابات[5]. وكان إختيار الموقع يعتمد أيضا على اعتبارات استراتيجية، فضلا عن الاعتبارات الاقتصادية. وكانت دار صناعة السفن في اسطنبول، التي تأتي في المرتبة الأولى في التسلسل الهرمي للمسافن العثمانية[6]، تعتمد على تعبئة سلسلة كاملة من المواد المتداخلة، بضمنها الأخشاب اللازمة لصناعة الصواري، وأبدان السفن، وأقمشة الأشرعة، والحبال، والزفت، والقار، فضلا عن الحديد، وما إلى ذلك. وبعضٌ من تلك المواد كانت مواد إنشاء رئيسة، بينما كان بعضه الآخر ضروريا لضبط السفن وإكسائها

---

(1) وهم البحارة البنادقة في شرقي البحر المتوسط والمناطق القريبة؛ جب وبوون، المصدر السابق، ص142.

(2) (المشارقة) مشتقة من كلمة Levantino) وهذه الكلمة قريبة من كلمة (Levant) الإنجليزية، التي تعني (الشرق). وكلمة (Levant) فرنسية بالأساس وتعني الشرق الأدنى. لذلك، يُطلق هذا المصطلح على شرقي البحر المتوسط، فيقولون: بلاد الليفانت.

(3) وهذه الكلمة عربية الأصل إنتقلت إلى الإيطاليين، ومنهم إلى العثمانيين.

(4) للتفاصيل عن الأصول الإيطالية للمصطلحات البحرية العثمانية:

Henry Kahane, Renée Kahane; “Turkish Nautical Terms of Italian Origin”, *Journal of the American Oriental Society*, Vol. 62, No. 4, December 1942, pp. 238-261.

(5) الملاحق، (خارطة رقم 1).

(6) الملاحق، (خارطة رقم 2).

بالأشرعة. وكان تنظيم تلك العملية حيويا للحصول على مراكب بحرية، فضلا عن تشييد مراكب جديدة [1].

تم تأسيس أول دار عثمانية كبيرة لصناعة السفن في عهد السلطان بايزيد الأول - يلدرم (1389-1402) على أنقاض دار الصناعة البيزنطية السابقة الكائنة في غاليبولي، وهي نقطة استراتيجية تتحكم بمدخل الدردنيل من بحر مرمرة [2]. وكان الهدف من بناء السلاح البحري تحقيق أهداف عدّة، من بينها: تأمين السواحل الغربية، والتوسع شرقا في البلقان، والإستيلاء على الجزر القريبة من البلقان ومن بحر إيجة والبحر ألايوني، والقضاء على البقية الباقية من ممتلكات البيزنطيين كذلك، وطرد البنادقة والجنويين من المناطق التي كانوا يتغلغلون فيها أو تلك التي امتلكوها منذ الحروب الصليبية[3]. وقد أعاد القبطان العثماني سرّوقة باشا[4] (Saruca Paşa) بناء التجهيزات خلال حكم السلطان بايزيد الأول، وأصبحت المدينة مقرا لقباطنة البحر العثمانيين[5]. ولا يعرف الكثير عن سعة دار صناعة السفن في غاليبولي، سوى إنها تولت مهام دور صناعة السفن الصغيرة الموجودة الواقعة في أجزاء مختلفة من الدولة العثمانية[6]. وخلال حكم السلطان محمد الثاني (1451-1481) وابنه بايزيد الثاني (1481-1512)، ازدادت سعتها على نحو كبير، لأن كليهما كانا قد انهمكا في حرب ضروس ضد جمهورية البندقية؛ إذ شرع السلطان محمد الثاني بإنشاء دار جديدة لصناعة سفن جديدة في غالاطة بعد فتحه القسطنطينية في سنة 1453، لكن دار صناعة السفن في

(1) Özveren & Yıldırım, Op. Cit., pp. 149-150.

(2) Ibid., p. 160; Imber, The Ottoman Empire, 288-289; Rose, Medieval Naval Warfare, p. 7.

(3) جب و بوون، المصدر السابق، ص 129.

(4) الملاحق: الجدول الخاص بأسماء القباطنة العثمانيين وسنوات توليهم.

(5) Imber, Op. Cit., p. 195.

(6) İsmail H. Uzunçarşılı; Central and Naval Administration in the Ottoman Empire, Ankara, 1988, 396-399, as cited in : Özveren & Yıldırım, Op. Cit., p.161; see also: Halil İnalcık, “The Ottoman State: Economy and Society, 1300-1600,” in: An Economic and Social History of the Ottoman Empire, 1300-1914, (ed.) Halil İnalcık with D. Quataert, Cambridge, 1993, pp. 93-94.

غاليبولي بقيت القاعدة البحرية العثمانية الرئيسة حتى العقد الثاني من القرن السادس عشر[1].

لكن معلوماتنا الدقيقة عن نشاطات بناء السفن العثمانية تأتي من حقبة السلطان سليم الأول (1512-1520)، الذي أتمّ توسيع دار صناعة السفن في غالاطة، وخصصها لبناء المزيد من السفن وترميمها، وإستُكمل العمل بها في سنة 1515 [2]. ويذكر المؤرخ التركي إدريّس بستان إن دار صناعة السفن، عندما كانت تعمل بأقصى قدرتها، كما كان عليه الحال في سنة 1530، كان بمقدورها بناء أربعة وعشرين قادسا (قادرغة) وإصلاح ثمانية؛ وإن عدد السفن التي تم بناؤها خلال المدة 1526-1531 كان أربعا وأربعين قطعة[3]. ويشير الدليل المتوافر إلى إن القوة البحرية للعثمانيين بلغت، في سنة 1515، أربعمائة سفينة شاركت في الحملات ضد المماليك[4]. وإن عدد السفن التي اشتركت في حملة الهرسك سنة 1539 كان 155 سفينة[5]. وكانت دار صناعة السفن في غالاطة قد سُميت "الترسانة الهمايونية"[6]، إذ كانت معظم السفن تُبنى هناك، وأدت دور

(1) Özveren & Yıldırım, Op. Cit., p. 161.

(2) Labib, Op. Cit., p. 443; Imber, The Ottoman Empire…, pp. 290-291.

(3) Idris Bostan, Ottoman Maritime Arsenals and the Shipbuilding Technology in the 16th and 17th Centuries, Foundation of Science and Technology and Civilization, January 2007, pp. 5-6, (*).

وكلمة "قطعة"، وجمعها "قطع"، وعادة "قطعة"، و "قطائع": تعني نوعا من السفن، أو أجزاءً من الأسطول. ويبدو إن الكلمة كانت تستخدم عادة للدلالة على سفن الحرب وسفن نقل المؤن والخيول على حد سواء. للتفاصيل: علي محمود فهمي؛ التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط من القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادي، تر: قاسم عبدة قاسم، بيروت، 1981، ص 140.

(4) Andrew C. Hess, "The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of Oceanic Discoveries, 1453-1525," *American Historical Review*, LXXV, No. 7, 1970, pp. 1892-1919, p. 1906.

(5) Colin Imber, "The Costs of Naval Warfare: The Accounts of Hayreddin Barbarossa's Herceg Novi Campaign in 1539," *Archivum Ottomanicum*, IV, 1972, 203-216.

(6) دخل مصطلح "ترسانة" الى اللغة التركية بعد إستخدامات كثيرة لكلمة "دار الصناعة" العربية من جانب العديد من دول البحر المتوسط عبر القرون. فقد إستخدمها الإسبان بصيغة (darsena -arsenal-ataruzana)، والبرتغاليون بصيغة (drasena - darsenale)، والإيطاليون بصيغة (darsena -arsenale)، والمالطيون (tarznar – tarzna). أما العثمانيون فقد كانوا يستخدمون كلمة ميناء (port)، بدلا من الأرسنال البحري. ولكن منذ بداية القرن السادس

مركز عسكريٍ، وماليٍ، وإداريٍ للقوة البحرية العثمانية[1]. وفي الوقت نفسه، عملت دور صناعة السفن، المنتشرة في كل من غاليبولي، والسويس، وسينوب، وسامسون، والبصرة، وغيرها من المناطق الساحلية، لإتمام نشاطات دار صناعة السفن الهمايونية[2].

تطلب إنشاء أعداد كبيرة من السفن، فضلا عن انتشار المسافن في أنحاء متفرقة من الدولة، تدفقا مستمرا لصنوف مختلفة من المواد الخام. ولهذا الغرض، شكلت الدولة العثمانية شبكة معقدة من التجهيزات والإحتياطيات في أراضيها كافة خلال وقت مبكر من القرن السادس عشر. وقد تصدر خشب الغابات قائمة تلك المواد. وكان معظمه يُجلب من المناطق الجبلية الممتدة على طول بحر مرمرة والبحر الأسود. وأحيانا، لغرض الحصول على المواد عالية التخصص، مثل القار، كان العثمانيون يستثمرون الموارد البعيدة والمختلفة للتجهيز، في مناطق مثل ألبانيا، وجبال الكربات في البلقان، وجبال طوروس في جنوبي الأناضول. وكان رعايا تلك المناطق يجبرون على تجهيز موظفي الدولة بالكميات الكافية من الخشب لإنشاء العدد المطلوب من السفن[3]، الذي كان يختلف، في كل سنة، بحسب الأحوال العسكرية. وقد أبقى الباب العالي لنفسه الحق في استدعاء الولاة والقضاة من الولايات الأخرى لتجهيز الخشب للاستخدام في دار صناعة السفن الهمايونية[4].

وعلى الرغم من إن العثور على الخشب كان يسيرا، إلا إنه كان من الصعب العثور على الخشب الملائم للتزفيت، وأحسن أنواع الخشب لذلك هو خشب الصنوبر الذي كان يجلب من منطقة إزنكمد، الواقعة على بعد نحو مائة كيلو متر

عشر فصاعدا، بدأوا بإستخدام مصطلح "ترشانة" (tershane)، أو "ترسانة" (tersane)، المشابه للاستخدام الإيطالي للكلمة؛

Bostan; Op. Cit; Rose, Medieval Naval Warfare, p. 6.

(1) Özveren & Yıldırım , Op. Cit., p.161.

(2) للتفاصيل عن دور صناعة السفن هذه:

Bostan, Op. Cit., pp.9-11; Imber, The Ottoman Empire, p. 291.

(3) Özveren & Yıldırım, Op. Cit., p.163.

(4) Eyüp Özveren, & Onur Yıldırım, "Procurements of Naval Supplies during the Sixteenth Century: Venetian *Arsenale* and Ottoman *Tersane* Compared", (Draft), Ankara, 2006, (*).

(نحو69 ميلا) إلى الشرق من اسطنبول، وفي مناطق آدا، وأكيازي، وساريجاير، وآق حصار[1]. أما المواد الخام المهمة الأخرى لبناء السفن فهي: القار، والزفت، والحديد. وكانت هذه المواد تُؤمَّن من القلعة السلطانية (جنا قلعة)، وألبانيا، وولاكيا، والمستوطنات الساحلية في البحر الأسود مثل سينوب، وسامسون، وبارفا. وكان الحديد الذي كان يستخدم في صناعة المراسي وغيرها من الملحقات، يُجلب من مدينة ساماكوف (Samakov) البلغارية. يُضاف إلى ذلك، فقد استخدمت أنواع مختلفة من الأقمشة للسفن الشراعية. وكان القماش الخام المعروف بإسم كِبراس (kipras) يستخدم في صنع الأشرعة والخيم[2]، في حين كانت مصادر التجهيز الرئيسة تنتشر في غاليبولي، ومصر، وقبرص، فضلا عن أغريبوز (Eğriboz). وخلال القرن السادس عشر، كانت حلب تجهز بعض القماش المطلوب لدار صناعة السفن عن طريق أدنة.

أما فيما يخص المواد المستخدمة في التسليح على ظهر السفن، فإن المادة الرئيسة كانت البارود، الذي كان يُجلب من مناطق مختلفة. ويأتي بعده الملح الصخري (نترات البوتاسيوم) الذي كان يُجلب من مناطق عدّة[3]. وكان تصنيع بارود الأسلحة يتم في الـ (بارود خانة) باسطنبول. وبخصوص صبّ المدافع، فقد كانت دار صناعة السفن الهمايونية تعتمد على دور صناعة المدافع (الطوبخانة)[4]، التي أنتجت أنواعا عدّة للسفن المختلفة الموجودة في سلاح البحرية العثماني. وقد أدى الطلب المتزايد على تلك المواد إلى فرض أنواع عدّة من الضرائب، لاسيما الضرائب التي كانت تُفرض على أصحاب التيمارات (أو الإقطاعات)، وضرائب العوارض (الطوارئ).

(1) Özveren & Yıldırım , Outline…, p. 163.
(2) Ibid.
(3) أهمها: مصر، وقرة مان، وقيسارية، ونغدة، وبور، وكيرشهر (Kırşehir)، وآق صاري، وملاطية، وسوريا، ولبنان، وبغداد، والبصرة.
(4) عن الأسلحة البحرية المستخدمة خلال القرن السادس عشر:
The Weapons of Sixteenth Century at Sea, (*).

أسفرت عملية الإنتاج المنظم في دار صناعة السفن الهمايونية عن تركيز هائل لعمال ذوي مستويات غاية في المهارة، فضلا عن الملاحين وأصحاب الحرف[1]، الذين ضموا أصنافا من الحرفيين، مثل: صنّاع الأسلحة، وأمناء المستودعات، وصنّاع المجاديف، والجلفاطين (وهم المسؤولون عن سدّ حزوز السفينة)، وصنّاع البكرات، ومثبتي المسامير، وصنّاع المجاديف، والنجارين، وصنّاع المناشير، والخياطين والحدادين[2]. وقد جرت العادة على استخدام المدفعيين والخبراء في القذائف المدفعية على السفن أيضا. وكان للقبودان باشا (أمير البحر) أيضا الحق في تجنيد المزيد من العمال المهرة مؤقتا من الولايات المختلفة في الدولة عند التحضير لحملة كبرى.[3] وكان العمال المؤقتون يجلبون من السكان المحليين سواء كانوا عمال أجور يومية أو مقابل نوع من الاستثناء الضريبي. كما اعتمدت الحكومة على خدمة القضاة المحليين لغرض تجنيد القوة العاملة الضرورية لدار صناعة السفن الهمايونية[4].

كان القبطان (القبودان) باشا هو القائد الأعلى للأسطول العثماني. وهو يجمع بين منصبين: القائد العام للأسطول وحاكم ولاية[5]. وحتى سنة 1516 كانت غاليبولي مقر قيادة الأسطول، والحق بهذه السنجقية قضاءا غالاطة وإزمد (Izmid) في نيقوميديا في الأناضول، لأن الغالبية العظمى من سكان غالاطة، وهي إحدى ضواحي اسطنبول، هم من سكان جنوا، وأسهموا، بجهودهم وخبراتهم البحرية والملاحية، في تطوير الأسطول العثماني ودعمه، لاسيما بعد فتح

(1) تكونت معظم القوة العاملة الماهرة من أصحاب الحرف اليدوية ونجّاري السفن الذين كان يؤتى بهم من بين قطعات الدفشرمة (نظام تجنيد الأطفال).

(2) للتفاصيل عن وصف مفصل لهذه الأصناف:
Salih Özbaran, "Galata Tersanesinde Gemi Yapımcıları, 1529-1530, Güneydoğu Araştırmaları Dergesi, Nos. 8-9, 1980, ss. 97-102; in: Özveren & Yıldırım, Outline..., p. 166.

(3) Ibid.

(4) Özveren & Yıldırım, Outline..., p. 166.

(5) عن وظيفة القبودان باشا ودوره؛
Imber, The Ottoman Empire…, pp. 294-297.

القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح[1]. أما إزمد فهي واحدة من المصادر الرئيسة لتزويد الأخشاب اللازمة لبناء الأسطول. ولما نقلت قواعد الأسطول إلى اسطنبول في عهد السلطان سليمان القانوني ألحقت بسلطة القبودان باشا سلطة سواحل شبه جزيرة البلقان والجزر القريبة منها كلها تقريبا، فضلا عن مناطق ساحلية في حوض البحر المتوسط. ومن هذه المناطق تكونت (إيالة بحر سفيد)، أي (ولاية بحر إيجة)، التي قُسّمت على سناجق يحكم كل منها (دريا بكلر)، أي حاكم البحر[2].

فضلا عن ذلك، أفاد العثمانيون من الملاحين المتمرسين الذين غالبا ما كانوا من اليونانيين[3]، فضلا عن بعض الملاحين البنادقة. وكان تجنيد خيالة ومشاة التيمارات يحدث بوساطة أمراء السناجق البحرية، الذين كانوا يعملون على وفق طلب القبطان باشا. وفي القرن السادس عشر كان السباهية (الفرسان)، الذين يخدمون في الأسطول العثماني، يجلبون أسلحتهم الخاصة ودروعهم وعددا معينا من التابعين المسلحين اعتمادا على حجم ممتلكاتهم وعوائدها. وكان المجدفون يجندون من قضاة الألوية بحسب الطلب الآتي من اسطنبول مباشرة[4].

والنقطة الأخيرة مهمة جدا في تقويم القدرة القتالية للأسطول العثماني خلال القرن السادس عشر؛ إذ كانت الدولة العثمانية تعتمد على التجنيد السنوي للبحارة من العزّاب الذين يجلبون من مناطق الأناضول والروميللي الذين من المفترض أن تكون معنوياتهم عالية، ولكن كثيرا من هؤلاء المجندين، كما يشير كولن إمبر،

(1) عبدالعزيز محمد الشناوي؛ الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، جـ 2 القاهرة 1980، ص 871.

(2) للمزيد من التفاصيل عن الطاقم الملاحي في الأسطول العثماني؛ الشناوي، المصدر السابق، ص 873؛ جب وبوون، المصدر السابق، ص 150.

(3) Lester Libby, Jr., “Venetian Views of the Ottoman Empire from the Peace of 1503 to the War of Cyprus”, _Sixteenth Century Journal_, IX, No. 4, 1978, 103-126; Imber, The Ottoman Empire, pp. 298-303.
فمثلا إن دار صناعة السفن في غاليبولي إستخدمت اليونانيين المحليين نجّارين بالأجرة أو مقابل إعفائهم من عدد من الضرائب، مثل العوارض الديوانية (الطوارئ)؛
İnalcık, “The Ottoman State….,” p. 94; Inalcik; “The Policy of Mehmed II toward the Greek Population of Istanbul and the Byzantine Buildings of the City”, _Dumbarton Oaks Papers_, Vol. 23, 1969, pp. 229-249.

(4) Özveren & Yıldırım, Outline..., p. 167.

كانوا يفرون من الخدمة قبل أن يصلوا إلى متون السفن[1]. أما الأساطيل المسيحية فقد كانت، باستثناء الأسطول ألبندقي، تعتمد على مبدأ تطوير مهارة البحار خلال السنوات الأربع الأولى من خدمته[2]. وقد لاحظ المسيحيون نقطة الضعف هذه لدى القيادة البحرية العثمانية، واعتمادها المتكرر على المتطوعين والمجندين الجدد، مما يعني إن الأسطول كان يُدار بمجدفين ضعفاء نسبيا، إذ كانت القوادس تبحر دوما بنسق غير منتظم، فضلا عن إن حملاته لمسافات بعيدة كانت صعبة ومحفوفة بالمخاطر[3].

لكن ليست هذه هي النقطة الوحيدة التي يختلف فيها الأسطول العثماني عن الأساطيل الغربية. فقد ذكر كولن إمبر أيضا إن المراقبين الغربيين، خلال القرن السادس عشر، لاحظوا أيضا إن أبدان السفن العثمانية كانت تُشيد بخشب لا يصلح إلا لمواسم محددة خلال السنة، بمعنى انه لم يكن بإمكانها أن تدوم مدة طويلة[4]. وبالمقابل، كانت أبدان السفن الأسبانية مثلا تدوم مدة طويلة تقرب من أربع عشرة سنة[5]. والأنكى من ذلك كله، إن القوة البحرية العثمانية، خلال القرن السادس عشر، كانت تعتمد اعتمادا كبيرا على الإنكشارية أيضا، وهم غير معتادين للعمليات البحرية بالتأكيد[6]. وبالمقابل، كانت القيادة البحرية المسيحية تعرف جيدا كيف تجهز طواقمها بالعناصر الكفوءة. من هنا، فقد كانت القوة البحرية العثمانية، من وجهة نظر القيادة البحرية المسيحية، "قوة برية أُنزلت إلى البحر" لا أكثر[7]. وبالنتيجة، فقد كان طاقمها يتعرض للإصابة بالأمراض بسرعة، بمعنى إن ثمة علاقة عكسية بين الوقت المطلوب للبقاء على ظهر السفن في البحر وبين القدرة

---

(1) Colin Imber; "The Navy of Suleyman the Magnificent", *Archivum Ottomanicum*, 6, 1980, pp. 265-268.

(2) Phillip Williams; The Sound and the Fury: Christian Perspective on Ottoman Naval Organization, 1590-1620; in: Rossella Cancilia (ed.); Mediterraneo in Armi, (secc. XV-XVIII), Vol. 2, Palmero, Assoisiane Mediterraneo, 2007, p. 563.

(3) Ibid.

(4) Imber, The Navy of Suleyman…, p. 225.

(5) Williams, Op. Cit., p. 563.

(6) Imber, Op. Cit., p. 260-261.

(7) Williams, Op. Cit.

العملياتية للأسطول. وقد حرص القادة المسيحيون على صيانة سفنهم على نحو مستمر، وهذا وحده كفيل بتجهيز القوادس ببحارة أقوياء وقباطنة ومتطوعين مدربين تدريبا جيدا، فضلا عن الخشب المناسب للدوام مدة طويلة والجنود المعتادين للعمل الشاق والتكيف للعمل في البحر(1). ويشير الدليل المتوافر إلى إن التدريب السياسي والاجتماعي الذي كان يتم في مدرسة القصر باسطنبول كان مُعدا لتخريج مقاتلين بريين، ونادرا ما كان القباطنة البحريون، كما يشير كولن إمبر، يُرقون إلى مناصب قيادية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر. وحتى خلال المراحل المتميزة، لاسيما خلال خمسينيات القرن السادس عشر، لم يكن الباشوات يحصلون على منصب الأميرال الأعظم إلا من خلال المحسوبية والدسائس السياسية، على الرغم من إن ذلك لم يمنع تعيين قباطنة مقتدرين ـ خير الدين بربروسا مثلا(2).

ثالثا: العثمانيون بين القرصنة والجهاد:

يعدّ موضوع القرصنة من المواضيع البالغة الأهمية في تاريخ البحر المتوسط، وما زال يشكل نقطة خلاف بين المؤرخين والباحثين، وهو بلا شك موضوع يستحق دراسة مستقلة، كونه يرتبط بقضايا قانونية وفقهية وفيلولوجية، من دونها لا يمكن فهم المعنى الدقيق لكلمة القرصنة. وتأتي نقطة الخلاف بين المؤرخين لا بشأن الكلمة نفسها، وإنما بشأن المعاني المتعددة التي تحملها، لاسيما إذا حاولنا فهم معانيها المختلفة وتطور تلك المعاني عبر العصور وبلغاتها المختلفة(3). ولفهم القرصنة لابد أن نقرّ أولا إنها شكل من أشكال الحروب.

كانت الحروب البحرية في البحر المتوسط على نوعين: حروب رسمية، وحروب غير رسمية. فالحروب الرسمية هي تلك التي تشنها أساطيل دولة ما ضد

---

(1) Williams, Op. Cit., pp. 260-261.

(2) Imber, Op. Cit., pp. 226-227.

(3) للإطلاع على الفروق الحقيقية والمعاني اللغوية بين العبارات المختلفة لكلمة "قرصنة" باللغة الإنجليزية: (Corsairs –Privateers – Pirates)؛

Jerome Bruce Weiner; Fitna, Corsairs, and Diplomacy: Morocco and the Maritime States of Western Europe, 1603–1672, Unpublished PhD Dissertation, Columbia University, 1972, pp. 20-25; Pinuccia Franca Simbola (trans.); Îles, corsares et pirates dans la Méditerranée Médiévale, *Médiévales*, no. 47, Paris, automne 2004, pp. 17-30.

أساطيل دولة أخرى، بأساطيلها الخاصة وقادتها التابعين لها ولنظامها الإداري، ولابد أن يجري هذا النوع من الحروب حينما يكون الطرفان في حالة خلاف. أما النوع الآخر من الحروب، وهو الحرب غير الرسمية[1] فقد سُميت بـ"القرصنة"، وهي نوع من العمليات العسكرية يقوم به مغامرون بحريون بهدف الاستيلاء على سفن أو حمولات أو أشخاص بهدف استرقاقهم أو بيعهم[2]. وقد دأب كثير من المؤرخين الغربيين[3] - أو بالأحرى معظمهم، إن لم يكن كلهم - على وسم النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط بـ"القرصنة"، وعلى مَن قام به بـ"القراصنة"، وقلدهم في ذلك كثير من الكتّاب والمؤرخين العرب، غالبا من دون قصد. وقد إنبرى عدد من المؤرخين العرب مؤخرا للتصدي لهذا الموضوع ومعالجته معالجة علمية جادّة[4]، بهدف تصحيح فهم هذا المصطلح ووضعه ضمن إطاره التاريخي الصحيح.

---

(1) كان فرناند براودل أول من أطلق على القرصنة تسمية "البديل عن الحرب المعلنة"؛
Braudel, Vol. I, Op. Cit., pp. 865-890.

(2) تعرّف البروفيسورة بالميرا برومت نشاط القرصنة أو الإغارة بأنه وسيلة من وسائل الإشتباكات البحرية ذات الفوائد الفورية.

Palmira Brummett; Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery, New York, 1994, p. 98.

(3) في سبيل المثال لا الحصر:

Stanley Lane-Poole; The Barbary Corsairs, London, 1890; Jacques Heers; The Barbary Corsairs: Warfare in the Mediterranean, 1480-1580, (N.P.), 2003;

وقد وصف الكاتب القباطنة العثمانيين في كتابه بـ"الإرهابيين". وينطبق الشئ نفسه على ايرنل برادفودر (Ernle Bradford)، في مقاله المعنون"بربروسا: إرهابي البحر المتوسط"؛

Barbarossa: The Terrorist of the Mediterranean", September 2004, (*).

(4) من ذلك مثلا: إبراهيم خلف العبيدي؛"حركة الجهاد البحري في المغرب العربي خلال العهد العلوي"، ندوة حركة الجهاد البحري، التاسع من ايلول 2001، بغداد، 2002، ص ص 7-26؛ هاشم صالح التكريتي؛ "مداخلة"، ضمن: المصدر نفسه، ص ص ؛ 96-97؛ عبد الجليل التميمي؛ "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين"، المجلة التاريخية المغربية، السنة 58، العدد 23-24، تونس، نوفمبر (تشرين الثاني) 1981، ص188؛ جلال يحيى؛ المغرب الكبير، ج 3: العصور الحديثة وهجوم الإستعمار، بيروت، 1981، ص ص 20-21؛ الشناوي، المصدر السابق، ص ص 905-906؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى؛ "خير الدين برباروسا: مجاهد أم قرصان؟"، العربي، العدد 257، ابريل (نيسان) 1980، ص ص 60-64؛ بسام العسلي؛ خير الدين بربروس، بيروت، 1980، ص ص 72-82؛ رابحة محمد خضير عيسى الجبوري؛ موقف القوى الإسلامية من التوسع الأوربي في المغرب العربي 1492-1578، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، 2006، ص

في معالجتنا لهذا الموضوع لابد أن نركز على قضية واحدة، ألا وهي كيف نُقنع الطرف الآخر بوجهة نظرنا؛ إذ لا يكفي أن ننكر صفة القرصنة على النشاط البحري الإسلامي عامة والعثماني خاصة فحسب، وإنما كيف نثبت، بتقديم الأدلة والبراهين، إن هذا النشاط نوع من الأعمال المشروعة، هدفه الرئيس حماية المواقع والثغور الإسلامية أولا، وردّ الأخطار المُحدقة بها وملاحقتها والقضاء على مصادر قوتها ثانيا. في المقام الأول، ينبغي علينا تعريف معنى لفظتي "قرصنة" و "قرصان" كما يورده الباحثون الغربيون، وما مقابلها في اللغة العربية.

عادة ما يطلق المؤرخون الغربيون على النشاط العثماني في البحر المتوسط تعبيرين: الأول (Privateering)، الذي يعني عملا حربيا بحريا بتفويض من الحكومة يقضي بمهاجمة سفن العدو، و(Privateer)، الذي يعني قائد المركب الذي يقوم بهذا العمل. أما التعبير الثاني فهو (Piracy)، الذي يعني القيام بالاستيلاء على ممتلكات الآخرين من دون ترخيص، ومن دون وجه حق، ولفظتي (Pirates) و (Corsairs)، على الأشخاص الذين يقومون بهذا النوع من العمل. والكلمة الأخيرة تعني تحديدا القرصان بمعنى لص البحر، أو المركب الذي يقوده هذا اللص[1].

وقد يتبادر إلى الذهن إن التعبيرين متشابهان إلى حد بعيد. ولكن ثمة اختلافات جوهرية من الناحية القانونية[2]. فالتعبير الأول، الذي سنطلق عليه

88؛ عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو؛ دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الجزائر، 1972، ص ص 17-22.

(1) وردت لفظة "قرصانة" بمعنى سفينة مسلحة تبحر، وهي مكلفة بمهمة وتعمل بإسم حكومة ما، وتتجول في البحار للقيام بأعمال ضد السفن التجارية ولإحداث القلق في سواحل بلاد الأعداء المقصودين بالذات؛ جيروم ب. واينر؛ "المغرب وقراصنة المغاربة في القرن السابع عشر"، المعهد الجامعي للبحث العلمي، العدد 29-30، 1979، ص 13. وبالمعنى نفسه وردت كلمة "قرصانة" في بحث الدكتور إبراهيم خلف ألعبيدي في تناوله لحركة الجهاد البحري في المغرب خلال القرن السابع عشر، (المصدر السابق، ص 16)، إذ استقى معلوماته من مؤرخ معاصر هو أحمد الناصري في كتابه الإستقصا في دول المغرب الأقصى.

(2) للتفاصيل عن هذه النقطة:

Edward Lewis; "Responsibility for Piracy in the Middle Ages", _Journal of Comparative Legislation and International Law_, 3rd Ser., Vol. 19, No. 1, 1937, pp. 77-89.

لفظة "القرصنة / الغارة" ـ وإن كانت غير رسمية ـ هو حرب شرعية تجري بتخويل من الدولة. ولهذا النوع من القرصنة قوانينه الخاصة، وأحكامه، وعاداته، وتقاليده[1]. أما التعبير الثاني، الذي سنطلق عليه لفظة "لصوصية البحر"، فلم يدخل في الاستخدام إلا خلال القرن السابع عشر. وقد أطلقه الأسبان على القباطنة العثمانيين الذين كانوا يشنون الغارات على السواحل الأسبانية بهدف الاستيلاء عليها أو إيقاع أكبر قدر ممكن من الأضرار بها لمنعها من متابعة نشاطاتها في سواحل شمالي أفريقيا والإغارة على الثغور الإسلامية هناك[2]. ويذكر فرناند براودل ـ ونحن مدينون له إلى حد بعيد لتوضيحه الفرق بين التعبيرين ـ إن الإسبان أطلقوا هذا المصطلح ابتداءً من سنة 1614، حينما طُرد القباطنة المسلمون من مرمورة[3] واستقروا في الجزائر[4]، وإن هذا التعبير وفد إلى البحر المتوسط مع السفن التي كانت تجوب المحيط الأطلسي.

وفي الوقت الذي توفر فيه "القرصنة / الغارة" فرصة للتفاوض بين الطرفين المتنازعين، عن طريق توفير شبكة من الوسطاء لحل الخلافات، وإفتداء الأسرى، وتعويض الضحايا، فإن "لصوصية البحر" لا توفر مثل هذه الفرصة، فليس هناك قانون يحكمها أو قوة تُلزم القائم بها بالتقيّد بضوابط أو روادع معينة، قانونية كانت أم أدبية[5]. وفي الوقت الذي لم يكن فيه هذا النوع من القرصنة منتشرا في الثغور

---

(1) J. L. Anderson; "Piracy and World History", *Journal of World History*, Vol. 6, Issue 2, 1995, pp. 175-199; Slavator Bono; I corsari barbareschi, Turin, 1964, pp. 12-13; in Braudel, Op. Cit., p. 866; Godfrey Fisher; Barbary Legend, War, Trade and Piracy in North Africa: 1415-1815, Oxford, 1957, pp. 84, 139.

(2) Fisher; Barbary Legend, pp. 140.

(3) التحديد الدقيق لهذا الموقع غير معروف على وجه الدقة. وهو ربما يشير إلى قرية مرمورة في جزيرة باروس اليونانية، أو إلى بحيرة مرمرة، أو إلى مدينة مرمورة في كونتية بيدمونت بإيطاليا.

(4) Braudel, Op. Cit., p. 867.

(5) ذكر أحد المؤرخين إن أول معاهدة بهذا الشأن في شمالي أفريقيا كانت في الرابع من آب 1535، بين الإمبراطور شارل الخامس والملك التونسي مولاي الحسن الحفصي، تعهد فيها الأخير بجعل أراضيه وسواحل بلاده إقطاعية تابعة للتاج الإسباني:

J. E. G. De Montmorency; "The Barbary States in International Law", *Transactions of the Grotius Society*, Vol. 4, Problems of War, Paper Read before the Society in the Year 1918, p. 89.

الإسلامية، ولاسيما سواحل البحر المتوسط في شمالي أفريقيا، والسواحل التي دخلت في حوزة الدولة العثمانية، فإنه كان منتشرا على السواحل المسيحية. وثمة جماعات متخصصة كانت تقوم بهذا النوع من القرصنة، مثل الأوزكوك[1] (Uzkoks) في سيغنا (Segna) وفيومي (Fiume) بإيطاليا[2]. وهؤلاء لا يخضعون لدولة أو دين أو فئة معينة، ولا حتى لقانون معين، وإنما هم مجرد قُطاع طرق ولصوص بحريون، وكانوا يسرقون المسيحيين بالقدر نفسه الذي يسرقون به العثمانيين[3]. ومن هنا، فإن مسألة تحديد نشاطاتهم كانت محدودة، إن لم تكن صعبة. وهذا النوع لا وجود له بين "القراصنة" العثمانيين؛ فلم نسمع عن أحد قام بالإغارة على ممتلكات الدولة العثمانية أو ممتلكات الدول الخاضعة لها أو المتحالفة معها، ولا على رعاياها أو سفنها، وإنما على ممتلكات القوى المعادية لها، غالبا لدعم أسطولها وقوتها البحرية[4]، بمعنى تعزيز قدرتها على مواجهة أعدائها، وهو نوعٌ مشروعٌ من العمليات البحرية، لأن الدولة العثمانية كانت في حرب مفتوحة مع أعدائها خلال القرن السادس عشر. ولعل من المناسب هنا أن نقدم مثالين لتحديد وضع القباطنة العثمانيين مقارنة بغيرهم من القراصنة الأوربيين[5]. ففي حديثه عن هذا الموضوع ذكر المؤرخ هارولد لامب ما نصه:

"بدأ أحدهم منذ أمد بعيد بتسمية القادة البحريين العثمانيين [6] بالقراصنة ولصوص الساحل المغربي

---

(1) See: Catherine Wendy Bracewell; The Uskoks of Senj, Banditary and Holy War in the 16th Century Adratic, Ithaca, 1992.

(2) ذكر الأستاذ عبد الرحيم مصطفى إن القرصنة في ذلك العصر لم تكن شيئا مشينا، إذ إن كثيرا من قراصنة العصر أصبحوا أبطالا قوميين فيما يخص التاريخ البحري لبلادهم. ومن هؤلاء هوكنز ودريك وفروبشر، الذين يعدّون المؤسسين الحقيقيين - على حد قوله - لعظمة بريطانيا البحرية. بل إن الملكة اليزابيث نصّبت دريك - بعد أن قام بأعمال جسورة ضد الإسبان - بصفة أميرا لقراصنة البحار؛ المصدر السابق، ص 62.

(3) Braudel. Op. Cit., p. 867.

(4) عن ذلك:
Robert C. Davis; "Counting European Slaves on the Barbary Coast", *__Past and Present__*, No. 172, August 2002, pp. 87-124.

(5) للمزيد من وجهات النظر المشابهة:
Brummett, Op. Cit, p. 103.

(6) في النص الأصلي (الأتراك).

البحريين. ولم يكن ذلك موجودا في عهدهم، لأن هذه الكلمات لم تكن مستعملة حينذاك... إنهم لم يكونوا قراصنة أو لصوصا بحريين على الساحل المغربي ولا أمراء بحر، كما لم يبحروا من أوكار قراصنة. ولكنك ستجد جميع هذه المصطلحات في كتب التاريخ الحديثة الغربية"[1].

ويستطرد لامب، في مقارنته بين خير الدين وأندريا دوريا (1466-1560) قائد الأسطول المسيحي[2]، قائلا:

"... وكان بمقدور خير الدين أن يصبح قرصانا عظيما، لكنه فضّل أن يبحر مستظلا بعلم واحد هو العلم [التركي] الذي كان يرفعه مع راية قيادته، وكان يحمل رتبة أمير بحر، ويتقاضى مرتبه من الخزينة التركية، ويبني سفنه في المسفن، وينفذ خطة أمة واحدة، محاربا ست إمارات أو قوى معادية. أما خصمه أندريا دوريا فعادةً ما كان يوصف بأميرال الإمبراطورية. وكان يبدل أعلامه كما يبدل ولاءه، وكانت له ثلاث عشرة سفينة هي ملكه الخاص في الأساطيل الجنوية والفرنسية والإسبانية، وكان يطالب بنسبة مئوية من الغنائم..."[3].

ولابد من الإشارة إلى إن القائد البحري الجنوي أندريا دوريا، الذي كان يعمل لصالح الملك الفرنسي فرانسوا الأول[4] كان قد غيّر ولاءه لصالح الإمبراطور الأسباني شارل الخامس[5]، إذ لم يكن مقتنعا بالمبلغ الذي كان يدفعه له الملك

---

(1) هارولد لامب؛ سليمان القانوني: سلطان الشرق العظيم، ترجمة: شكري محمود نديم محمود، بغداد - نيويورك، 1961، ص 368.
(2) للتفاصيل: هامش 4، ص 126.
(3) لامب، المصدر السابق، ص ص 368-369.
(4) فرانسوا الأول: ولد في سنة 1494، وتوفي في سنة 1547م. ملك فرنسا بين سنتي 1515-1547.
(5) شارل الخامس: ملك إسبانيا (1516-1556)، وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1519-1556)، ويعرف أيضا بإسم شارل كونت.

الفرنسي، في حين عرض عليه الإمبراطور مبلغ ستة آلاف دوكة عن كل سفينة[1].

أما الباحثة الأمريكية سندي فالار (Cindy Vallar) فتصف القباطنة العثمانيين كالآتي:

> **"كان قراصنة الساحل البربري (Barbary Corsairs) قادة مراكب مفوّضين (Privateers) للإمبراطورية العثمانية أكثر من كونهم قراصنة (Pirates)... وكان الهدف من غاراتهم قد تحوّل من النهب الصِرف وأسْر الأشخاص إلى الجهاد ضد روما والمسيحية"**[2].

وتستطرد الباحثة فالار فتقول:

> **"وتنبغي الإشارة أيضا إلى إن معظم هؤلاء القراصنة كانوا مسيحيين تحولوا إلى الإسلام، وكانوا يقومون بنشاطهم للحصول على الغنائم بصورة شرعية من سفن البحر المتوسط، أو للحصول على حريتهم من العبودية. وقد دأب العالم المسيحي على عدّ هؤلاء قراصنة وإرهابيين، وعاملوهم على هذا الأساس"**[3].

من هنا يتبين إن النشاط البحري العثماني، الذي يسميه الغربيون "قرصنة"، كان نوعا من أنواع العمليات الحربية المشروعة من وجهة نظر العثمانيين، التي يمكن أن نطلق عليه تسمية "الغارات البحرية"؛ إذ كان القباطنة العثمانيون يعملون

---

(1) Emrah Safa Gürkan; Ottoman Corsairs in the Western Mediterranean and their Place in the Ottoman-Habsburg Rivalry (1505-1535), MA Thesis, Department of History, Bilkent University, Ankara, June 2006, p. 90.

(2) Cindy Vallar; The Barbary Corsairs (*).

(3) Vallar, Op. Cit;

وهذان المثالان يدحضان وجهة النظر التي قدمها بعض المؤرخين الغربيين، ومن ضمنهم دي مونتموريس، الذي ذكر إن أساطيل "اللصوصية" التابعة لبربروسا التي كانت تعمل بين الجزائر وتونس هيمنت على البحر المتوسط وزرعت الرعب في كل من إسبانيا وإيطاليا برعاية مباشرة من السلطان سليمان"؛

De Montmorency, Op. Cit., p. 87.

ضمن إطار النظام الإداري العثماني، ومن ثم فإن نشاطهم كان موجها لخدمة قضية الدولة العثمانية في حربها مع خصومها السياسيين في البحر المتوسط، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، كانت الدولة العثمانية، من وجهة نظر البعض، تمثل العالم الإسلامي والخلافة الإسلامية بعد سيطرتها على الأماكن المقدسة في شبه الجزيرة العربية. بمعنى آخر، فإن القباطنة العثمانيين الذين كانوا يقومون بنشاطهم البحري إنما كانوا يقدمون خدماتهم إلى دولة إسلامية، وبالأحرى إلى الإسلام نفسه.

وبما إن الإسلام لم يكن يعترف إلا بنوع واحد من الحرب، بصفته حربا شرعية، ألا وهو الجهاد، الذي يشنُ لنشر الإسلام وتوسيع الممتلكات الإسلامية وحمايتها، فلابد إذن إن "القرصنة" العثمانية، التي أصبحت تعني الآن نوعا آخر من أنواع العمليات العسكرية المشروعة، وإن كانت غير رسمية، أضحت مرادفة لمفهوم "الغزوة" أو "الغارة"، التي كانت تعني شيئا آخر، خلاف ما يرمي إليه الكُتاب الغربيون[1].

ومنذ عهد الفتوحات الإسلامية الأولى، كان المسلمون يشنون الجهاد ضد أعدائهم برا وبحرا بوازع ديني، مصحوب بالتقليد العسكري الذي ورثوه عن حقبة ما قبل الإسلام المتمثل بـ"الغزوات"، التي تبناها الدين الإسلامي[2]. وقد انسجم هذا التقليد مع التطلعات السياسية والعسكرية للدولة العثمانية منذ بداية ظهورها واستمر معها فيما بعد. وقد استجاب المحاربون المسلمون، المنضوون تحت لواء الدولة العثمانية، بأعداد متزايدة، على طول سواحل شمالي أفريقيا وغيرها من المناطق التي خضعت للنفوذ العثماني، إلى دعوة السلاطين العثمانيين للفتوحات، لنشر الإسلام وتوسيع رقعة الدولة. وعلى طول تلك المناطق بدأت الغارات أو "الغزوات" تُشن لحماية "دار الإسلام" ضد "دار الحرب".

وكان السلاطين العثمانيون يفتخرون بلقب "الغازي" ويضعوه أمام أسمائهم تفاخرا، وكان أشهرهم، السلطان سليمان القانوني، يلقب نفسه "غازي الغزاة".

---

(1) John F. Guilmartin, Jr.; "Ideology and Conflict: The Wars of the Ottoman Empire: 1453-1606", *Journal of Interdisciplinary History*, Vol. 12, No. 4, The Origin and Prevention of Major Wars, Spring 1988, p. 725.
(2) Hess, The Evolution…, p. 1906.

والشئ المهم الآخر إن لقب "الغازي" كان مرادفا لكلمة "المجاهد" لدى سلاطين آل عثمان، لكن من المؤكد إن الفرق بين الكلمتين موجود في الفقه الإسلامي، بل وحتى في الموروث العربي.

وعندما حدث التوسع البحري الإسلامي من جانب، ومأساة المسلمين في الأندلس من جانب آخر، انخرط كثير من أولئك "القراصنة ـ الغزاة" بالعمليات البحرية، يدعمهم السلطان العثماني، الذي أصبح يمثل، من وجهة نظر البعض، "خليفة المسلمين وحامي حمى الدين"، بعد إعلانه الخلافة الإسلامية، جزءا لا يتجزأ من العقيدة السياسية والدينية للدولة العثمانية. وعليه، فهو زعيم للجهاد ضد الكفار، مما أضاف زخما معنويا وماديا كبيرا لدولته ولسلطته على حد سواء.

من هنا، فإن مصطلح القرصنة، ونعني به التعبير الأول الذي يستخدمه الأوربيون (Privateering)، الذي أطلقنا عليه تسمية "القرصنة / الغارة"، أصبح يعني، من بين ما يعنيه، "الغزوة" بمعنى الإغارة على ممتلكات العدو، ويعني "الجهاد" أحيانا عندما يتعلق الأمر بمسألة الدفاع عن الإسلام ونشره، وهو مختلف تمام الاختلاف عن المفهوم الذي روّجه الأوربيون بوسم القراصنة العثمانيين ـ الذين سنطلق عليهم تسمية قباطنة ـ بصفة "القرصنة" بمعناها الضيق الذي يعني السرقة واللصوصية وقطع الطريق. لكننا، من جانب آخر، ينبغي أن لا نفهم من ذلك إن الأوربيين الغربيين الذين يستخدمون لفظة (Privateering)، كانوا يقصدون بها مفهوم الغزوة أو الجهاد كما توصلنا إليه هنا، أو كما يفهمه المسلمون عامة. بالأحرى، فهم يطلقون لفظة أخرى وهي لفظة (Raid)، على الغزوة أو الغارة مثلا، ولفظة (Spoil) على الغارة المُحمّلة بالغنائم، أو الغنائم نفسها، وهو ليس المفهوم الذي نقصده بالتأكيد. وفي العموم، فإنك نادرا ما تجد باحثا غربيا يستخدم لفظة (Pirate)، على القباطنة العثمانيين[1]، بدلا من ذلك، فإننا غالبا ما نقرأ تعبير (The Barbary Corsairs)، مثلا، الذي يعني

---

(1) من بين هذه الإستثناءات ما ذكرته البروفيسورة بالميرا برومت بقولها: "كانت القرصنة (piracy) مزمنة خلال القرن السادس عشر، ويبدو إن الأسطول العثماني كان يُستخدم أساسا ضد القراصنة (corsairs)" ؛

Brummett, Op. Cit., p. 94

القراصنة البربريين، أو قراصنة الساحل البربري، وهي تسمية خاطئة بكل الأحوال، فهم لم يكونوا برابرة، وإنما مسلمين عثمانيين، كانوا، في الغالب، مسيحيين من مناطق اليونان والبلقان التي دخلت في حوزة الدولة العثمانية.

إن تعدد المصطلحات الأوربية الخاصة بالقرصنة وتنوع معانيها ودلالاتها اللغوية، وعدم وجود ما يماثلها في اللغة العربية أو في الموروث الإسلامي، باستثناء مفردة واحدة هي (القرصنة)، يدل على إن هذه اللفظة دخيلة على الموروث العربي الإسلامي من جانب، ومتأصلة في الموروث الأوربي من جانب آخر. من هنا يمكننا مسك الخيوط الأولى لرد تهمة (القرصنة) عن النشاط البحري للمسلمين عامة، والعثمانيين خاصة.

رابعا: الاهتمامات العثمانية المبكرة بالملاحة.

تشير المصادر المتوافرة إلى إن الأتراك[1]، خلال مراحلهم الأولى، لم يطوروا تجربة بحرية إلا بقدر محدود[2]. فالمحاربون الأتراك، غير المستعدين للملاحة البحرية، كانوا يعدّون البحر بيئة غريبة للحرب[3]. وقد لخّص الدبلوماسي الإنجليزي السير باول رايكوت 1629-1700 (Paul Raycaut) ، وقت دخول القوة البحرية البريطانية ميدان البحر المتوسط[4]، هذا الموقف الذي يدل على قلة خبرة الأتراك الأوائل بالبحر، باقتباس عبارة من احد الأتراك الذي، عندما سُئل عن قوة المسلمين في البحر، زعم إن "... الله قد منح البحر للمسيحيين والأرض لهم [أي المسلمين]"[5]. وفي السياق نفسه يذكر الأستاذ هاملتون جب[6]:

---

(1) ونقصد هنا السلاجقة الأتراك، قبل ظهور إمارة آل عثمان سنة 1299.

(2) Henry and Renée Kahane and Andreas Tietze; The Lingua Franca in the Levant, Urbana, 1958, pp. 3-10; in: Hess, The Evolution…, p. 1895; Haji Khalife; The History of the Maritime Wars of the Turks, translated from old Turkish by James Mitchell, London, 1830, p. 12.

(3) جب وبوون، المصدر السابق، ص 129.

(4) عن دخول الإنجليز إلى ميدان البحر المتوسط؛ Michaela D'Angelo; "In the English Mediterranean 1511-1815", *Journal of Mediterranean Studies*, Vol. 12, No. 2, 2002, pp. 271-285.

(5) Paul Raycaut, Present State of the Ottoman Empire, London, 1668, pp. 215-216; see also: E. Hamilton Currey; Sea-Wolves of the Mediterranean: The Grand Period of Moslem Corsairs, London, 1910, p. 47.

(6) جب وبوون، المصدر السابق، ص 131.

"... لم يشهد العثمانيون أي نشاط بحري ذي أهمية [قبل عهد السلطان مراد الأول][1]، إذ لم تكن لديهم أية سياسة خاصة بالنشاط البحري. وبدلا من ذلك، كان بعض رعاياهم يبتغون الربح في الإستيلاء على السفن التجارية المحملة بالبضائع القيمة، وكانوا يفضلون الإستيلاء على السفن المملوكة لغير المسلمين"[2].

وأيا كان موقف العثمانيين من البحر، فإن اجتياحهم للأناضول في نهاية القرن الحادي عشر قد قرّبهم من منطقة لها تاريخ بحري طويل. وبعد وصولهم إلى سواحل آسيا الصغرى في أعقاب معركة ملازكرد سنة 1071[3]، استولى المسلمون الأتراك على الساحل الذي وفر لهم البحارة والسفن[4]. ولكن كانت هناك أكثر من مشكلة تواجههم في عبور البحار التي كانت تحيط بآسيا الصغرى، لأن الإمبراطورية البيزنطية والجمهوريات الإيطالية، التي لها تاريخ طويل من الحروب البحرية، عارضت توسع المسلمين شمالا[5].

ومع ذلك، ففي القرن الحادي عشر، تضاءل مستوى القوة البحرية المسيحية الشرقية بعد عقود من سيطرة أمراء البحر البيزنطيين على الطرق التجارية في

---

(1) بنى السلطان مراد الأول (1389-1362) سفنا على نفقته الخاصة في غاليبولي بعد إنتزاعها من البيزنطيين سنة 1377، ولكنها لم تزد عن كونها مكملة لتلك التي كانت في أيدي قباطنة مستقلين يعيشون في الموانئ التي تم الإستيلاء عليها؛

Imber, The Ottoman Empire…, p. 288ff.

(2) جب وبوون، المصدر السابق، ص131.

(3) من المعارك الفاصلة في الصراع بين العالمين الإسلامي والمسيحي، جرت بين سلاجقة الروم بقيادة ألب أرسلان والبيزنطيين بقيادة رومانوس الرابع. للتفاصيل:

Ralph W. Brauer; "Boundaries and Frontiers in Medieval Muslim Geography", *Transactions of the American Philosophical Society*, New Ser., Vol. 85, No. 6, 1995, pp. 1-73.

(4) Hess, The Evolution…, p. 1895.

(5) Linda T. Darling ; "Contested Territory: Ottoman Holy War in Comparative Context", *Studia Islamica*, No. 91, 2000, pp. 133-163; Ottoman Politics through British Eyes: Paul Rycaut's the Present State of Ottoman Empire, *Journal of World History*, No. 1, Vol. 5, 1994. p. 97.

النصف الشمالي للبحر المتوسط وحمايتها ضد الهجمات الإسلامية[1]. فضلا عن ذلك، فإن التقارب الذي حصل بين الحكام المسيحيين خلال المراحل المبكرة من القرن الحادي عشر، بسبب التقدم الإسلامي، عمل على تحويل قوة الأسطول البيزنطي إلى قوة هجينة، ضعيفة التمويل[2]. وفي الوقت نفسه، أخذت التجارة البحرية للإمبراطورية البيزنطية تنتقل شيئا فشيئا إلى أيدي تجار الدويلات الإيطالية[3].

ومهما يكن من أمر، فإن ظهور المسلمين الأتراك على الشواطئ الإيجية في الربع الأخير من القرن الحادي عشر قد كشف بوضوح عن ضعف القوة البحرية البيزنطية. فمنذ سنة 1080، كان المحاربون الأتراك قد إحتلوا أقساما واسعة من الخط الساحلي للأناضول، بمساعدة نجاري السفن المحليين، وبدأوا بإنشاء أساطيل حربية[4]. وعلى الرغم من إن الإمبراطور البيزنطي ألِكس كومنين (1081-1118) قد دمر سفن أول قبطان تركي، هو أبو القاسم[5]، فإن الأتراك سرعان ما شكلوا تحديا بحريا أكثر خطورة[6]. ففي سميرنا (أزمير الحالية)، المركز القديم للنشاط البحري البيزنطي، بنى محارب تركي يدعى شاكا[7] (Chaka)،

---

(1) عن تاريخ البحرية البيزنطية: ارشيبالد ر. لويس؛ القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (500-1100)، تر. أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم: محمد شفيق غربال، القاهرة- نيويورك، (بلا)، صفحات متفرقة؛

Helen Ahrweiler, Byzance et la mer, Paris, 1966, passim.

(2) Hess, The Evolution…, p. 1896.

(3) عن تاريخ إضمحلال بيزنطة خلال القرن الحادي عشر؛

George Ostrogorsky; History of the Byzantine State, trans. Joan Hussy, London, 1956, pp. 280-310.

(4) Hess, The Evolution…, p. 1896.

(5) لا تتوافر لدينا معلومات مفصلة عن هذا القبطان سوى هذه الإشارة المقتضبة.

(6) Ibid.

(7) شاكا بك: قبطان تركي ولد في ازمير (سميرنا الحالية) خلال حقبة الحكم الأناضولي بين 1081-1095. أُسر خلال إحدى الحروب مع الإمبراطورية البيزنطية التي قاتل خلالها بشجاعة ولفت إنتباه الإمبراطور البيزنطي نقفور الثالث بوتانياتس، فأخذه الى قصره، وسمح له بالعمل معه، ثم أُطلق سراحه في سنة 1081. أسس أول أسطول تركي أناضولي في ازمير سنة 1081، وكان مكونا من 33 مركبا شراعيا و 17 مركبا مجدافيا، تمكن به من فتح كل من ليسبوس في سنة 1089، وخيوس سنة 1090، التي مثلت أول انتصار بحري سلجوقي أناضولي في البحر. وفي سنة 1091، تمكن أسطول شاكا بك من فتح كل من ساموس ورودس في بحر إيجة. للتفاصيل:

"Çaka Bey", Wikipedia, (*);

بمساعدة أحد الحرفيين الأناضوليين، أسطولا كبيرا دمر الجزر الإيجية وهدد القسطنطينية[1]. لكن الأسطول البيزنطي، خلال هذه المرحلة، كان لا يزال محتفظا بشئ من القوة التي مكنته من صد الهجمات الإسلامية التركية، إذ أرسل كومنين، بعد استفزاز بحري تركي، أسطولا بيزنطيا أكبر سنة 1091 ضد الأسطول التركي ودمره[2]. وعند نهاية القرن حقق الحكام البيزنطيون انتصارات ضد الحملات البرية والبحرية التركية على حد سواء. وبالنتيجة، نجحوا في إبقاء المسلمين بعيدين عن الخطوط الساحلية لآسيا الصغرى خلال القرن الثاني عشر. ولكن الأمر اللافت للنظر إن هذه الانتصارات لم تؤدّ إلا إلى المزيد من التدهور البحري للإمبراطورية الرومانية الشرقية[3]؛ إذ أدى تضاؤل الثروات إلى صرف النظر عن العمليات البحرية المكلفة، واللجوء إلى الاستعانة بقابليات الإيطاليين ضد المناوئين المسيحيين والعثمانيين المسلمين على حدّ سواء، بتقديم تنازلات بحرية. ففي سنة 1082 وقع كومنين إتفاقيات تجارية، تم بموجبها تسليم السيادة البحرية في شرقي البحر المتوسط إلى البنادقة[4]. وبعد هذا التغلغل السلمي للبنادقة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، أصبحت بيزنطة، حينئذ، محصنة خلف سلسلة من الحصون التي أبقت وجود الأتراك محصورا بأواسط الأناضول[5]. وأدى ذلك، بالنتيجة، إلى قيام الإداريين البيزنطيين، الذين أصبحوا الآن يشعرون بالأمان ضمن حدود تدافع عنها القوة البحرية الإيطالية والقلاع الأناضولية، إلى تخفيض أسطولهم، معززين بذلك السيطرة التجارية البحرية البندقية في الشرق.

يلماز أوزتونا؛ تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: محمود الأنصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، 1988، ص 68.

(1) Hess, The Evolution…, p. 1896.

(2) Hess, The Evolution…, p. 1896.

(3) Justin McCarthy: The Ottoman Turks: An Introductory History to 1923, London & New York, 1997, pp. 36-51.

(4) Horatio F. Brown, ; “The Venetians and the Venetian Quarter in Constantinople to the Close of the Twelfth Century”, *The Journal of Hellenic Studies*, Vol. 40, Part 1, 1920, pp. 68-88; Hess, The Evolution…, p. 1896; Rose, Medieval Naval Warfare, p. 7.

(5) Ahrweiler, Op. Cit., p. 187.

أدى ترسخ الوضع ألبندقي على طول الخط الساحلي للإمبراطورية البيزنطية خلال القرن الثالث عشر، لاسيما بعد الاستيلاء على القسطنطينية سنة 1204، خلال الحملة الصليبية الرابعة[1]، إلى تأسيس إمبراطورية تجارية مكوّنة من موانئ وجزر وقنصليات انتشرت على امتداد طرق التجارة الرئيسة للشرق. فمن البندقية باتجاه مصر وسوريا جنوبا، حتى سواحل البحر الأسود شمالا، عززت جمهورية البندقية خطوط اتصالاتها البحرية من خلال السيطرة على المواقع الإستراتيجية، مثل: مودون، وكورون، وكريت، ونيغروبونتي[2]. من جانب آخر، حصلت جنوا، المنافس اللدود للبندقية، على موطئ قدم تجاري لها عند حدود الأراضي البيزنطية عندما أعاد التحالف اليوناني ـ الجنوي تأسيس السلطة البيزنطية في القسطنطينية في سنة 1261. وما أن حلّ القرن الرابع عشر حتى شكلت القواعد البحرية التجارية الممتدة من خيوس إلى ما وراء القسطنطينية في البحر الأسود الإطار العام لإمبراطورية بحرية جنوية شرقية[3].

وبسبب إفرازات عصر النهضة، برزت إيطاليا قوة توسعية في الشرق بين قوى البحر المتوسط الكبرى. وكانت هناك جملة من العوامل أثرت في الوسائل التي توسعت بموجبها الدويلات الإيطالية، من بينها قلة عدد سكانها واعتماد التجارة على النقل البحري[4]. وبسبب ذلك، لم يتجه الإيطاليون إلى مهاجمة أراضٍ واسعة وإدارتها، بل إلى تأسيس إمبراطوريات محدودة، وذلك بوضع نقاط تجارية محصنة في البلاد أو المقاطعات المحاطة ببلاد أجنبية، وعلى الجزر بصفتها مواقع إستراتيجية تقع على الطرق البحرية المؤدية إلى الشرق. وعليه،

(1) للتفاصيل عن الحملة الصليبية الرابعة:
Donald E. Queller & Day, Gerald W. ; "Some Arguments in Defense of the Venetians on the Fourth Crusade", *The American Historical Review*, Vol. 81, No. 4, Oct., 1976, pp. 717-737.

(2) Andrew C. Hess, "The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning of Sixteenth-Century World War", *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 4, 1973, p. 59.

(3) عن أهمية خيوس وعلاقتها بالتجارة الشرقية لجنوا؛
Philip P. Argenti; "The Occupation of the Chios by the Genoese and their Administration of the Island 1346-1566", Vol. I, London, 1958, pp. 31-105.

(4) Hess, The Evolution…, pp. 1896-1898.

فإن مسألة الدفاع عن تلك المناطق المحدودة كانت تعتمد على ثلاثة عوامل رئيسة: القدرة السياسية للحكام الإيطاليين؛ والقوة الاقتصادية للجمهوريات التجارية؛ وأخيرا، وهو ما يهمنا، التفوق التقني للملاحين الإيطاليين[1].

في هذا الوقت كان الأتراك، المحصورون ضمن حدود الأناضول، بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين، يكافحون لإختراق الحدود التي قيّدت وجودهم بآسيا الصغرى منذ الحرب الصليبية الأولى[2]. وخلال المراحل المبكرة من القرن الثالث عشر أصبحت أقسام من الساحل الأناضولي، مثل: سينوب، وأنتاليا، وعلانية، تحت سيطرة الأتراك[3]. ولكن بعد مدة ليست طويلة بدأوا بتنظيم حدودهم البحرية، لاسيما بعد هزيمتهم أمام المغول في معركة قوصة داغ (Köse Dagh) سنة 1243[4].

كانت النتيجة السياسية للاجتياح المغولي تكوين خليط من الجماعات العسكرية التركية التي انتشرت على طول الحدود المسيحية ـ الإسلامية في الأناضول[5]. وبما إن الإمبراطورية البيزنطية لم يعد بمقدورها تجميع قوات كبيرة، وإن

---

(1) من وجهة نظر المؤرخ فردريك لين (F. Lane)، كانت ألبندقية قادرة على استعادة وضعها المهيمن في تجارة الشرق، لا بسبب سيطرتها على البحار، أو تفوق أسطول قوادسها، وإنما لأن التقدم العثماني غربا، كان قد تعرض للإعاقة بسبب توجيه الجهود لإعاقة تقدم قوات تيمورلنك في آسيا الوسطى؛

Fredric. C. Lane; Venice: A Maritime Republic, Baltimore, 1973, p. 199; Rose, Medieval Naval Warfare, pp. 109-110;see also: “Venetian Shipping During the Commercial Revolution”, *The American Historical Review*, Vol. 38, No. 2, Jan., 1933, pp. 219-239.

(2) للتفاصيل عن الحروب الصليبية:

Steven Runciman; A History of the Crusades, (2 Vols.), Cambridge, 1952; Harold Lamb; The Crusades the Flame of Islam, New York, 1930.

صالح محمد العابد؛ "الحروب الصليبية دوافعها وبواعثها الممهدة"، المورد، المجلد السادس عشر، العدد الرابع، 1408هـ - 1987م، ص ص 5-14.

(3) للتفصيل عن تاريخ الحدود البحرية التركية خلال الفترة السلجوقية؛

Ismail H. Uzunçarşıl; Anadulu Türk Tarihi Vesikalarından kitábeler, Istanbul, 1927-1929, II, pp.234-236; Osman Turan; Türkiye Selçululars, Ankara, 1958, pp. 123-129; Ahrweiler, Op. Cit., p. 307.

(4) Labib, Op. Cit., p. 438.

(5) Hess, The Evolution…, p. 1898; Stephen Turnbull; The Ottoman Empire 1326-1699 (Essential Histories), New York – London, 2003, pp. 13-15.

الإيطاليين كانوا مستمرين في سياسة الاحتلال المحدود للساحل، فإن أقساما من الخط الساحلي الأناضولي سرعان ما انتقلت إلى أيدي "الغزاة"[1] العثمانيين، الذين أسسوا تلك الإمارات الحدودية وحكموها بعد تأسيس إمارتهم في سنة 1299[2]. وعندما سيطر هؤلاء، وهم قليلو خبرة بالبحر، على المناطق التي كانت لها تقاليد بحرية عريقة، فإنهم سرعان ما انخرطوا بالغارات البحرية، ولاسيما في جنوب غربي الأناضول. ومن أشهر هؤلاء المغامر البحري المسلم عمر بك[3]، الذي كان يشن غاراته في المناطق الساحلية الواقعة في أنحاء متفرقة من بحر إيجة خلال القرن الرابع عشر[4]. ومع إن تلك العمليات لم تسفر عن مكاسب إقليمية، فإنها أكسبت العثمانيين المزيد من التجربة في ميدان البحر[5].

وخلال القرن الرابع عشر بدأت الإمارة العثمانية بالتوسع، ووجد السلاطين العثمانيون أنفسهم قد إنجرّوا إلى الحرب في البحر شيئا فشيئا[6]. كما إن فتوحات البلقان، التي كانت تتوجه من الأناضول، قد عرّضت القطعات العثمانية لهجمات القوادس المسيحية التي كانت تهيمن على المضائق التي تفصل قسمي الدولة

---

(1) للمزيد عن لقب "الغزاة"؛

Irène Mèlikoff, "Ghāzī", Encyclopedia of Islam (hereafter: *EI*), II, pp. 1043-1045.

(2) تذكر الباحثة سوزان روز إن بداية تأسيس هذه القوة الرئيسة في المنطقة لم يكن لها أثر في القوى البحرية المتنافسة، ولكنها لم تدعم رأيها بما يكفي من الأدلة، بخلاف وجهة النظر التي قدمها أندرو هِس؛

Rose, Medieval Naval Warfare, p. 109.

أما عن أهم الإمارات التي ظهرت خلال هذه المرحلة فهي: منتشة، وآيدن، وصاروخان، وقرة مان، وقرة سي.

(3) لا تتوافر لدينا معلومات كافية عن هذا الشخص.

(4) Hess, The Evolution…, p. 1898.

(5) Edward Freeman; The Ottoman Power in Europe: Its Nature, its Growth, and its Decline, London, 1877, pp. 87-136.

(6) بعد عبور العثمانيين إلى غاليبولي سنة 1365، وإستقرارهم على السواحل الأوربية المطلة على بحر مرمرة، أصبحوا في مواجهة الدولة البيزنطية التي كان لها أسطول وسواحل بحرية وعدد كبير من الجزر. وبذلك، أصبحوا قريبين من البنادقة، منافسيهم العتاة وأقوى قوة بحرية خلال تلك المرحلة. وبمرور الوقت ظهرت حاجتهم الملحة لإنشاء أسطول لتأمين سواحلهم الغربية وللتوسع شرقا في البلقان وللإستيلاء على الجزر القريبة من البلقان ومن بحر إيجة والبحر الايوني، وللقضاء على البقية الباقية من ممتلكات البيزنطيين كذلك، وطرد البنادقة والجنويين من المناطق التي كانوا يتغلغلون فيها أو تلك التي امتلكوها منذ الحروب الصليبية؛

Rose, Medieval Naval Warfare, p. 109.

العثمانيـة (البسـفور والـدردنيل). لـذا، تطلّـب المـرور التجـاري والعسـكري مـن البحرين الأسود والإيجي وإليهما، فضلا عن حمايـة الخطـوط السـاحلية فـي البلقـان وآسيا الصغرى، تشكيل أسطول قوي[1]. وأخيـرا، استقر القرار، خـلال منتصف القرن الخامس عشر[2]، علـى فتح القسطنطينية. يوضـح الأستاذ اندرو هِس ذلك بقوله:" لم يكن بإمكان أي حـاكم مسلم أن يأمل بالسيطرة علـى الأراضـي التـي تم فتحهـا مـؤخرا مـن دون إزاحـة السـيطرة المسـيحية مـن القسـطنطينية"[3]. ولكـن احتلال العاصمة البيزنطية كـان يعنـي تحدي الدولـة البحريـة الإيطاليـة التـي كانـت تزود تلك المدينة المحصنة وتدافع عنها[4]. وهكذا بدأت الحملات العثمانيـة الأولـى لتحقيـق هدفين: فتح القسـطنطينية مـن جانـب، وتحييـد القـوة البحريـة البندقيـة التـي كانت تدافع عنها من جانب آخر.

يعلق الأستاذ هاملتون جب على ذلك بقوله: "كان إحتلال السواحل الشرقية في أوربا والجزر المحيطة بها ضرورة للدولة العثمانية، ولم يكن بالإمكان السيطرة عليها من دون قوة بحرية. وكانت البندقية هي القوة الوحيدة التي كان بمقدورها إيقاف المد العثماني المتوسع، لأنها كانت تمتلك أسطولا بحريا قويا"[5]. وهكذا نرى إن مسرح الصراع، في أول الأمر، كان مركزا ضد البنادقة وضد تدمير أسطولهم، فتم طردهم من مناطق ساحلية واسعة من شبه جزيرة البلقان وبحر إيجة وغيره.

خامسا: الحملات البحرية الأولى (1503-1453).

---

(1) كان البيزنطيون، منافسو العثمانيين، يمتلكون شواطئ طويلة وعددا كبيرا من الجزر وأسطولا بحريا، ولم يكن بإمكان العثمانيين القضاء عليهم من دون سفن، وكذا الحال في ما يخص البنادقة والجنويين، الذين كانت قوتهم تقوم على أساطيلهم، ولهم مناطق نفوذ في الشرق. لذلك، كانت السفن الحربية ضرورية للعثمانيين ليتمكنوا من إحتلال جزء كبير من المناطق التي دخلت في تبعيتهم فيما بعد، وللاحتفاظ بالفتوحات التي قاموا بها في البر.

(2) ليست لدينا معلومات مؤكدة فيما إذا كان السلطان محمد الثاني هو أول سلطان عثماني قد فكر بإتخاذ هذه الخطوة أم لا.

(3) Hess, The Evolution..., p. 1898.

(4) أدت النزاعات بين الجنويين والبنادقة على ما تبقى من ميراث البيزنطيين، وخسارة الجنويين وتلاشي قدرتهم البحرية نتيجة ذلك الصراع سنة 1380، إلى ظهور ألبندقية قوة منافسة أمام التوسع العثماني، التي بدأت، منذ ذلك الحين، تشكل مصدر الخطر الرئيس أمام الفتوحات العثمانية اللاحقة في الأراضي الأوربية والجزر المحيطة بها.

(5) جب وبوون، المصدر السابق، ص ص 129- 131.

فتح القسطنطينية.

بدأ السلطان محمد الثاني بفرض حصاره البري على القسطنطينية في التاسع والعشرين من مايس1453 [1]، ثم كثف حصاره بإستخدام القوة البحرية الموجودة عند مدخل القرن الذهبي[2]. وقد سجلّ المؤرخ اليوناني المعاصر للأحداث كريتوفولوس اندهاش القادة البيزنطيين من هذا التطور الجديد في الحروب الطويلة مع العثمانيين[3]؛ فمنذ القرن الحادي عشر لم تكن القوادس الإسلامية قد ظهرت بمثل هذه القوة أمام القسطنطينية؛ وهذه المرة ظهر الأسطول العثماني بعدد لم يسبق له مثيل[4]، فضلا عن قوته الجبّارة المعززة باستخدام المدافع[5].

---

(1) Mitler, Op. Cit., p. 71.

(2) يذكر جيهان دي وافرن (Jehan de Wavrin) ان الأسطول العثماني كان مكونا من ثماني عشرة قادرغة، وما يتراوح بين ستين إلى سبعين غاليوتا، وستة عشر إلى عشرين مركبا صغيرا؛ للتفاصيل؛

Chroniques et anchiennes chroniques et anchiennes istories de la Grant Bretaigne, a present nomme Engleterre, ed. William Hardy and Edward L. C. P. Hardy; in: Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland during the Middle Ages, London, 1891, XXXIX, pt, 5, 252;

ويذكر عاشق باش زادة إن الأسطول كان مكونا من أربعمائة سفينة؛

Âşıkpāşāzāde; Die altomanische chronik des Âşıkpāşāzāde, Friedrich Giese (ed.), Leipzig, 1929, p. 121, 131; in: Hess, The Evolution..., p. 1899, (hereafter; Âşıkpāşāzāde);

أما المؤرخ اليوناني كريتوفولوس (Kritovoulos) فيذكر رقم (350) سفينة، فضلا عن مراكب النقل؛

Kritovoulos: History of Mehmed the Conqueror (hereafter: Kritovoulos), trans. Charles Riggs, Princeton, 1954, pp. 15-16, 37; cited in: Hess, The Evolution…, p. 1898.

قارن: إبن كمال؛ تواريخ آل عثمان، ايكنجي جلد، أنقرة، 1954-1957، ص 33.

(3) Kritovoulos, p. 38;

وعن سبب إخفاق القوة البحرية البيزنطية في صد الحملة العثمانية:

Halil Inalcik; "Mehmed the Conqueror (1432-1481) and His Time", *Speculum*, Vol. 35, No. 3, July 1960, pp. 411-412.

(4) Hess, The Evolution…, p. 1900.

(5) تذكر الباحثة سوزان روز إن استخدام المدافع ربما كان المظهر الأكثر أهمية في هذا الصراع، والأخير في هذه المنطقة بين المدن المتنافسة. لكن، مع تقدم الزمن، أصبحت القدرة على نشر المدافع العامل الحاسم في الحروب البحرية على نحو متزايد. وهذا لا يشمل المدافع المحمولة على متون السفن فحسب، وإنما المدافع الساحلية التي كان بمقدورها إعاقة إستخدام القوادس والمراكب الأخرى التي كانت تدعم المحاصَرين في المدن الساحلية، أو تقدم الإنقاذ لهم. وقد إتضح ذلك، على نحو جلي، خلال حصار ألبندقية في نهاية القرن؛ إذ كانت القوادس ألبندقية غير قادرة

اخترق العثمانيون الأسوار المحصنة للقسطنطينية، ووضعوا أيديهم على كامل الإرث البيزنطي بقوة، الذي كان يضم، من بين ما يضم، تاريخا بحريا طويلا[1]. وأيا كان تأثير ذلك في السلطان، فإن سيطرة العثمانيين على الممر البحري بين البحرين الإيجي والأسود قد أوضحت بجلاء للإيطاليين إن القوة البرية للعثمانيين اتخذت بُعدا بحريا جديدا، كما أوضحت للعثمانيين إن الأداء غير المنتظم لأسطولهم خلال الحصار يستدعي الحاجة لدولة تُحكم من اسطنبول[2].

وما أن سيطر محمد الفاتح على عاصمته الجديدة[3]، حتى بدأ يفكر جديا بإنشاء أسطول جديد[4]. ولغرض المحافظة على التجهيزات القديمة للأسطول في غاليبولي، جمع السلطان النجارين، والتجار، والباعة من المناطق الساحلية في الدولة للخدمة البحرية في العاصمة الجديدة اسطنبول[5]، كما أمر بإنشاء دور لصناعة السفن لتجهيز القوادس (القادرغات) بأسطول حربي ضخم[6]. وفي الوقت نفسه، شجع استيطان التجار المسيحيين، لاسيما الجنويين واليونانيين، الذين كانوا قد أَلِفوا التجارة البحرية، في اسطنبول[7]. وإدراكا منه إن نمو المدينة يعتمد على ازدهارها التجاري، منح السلطان محمد الفاتح إعفاءات ضريبية للتجار

على الإسهام في الدفاع عن المدينة على نحو فاعل بسبب وزن المدافع العثمانية المنتشرة أمامها. من هنا، فإن سقوط عاصمة الإمبراطورية البيزنطية قد أسهم في تطور القوة البحرية العثمانية؛ فبإستخدام ميناء إسطنبول (القسطنطينية سابقا)، ومعدات المسافن التي كانت موجودة فيها، أو بالقرب منها، فضلا عن الملاحين اليونانيين، ونجاري السفن في الدولة، أصبح بالإمكان السيطرة على شرقي البحر المتوسط؛

Rose, Medieval Naval Warfare, p. 111.

(1) Hess, The Evolution…, p. 1900.

(2) يصف ابن كمال، في الصفحات 56-58، المصاعب البحرية العثمانية خلال حصار القسطنطينية؛ بينما يشير عاشق باش زادة إلى التهديد المسيحي للبحار؛ المصدر السابق، ص 143؛ ويسجل كريتوفولوس حاجة العثمانيين لأسطول قوي، ص ص 141-142؛ نقلا عن:

Hess, The Evolution…, p. 1899.

(3) حتى سنة 1453، كانت أدرنة عاصمة العثمانيين.

(4) تم تعيين سليمان بك لإدارة هذا الأسطول، وهو أول قبطان عثماني رسمي كما يذكر كاتب جلبي؛

Khalife, Op. Cit., p. 12; Imber, The Ottoman Empire…, p. 291.

(5) Hess, The Evolution…, p. 1899.

(6) Rose, Medieval Naval Warfare, p. 7.

(7) Halil Inalcik; "The Policy of Mehmed II toward the Greek Population of Istanbul and the Byzantine Buildings of the City", *Dumbarton Oaks Papers*, Vol. 23,1969, pp. 229-249;Mitler, Op. Cit.

الأجانب[1]، وأعاد إسكان المدينة بالحرفيين والعمال من الجنويين واليونانيين والأرمن، فضلا عن اليهود، وشرع ببرنامج أعمال عامة[2].

وبسبب الصدمة التي أحدثها سقوط القسطنطينية في العالم الأوربي، بدأ القادة المسيحيون يفكرون بما ستفعله هذه الدولة الإسلامية، التي أصبحت تسيطر الآن على عاصمة الإمبراطورية البيزنطية[3]. ومن الطبيعي أن تتوقع الدول المسيحية الواقعة على حدود الدولة العثمانية شن المزيد من الحروب، لأن الجذور العميقة لآل عثمان كانت قد تأصلت في مواصلة الجهاد الإسلامي[4]. وقد أكد السلطان محمد الفاتح في طرابزون، سنة 1461، انه إنما كان يحارب في سبيل الله وليس حبا بالفتح:

> **"لم يكن الدافع في هذا الجهد كله الاستيلاء على مدينة أو دولة ما، وإنما الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاته؛ فما أتحمله في سبيل الغزو[5]، الذي هو أسمى طريق للجنة، لأهون عندي ألف مرة من تحمّل أسوأ الشرور والآثام "[6].**

---

(1) في الثامن عشر من نيسان 1454 مُنحت ألبندقية إمتيازا خاصا لدفع 2% فقط من قيمة الرسوم الجمركية على البضائع الداخلة والخارجة من الدولة العثمانية، فضلا عن حصولها على ممثلين تجاريين يطلق عليهم إسم بايلة أو بايلو(Balyo / Baile)، يعيشون في إسطنبول، مقابل دفع إتاوة سنوية قدرها مائتي ألف دوكة ذهبية. كما مُنحت منافستها جنوا حقوقا مشابهة في القرم وبعض الجزر الإيجية مقابل إتاوة أيضا.

وقبل فتح القسطنطينية أرسل ألبندقيون لورينزو مورو (Lorenzo Moro) سفيرا لهم لتجديد المعاهدة التي كانوا قد عقدوها مع العثمانيين في سنة 1446. وقد أكد السلطان المعاهدة في العاشر من أيلول سنة 1451. وكان الهدف من عقدها عزل البيزنطيين سياسيا؛

Shaw, Op. Cit., p.123; Arnold Joseph Toynbee; "The Ottoman Empire in World History", _Proceedings of the American Philosophical Society_, Vol. 99, No. 3, June 1955, pp.119-123.

(2) Kritovoulos, passim; Argenti, Op. Cit., Vol. I, p. 219; Currey, Op. Cit., pp. 47-48.

(3) عن تأثير الفتح الإسلامي في العالم الغربي؛

Robert Schwoebel; The Shadow of the Crescent: The Renaissance Image of the Turk, (1453-1517), Nieuwkoop, 1967, pp. 1-81; Currey, Op. Cit., p. 47.

(4) Hess, The Evolution...., p. 1902.

(5) وردت كلمة "غزو" هنا بمعنى "الجهاد".

(6) إبن كمال، المصدر السابق، ص 196؛ وعن الطموحات التوسعية للسلاطين العثمانيين عامة، والسلطان محمد الفاتح خاصة:

Brummett, Op. Cit., pp. 5-6, 10.

ولكن، هل كانت دوافع الجهاد وحدها هي التي تحرك العثمانيين؟[1] لا يبدو الأمر كذلك. يعتقد ابن كمال، أبرز مؤرخي التاريخ العثماني المبكر، ممن كتبوا عن القرن الخامس عشر، بذلك. وفي إشارته المعبرة عن المطامح العالمية للسلطان محمد الفاتح، يدوّن واحدا من الأهداف الرئيسة للسياسة البحرية العثمانية خلال حقبة التوسع بأكملها، بقوله:

> **" لقد استسلم لرغبته في غزو العالم كنور الشمس الساطع، وكان يخطط لإشعال نار حامية في جميع الأراضي الزراعية الخاصة بالحكام الثائرين في ولايات بلاد الروم (الإمبراطورية البيزنطية). فاحتل بيد من حديد وقبضة الفاتح المنتصر المدينة تلو الأخرى، واستولى على أراضي الأمراء الممتدة على طول الشواطئ البحرية. وكانت خطته تقضي بالاندفاع لاجتياحهم كالموج الهادر"**[2].

وعندما تمكن من إخضاع المورة سنة 1467 هتف:"ها قد عادت لي أوربا وآسيا! يا لبؤس المسيحية. لقد فقدت أوربا سيفها وترسها على حد سواء"[3].

على أية حال، فبفتحه القسطنطينية اعترف العالم الإسلامي به زعيما للجهاد ضد العالم المسيحي، ثم أخذ يدّعي الزعامة على الحكام المسلمين الآخرين كلهم، بضمنهم السلاطين المماليك، وبدأ يطالب بحقه في استبدالهم بصفتهم حماة للعتبات المقدسة في الحجاز.

---

(1) تحمل الأساطير التركية القديمة فكرة مفادها إن الله قد اختار الأتراك لحكم العالم؛ Osman Turan; "The Ideal of World Domination among Medieval Turks", <u>Studia Islamica</u>, IV, 1955, pp. 77-90;

ويعتقد البابا بايوس الثاني (1458-1464) ان ذلك كان هدف الأتراك؛ Schwoebel, Op. Cit., pp. 71-73; Nicholas Adams: The Acquisition of Pienza 1459-1464, <u>*The Journal of the Society of Architectural Historians*</u>, Vol. 44, No. 2, May, 1985, pp. 99-110; C. Johnson (Reviewed Work), *Pius II (Aeneas Silvius Piccolomini), the Humanist Pope* by: Cecilia M. Ady, <u>The English Historical Review</u>, Vol. 29, No. 115, Jul., 1914, pp. 568-569.

(2) إبن كمال، المصدر السابق، ص 180.

(3) Kinross, Op. Cit., p.133.

وأيا كانت دوافع الفتح، فإن أي حاكم لم يكن بمقدوره تكوين دولة مستقرة وثابتة من دون موارد اقتصادية كبرى. انتزاع القسطنطينية نفسه اكسب السلطان مدينة عالمية مركزية ذات اقتصاد ضخم تمكن بمقتضاه من تركيز الإدارة لدولة كبيرة فيما بعد[1]. ومن تلك المدينة أخذت الجيوش والقوى البحرية ترسل للاستيلاء على ثروات "الكفار"[2]. وبدعم من النقل البحري غير المكلف، شرع الإداريون العثمانيون باستخدام اقتصاديات المناطق المفتوحة لدعم النظام العثماني الذي كان أساسه يكمن في الاقتصاد المتوسع[3]. ولكن، ماذا كانت تلك الفتوحات في حقيقتها؟ يجيب الأستاذ ستانفورد شو على ذلك بقوله:"لقد كان الدافع الرئيس للتقدم خلال عهد السلطان محمد الثاني بأسره موجها ضد "الكفار"، ومنع مقاومة العالم الغربي، واكتساب أراضٍ جديدة كذلك" [4]. وتأكيدا لذلك، كرس السلطان جهوده، بعد فتح القسطنطينية، العاصمة الشرقية للإمبراطورية الرومانية، للسيطرة على الشطر الغربي من تلك الإمبراطورية، ومركز البابوية في روما، مستهدفا من ذلك " إظهار نفسه وريثا لإمبراطورية عالمية"[5]. ولكن ذلك لم يكن ممكنا، باعتقاده، إلا بعد إقصاء القوة البندقية من ساحة الصراع البحري. فما هي الخطوات التي اتبعها لتحقيق هذا الهدف؟

تحييد البندقية من ساحة الصراع

إبتداءً من سنة 1454 حتى سنة 1481 شنّ السلطان محمد الفاتح سلسلة من الحملات كان الغرض منها توسيع حكمه المباشر على الدانوب وبحر إيجة لإقامة

---

(1) Marlia Mundell Mango; "The Commercial Map of Constantinople", *Dumbarton Oaks Papers*, Vol. 54, 2000, pp. 189-207; Imber, The Ottoman Empire, pp. 292-294; Halil Inalcik; "Capital Formation in the Ottoman Empire", *International Journal of Economic History*, Vol. 29, No. I, 1969, pp. 97-140.

(2) Hess, The Evolution…, p. 1902.

(3) كانت السياسة البحرية العثمانية تهدف إلى تأمين السيطرة على مصادر الثروة التجارية للشرق؛ إبن كمال، المصدر السابق، صفحات متفرقة؛

Kritovoulos, passim; William von Heyd; histoire du commerce du Levant au Moyen Âge, Amsterdam, 1959, Vol. II, passim; Kortepeter, Op. Cit., pp. 86-90.

(4) Shaw, Op. Cit., p. 62.

(5) Shaw, Op. Cit.

خط دفاعي قوي(1). وتمكن أولا من إخضاع الصرب في سنة 1455، إذ سيطر على الجزء الجنوبي من البلاد، وأمن إتصالا مباشرا مع مقدونيا من جهة الشمال، وسيطر أيضا على مناجم الفضة والذهب في نوفو بردو(2) (Novo Brdo) ، التي وفرت الكثير من رأس المال المطلوب للقيام بالمزيد من عمليات التوسع الإقتصادي(3). وفي سنة 1458 شن أولى حملاته بهدف إخضاع اليونان(4)، وتمكن من إحتلال معظم غربي المورة(5). وقد مهدت حملته الأخيرة متابعة العمليات البحرية للقضاء على قواعد الأسطول ألبندقي؛ إذ شرع بشن هجوم بري ـ بحري على كل من أمارسا وطرابزون سنة 1461(6)، والمورة، للمرة الثانية، خلال 1466-1467(7)، ونيغروبونتي سنة 1470(8)، القاعدة البندقية الرئيسة في بحر إيجة في واحدة من أروع عملياتهم البحرية لضرب المصالح البندقية(9)، ثم شن العثمانيون حملة بحرية صِرف لفتح كافا سنة 1475. وعلى طول الساحل

(1) أوزتونا، المصدر السابق، ص149.
(2) لم أتمكن من تحديد موقعها بالضبط.
(3) المصدر نفسه.
(4) كان الهدف من هذه الحملة القضاء على آخر المطالبين بالعرش البيزنطي من أسرة باليالوج: توماس وديميتيريوس؛ للتفاصيل:
Kinross, Op. Cit., pp.127-128.
(5) عن حملات السلطان محمد الفاتح لإخضاع المورة:
Diana Gilliland Wright, Bartolomeo Minio: Venetian Administration in 15th Century Nauplion, Unpublished PhD Dissertation, The Catholic University of America, Washington DC, 1999, pp. 100-124.
(6) Show, Op. Cit., p.64.
(8) Rose, Medieval Naval Warfare, pp. 111-112;
ونيغروبونتي هي أغريبوس الحالية. تبلغ مساحتها 297 كيلومترا مربعا (أي نحو 185 ميلا مربعا)، كانت بحوزة البنادقة منذ سنة 1210، ولمدة 260 سنة، وقبلها كانت بحوزة البيزنطيين.
(9) للتفاصيل: أوزتونا، المصدر السابق، ص 150؛
Simon Pepper, "Fortress and Fleet: The Defense of Venice Mainland Greek Colonies in the Late Fifteenth Century"; in: Chambers C. H. Claugh and M. E. Mallett (eds.); War Culture and Society in Renaissance Venice, London, 1993, pp. 30-30;
وتذكر سوزان روز إن الأسطول العثماني كان هائلا، إذ كان يضم أكثر من (300) سفينة، بضمنها (108) قوادس، بحيث بدا البحر وكأنه "قطعة من الخشب"؛
Rose, Medieval Naval Warfare, p. 111.

الأناضولي سيطروا على المواقع الجنوية الممتدة من الدردنيل حتى جزيرة ميتيلين (ميديللي) سنة 1462[1].

أدى طرد البنادقة من مستعمراتهم ومواطئ أقدامهم في بحر إيجة والبحر الأسود إلى إقحام العثمانيين في أولى حروبهم البحرية الطويلة. وفي الوقت الذي انكفأ فيه الجنويون من شرقي البحر المتوسط، كان البنادقة يحاربون بين سنتي 1463 و 1479 لقلب التوسع العثماني من الداخل البلقاني وآسيا الصغرى باتجاه موانئ بحر إيجة والأدرياتيكي وجزرهما[2]. ولكن، بسبب عدم قدرتهم على تأمين دعم مسيحي قوي كافٍ، وبسبب محدودية عدد سكانهم أيضا، وجد البنادقة صعوبة في إستخدام تفوق قدرتهم البحرية لإيقاف تقدم المدّ العثماني في البر والبحر، فلجأوا، منذ سنة 1462 حتى 1473 إلى التحرك على مسارين: طلب معونة البابا بايوس الثاني (1458-1464) لإعلان حرب صليبية[3]، والتعاون مع حاكم إمارة الآق قوينللو، أوزون حسن (1423؟-1474)، بتدبير مؤامرة لتقسيم الدولة العثمانية في حال نجاح الحملة[4].

من جانب آخر، حافظ العثمانيون، المتخوفون من حرب بحرية مفتوحة مع الإيطاليين، على إبقاء قوادسهم ضمن مدى أراضيهم، كي يتمكن تفوقهم العددي في البر من منع البنادقة من إستعادة الأراضي التي سيطروا عليها. على هذا الأساس، وقبل سنة 1480، كانت الحروب البحرية على شكل غارات ومصادمات

---

(1) Goffman, Op. Cit., pp. 140-141.

(2) A. W. Ward and others (eds.); The Cambridge Modern History, Vol. I, The Renaissance, Cambridge, 1969, pp. 75-76; Kelly DeVries; "The Lack of a Western European Military Response to the Ottoman Invasions of Eastern Europe from Nicopolis (1396) to Mohacs (1526)", *The Journal of Military History*, Vol. 63, No. 3, July 1999, p. 548; Theunissen, Op. Cit., pp. 127, 133.

(3) إستغل البابا بايوس الثاني هذا الوضع لربط كل من ألبندقية وهنغاريا في اتفاقية ضد العثمانيين في الثاني عشر من أيلول سنة 1463، نصت على إنه في حال نجاح الحرب الصليبية الجديدة، فستحصل ألبندقية على المورة، بينما تحصل اليونان على الأراضي الممتدة على طول الأدرياتيك؛ أما هنغاريا فستحكم كلا من بلغاريا وصربيا والبوسنة وولاكيا؛ وأن تعود إسطنبول والأراضي المحيطة بها إلى الأشخاص الذين مازالوا على قيد الحياة من الأسرة البيزنطية الحاكمة.
Shaw, Op. Cit., pp. 64- 65.

(4) أوزتونا، المصدر السابق، ص 160؛
Theunissen, Op. Cit. p. 128; Labib, Op. Cit. p. 440.

غير محددة بقي بموجبها الأسطول العثماني غير مجرّب عمليا في فن حروب القوادس على نطاق واسع[1].

في آخر سنة من حياة السلطان محمد الفاتح بلغ التهديد العثماني للموقف البحري الإيطالي في الشرق مرحلة حاسمة. فالإيطاليون، بعد انتهاء الحرب البندقية ـ العثمانية سنة 1479، ظلوا يسيطرون على المواقع والجزر المحصنة ـ مودون، وكورون، وكريت، وقبرص. أما رودس فقد بقيت بأيدي فرسان القديس يوحنا[2]، الذين كانوا يهيمنون على الطرق التجارية للشرق، ويهاجمون الشواطئ العثمانية أنّى شاءوا. ويبدو إن السلطان قد ضاق ذرعا بذلك، وبدأ يفكر بالقضاء على القوة البندقية جديا. ومنذ سنة 1476 بدأ بتركيز جهوده عليها، أملا في إجبارها على قبول سلام عن طريق استكمال فتحه لألبانيا، ومن ثم الحصول على موطئ قدم قوي على الأدرياتيك[3]. وبحلول سنة 1478، أصبحت ألبانيا كلها تحت الحكم العثماني المباشر. وبهذا أصبح السلطان يسيطر على كل من القسطنطينية، وتراقيا، ونصف آسيا الصغرى، ومعظم اليونان والبلقان، وأضعف

(1) William Miller; The Latins in the Levant, New York, 1908, pp. 471-481;

كان أساس هذه المنظمة في بادئ الأمر دينيا، وقد تولت قبل الحروب الصليبية رعاية أحد الملاجئ في القدس ومساعدة المعوزين، لاسيما المسيحيين المتوجهين الى الأراضي المقدسة. إلا إنها حولت نشاطها في زمن الحروب الصليبية الى الطابع الحربي، كما أسهمت بمهاجمة المسلمين، وانسحبت بعد ذلك إلى جزيرة قبرص وانتقلت إلى جزيرة رودس سنة 1308 والجزر المجاورة لها، وأسست فيها دولة تحت حماية البابا والأمراء المسيحيين؛

Currey, Op. Cit., 27ff.

(2) كان السلطان قد شن هجوما غير موفق على رودس في سنة 1480ـ 1481، مما دفع الأستاذ الأعظم بيترو دو آوبيسون إلى إتخاذ الاحتياطات اللازمة ضد تحركات الأسطول ومن نيات السلطان؛

Palmira Brummett; "The Overrated Adversary: Rhodes and Ottoman Naval Power", *The Historical Journal*, Vol. 36, No. 3, September 1993, p. 519; Eric Morse; Crusader Knights, Turks and Byzantines: Address to the Sovereign Order of the Knights of St. John of Malta, Rhodes and Jerusalem, National Club, Toronto, November 17, 2003, (*).

(3) في سنة 1477 طوقت القوات العثمانية في ألبانيا ميناء ليبانتو (يني بختي بالتركية) (Inebahtı) وأقجة حصار (Akçahisar)، وكلتاهما كانتا تداران من قادة البانيين محليين بمساعدة بندقية. ولكن ذلك توقف عندما أرسل السلطان المغيرين البوسنيين مرات عدة إلى شمالي إيطاليا، متسببين في إلحاق الدمار في الوديان المقابلة للبندقية بين 1477- 1478؛

Shaw, Op. Cit., p. 69; cf.: Kinross, Op. Cit., p.136.

البندقية في حرب الستة عشر سنة 1463-1478، فضلا عن هزيمته أوزون حسن على الحدود الشرقية سنة 1473.

وهكذا أحاط السلطان محمد الفاتح بالبندقية من كل جانب، وباتت الحرب وشيكة الوقوع، مما أجبر البندقية، المتخوفة على تجارتها في الشرق[1]، على الدخول في مفاوضات، تُوجت بالتوقيع على معاهدة سلام في اسطنبول في الخامس والعشرين من حزيران 1479[2]، منهية بذلك الحرب بين الطرفين؛ وافقت بموجبها على تسليم إسكودار(سكوتاري)، آخر ميناء رئيس إحتلته في شمالي ألبانيا، وإعترفت بالحكم العثماني في ألبانيا، وبالفتوحات العثمانية في جزر بحر إيجة، لتعطي بذلك السلطان هيمنة شبه كاملة على شمالي بحر إيجة. وبالمقابل، سمح السلطان للبندقية بالاحتفاظ بعدد من الموانئ في دلماشيا على طول بحر الأدرياتيك وممتلكاتها السابقة في المورة بإستثناء آرغوس. كما وافقت البندقية على دفع إتاوة سنوية قدرها مائة ألف دوكة (خفضت إلى عشرة آلاف دوكة كل سنة)[3]، مقابل تلك الممتلكات، وعلى تجديد حق التجارة بحرية في أراضي السلطان، وعلى إبقاء وكيلها التجاري في اسطنبول[4]. وهكذا نجح السلطان في إجبار أقوى قوة بحرية في بحر إيجة والبحر المتوسط للتوصل إلى إتفاق معه. وعليه، أُعلن إن بحار إيطاليا مفتوحة للأسطول العثماني، وأصبحت الطريق ممهدة أمامه لحملته على رودس. ولكن، لماذا لم يدمر العثمانيون القوة البندقية نهائيا؟

تقدم الدكتورة ديانا غيليلاند رايت تفسيرا منطقيا لاكتفاء العثمانيين بالشروط التي فرضوها على البندقية، من دون الانغماس بطلب المزيد من التنازلات منها،

---

(1) لابد من الإشارة إلى إن ألبندقية كانت غير ميّالة إلى محاربة العثمانيين، ولا إلى انتحال صفة المدافع عن العالم الغربي المسيحي. بل على العكس، كان هدفها الإبقاء على علاقات طيبة، قدر الإمكان، معهم بهدف المحافظة على قواعدها البحرية، لاسيما قاعدة نيغروبونتي، وقواعد المورة؛
Rose, Medieval Naval Warfare, p. 111;
وبالمعنى نفسه ذكر المؤرخ فردريك لين (Lane) إن ألبندقية كانت تعدّ المحافظة على مستعمراتها وإستمرار تجارتها من أهم أولوياتها السياسية؛
Lane, Op. Cit., p. 235.

(2) Ward, Op. Cit., pp. 79-81.

(3) Wright, Op. Cit., p. 100.

(4) Ibid; Shaw, P.69, cf.: Kinross, Op. Cit., p.136

يفيد بأننا لو أخذنا بنظر الاعتبار انتشار العثمانيين على مساحة واسعة فيما يخص القوة البشرية، والوقت اللازم لتجميع القطعات من الأراضي الزراعية المنتشرة عبر أوربا الشرقية وآسيا الصغرى، فإن حدود الإبحار خلال فصلي الشتاء والربيع، فضلا عن شحة البحّارة، خلال ستة شهور من السنة، في الأقل، كانت السبب الرئيس في عدم شن حملة بحرية كبرى في المياه الواقعة شرقي اليونان. لذا، كان من مصلحة العثمانيين أن تكون علاقاتهم مع البنادقة في المورة مستقرة[1].

على أية حال، شجع الانتصار على أقوى قوة بحرية في شرقي البحر المتوسط السلطان محمد على المضي قُدُما نحو تحقيق هدفين آخرين لبحريته: **الأول**، فتح جزيرة رودس، التي كانت تعد بوابة لإحراز المزيد من التقدم نحو غربي البحر المتوسط؛ **والثاني**، احتلال ميناء أوترانتو في الجنوب الإيطالي، تمهيدا لفتح إيطاليا فيما بعد. وكان فتح رودس يمثل للسلطان، الذي كان يخطط لاحتلال إيطاليا، أمرا ضروريا، إذ لم يكن يرغب في أن يترك وراءه بؤرة تشكل خطرا عليه فيما بعد[2]. على هذا الأساس، بدأ بشن حملة بحرية كان الغرض منها فتح رودس منذ أوائل سنة 1480. ولكن فرسان القديس يوحنا دافعوا عنها بروح قتالية عالية، مما حدا بالأسطول العثماني إلى التراجع إلى أوترانتو، إذ بدأ العثمانيون بالمرحلة الثانية من الخطة، وتمكنوا من إخضاعها (أي أوترانتو) بعد حصار عنيف في آب 1480[3]، إلا إن وفاة السلطان المفاجئة في الثالث من مايس 1481 أفشلت المشروع[4]، فعادت الحملة أدراجها في العاشر من أيلول 1481، لينتهي بذلك ما كان ليصبح مرحلة جديدة كليا في التوسع العسكري الإسلامي.

بوفاة السلطان محمد الفاتح، كان الجيش العثماني الأول في البحر المتوسط من دون منازع، وأصبح الأسطول العثماني أقوى من الأسطول البندقي[5]. وكانت

(1) Wright, Op. Cit., p.100.

(2) أوزتونا، المصدر السابق، ص 172.

(3) عن تفاصيل حملة اوترانتو: ضياء محمد جميل عباس علي؛ الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الثاني الفاتح (1451-1481)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، 2002، ص ص 157-158.

(4) أوزتونا، المصدر السابق، ص ص 175-176.

(5) المصدر نفسه، ص 178.

الدولة العثمانية قد إقتربت من أوترانتو في إيطاليا كثيرا، وتم انتزاع ميناء أينز (Enez) في الأناضول من الجنويين، فضلا عن ألبانيا وقرة داغ. ولم يبق في حوزة البنادقة سوى بضعة أرصفة بحرية، في مقدمتها دراج (Draç)[1]، فضلا عن ذلك، تم فتح عدد كبير من الجزر[2]، ووضعت ساقز تحت الحماية، وتم فتح أغريبوز أكبر جزر البحر الواقعة في الجهة اليونانية. وأخيرا، انتقلت جزر أيونيا في اليونان، باستثناء كورفو، إلى الحكم العثماني.

لاشك إن الهدف من سياسة محمد الفاتح التوسعية هذه تقوية القوة المركزية للدولة، ضاعف من خلالها قدرة الجيش والأسطول العثمانيين وقوتهما إلى أضعاف عدة، إذ جعل من الجيش قوة ضاربة على نطاق واسع، عززه بمدافع بعيدة المدى، لأول مرة في العالم[3]، بحسب ما يذكر يلماز أوزتونا. وكان الأسطول العثماني، عند اعتلائه العرش، يضم ثلاثين سفينة حربية من نوع قادس (قادرغة) وعددا من السفن الصغيرة، أما الأسطول ألبندقي فقد كان مكونا من إثنين وتسعين قادسا، وستة عشر طرادا، ونحوا من أربعمائة سفينة نقل وإنزال، متفوقا على الأسطول العثماني بمراحل[4]. وما أن حلت سنة 1474 حتى أصبح الأسطول العثماني متفوقا على الأسطول ألبندقي، لاسيما بعد استخدام المدافع، حتى قيل إنه لم تبق هناك سفينة حربية بلا مدفع[5]. وقبيل وفاته كان حجم الأسطول العثماني مائتين وخمسين سفينة حربية وخمسمائة سفينة نقل، أي ما يعادل ضعفي حجم الأسطول ألبندقي. وهكذا تحققت قوة بحرية تفوق الأساطيل الأوربية. ولأول مرة في التاريخ، أحرز العثمانيون الأولوية بين دول العالم في القوة البحرية، بحسب أوزتونا أيضا[6].

كانت أعمال السلطان محمد الفاتح الكبرى، بعد قطع طريق الشرق على الأوربيين، واكتساحهم، وتحقيق التفوق البحري في البحر المتوسط، من أهم

(1) المصدر نفسه، ص 179.
(2) وأهمها: بوزجة آدا، وامروز، وميديللي، ولمني سيسام، وطاشور، وسمنديرك القريبة من الأناضول الواقعة على الأرخبيل.
(3) المصدر نفسه، ص 180.
(4) Inalcik, Mehmed the Conqueror… , pp. 408-427.
(5) اوزتونا، المصدر السابق، ص 180.
(6) المصدر نفسه.

الأسباب التي دفعت أوربا لتوجيه أنظارها نحو المغرب العربي، بحكم كونه ضعيفا، فضلا عن دفعها نحو المحيطات، أو ما يعرف باسم "الاستكشافات الجغرافية". إلا إن ابرز النتائج التي ترتبت على سياسة السلطان محمد الفاتح البحرية، بلا شك، هي استخدامه المدافع، وتأكيده عليها بوصفها عنصرا إستراتيجيا فاعلا في الحرب.

في تقويمه للسياسة العثمانية خلال هذه المرحلة يؤكد المؤرخ التركي الأستاذ يلماز اوزتونا إن ثمة أخطاء وقع فيها السلطان محمد الفاتح، وأهمها مسألة الإمتيازات التي منحها للارثدوكس وللكنيسة الارثدوكسية، إذ كانت تلك الإمتيازات غير طبيعية بقياسات ذلك العصر. ولكن المؤرخ نفسه يسوّغ سياسة السلطان محمد الفاتح هذه بقوله: "غير إننا يجب أن ننظر إليها من زاوية أحوال الدولة العثمانية خلال القرن الخامس عشر"[1]. ويمكن تفسير ذلك في انه كان مضطرا إلى ربط العالم الارثدوكسي به، لمنعه من الإتحاد مع العالم الكاثوليكي، الذي اتسمت سياسته بالعداء الشديد للإسلام، وتشكيل جبهة موحدة تشكل خطرا على الدولة العثمانية.

على أية حال، فإن وفاة السلطان محمد الفاتح أطلقت العنان للمشكلات المتعلقة بمسألة التنازع على عرش السلطنة العثمانية[2]. والحاكم الجديد، بايزيد الثاني، الذي كان يواجه معارضة داخلية من أخيه الأصغر، الأمير جم، لم يورط أسطوله في الدفاع عن أوترانتو عندما ظهرت القوادس المسيحية في البحر الأدرياتيكي خلال صيف 1481. وبسبب الإفتقار إلى الدعم البحري المناسب إنكفأت الحملة على إيطاليا والتحقت بهزيمة رودس لتقف الحملات في عهده عند

---

(1) المصدر نفسه.

(2) Sydney Nettleton Fisher; "Civil Strife in the Ottoman Empire, 1481-1503", *The Journal of Modern History*, Vol. 13, No. 4 December 1941, pp. 449-466;

وعن ثورة الأمير جم:

Halil Inalcık, " Djem", *EI*2.

حدود العمليات البحرية التي أنجزها السلطان محمد الفاتح[1]، ولم تستأنف على نحو جدي إلا في سنة 1499.

الحرب العثمانية- البندقية (1499- 1503)

بدأ استئناف الحملات على إيطاليا على نحو جدي خلال عهد السلطان بايزيد الثاني. ولاشك إن توتر العلاقة بينه وبين أخيه الأمير جم[2] قد ألقى بضلاله على الجهود البحرية للعثمانيين خلال هذه الحقبة[3]؛ إذ إضطر، بسبب المشكلات التي سببها له أخوه، إلى توقيع معاهدة مع البندقية، أنهى بموجبها الإتاوة السنوية التي فرضت عليها في عهد والده، بل زاد من إمتيازاتها التجارية[4]. لكن تدخل المنافسين في الأدرياتيك، وألبانيا، وبحر إيجة، والمورة، بتشجيع من البابا[5]، أدى إلى تعكير العلاقات العثمانية ـ البندقية، تمثل بطرد البايلوات البنادقة من اسطنبول سنة 1491[6]، وإغلاق الموانئ العثمانية بوجه تجار الحبوب البنادقة سنة 1496، وإستيلاء أسطول عثماني على سفينة مسافرين بندقية تحمل زوارا مسيحيين إلى

---

(1) يؤكد إبن كمال إن حملتي رودس وأوترانتو قد توافقتا زمنيا مع حملة برية ضد المماليك؛ ص ص 500-510، 528، 542، 544. وللحصول عن وجهة نظر أخرى عن عملية أوترانتو؛ Babinger, Mohamet II, pp. 477-497.

(2) الأمير جم: أحد أبناء السلطان محمد الفاتح وأخو السلطان بايزيد الثاني، إدعى السلطنة إثر وفاة أبيه مما فتح باب النزاع بينه وبين أخيه بايزيد الذي أسرع بالذهاب إلى سطنبول. بان ضعف جم أمام بايزيد حينما ذهب الأخير إلى يني شهر في بورصة سنة 1481، فضلاً عن عدم صموده في قونية لأكثر من ثلاثة أيام مما أدى إلى هربه إلى الشام مع 300 شخص لينتقل منها إلى القاهرة حيث إستقبله السلطان قايتيباي. ومع ذلك، إستمر مسلسل ترحاله وهروبه، فقصد حلب ومن ثم أوربا عن طريق رودس ونيس ليقيم في الاخيرة ست سنوات ولينتقل من قلعة إلى قلعة من قلاع الفرسان، مما أدى إلى تدخل أكثر من دولة أوربية لإستغلال هذا الوضع، فضغطت كل من فرنسا والمجر والبندقية ومصر على الفرسان لتسليمه، لينتهي به المطاف بيد البابا بموجب إتفاقية خاصة. وجيء به إلى ليون وطولون وإيطاليا في سنة 1489 ليمكث فيها ست سنوات أخرى، أي سنة 1495. وخلال رحلته من روما إلى نابولي توفي هناك سنة 1495 وعمره لم يتجاوز 35 سنة. ويُعتقد إن البابا دس له السم أثناء تسليمه إلى ملك فرنسا، كما يُعتقد إن بايزيد دفع رشوة إلى البابا لهذا الغرض. ترتب على بقاء جم في أوربا مدة 12 سنة إجبار بايزيد الثاني على الإلتزام بسياسة الحياد تجاه أوربا. للتفاصيل: اوزتونا، المصدر السابق ، ص ص 185-189.

(3) Sydney Nettleton Fisher; "Foreign Relation of Turkey 1481-1512, Urbana, 1948, pp. 24-44.

(4) Theunissen, Op. Cit.

(5) ملخص هذه التدخلات يقضي بتشجيع توسيع سلطة البابا على شمال إيطاليا مقابل مساعدة ألبندقية ضد العثمانيين.

(6) Fisher, Foreign Relation…, pp. 40-41.

القدس سنة 1497، وقتل وأسر كل من كان على ظهرها، وأخيرا، قيام قوة عثمانية من ألبانيا بإحتلال مونتينغرو[1].

ردت البندقية على ذلك بإنشاء أسطول في بحر إيجة، ولكن ذلك لم يؤد إلا إلى إثارة السلطان أكثر. وردا على ذلك، تحرك السلطان بايزيد الثاني لإنشاء أسطول جديد بقيادة القبطان كمال ريّس[2]، الذي بدأ، منذ 1490، يقود القباطنة المسلمين في البحر المتوسط. وتم بناء مسافن جديدة، ووضعت ورش بناء السفن في الخدمة[3]، وزُج آلافٌ من البحارة العثمانيين، بضمنهم اليونانيين، تحت قيادته.

في هذه المرحلة تغيرت الأوضاع في أوربا، لاسيما في إيطاليا، بعد وفاة الأمير جم سنة 1495، نحو وضع دفاعي، مما شجع السفن العثمانية على الإغارة ضد الممتلكات البندقية في دلماشيا. وعندما حاولت البندقية، ردا على ذلك، عقد معاهدة مع فرنسا، ردّ بايزيد الثاني، الذي إتخذ ذلك ذريعة لشن الحرب، بسجن المقيمين البنادقة باسطنبول في الرابع من تموز 1499[4]. وخلال وقت قصير تمكن أسطول عثماني كبير[5] من الاستيلاء على ليبانتو في هجوم بري ـ بحري

---

(1) Ibid., pp. 46-48.

(2) إسمه الكامل أحمد كمال الدين. أميرال عثماني (1451-1511)، كان واحدا من أشهر القادة البحريين العثمانيين، وعم البحار العثماني، بيري علي ريّس، أعظم رسامي الخرائط في عصره، الذي رافقه في حملاته البحرية الشهيرة. عُيّن أميرالا للبحرية العثمانية في سنة 1495، في عهد السلطان بايزيد الثاني، الذي أمره بصنع سفينة كبيرة من نوع كوكة (Göke) التي بمقدورها حمل سبعمائة شخص. وابتداءً من كانون الثاني 1497 نزل في مودون، وإستولى فيما بعد على بعض السفن ألبندقية في البحر ألايوني ونقلها مع حمولاتها إلى أيوبيا. وفي آذار من السنة نفسها عيّنه السلطان بايزيد لمهمة حماية السفن التي كانت تحمل بضائع قيّمة العائدة إلى العتبات المقدسة في مكة والمدينة من الغارات المتكررة لفرسان القديس يوحنا. اتخذ جزيرة خيوس قاعدة لعملياته في تموز 1497. أسهم بمساعدة الأسطول العثماني بعشرة قوادس، وأربعة أنواع أخرى من السفن، خلال الحرب العثمانية ـ ألبندقية (1499-1503). وفي سنة 1499 تمكن من إيقاع الهزيمة بالأسطول ألبندقي في معركة زونجيو (Zonchio)، التي تعرف أيضا بإسم معركة ليبانتو الصغرى، أو معركة ليبانتو الأولى، التي هي إحدى معارك الحرب العثمانية ـ ألبندقية (1499-1503). وابتداءً من سنة 1501 حتى وفاته كان يتنقل بين السواحل الشرقية والغربية للبحر المتوسط، ووصل إلى المحيط الأطلسي، مع عمه بيري علي ريّس. للتفاصيل:

Lane, Op. Cit., passim.

(3) Shaw, Op. Cit., p. 75.

(4) Halil Inalcik; "An Outline of Ottoman-Venetian Relations," Extract from the Volume, Venezia centro di mediazione tra Oriente e Occidente, (Secoli XV-XVI). Vol. I, Aspetti i Problemi, 1973, pp.83-90.

(5) عن حجم الأسطول العثماني في هذه الحملة:

شامل في الثامن والعشرين من آب 1499، موجها ضربة للقوة البحرية الإيطالية في الأدرياتيك وبحر إيجة على حد سواء[1]. كما قامت قوات أخرى بشن غارات مدمرة من البوسنة على كل من كرواتيا ودلماشيا، مخترقة، مرة أخرى، بوابات البندقية في الرابع عشر من آب 1501[2]. وإزاء تردي الوضع المالي للبندقية، وعدم قدرتها على الصمود أكثر، حاول البابا ألكسندر السادس (1492-1503)، بيأس، تنظيم حملة صليبية جديدة لإنقاذ البندقية[3]، مرسلا وكلاءه إلى أنحاء أوربا كافة. ولكن السلطان بايزيد نجح في تحييد كل من ميلانو ونابولي عن طريق تقديم تنازلات تجارية مقابل" حياتهما"[4].

وعلى الرغم من ذلك، دخل أسطول صليبي ضخم بحر إيجة في صيف 1501، وأشاعت محاولاته في احتلال جزيرة ليسبوس، التي يديرها العثمانيون من البسفور، الهلع في قلب السلطان[5]. ولكن في النهاية تفرقت الحملة بسبب عاصفة هوجاء. كما عملت الخلافات التي نشأت مابين قادة الحلفاء على منعهم من اتخاذ عمل موحد ضد العثمانيين. ومع إقتراب نهاية الحرب، كانت البندقية قد إستنزفت قواها، وأبدت إستعدادها للسلام[6]، لأنها بدأت تفقد أسواقها في الشرق، وكانت تعاني من وضع مالي صعب مسبقا، لاسيما بعد إنتصارات العثمانيين

Wright, Op. Cit., p. 61.

(1) عن تفاصيل هذه الحملة: أوزتونا، المصدر السابق، ص 200؛
Wright, Op. Cit., p. 64.

(2) John E. Dotson; "The Foundation of Venetian Naval Strategy from Pietro II Orseolo to the Battle of Zonchio: 1000-1500, _Medieval and Renaissance Studies_, Vol. 32, California, 2001, p.125; Wright, Op. Cit., pp. 61-82; Rose, Medieval Naval Warfare, p. 113.

(3) G. R. Potter (ed.); The New Cambridge Modern History, Vol. I, The Renaissance 1493-1520, Cambridge, 1967, pp.264-265; Wright, Op. Cit., p. 65.

(4) Shaw, Op. Cit., p. 75.

(5) Diana Gilliland Wright; Bread and Falcons: The View from Crete in 1501, p. 2, (*).

(6) Wright, Op. Cit., p. 65; Robert Finlay, "The Immortal Republic: The Myth of Venice during the Italian Wars (1494- 1530)", _Sixteenth Century Journal_, Vol. 30, No. 4, Winter, 1999, pp. 931-944.

المتلاحقة وإستيلائهم على ليبانتو في معركة زونجيو (Zonchio) الفاصلة[1]. وفي الوقت نفسه، أدت مشكلات جديدة في الشرق ـ تمثلت بإمتداد الخطر ألصفوي، فضلا عن القلق بشأن الطريقة التي يمكن بموجبها هزيمة البندقية كليا ـ ببايزيد إلى الموافقة على عقد سلام تم التوقيع عليه في اسطنبول في الرابع عشر من كانون أول 1502[2]، احتفظت بموجبه البندقية بموانئها في المورة وألبانيا واستعادت فيه إمتيازاتها التجارية[3].

مثلت الحرب نصرا عثمانيا كبيرا، وأشرت ظهور الدولة العثمانية قوة بحرية متوسطية كبرى؛ إذ كانت القواعد التي تم إنتزاعها من البندقية مواقع إستراتيجية كان بالإمكان استخدامها لإحراز المزيد من التقدم لا في شرقي البحر المتوسط فحسب، بل في غربه أيضا. وفي تقويمه لنتيجة هذه الحرب يقول المؤرخ ستانفورد شو:

"لقد أشرت هذه الحرب، ومعاهدات السلام التي أعقبتها، دخول الإمبراطورية العثمانية ميدان الدبلوماسية الأوربية بوصفها عاملا متزايد الأهمية في توازن القوى. فضلا عن ذلك، أصبح العثمانيون قوة اقتصادية رئيسة أيضا بمقتضى سيطرتهم على طرق التجارة الرئيسة عبر شرقي المتوسط ـ البندقية، بطريقة لا تسمح لأي أحد بالتفكير بالتورط في حرب مع السلطان"[4].

أما هانز بيتر ثيونيسن فقد قال:

"لقد ازدادت القوة العثمانية، ولاسيما القوة البحرية على نحو مطرد، وتلاشت الهيمنة البحرية البندقية من شرقي البحر المتوسط. وعلى الرغم من امتلاك البندقية أسطولا

(1) حدثت هذه المعركة بين الثاني عشر والخامس والعشرين من آب 1499.
(2) Shaw, Op. Cit., p. 76; Currey, Op. Cit., 51.
(3) Fisher, Foreign Relations…, pp. 77-78.
(4) Shaw, Op. Cit., p.76.

ضخما، إلا إن اليد الطولى، كما يبدو، قد أصبحت للعثمانيين"[1].

في حين ذكرت المؤرخة بالميرا برومت:

"أشرت تسوية الحرب الإيجية 1499-1503 بداية مرحلة غير مسبوقة للتوسع البحري للإمبراطورية العثمانية؛ فهذه الحرب لم توسع الهيمنة البحرية العثمانية فحسب، وإنما أوضحت إن تينك الدولتين، البندقية ورودس، اللتين كانتا تواجهان السلطان على نحو مباشر، لم يعد بمقدورهما الاعتماد على أوربا المسيحية في أي دعم مادي"[2].

ولكن بماذا نفسر هزيمة البنادقة بحريا؟ في تفسيرهما للهزيمة التي تعرضت لها البندقية، ذهب الأستاذان شاخت وبوزورث إلى القول إن الفساد الديني والإداري في روما كان من أهم الأسباب التي أدت إلى إلحاق الهزيمة بالبندقية[3]. وهذا مطابق للواقع إلى حد بعيد. ففي الوقت الذي ظنّ فيه الملك الفرنسي شارل الثامن[4] إنه يستطيع إجتياح إيطاليا بوصفها قاعدة تنطلق منها حملة صليبية، كان البابا ألكسندر السادس يتلقى دفعة مالية من السلطان بايزيد الثاني ما بين سنتي 1490 و 1494 لإبقاء أخيه في السجن[5]. وفي روما استقبل البابا السفير العثماني باحتفال مهيب في مجلس كنسي بحضور عدد من الكرادلة والأساقفة والمبعوثين سنة 1493. وكان البابا قد أرسل للسلطان رسالة حذره فيها من الحملة الصليبية التي كان الملك شارل الثامن يزمع القيام بها، وطلب منه أن يجعل البنادقة يتدخلون ضد الملك الفرنسي، ونبهه فقط إلى أن يمتنع " مدة من

---

(1) Theunissen; Cairo Revisited (I): Four Documents Pertinent the Ottoman-Venetian Treaty of 1517; in: Theunissen, Op. Cit., p. 3.

(2) Brummett, The Overrated Adversary…, p. 517.

(3) جوزيف شاخت و كليفورد بوزورث؛ تراث الإسلام، تر. د. محمد زهير السمهوري (وآخرون)، ج 1، سلسلة عالم المعرفة، العدد 8، الكويت، 1985، ص ص 48- 50.

(4) ولد في الثلاثين من حزيران 1470، وتوفي في السابع من نيسان 1498. كان ملك فرنسا ابتداءً من الثلاثين من آب 1483 حتى وفاته.

(5) Labib, Op. Cit., p. 440; Potter, Op. Cit., p. 265.

الوقت" عن مهاجمة هنغاريا أو أية بلاد مسيحية أخرى، لأن من شأن مثل هكذا هجوم أن يضعه في موقف حرج. وفي المقابل، طلب السلطان بايزيد من البابا أن يقتل أخاه جم (السجين لدى البابا)، مقابل دفع ثلاثمائة ألف دوكة، مع وعد مشفوع بقسم على القرآن بألا يفعل شيئا لإيذاء المسيحيين(1). وبعد سنتين، وافقت كل من ميلانو وفيرارا ومانتوا وفلورنسا على أن تدفع للعثمانيين مبلغا من المال من أجل مهاجمة البندقية(2). وبعد سنتين أخريين، عندما كانت البندقية وفرنسا تستعدان لمواجهة ميلانو، حذر لودفيكو إيل مورو (المغربي) دوق ميلانو، وغيره من الأمراء الإيطاليين، السلطان بايزيد من إن احتلال البندقية لميلانو سيكون الخطوة الأولى في الحملة الصليبية، عند ذاك أعلن السلطان الحرب على البندقية(3). وإلى جانب ذلك يضيف أندرو هِس سببا مهما يتعلق بالأيديولوجية السياسية لجمهورية البندقية. فبعد أن تمكنت من استثمار اضمحلال بيزنطة وحالة الفوضى في العالم الإسلامي خلال الحروب الصليبية، فإنها لم تركز طاقاتها نحو تعزيز أيديولوجيتها التوسعية نحو دمج المزيد من الأراضي(4)، مما أتاح الفرصة للعثمانيين بالقيام بالمهمة بدلا عنها، بل ومهاجمتها أيضا.

على أية حال، وقبل تحييد القوة البندقية من ساحة الصراع في البحر المتوسط، كانت الاهتمامات العثمانية قد توجهت نحو غربي المتوسط. ففي أوائل سنة 1482، كان المسلمون في الأندلس قد طلبوا مساعدة الدولة العثمانية ضد تقدم قوات آراغون وقشتالة المسيحية. ولكن، بسبب الإعاقة التي سببتها ثورة الأمير جم، وحالة اضطراب القوة البحرية، كان على السلطان بايزيد أن يقدم شيئا من المساعدة لمجاهدي شمالي أفريقيا العثمانيين. وعندما سقطت غرناطة بيد الإسبان سنة 1492 وبدأت الدويلات الإسلامية في شمالي أفريقيا تواجه احتمال الاجتياح المسيحي، تزايد إحتمال التدخل العثماني بعد تزايد طلبات الاستغاثة التي

---

(1) إسماعيل سرهنك؛ حقائق الأخبار عن دول البحار، ج 1، المطبعة الأميرية، مصر، 1312 هـ (1894م)، ص 520.

(2) J. R. Hale, in: The Cambridge Modern History, I, The Renaissance, Cambridge, 1975, p. 265.

(3) V. J. Parry, in: The Cambridge Modern History, I, p. 403.

(4) Hess, The Ottoman Conquest of Egypt…, p.59.

ظلت مشكلات الشرق تمنع السلطان بايزيد من إرسالها. ولكن كثيرا من القباطنة العثمانيين، الذين يطلق عليهم الغربيون تسمية "قراصنة"، بدأوا بالتحرك لمساعدة إخوتهم. فضلا عن ذلك، بعد بناء الأسطول العثماني، كان كثير منهم قد إجتُذب للخدمة العثمانية، وتحت تأثيرهم أصبحوا قادرين على استخدام قوتهم البحرية الجديدة لبدء عمليات في الغرب.

في هذه المرحلة، تمكن العثمانيون من القضاء على القوة البندقية في الشرق، التي لم تعُد تشكل خطرا عليهم إلا بعد نحو ثلاثة عقود ونصف. ولكن، مع بداية القرن السادس عشر، ظهرت قوة متوسطية أخرى في ميدان الصراع، حلّت محل البندقية في الصراع مع العثمانيين، وأعني بها إمبراطورية إسبانيا ـ هابسبرك.

الفصل الثاني

ساحات جديدة للصراع
(1546-1513)

الفصل الثاني

ساحات جديدة للصراع

1546-1513

أولا: الوضع في غربي البحر المتوسط وجذور الصراع مع آل هابسبرك.

خلال القرن السادس عشر واصل السلاطين العثمانيون الأقوياء، ولاسيما السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني السياسة البعيدة المدى التي إبتدأها جدهما السلطان محمد الفاتح في محاولة تكوين قوة عالمية. وقد تمكن السلطان سليم الأول، بإخضاعه الصفويين في معركة جالديران سنة 1514، والمماليك في سوريا ومصر 1516-1517، فضلا عن مناطق واسعة من أوربا، من تحقيق جانب كبير من هذا الهدف. يقول المؤرخ ستانفورد شو:" جاء السلطان سليم الأول بطموح لتجديد السياسات القوية لتحقيق هدف السلطان محمد الفاتح في تأسيس إمبراطورية عالمية"[1]. ولكن السلطان سليم إهتم بالجانب البري أكثر من إهتمامه بالجانب البحري، ربما بسبب ظهور الخطر ألصفوي في الشرق. ولكن في عهد ولده السلطان سليمان القانوني بلغت الدولة العثمانية أوج عظمتها، برا وبحرا؛ إذ تمكنت جيوشه البرية من الوصول إلى مشارف فيّنا، عاصمة الإمبراطورية الرومانية. في حين تمكنت أساطيله من مدّ النفوذ العثماني إلى غربي البحر المتوسط وإخضاع معظم المناطق والمواقع الممتدة على سواحل شمالي أفريقيا وإنتزاعها من الهيمنة الإسبانية[2]. ولكننا يجب أن نتساءل هنا فيما إذا كانت الإنجازات البحرية التي حققها السلطان سليمان جاءت نتيجة لسياسة بحرية وُضعت أُسسها في العاصمة العثمانية إستمرارا لتلك السياسة التي إبتدأها السلطان محمد الفاتح، أو إنها كانت إستجابة للمتغيرات التي حدثت في الجانب الغربي من البحر المتوسط[3].

(1) Shaw, Op. Cit., p. 79.

(2) الملاحق، (خارطة رقم 3).

(3) "Algeria", *EI2*;

إن هذا التساؤل يقودنا إلى فهم الكيفية التي تمكنت بموجبها الدولة العثمانية من مدّ سيطرتها على أجزاء واسعة من سواحل شمالي أفريقيا في وقت لم تكن فيه السفن العثمانية مصممة للإبحار لمسافات بعيدة، هذا من جانب. ومن جانب آخر، لابد لنا أن نفهم إلى أي مدى أدت السياسات التوسعية الأوربية، التي بلغت ذروتها في عهد الإمبراطور شارل الخامس، أبرز منافسي السلطان خلال القرن السادس عشر، دورا في إثارة ردود فعل العثمانية فيما يخص الجانب البحري من الصراع بين الإمبراطوريتين.

لكن، مما لاشك فيه إن الدولة العثمانية، منذ فتح القسطنطينية، كانت قد إحتلت أهمية خاصة لدى ساسة القوى الغربية بلا إستثناء لإتخاذ موقف موحد من تقدم العثمانيين(1). وفي مقال قصير له حلل المؤرخ التركي خليل إنالجك مكانة الدولة العثمانية في السياسات الأوربية خلال القرن السادس عشر(2)، بين فيه إنها كانت العامل الأكثر أهمية في حسابات الملك شارل الخامس عند إعتلائه العرش الإمبراطوري سنة 1519، وإنها كانت محور الصراع بينه وبين الملك الفرنسي فرانسوا الأول، اللذين أعلنا عن رغبتهما في شنّ حملة صليبية ضد العثمانيين لحث الناخبين خلال صراعهما من أجل الفوز بعرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة الذي إنتهى لصالح شارل(3). وعلى الرغم من إن محاولة السلطان محمد الفاتح كانت قد إنتهت بوفاته، إلا إن سياسة التوسع العثمانية لم تتوقف كليا؛ وكانت مملكة هنغاريا الضعيفة محور الصراع البري بين العثمانيين وآل هابسبرك، مما أدى إلى أثارة مشكلات فيما بعد. من جانب آخر كانت إيطاليا مركز طموحات الحكام الكاثوليك، ولكنها كانت أيضا محط أنظار العثمانيين، المتطلعين إلى الهيمنة على روما. من هنا يمكننا تلمس بذور الصراع. وبما إن أوربا كانت مقسمة سياسيا، فكان لابد من تشكيل

إذ تذكر الموسوعة الإسلامية هنا إن السياسة التوسعية العثمانية في شمالي أفريقيا لم تكن وليدة سياسة محددة وإنما بفضل جهود الأخوين بربروسا.

(1) Kinross, Op. Cit., p. 173.

(2) Halil İnalcık; "The Turkish Impact on the Development of Modern Europe", in: The Ottoman State and its Place in World History, ed. By: Kemal H. Karpat, Washington, 1974, pp. 51-66.

(3) Kinross, Op. Cit., p. 174.

جبهة موحدة ضد العثمانيين. وكان شارل الخامس أقوى إمبراطور في أوربا منذ عهد الإمبراطور شارلمان (768-814)[1]، بيد إن طموحات منافسه السلطان سليمان، في الجانب الآخر، لم تكن أقل منها.

ناقش كثير من المؤرخين فكرة فيما إذا كان خصم العثمانيين، الإمبراطور شارل الخامس، مدفوعا بفكرة تكوين إمبراطورية عالمية أم لا[2]. ومما لاشك فيه إن الأدلة المتوافرة تدعم مثل هذه الفكرة؛ فما إن إعتلى عرش الدولة حتى ظهرت طموحاته بتوحيد العالم المسيحي الغربي في الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت هيمنة آل هابسبرك[3]. ومن هنا، فقد واجه التوسع العثماني بصفته حاميا للعالم الكاثوليكي، وقد أدت فكرة الحرب الصليبية دورا مهما في الدعاية الإمبراطورية في ذلك الوقت. كما إن المعتقدات التي سادت في إسبانيا حول شخصيتة، التي تعززت بتوسع العالم الإسباني، أسفرت عن فكرة راسخة بضرورة شن حرب صليبية ضد العالم الإسلامي[4]. وهذه الإشارة إلى الحرب الصليبية كانت مستندة إلى أربعة أسس: مكانة إمبراطورية آل هابسبرك وزعامتها للعالم المسيحي، وحماسة شارل الخامس لشن حرب ضد كل مَن كان يسميهم بـ "الكفار"، والتقليد الإسباني الموروث عن العصر الوسيط[5]، وأخيرا، وجود الحاميات الإسبانية في شمالي أفريقيا[6].

---

(1) للمزيد من التفاصيل عن حقبة الإمبراطور شارلمان: محمود عبد الواحد محمود القيسي، العلاقات الخارجية للدولة الكارولنجية في عهد شارلمان (768-814)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، 2003.

(2) لمزيد من الأمثلة:

G. R. Elton (ed.); The New Cambride Modern History, Vol. II: The Reformation 1520-1559, Cambridge, 1969, p. 301ff; James D. Tracy; Emperor Charles V, Impresario of War: Campaign Strategy, International Finance, and Domestic Politics, Cambridge, 2002, pp. 20-38.

(3) Kinross, Op. Cit.

(4) Juan Sanchez Montes; French, Protestants, and Turks: The Spaniards before the International Policy of Carlos V, Granada, 1995, p. 50.

(5) Gürkan, Op. Cit., p. 11.

(6) Montes, Op. Cit., p. 129.

وقد أوضح شارل الخامس حماسته للحرب المقدسة بقوله: "إن هذا الشئ [ويقصد الحرب الصليبية] مرغوب جدا لنا"[1]. وبعد أن توّجهُ البابا كليمنت السابع (1523-1534) إمبراطورا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فإنما منحه بذلك الشرعية لشن تلك الحروب ذات الصبغة الصليبية. وتجلت هذه الحماسة الدينية في سلوكه خلال صراعه المرير مع العثمانيين، إنطلاقا من إعتقاد راسخ مفاده إنه إنما يؤدي الواجبات الملقاة عليه بصفته مدافعا عن العقيدة المسيحية وحاميا لها. ومن هنا ذهبت به حماسته إلى حد تخيّل إعادة فتح (القسطنطينية) من جديد لإعادة توحيد الإمبراطوريتين الشرقية والغربية لوضع حدٍ "لإنتهاكات السلاطين العثمانيين"[2]. وقد بلورت حماسته تلك سياسته التي كان محورها الأساس وحدة العالم المسيحي، الذي يمثل هو حارسه الأمين والمدافع عنه، مما جعله يعدّ الإسلام تهديدا للمسيحية برمتها[3]. وعندما طلب منه الأستاذ الأعظم لفرسان القديس يوحنا مَنْحِهِم جزيرة مالطا لإستئناف نشاطهم الصليبي ضد العثمانيين الذين طردوهم من رودس سنة 1522، أبدى إرتياحه وموافقته لهذه الرغبة، مشترطا قيام المنظمة بحماية قلعة طرابلس والدفاع عن المدينة[4]. بيد إن النشاط العثماني في شمالي أفريقيا والنجاح الذي حققه خير الدين بربروسا في ربط الجزائر بالدولة العثمانية ونجاحه في إسقاط قلعة بينون الإسبانية سنة 1529، ثم فتحه لتونس سنة 1534 وإعلان تبعيتها للباب العالي، جعلته يتحرك، إيمانا منه إن العثمانيين يمثلون تهديدا مباشرا لأمن المسيحية. لذا، اعدّ جيشا قويا لمحاربة خير الدين والإطاحة به في حرب ستكون "آخر حرب صليبية"[5]. وعندما حلّ بتونس في صيف 1535 ودخل البلاد منتصرا، فرض على الملك الحفصي مولاي الحسن معاهدة نصّت على أن يعمل الأخير، هو وخلفاؤه، "من الآن وإلى الأبد"، على السماح للمسيحيين بالقدوم والعيش والإقامة بمملكة تونس، شريطة أن يبقوا أوفياء لعقيدتهم المسيحية[6]. كما

---

(1) Francisco de Laiglesia, Estudio Historicos (1515-1555), Madrid, 1918, p. 438; in : Montes, Op. Cit., p. 86.

(2) عبد الجليل التميمي؛ "الخلفية الدينية للصراع الإسباني ـ العثماني على الايالات المغربية في القرن السادس عشر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 10-11، تونس، جانفي (يناير) 1978، ص 10.

(3) Jean Perez; L'espagne du XVI siècle, Paris, 1973, pp. 69-70.

(4) التميمي، المصدر السابق، ص 10.

(5) المصدر نفسه.

(6) المصدر نفسه.

إن الاستقبال الضخم الذي حظي به بمدينة مسينا بإيطاليا يعكس هو الآخر مدى الإمتنان الذي أحسّ به المواطنون المسيحيون في محاربة "أعداء الدين"، والإنتصار عليهم.

وهنا، ينبغي علينا أن لا نغفل إن مشاعر شارل الخامس هذه كانت جزءا من تيار عام كان سائدا قبل إرتقائه العرش وإستمر بعده. فمنذ سقوط غرناطة سنة 1492، سادت إسبانيا موجة من الهوس الديني ضد الإسلام والمسلمين. وكانت هذه الموجة من أهم سمات إسبانيا القرن السادس عشر، بحيث لا يمكننا فهم طبيعة الصراع في البحر المتوسط إلا من خلال فهم الخلفية الدينية للصراع بين العثمانيين والإسبان خلال القرن السادس عشر[1].

إزاء هجوم من هذا النوع، مصطبغ بمثل تلك الروح المتعصبة، إختار العثمانيون، بادئ الأمر، إضفاء الصفة الدينية لنشاطهم البحري. وإبتداءً من فتح القسطنطينية، مرورا بفتح بلاد الشام والسيطرة على ألاماكن المقدسة في القدس 1516، وإنتهاءً بدخول بلاد الحجاز وإتخاذ لقب الخلافة بديلا عن المماليك سنة 1517[2]، يشكل التاريخ العثماني وحدة مترابطة تمكننا من فهم الخلفية اللاحقة لنشاطاتهم في شمالي أفريقيا، كما تفسر لنا، إلى حد بعيد، السهولة التي تمكنوا بمقتضاها من توجيه حملاتهم هناك. فحينما إعتلى السلطان سليمان القانوني العرش، بدأ، مثل جده السلطان محمد الفاتح، يدّعي زعامته للعالم الإسلامي، وكثيرا ما كان يصرّح بطموحاته بالملكية العالمية علنا. ولاشك إن هذه الثقة العالية كانت متأتية من كونه زعيما للعالم الإسلامي وحاكما لأقوى دولة إسلامية في ذلك الوقت. وكما يؤكد خليل إناجك، فقد كان العثمانيون، بعد سنة 1453، قد أعلنوا هذا التفوق المستند إلى زعم مفاده إن أي حاكم مسلم آخر، منذ عهد الخلفاء الراشدين (ﷺ)، لم يحرز أبدا مثل هذا النجاح في حماية مصالح العالم الإسلامي وتعزيزها، وإن السلطان العثماني خليفة المسلمين وحامي حمى

---

(1) مثال على ذلك الدراسة الشاملة التي قدمها البروفيسور كينيث سيتون عن الحماسة الصليبية التي سادت إسبانيا إزاء التوسع العثماني في المشرق خلال بداية القرن السادس عشر؛

Kenneth M. Setton; "Penrose Memorial Lecture: Pope Leo X and the Turkish Peril", *Proceedings of the American Philosophical Society*, Vol. 113, No. 6, December 15th 1969, pp. 367-424.

(2) لا تؤيد الدراسات الحديثة مسألة تنازل الخليفة المتوكل عن لقب الخلافة إلى السلطان سليم الأول؛ في سبيل المثال: جاسم محمد حسن العدول؛ الدولة العثمانية إبان حكم السلطان سليم الأول 1512-1520، إطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، 2004، ص ص 283-296، وهو يستند في أدلته أساسا إلى كتاب إبن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، المعاصر للأحداث.

الدين. فضلا عن ذلك، فعندما تلاشت دولة المماليك نتيجة التوسع العثماني بين سنتي 1516 و 1517، أصبح العثمانيون سادة العتبات المقدسة في القدس والحجاز[1]. وطبقا لخليل إنالجك أيضا، كان السلطان سليمان يتحدث بكل غرور وخيلاء حينما قال في سنة 1557:

"أنا عبد الله وسيد العالم... أنا سليمان، وإسمي يُتلى في صلوات المدن المقدسة في العالم الإسلامي. وجّهتُ الأساطيل في البحر المتوسط ضد الفرنجة في المغرب وفي المحيط الهندي أيضا. أنا شاه بغداد والعراق، وقيصر الأراضي الرومانية، وسلطان مصر. إنتزعت أراضي ملك هنغاريا وتاجه ومنحته إلى أحقر عبيدي"[2].

ولكننا حينما نتحدث عن الطموحات العالمية للسلاطين العثمانيين عامة، والسلطان سليمان خاصة، ينبغي أن لا ننسى حقيقتين أساسيتين أسهمتا في تصاعد طموحاته وبلوغها أوجها. أولى هاتين الحقيقتين هي التطور الكبير الذي حدث في ميدان التقنية العسكرية العثمانية، البرية منها والبحرية[3]، التي جعلت من الدولة العثمانية الدولة الإسلامية الوحيدة القادرة على تحدي العالم المسيحي. أما الحقيقة الثانية فهي الدعوات المستمرة للتدخل العثماني من جانب الحكام المسلمين الذين كانوا يشعرون بالخوف نتيجة خطر التوسع المسيحي، الذي تمثله إمبراطورية آل هابسبرك، أي إسبانيا وحليفاتها، بل وحتى أبعد من ذلك، حينما بدأ المسلمون في الهند وآسيا الوسطى يتطلعون إلى العثمانيين بوصفهم ورثة الإمبراطورية الإسلامية التي نشرت الإسلام في تلك الأصقاع[4]. وقد إنسجمت تلك الدعوات مع مزاعم العثمانيين في وراثة

(1) Halil İnalcık; "State, Sovereignty and Law during the Reign of Süleyman"; in: Halil İnalcık and Cemal Kafadar (eds.); Süleyman the Second and His Time, İstanbul, 1993, p. 68.

(2) İnalcık, State, Sovereignty and Law…, p. 67-68.

(3) Imber, The Navy of Suleyman…, pp. 211-82.

(4) للحصول على مزيد من الأمثلة عن إمتداد النفوذ العثماني إلى الهند وآسيا الوسطى:
Halil İnalcık (ed.) with Donald Quataert; An Economic and Social History of the Ottoman Empire: 1300-1600, Cambridge, 1994, pp. 319-340; Svat Soucek; "Ottoman Naval Policy in the Indian Ocean"; in: X. _Türk Tarih Kongresi_, 22-26

الإمبراطورية الرومانية، التي لم تكن مقتصرة على الجزء الشرقي منها، وإنما على الجزء الغربي أيضا. ولكن تلك المزاعم لم تكن وليدة عهد السلطان سليمان، وإنما تزامنت مع بداية الفتوحات البحرية العثمانية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. فمنذ سنة 1453 كان مفهوم (روما) يلوح في خيال ساسة الدولة العثمانية(1). ويعدّ خليل إنالجك الدعم العثماني لفرنسا وللحركة البروتستانتية خطة لسياسة بعيدة المدى كان الهدف منها فتح روما وتوحيد شطري العالم الروماني. وهذه السياسة، الموجهة ضد كل من إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة والبابوية، هي التي منعت توحيد أوربا المسيحية ضد العثمانيين(2).

من جانب آخر، كانت فكرة وجود إمبراطوريتين في آن واحد غير مقبولة لدى العثمانيين. من هنا، فإن شارل الخامس لم يكن إمبراطورا من وجهة نظرهم، وإنما ملكا على إسبانيا فقط. وقد تجسد ذلك في سنة 1530 عندما توّج شارل الخامس إمبراطورا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إذ زادت حدة الصراع بينه وبين السلطان سليمان القانوني(3). على هذا الأساس، فإن أرضية صالحة للصراع كانت موجودة لدى الطرفين، فهناك المزاعم الدينية، وهناك الطموحات التوسعية أيضا. ولم تكن تلك الطموحات مقتصرة على البر، وإنما على مناطق النفوذ في البحر أيضا. وكان البحر المتوسط واحدا من ميدانين من ميادين الصراع بين الإمبراطوريتين(4)؛ ولكن كلا

Eylül 1986, Ankara, 1993, pp. 1443-1446; Salih Özbaran; " Expansion in Southern Seas"; in: Halil İnalcık and Cemal Kafadar (eds.); Süleyman the Second and His Time, pp. 211-218; Özbaran; " The Ottomans in Confrontation with the Portuguese in The Red Sea after the Conqust of Egypt"; in: Studies on Turkish-Arab Relations, I, İstanbul, 1986, pp. 207-214; Brummett, Ottoman Seapower…, p. 6; "The Ottomans as a World Power: What We don't Know about Ottoman Sea-Power; in: Kate Fleet (ed.); The Ottomans and the Sea, *Oriente Moderno*, XX (LXXXI), n-s. I, 2001, pp. 11-14; R. I. Moore (ed.); The Hamlyn Historical Atlas, London, 1981, p. 42.

(1) M. E. Yapp ; "Europe in the Turkish Mirror: The Cultural and Political Construction of Europe", *Past and Present*, No. 137, , Nov., 1992, p. 137.

(2) İnalcık, State, Sovereignty and Law, p. 69.

(3) Gülru Necipoğlu**;** Süleyman the Magnificent and the Representation of Power in the Context of Ottoman-Hapsburg-Papal Rivalry**,** *The Art Bulletin*, Vol. 71, No. 3, Sep., 1989, pp. 401-427.

(4) Gürkan, Op. Cit., p. 15;

العاهلين كانا يتجنبان المواجهة المباشرة. في هذه المرحلة من الصراع ظهر القباطنة عنصرا فاعلا في الحرب بين الطرفين، ليمثلوا ما يُسمى في المصطلحات السياسية الحديثة "الحرب بالنيابة".

ولكن الحرب ضد المسلمين لم تبدأ مع الهجمات الإسبانية؛ إذ كان البرتغاليون قد بدأوا بالإستيلاء على مناطق في شمالي أفريقيا منذ سنة 1415 إنسجاما مع المتطلبات التي تطلبتها عملية الإستكشافات الجغرافية(1). فضلا عن ذلك، ففي نهاية القرن الخامس عشر، كانت "حروب الإسترداد" قد إنتهت في شبه الجزيرة الايبيرية، ومهدت الطريق لتطورين أساسيين: **الأول**، إنها وفرت فرصة لنقل الحروب الصليبية إلى قارة أخرى، وكان لهذه الحروب مؤيدون متحمسون. يسجل فوللر (Fuller): "إن توسع الإمبراطورية العثمانية قد أيقظ ذكريات سنة 711م المؤلمة والكثير من المعارك"(2). وهذا هو السبب الذي يفسر لنا لماذا أعلنت الملكة إيزابيلا، عند اعتلائها العرش، "الحرب المقدسة" ضد المسلمين في شبه الجزيرة(3). صحيح إن توحيد الجزيرة قد إستُكمل سنة 1492، لكن ذلك لم يكن كافيا، فقد كانت مسألة الحرب ضد المسلمين ومطاردتهم في شمالي أفريقيا موضع نقاش مستمر بين ساسة إسبانيا(4). ومن هنا، فلم يكن العائق بين إسبانيا وشمالي أفريقيا، أي بين قارتي أوربا وأفريقيا، سوى ممر مائي ضيّق. ولكن، هل كان مضيق جبل طارق يشكل حدّا ماديا لا يمكن التغلب عليه، أو هل يمكن للتوسع أن يستمر كما يتساءل أندرو هِس؟(5)

وبهذا السياق، يؤكد اللورد كنروس أيضا إن السلطان سليمان كان يحارب شارل الخامس بصفته (أي السلطان سليمان) سيد عصره. وإن ميدان الصراع كان بريا وبحريا؛ ففي البر كانت هناك مملكة هنغاريا، الدولة العازلة بين ممتلكاته وممتلكات آل هابسبرك. وفي البحر المتوسط، كان صراعه ضد الجزر المسيحية وسواحل إسبانيا وشمالي أفريقيا. وكان هدفاه المباشران، اللذان اخفق فيهما جده محمد الفاتح، هما مدينة بلغراد وجزيرة رودس؛

Kinross, Op. Cit., p. 176.

(1) عن وضع المغرب العربي عشية الغزو الأوربي: الملاحق، (خارطة رقم 8).

(2) J. F. C. Fuller; A Military History of the Western World, Vol. 1: From the Earliest Time to the Battle of Lepanto, New York, 1987, pp. 531-532.

(3) Gürkan, Op. Cit., p. 19.

(4) للتفاصيل عن ذلك:

Abdalla Lauri; The History of the Maghrib: An Interpretive Essay, translated from the French by: Ralph Menheim, New Jersey, 1977, pp. 238-239.

(5) Andrew C. Hess; The Forgotten Frontier: A History of the Sixteenth Century Ibero-African Frontier, Chicago, 1978, p. 4; Hess; "The Moriscos: An Ottoman

أما التطور **الثاني** فهو يخص المسلمين في شمالي أفريقيا الذين نظّموا أنفسهم لمقاومة التوسع المسيحي؛ فبمساعدة الموريسكيين(1)، بدأ دور القباطنة يتصاعد بإستهداف سواحل شبه الجزيرة الايبيرية ثأرا لإضطهاد المسلمين في إسبانيا. الأستاذ عبد الجليل التميمي أيضا أكد على أهميتهم، ونشر بهذا الشأن سلسلة من الدراسات التي تغطي جوانب مختلفة من علاقاتهم مع الدولة العثمانية وصراعهم ضد العالم الكاثوليكي(2). ولكن هؤلاء الموريسكيين لم يتمكنوا من تحقيق نتائج حاسمة في شمالي أفريقيا إلا بمساعدة القباطنة القادمين من السواحل الشرقية في البحر المتوسط التي خضعت للنفوذ العثماني خلال عمليات الفتوحات البحرية الأولى بعد فتح القسطنطينية، ثم أخذ دورهم يتصاعد فيما بعد ليكونوا الذراع القوية للقوة البحرية للدولة العثمانية. من هنا، يمكننا فهم الدور الرئيس الذي إضطلع به القباطنة العثمانيون في السياسة الخارجية للدولة العثمانية ضمن إطار التنافس والصراع بينها وبين إمبراطورية آل هابسبرك.

ولكن، خلال المرحلة المبكرة من القرن السادس عشر لم تكن الدولة العثمانية عنصرا مهما في هذا الصراع (وأقصد به الصراع بين المسلمين وآل هابسبرك في غربي البحر المتوسط)؛ فقد كان السلطان بايزيد الثاني حاكما مسالما مقارنة بسلفه السلطان محمد الفاتح، وخلفيه السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني فيما بعد.

Fifth Column in Sixteenth-Century Spain", _The American Historical Review_, Volume 79, (LXXIV), No. 1, October 1968, p. 7;

إذ يذكر إن الحدود الغربية للبحر المتوسط بين العالمين الإسلامي والمسيحي، خلال معظم القرن السادس عشر، كانت منطقة متداخلة تضم الجماعات الإسلامية في جنوب شرقي إسبانيا كما تضم الحصون الإسبانية على الساحل المغربي.

(1) الموريسكيون هو الإسم الذي أُطلق على المسلمين الذين بقوا في إسبانيا بعد ما يُسمى بـ "حروب الإسترداد". وهم يُعرفون باللغة الإسبانية بإسم (المدجرين)، المشتقة من كلمة (مدجن) العربية التي تعني "الذين سُمح لهم بالبقاء". وفي المصادر العثمانية، ناهيك عن سكان الأندلس، كانت هناك ثلاثة مصطلحات تطلق على المسلمين الذين كانوا يعيشون تحت سيطرة الإسبان، وهي: (Müdeccir – Mudaccan – Mudaccal). للتفاصيل:

Hess, The Moriscos…, p. 3.

(2) في سبيل المثال: "تأملات جديدة حول مصيرية الموريسكيين ـ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة وحتى طردهم من الأندلس 1609"، المجلة التاريخية المغربية، السنة 21، العدد 75-76، تونس، مايس، 1994، ص ص 353-359؛ "حول مؤتمر (دين وهوية الموريسكيين الاندلسيين ومصادر وثائقهم) المنعقد بتونس من 19 إلى 25 سبتمبر (أيلول)"، المجلة التاريخية المغربية، السنة 11، العدد 33-34، حزيران (جوان)، 1984، ص ص 213-222؛ "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين"، المجلة التاريخية المغربية، السنة 8، العدد 23-24، تونس، تشرين الثاني (نوفمبر)، 1981، ص ص 187-203.

وخلال ما يزيد عن عقد ونصف العقد من حكمه، كانت سياسته تجاه أوربا متركزة على أخيه، منافسه على العرش العثماني، الأمير جم، (المتوفى سنة 1495)، الذي كان سجينا في أوربا(1)، وأصبح وجوده فيها موضع مساومات سياسية في المفاوضات بين الدولة العثمانية والقوى الأوربية(2). وبسبب عدم وجود قانون ينظم مسألة وراثة الأسرة في الدولة العثمانية سوى "إرادة الله"، فإن إدعاءاته بالتاج كانت شرعية كإدعاءات أخيه سليم(3). وقد أسفر ذلك عن نشوء خلاف بين الأخوين هدد النسيج الداخلي للدولة بالتمزق. لكنه، مع ذلك، لم يغير حقيقة عدم قيام الدولة العثمانية بمتابعة سياسة فاعلة في غربي البحر المتوسط. وبهذا السياق، يؤكد خليل إنالجك على نشاطات كمال ريّس في غربي البحر المتوسط منذ سنة 1487(4). ولكن الدولة العثمانية، في تلك المرحلة، لم يكن بمقدورها توسيع نفوذها على نحو فاعل في تلك المناطق، وذلك لأربعة أسباب رئيسة(5): **الأول**، إن الدولة العثمانية كانت قد حاربت البنادقة بين 1499-1503، من أجل الهيمنة البحرية في شرقي البحر المتوسط؛ و**الثاني**، إن ظهور البرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر شكل مشكلة جديدة للدولة العثمانية؛ و**الثالث**، في سنة 1511 نشبت حرب أهلية إنتهت بإعتلاء سليم الأول العرش بعد أن قضى على إخوته، وربما على والده، الذي يُحتمل إنه سمّه(6). وكان أول عمل قام به هو الإعداد لحملة ضد الزعيم ألصفوي، الشاه إسماعيل (1501- 1524) الذي كانت سياسته تؤثر في توازن القوى في الشرق. أما السبب **الرابع** فهو سبب يختص بالجانب

---

(1) Gürkan, Op. Cit., 20.

(2) See: Halil İnalcık; "A Case Study in Renaissance Diplomacy: The Agreement between Innocent VIII and Bayezid II on Djem Sultan", *Journal of Turkish Studies*, 3, 1979-1980, pp. 209-230; Halil İnalcık, "Djem", *EI2*.

(3) ليس هناك في الموروث العثماني قانون ينظم مسألة الوراثة. وطبقا لذلك، عندما يمرض حاكم ما، فكل واحد من ورثته له الحق في الادعاء بالعرش لأن التاج سوف يُمنح من الله. وعليه، فإن الحرب الأهلية كانت مسوّغة ونتيجتها كانت مقبولة لأنها تمثل إرادة الله. للمزيد من المعلومات عن هذه المسألة:
Gürkan, Op. Cit., p. 22; Sydney Nettleton Fisher; "Civil Strife in the Ottoman Empire, 1481-1503", *The Journal of Modern History*, Vol. 13, No. 4, December 1941, pp. 449-466.

(4) Halil İnalcık; "Osmanlı Deniz Egemliği", in: Türk Denizcilik Tarihi, Bülent Arı (ed.), Ankara, 2002, p. 55; in: Gürkan, Op. Cit., p. 22.

(5) Brummett, Ottoman Seapower, pp. 22-23.

(6) Goffman, Op. Cit., p. 156; Fisher, Foreign Relation…, p. 103;
وقد توفي السلطان بايزيد في السادس والعشرين من مايس 1512.

التقني، إذ لم تكن السفن العثمانية، حتى ذلك الوقت، قادرة على الإبحار لمسافات طويلة تمكّنها من الوصول إلى الأجزاء الغربية من البحر المتوسط. ولكن، من حسن حظ مسلمي شمالي أفريقيا، إن السلطان سليم الأول نجح في محاولته لتحقيق هيمنة في المشرق الإسلامي في سنة 1517، ليتمكن فيما بعد من مدّ نفوذه إلى غربي البحر المتوسط(1). وقد خفف هذا الإنجاز من أثر العامل الأخير، وتقليل القصور الذي كانت تعاني منه القوة البحرية العثمانية.

في الجانب الآخر من البحر، أي في إسبانيا، سقطت آخر دولة إسلامية في شبه الجزيرة الايبيرية في كانون الثاني سنة 1492، أعقبتها سياسة تنصير المسلمين القسرية، بإيحاء وتشجيع من الكنيسة(2)، أسفرت عن ظهور الموريسكيين. وكان هؤلاء غير راغبين بالإندماج بالمجتمع المسيحي الإسباني. وقد حدثت أول ثورة للموريسكيين ضد الإسبان بين 1499-1500، عوقب فيها الموريسكيون بشدة، وأصبح بعدها تنصير المسلمين وتركهم عاداتهم وتقاليدهم إجباريا. وخلال الربع الأول من القرن السادس عشر إستمرت تلك العمليات، وأصبح وجود المسلمين في شبه الجزيرة محفوفا بالمخاطر.

نتيجة لذلك، شهدت مناطق المغرب العربي هجرة واسعة النطاق إلى شمالي أفريقيا إمتدت من أواخر القرن الخامس عشر وإستمرت طوال القرن السادس عشر. وقد شكل هؤلاء المهاجرون فيما بعد الجزء الأكبر لما أصبح "مشكلة حقيقية" للسواحل الايبيرية لسببين رئيسين: **الأول** إنهم أُجبروا على مغادرة وطنهم، وإن نتيجة الهجرة كانت قاسية عليهم. وعلى الرغم من ترحيب إخوتهم في الدين، إلا إنهم لم يتمكنوا من تأمين الوسائل الاقتصادية الكافية لتوفير معيشة القادمين الجدد؛ و**الثاني**، إن هؤلاء المهاجرين كانوا مؤهلين للعمليات البحرية بمقتضى معرفتهم بالمنطقة وسواحلها، فضلا عن مهارتهم في ميدان صناعة السفن، لدرجة إن صناعة السفن في كاتالونيا إضمحلت بعد

(1) عن التطورات الدولية وتغير ميزان القوى بعد الفتح العثماني لمصر:
Hess, The Ottoman Conquest of Egypt …, pp. 55-76; Ayalon David; "The End of Mamlūk Saltanate: Why did the Ottomans Spare the Mamlūks of Egypt and Wipe the Mamlūk of Syria?" *Studia Islamica*, No.65, 1987, pp. 125-148.
(2) Stanley Lane-Poole; The Barbary Corsairs, London, 1890, p. 8.

مغادرتهم([1]). وإلى ذلك يضيف ستانلي لين - بول سببا آخر، هو "رغبتهم بالإنتقام"([2]).

أما السكان المسلمون المحليون الذين بقوا في إسبانيا ودعموا القباطنة أيضا، فقد عُدّوا "طابورا خامسا" للدولة العثمانية بحسب وصف أندرو هِس([3])، إذ شكل وجودهم في شبه الجزيرة الايبيرية خطرا حقيقيا بطريقة هُدد بها النسيج الاجتماعي في شبه الجزيرة، ومن ثم أدى إلى إحداث فجوة تمكن من خلالها العثمانيون من إختراق قلب أراضي خصومهم لأول مرة في تاريخهم، ولو بطريقة غير مباشرة. وقد شكل هؤلاء رعبا لدى الإسبان من إحتمال قيام تعاون بينهم وبين المسلمين. والأدلة التاريخية المتوافرة تؤكد وجود دعم متزايد بين المغرب وبين تلك المناطق. ومن هنا، ومع الدعم الواضح والكبير للكنيسة الكاثوليكية، التي كانت دائما تولي إهتماما خاصا لهذه المسألة، ظهرت سياسة شديدة العداء تجاه هؤلاء الموريسكيين، الذين غيّر وجودهم، بالتعاون مع القباطنة العثمانيين المنضوين حديثا تحت لواء الدولة العثمانية، وجه الصراع في غربي البحر المتوسط.

بدأ هذا الصراع بعد سلسلة الهجمات التي شنتها إسبانيا على المواقع الساحلية في شمالي أفريقيا لتعقّب المسلمين الناجين من الإضطهاد الإسباني في شبه الجزيرة الايبيرية، الذين بدأوا ينظمون أنفسهم للإنتقام من مضطهديهم. وكانت أول حملة إسبانية على المنطقة قد توجهت إلى ميناء المرسى الكبير بوهران سنة 1505([4])، ثم أعقبتها بعد ثلاث سنوات حملة أخرى بقيادة بيدرو دو نفارو ضد قلعة بينون([5]) دي فيليس (حجر باديس) في الجزائر، كان هدفها إستئصال القباطنة المسلمين الذين كانوا يُغيرون

---

(1) John Lynch; Spain Under the Habsburg, 2nd ed, Oxford, 1981, p. 80.

(2) Lane-Poole, The Barbary Corsairs, p. 8; cf: Hess, The Moriscoss;
لا يتفق أندرو هِس مع ما ذكره ستانلي لين - بول، ويذكر إن الموريسكيين كانوا يرنون بأبصارهم إلى "أرضهم" ويتطلعون إلى عودة ظافرة. ولاشك إن هذا الرأي هو الأصوب.

(3) Hess, The Moriscos…, passim.

(4) Aziz Samih İlter; Şimali Afrika'da Türkler, İstanbul, 1934, p. 31; Lauri, Op. Cit., p. 239;
أحمد توفيق المدني؛ حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ط 2، الجزائر، 1976، ص ص 96-102، 110-117؛ اوزتونا، المصدر السابق، ص 240.

(5) كلمة بينون تعني الجزر الساحلية والرؤوس الداخلية للبحر. الشناوي، المصدر السابق، ص 906.

على السواحل الإسبانية، وتم إنشاء حامية إسبانية فيها. وفي السنة اللاحقة، 1509، فكر الملك الإسباني فرديناند بقيادة حملة تكون بقيادته شخصيا إلى شمالي أفريقيا(1). وفي العشرين من آب نظم الكاردينال الكاثوليكي المتعصب زيمنس (Ximenez) حملة "لخدمة الرب ومنع الشر والضرر الذي كان يتسبب به الموريسكيون في كل مكان في تلك الممالك، ولاسيما في غرناطة والأندلس"(2)، وعرض شروط الإستسلام على المسلمين التي نصت على وجوب تنصيرهم مقابل إستعادة حرياتهم. وحين رفضوا قامت قوات بيدرو دو نفارو بغزو وهران في الثامن عشر من مايس سنة 1509 بقوة بلغ قوامها ثمانون سفينة وعشرة قوادس تحمل ثمانية آلاف جندي وثلاثة آلاف من الخيّالة(3)، كانت نتيجتها مقتل أربعة آلاف مسلم وإعادة خمسة آلاف آخرين إلى إسبانيا عبيدا، مع غنائم قُدّرت قيمتها بنصف مليون دوكة(4). وحينما دخل زيمنس إلى وهران أقام كنيستين للكاثوليك وديرين للمبشرين، كما عيّن مفتشا للتحقيق. وبات من الواضح إن الهدف الرئيس لسياسته إستئصال الإسلام من شمالي أفريقيا. وقد قبِل الجزائريون، على مضض، التوقيع على إتفاقية فُرضت عليهم أُنزل بموجبها الوضع الإداري لمدينة الجزائر لتصبح إقطاعية تابعة للملك الإسباني في العاشر من كانون الثاني 1510(5). وفي ربيع السنة نفسها شُنّت حملة أخرى على بجاية قوامها خمس عشرة سفينة تحمل أربعة عشر ألف جندي(6)، تقرر فيها فرض

(1) Fray Prudencio de Sandoval; History of the Life and Facts of Emperor Carlos V, Vol. I, Oxford, 1956, (translated from the original Spanish of 1614 by Ronald Thompson), p. 34.

(2) Fisher, The Barbary Legend…, p. 34; Stanley Lane-Poole; The Story of Barbary Corsairs, London, 1890, pp. 45-46. (hereafter: Poole & Kelly).

(3) Fisher, The Barbary Legend, p. 46.

(4) Fisher, The Barbary Legend, p. 46.

(5) Gürkan, p. 40; Lauri, Op. Cit., p. 239; Robert Mantran; North Africa in the Sixteenth and Seventeenth Centuries; in: P.M. Holt, Ann K. S. Lambton, and Bernard Lewis (eds.); The Cambridge History of Islam, Vol. II, Cambridge, 1970, p. 249.

بموجب هذه الإتفاقية توجّب على الجزائريين أن يعيدوا الأسرى المسيحيين الذين بحوزتهم فورا، وأن يعِدوا بمنع غارات "القراصنة" ويرفضوا دخولهم الى موانئهم، فضلا عن دفع إتاوة لمدة عشر سنوات. وبالمقابل، يقوم الإسبان بضمان السيطرة على المدينة عن طريق إحدى الجزر الصخرية الأربع الموجودة هناك، كما تقرر إنشاء حامية إسبانية في قلعة بينون.

(6) Ibid., p. 41.

معاهدة على حاكمها نصّت على منع إيواء "القراصنة" المسلمين، وإلا فسيتعرض للحرب([1]).

وكان الهدف اللاحق مدينة طرابلس الغرب التي كانت قد علمت بسقوط وهران وبجاية عن طريق الوكلاء الجنويين([2]). لذا، إتخذت الإستعدادات الدفاعية، في حين فرّ بعض من سكانها إلى الجبال مستصحبين معهم مقتنياتهم الثمينة([3]). ومع ذلك، كانت التحصينات ضعيفة، فسقطت المدينة بأيدي الإسبان في الثامن والعشرين من آب 1510. بعدها توجه نفارو إلى جزيرة جربة، فوصلها في الثلاثين من آب، بيد إن جيشه هُزم فيها بسبب شحة المؤن وشدة الحر([4]). وبهزيمته، تعرضت الهيبة الإسبانية لضربة موجعة. وفي هذه الأثناء، كان القباطنة العثمانيون قد إستقروا مسبقا في جربة([5]). ومما لاشك فيه إن وجود القباطنة المسلمين والوضع الأفضل لدفاعات

---

(1) كان هذا رأي الكاردينال زيمنس، ولكن بيدرو دو نفارو كانت له وجهة نظر أخرى. فقد كان هناك صراع داخلي على العرش بين عبد الرحمن وعبد الله. ولم يتردد بيدرو دو نفارو بإستغلال الوضع، اذ ساعد عبد الله، الذي قبل الخضوع لإسبانيا، ضد أخيه. ثم وقّع معه معاهدة أمنت بموجبها إسبانيا حصنين في المنطقة، بل وأجبرت الملك الجديد على إرسال اثنين من أبنائه رهائن الى إسبانيا. وقد إستمرت الهيمنة الإسبانية على بجاية حتى سنة 1555؛

Sandoval, Op. Cit., I, pp. 36-38.

(2) للتفاصيل عن سقوط بجاية: المدني، المصدر السابق، ص ص 110-140.

(3) Sandoval, Op. Cit. p. 39.

(4) Ibid., p. 40.

(5) Jamil Abun-Nasr; A History of the Maghrib in the Islamic Period, Cambridge, 1987, p. 148;

بيد إن هذا الزعم مستند الى قبول سنة 1504 تاريخا لمجئ الأخوين بربروسا في المنطقة الذي أثبت سوسك عدم صحته؛

Svat Soucek; "The Rise of the Barbarossas in North Africa, _Turcica_, 7, 1975, pp. 243-246;

وبهذا السياق قدّم جميل أبو النصر هؤلاء القباطنة بإسم الأخوين بربروسا. ومع ذلك، فإن ذلك لا يعكس الحقيقة. صحيح إن بعض القباطنة كانوا قد إستقروا في الجزيرة، ولكن ليس بالضرورة أن يكونوا الأخوين بربروسا. وبهذا السياق يذكر ساندوفال: "كان هناك في جربة بعض القراصنة الذين يُلحقون الضرر بصقلية، وكورسيكا، وكالابريا"؛

Sandoval, Op. Cit., I, p. 40;

فضلا عن ذلك، ذكر خير الدين في مذكراته إن عُرُوجا توجه الى جربة حينما قرر الإستقرار في غربي البحر المتوسط؛

Seyyed Murâdi Re'îs, Gazavât-ı Hayreddin Paşa, Mustafa Yıldız (ed.), Aachen, 1993, p. 95. (hereafter: Gazavât);

خير الدين بربروسا؛ مذكرات المجاهد البحار خير الدين بربروس رحمه الله (مخطوط قيد الطبع)، ترجمة: د. محمد درّاج، ص 5. (من هنا فصاعدا: مذكرات).

الجزيرة قد أثبت فاعليته ضد قوات نفارو. وفي السنة اللاحقة (1511) تابع الإسبان حملاتهم لإخضاع بعض المدن المهمة مثل تِنِس، وشرشال، ومستغانم(1). وأخيرا، قرر الإسبان إيقاف توسعهم بسبب الفشل في الإستيلاء على قرقِنة في الثامن والعشرين من آب، وفقدان عدد من سفنهم التي كانت تحمل عددا كبيرا من الجنود، نتيجة عاصفتين هوجاوين(2).

بدأت هذه الحملات في وقت كانت فيه القوى الأخرى في البحر المتوسط مشغولة بالمضاعفات المحتملة لظهور البرتغاليين في المحيط الهندي والبحر الأحمر(3). أما العثمانيون فقد كان إهتمامهم الرئيس مقسّما على جبهتين: الخطر ألصفوي من جهة، وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس من جهة أخرى. وحتى ذلك الوقت كانت القوة البحرية العثمانية قد أمنت الهيمنة على الشطر الشرقي من البحر المتوسط عندما بلغت أوترانتو على الساحل الإيطالي سنة 1481، وتمكنت من تحييد البندقية بحريا بعد حرب 1499-1503. ولكن تلك الهيمنة ظلت منقوصة بسبب وجود فرسان القديس يوحنا في قلب الجزء الشرقي من البحر المتوسط. وكان هؤلاء يُغيرون على السفن التجارية الإسلامية ويهددون طريق الحج إلى ألاماكن المقدسة بطريقة لم يعُد بمقتضاها السلطان سليمان يستطيع إستساغة الأمر مدة أطول(4).

لذلك، إتخذ السلطان قراره بفتح جزيرة رودس جزءا من هدف ستراتيجي للسيطرة على الشطر الشرقي من البحر المتوسط وإخضاعة للنفوذ العثماني(5). هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية تطلب نجاح البرتغاليين في الإلتفاف حول أفريقيا وتأسيس قواعد برتغالية في الهند سيطرة أقوى على المناطق الخاضعة للنفوذ العثماني، ولاسيما مصر والحجاز، اللتين كانتا هدفا للتوسع البرتغالي، لاسيما إن وصول الكثير من

وهذا يثبت أيضا وجود قراصنة قبل مجئ الأخوين بربروسا.

(1) Maouloud Gaid; Türkler İdaresi'nde Cezayir, trans: Faik Melek, Ankara, 1996, p. 16; İlter, Op. Cit., p. 73.

(2) Sandoval, Op. Cit. Vol. I, p. 45.

(3) Brummett, Ottoman Seapower…, pp. 23-24.

(4) Brummett, Op. Cit., p. 24.

(5) إن أفضل دراسة متاحة عن الفتح العثماني لرودس هي دراسة بالميرا برومت:
Brummett, The Overrated Adversary…, pp. 517-541.

المنتجات الشرقية التي كانت تصل إلى أوربا عبر قنوات متعددة أصبح موضع خطرٍ خشية وقوعها تحت سيطرة البرتغاليين ومن ثم التحكم بأسعارها([1]). من هنا أصبح الإستيلاء على المعقل المسيحي في رودس، الواقعة في منتصف الطريق التجاري بين الإسكندرية وإسطنبول، يحتل أهمية خاصة في السياسة العثمانية العليا خلال السنوات الأولى من حكم السلطان سليمان.

هاجم إسطول السلطان سليمان جزيرة رودس، وبعد حصار طويل إستسلم مَن بقي حيا في الجزيرة في الثامن عشر من كانون الأول سنة 1522، ووافق السلطان على السماح للفرسان بمغادرة الجزيرة، وأمهلهم إثنا عشر يوما للإنسحاب منها. وتم إخلاء الجزيرة نهائيا في الأول من كانون الثاني سنة 1523. وقد غادرت خمسون سفينة محمّلة بالفرسان، والجرحى أثناء الحصار، وخمسة آلاف من سكان الجزيرة مع أمتعتهم، كما غادر الأستاذ الأعظم للفرسان فاليري دي أسلي آدم، والموظفون الكبار الآخرون. وبعد مرحلة عدم إستقرار إستمرت نحو ثماني سنوات، إستقر الفرسان أخيرا في جزيرة مالطا([2]). لكن فتح رودس لم يكن بالإمكان أن يتم لولا الخطوة التي سبقته بفتح كل من سوريا ومصر بين سنتي 1516 و1517، إذ أصبحت الطريق، بعد هذين الفتحين، ممهدة لفتح الجزيرة. وبذلك إستُكمل تأمين الحدود الشرقية للبحر المتوسط لصالح العثمانيين.

في هذه المرحلة التاريخية الحسّاسة ظهر التحدي الإسباني في غربي البحر المتوسط ليفرض على العثمانيين مهمة جديدة تمثّلت بحماية المسلمين في مناطق بعيدة

---

(1) عن تفاصيل شبكة المصالح الدولية في المشرق الإسلامي بعد إلتفاف البرتغاليين حول رأس الرجاء الصالح والوصول إلى الهند:

Brummett, Ottoman Seapower…, pp. 1-26.

(2) Ayşe Devrim Ataus; Trade, Piracy and Naval Warfare in the Central Mediterranean: The Maritime History and Archaeology of Malta, Unpublished PhD Dissertation, Texas A & M University, 2004. p. 139.

على أية حال، فإن فكرة فتح رودس تعود الى عصر السلطان محمد الفاتح. ففي سنة 1480، أُمر الصدر الأعظم بالتوجه لفتح الجزيرة بسبعة آلاف مقاتل، وبُنيت لهذا الغرض ستون مركبا في غاليبولي، أُضيفت إليها تلك الموجودة في إسطنبول. ولكن الحملة أخفقت بسبب نزاع بين المقاتلين وقائد الحملة على خزانة الجزيرة، فعادت الحملة أدراجها بعد أن فُقد آلاف من الرجال. وفي عهد السلطان سليم الأول أيضا تم التفكير مجددا بفتح الجزيرة في سنة 1519. ولكنها لم تتم بسبب الوفاة المفاجئة للسلطان؛

Khalife, Op. Cit., pp. 18-19, 24-26.

عن مركز قوتهم البحرية. وفي هذه المرحلة أيضا، ظهر قادة بحريون أقوياء أخذوا على عاتقهم مهمة حماية السواحل الإسلامية في شمالي أفريقيا التي فرّ إليها المسلمون هربا من الإضطهاد الإسباني. وهنا آن لنا أن نسأل: ما الدور الذي أدّاه القادة البحريون الجُدد في تعزيز النفوذ العثماني في تلك المناطق؟ إن الإجابة عن هذا التساؤل ستقودنا للحديث عن شخصيتين بارزتين في التاريخ البحري العثماني، هما الأخوان عُرُوج وخير الدين بربروسا، اللذان أخذا على عاتقهما مهمة مواصلة عمليات الفتح العثماني في شمالي أفريقيا وحماية المسلمين فيها. فما حقيقة هذين الأخوين وما دورهما في النشاط البحري العثماني؟

ثانيا. ظهور الأخوين بربروسا:

طبقا للمصادر المتوافرة يمكننا أن نؤرخ وصول الأخوين بربروسا إلى المنطقة بين سنتي 1502 و 1504[1]. وكان هذان الأخوان من سكان مدينة ميتيلين (ميديللي)، (ليسبوس القديمة)، وهي إحدى الجزر اليونانية في بحر إيجة. وكانت أمهما كتالينا أرملة قسيس يوناني، بينما كان والدهما، يعقوب، موظفا عثمانيا في المنطقة. أما مسألة تاريخ ولادتهما فلا تزال موضع نقاش. وكان إسم بربروسا يُطلقُ أساسا على عُرُوج (Oruç)، الذي يُزعم إنه الأخ الأكبر طبقا للمصادر الغربية[2]، في حين يشير خير الدين في مذكراته إلى إن عُرُوجا هو الأخ الثاني الأكبر لأربعة أخوة[3]. وثمة مزاعم مفادها إن إسم بربروسا كان عائدا إلى لحيته الحمراء (Barba rossa)، بينما يزعم البعض الآخر إنه ترجمة محرّفة لبابا عُرُوج (Baba Oruç). وبعد وفاة عُرُوج أُطلق الإسم على أخيه[4].

---

(1) R. Le Tourneau, “Arudj”, *EI2*; Cf; Shaw, Op. Cit., p. 96;
إذ يذكر إن الأخوين إستقرا في حلق الوادي منذ سنة 1502 .

(2) Soucek; “The Rise of Barbarossas…, p. 279;
وعن الحياة المبكرة لعُرُوج ودوره في البحرية العثمانية:
Rodney S. Quinn; Barbarosa the Sword of Islam: Galley War in the Mediterranean, Maine, 2005, pp. 75-93; Currey, Op. Cit., pp. 55-65; Ernel Bradford; The Sultan's Admiral: The Life of Barbarossa, Oxford, 1969, pp. 14-25.

(3) مذكرات، ص 5.

(4) Fridun Fazıl Tülbentçi; Barbaros Hayrettin Gelyor, Ankara, (N. D.), ss. 5-37; Poole & Kelly, pp. 31- 44;

كان كلا الأخوين يعملان بالملاحة في بحر إيجة تحت حماية الأمير العثماني قرقود الذي كان في حينه واليا على مسينا. وفيما بعد، منع السلطان سليم الأول الملاحة في بحر إيجة لمنع فرار أخيه من دون تخويل منه(1). وفي السنوات الأخيرة من حكم السلطان بايزيد الثاني حدث صراع على العرش الإمبراطوري بين المرشحين، إذ لم يكن ثمة حاكم محدد لوراثة عرش الدولة العثمانية. وطبقا لما يذكره خليل إنالجك فإن "التقليد الذي يحدد إعتلاء العرش لشخص معين من السلالة لم يكن موجودا أبدا في الدويلات التركية، لأن مسألة الإعتلاء كانت تترك للتدبير الإلهي. بعبارة أخرى، فإن نتيجة الحرب الأهلية كانت قد عُدّت إرادة إلهية وليس ثمة مسألة قانونية أخرى لشرعيتها"(2). على أية حال، نجح سليم في تنصيب نفسه بعد إجبار والده على التنازل عن العرش(3). ولكن بقيت هناك مشكلة قرقود، الذي توصل سليم إلى إتفاق معه، ضمِن بموجبه حكم جزيرة ميديللي لأخيه، إلا إن سليما عدّ وجوده تهديدا في وقت كان يعدّ فيه لحملة كبرى في الشرق(4)، فطوّق قصره في مسينا سرا. وعلى الرغم من إنه نجح في الفرار، فقد أُلقي القبض عليه وأُعدم سنة 1513(5).

عند هذه النقطة لابد من الإشارة إلى إن المؤرخ سوسك (Soucek) قد تحدى الفكرة السائدة في المصادر الغربية القائلة إن ظهور الأخوين بربروسا يمكن أن يرجع إلى أوائل سنة 1504. وطبقا لما يذكره، فإن تلك المصادر كُتبت بعد عقود من هذه الأحداث، وإنها تتضمن معلومات متضاربة. وعليه، فإنه يحاول أن يثبت إن تلك المصادر قد خلطت نشاطات الأخوين بربروسا مع نشاطات القبطان العثماني الآخر

سرهنك، المصدر السابق، ص ص 538-539؛ عبد الرحمن محمد الجيلالي؛ تاريخ الجزائر العام، جـ 3، بيروت، 1980، ص 36.

(1) مذكرات، ص 4.

(2) Halil İnalcık; "The Ottoman Succession and its Relation to the Turkish Concept of Sovereignty"; in: Halil İnalcık; The Middle East and the Balkans under the Ottoman Empire: Essays on Economy and Society, Bloomington, 1993, pp. 40-41.

(3) Halil İnalcık; "Selim I", *EI2*.

(4) Ibid.

(5) M. Tayyib Gökbilgin; "Korkud", *EI2*.

كمال ريّس، الذي إستقر في حلق الوادي([1]). ويؤكد سوسك إن بيري ريّس لم يُشِر في (كتاب البحرية) إلى وجود الأخوين بربروسا في غربي البحر المتوسط. وهذه النقطة مهمة، لأن بيري ريّس لم يسافر مع عمه كمال ريّس فحسب، وإنما مع الأخوين بربروسا أيضا بعد وفاة عمه. فضلا عن ذلك، فإنه يذكر إن خير الدين يشير ضمنا في مذكراته إلى إن مجيئهما إلى المنطقة كان في سنة 1513([2]). وإذا ما خذنا بنظر الإعتبار إن كتابه كُتب بناءً على رغبة السلطان سليمان([3])، فسندرك عدم وجود سبب لتضليله في هذه المسألة. وفعلا، كان الأخوان بربروسا يعملان تحت رعاية منافس والد السلطان سليمان، السلطان سليم([4]). وقد أكد بربروسا ذلك في مقدمة مذكراته([5]). فضلا عن ذلك، لم يُشِر المدوّن ألبندقي سانوتو (Sanuto)، الذي كانت سجلاته معاصرة، إلى وجود الأخوين بربروسا حتى سنة 1515([6]). على هذا الأساس، فإن الدليل القائل إن المدونات الإخبارية الغربية المفبركة مؤخرا هي التي خلطت بين أولئك القباطنة جديرٌ بالقبول([7]). ومن المنطقي أيضا أن نأخذ بنظر الإعتبار الدور الذي مارساه في المنطقة خلال العقد الثاني من القرن السادس عشر، إذ إن صمت بعض مدوني الأخبار عن نشاطاتهما حتى سنة 1512 يثير الشكوك. ومن هنا، يمكننا أن نستنتج إنهما كانا قد وصلا قبل حصار بجاية سنة 1513، وربما بعد أن بدأت الحرب الأهلية في الدولة العثمانية التي خسرها حاميهما قرقود.

---

(1) حلق الوادي: ميناء في تونس، ومركز مدينة تونس العاصمة. بنى الإمبراطور شارل الخامس حصن القصبة فيه سنة 1535 عندما إحتل المدينة، ولكن العثمانيين تمكنوا من استعادته في سنة 1574.

(2) Yılmaz Öztuna; Büyük Türkiye Tarihi, Üçücü Cilt, Istanbul, 1977, pp. 266-267, 275.

(3) ذكر خير الدين في مذكراته إن السلطان سليمان أرسل له فرمانا أمره فيه بتدوين الحوادث من دون زيادة و نقصان. وعندما إستلم خير الدين هذا الأمر دعا زميله الأديب البحار سيد علي ألمرادي وبدأ التدوين فورا بقوله: "أنا أملي والمرادي يكتب"؛ مذكرات، ص 5.

(4) Soucek, "The Rise of Barbarossas…", p. 246.

(5) مذكرات، ص 5.

(6) Marino Sanuto; The Diaries, Vol. 2, Oxford, 1976, p. 309.

(7) أبرز مثال عن الإختلافات في المصادر الغربية ما نجده في رواية ساندوفال؛ اذ يذكر حصول إتفاقية بين شارل الخامس والسلطان سليمان سنة 1519، في حين لم يكن الأخير قد إعتلى العرش بعدُ؛ Sandoval, Op. Cit., Vol. I, pp. 142-143.

على أية حال، لابد أن نضيف أيضا إن هذه النظرية لا تعود إلى سوسك نفسه؛ فقد طرح المؤرخ التركي عزيز سامح إلتر (Aziz Samih Ilter) المسألة نفسها وبالحجج نفسها، ودافع عن صحة كون سنة 1513 بداية لظهورهما في المنطقة عن طريق مناقشة النسخ المختلفة لكتاب بيري ريّس بطريقة تحليلية[1]. وإن ما أضافه سوسك إلى هذه النظرية هو الإشارة الصريحة للمصادر الغربية، بضمنها سانوتو، وبعض التأكيدات القائلة إن نشاطات كمال ريّس قد إستُمِدت من نشاطات بربروسا.

ومهما يكن من أمر، فإن غياب الضغط الإسباني خلال هذه المرحلة قد سهّل عمليات عُرُوج. فبعد وصوله مباشرة، بدأ بممارسة دور أكثر فاعلية في المنطقة، وسرعان ما توسعت نشاطاته بسبب توقف التوسع الإسباني[2]. وبالتحالف مع غيره من القباطنة العثمانيين في المنطقة تنامت قوته على نحو ملحوظ لدرجة انه حاول الإستيلاء على بجاية والإطاحة بالملك عبد الرحمن الحفصي، كما حصل سنة 1516[3].

وعلى الرغم من إن عُرُوجا توجه إلى جربة أولا، فإنه أبحر غربا فيما بعد[4]. وقد سعى للحصول على حماية حاكم تونس عبد الرحمن الحفصي، لغرض إستخدام موانئه. وكان هذا سعيدا بقبول عُرُوج محميا طالما إستمر بدفع ثُمن الغنائم التي كان يجلبها لموانئه، فضلا عن نسبة 2% أجرة الميناء[5]. وكانت هذه الإتفاقية ذات فائدة للطرفين؛ إذ سيؤمن عُرُوج بموجبها ملجأ ومحل تسوّق لقوته البحرية، بينما سيتمتع السلطان التونسي بعوائد إضافية. وعليه، فقد مُنح عُرُوج قلعة حلق الوادي. وعلى نحو

---

(1) Ilter, Op. Cit., pp. 70-71.

(2) عند هذه النقطة ظهرت أول إشارة في مذكرات خير الدين عن سبب توجهه مع أخيه عُرُوج الى تونس، اذ يقول:"فجُبتُ البحر المتوسط طولا وعرضا، الى إن أتيت الى جزيرة جربة، فإلتقيت بأخي عُرُوج هناك. وبينما نحن نفكر الى أين نذهب قررنا التوجه إلى تونس وقلنا: ما دام الموت هو نهاية كل حي، فليكن الغزو في سبيل الله". مذكرات، ص 19.

(3) Gürkan, Op. Cit., pp. 45-48;

أما خير الدين فيذكر إن عُرُوجا توجه أول مرة الى جربة بقصد بيع ما غنمه من مراكب بندقية في قبرص: مذكرات، ص 18.

(4) Quinn, Op. Cit., p. 94; Mantran, Op. Cit., p. 250.

(5) مذكرات، ص 19.

غير مشابه لتونس، فإن هذا المكان كان يقع على ساحل أفريقيا الشمالي، وكان مناسبا جدا لقباطنة البحر.

يعود تاريخ أول حملة شنها عُرُوج على بجاية إلى صيف سنة 1514([1])، بطلب من الحاكم الحفصي للمدينة عبد الرحمن، الذي وعده بمكافأة قيّمة إذا ما نجح في إزاحة النير الإسباني([2]). على هذا الأساس ظهر عُرُوج في ميناء بجاية بإثنتي عشرة سفينة بمدافعها وآلاف من الجنود، وفرض الحصار على الميناء؛ بينما قام عبد الرحمن، بمحاصرة المدينة بثلاثة آلاف من الموريسكيين المدعومين بجنود عُرُوج أيضا([3]). على أية حال، لم يُكتب النجاح لهذه المحاولة؛ فبعد ثمانية أيام من الحصار إنسحب

---

(1) يذكر بربروسا في مذكراته انه كان ينوي التوجه مع أخيه الى جنوا. ولكن، بسبب الرياح المعاكسة، توجها إلى الجزائر، فنزلا في قلعة بجاية، حيث تعقبتهم السفن الإسبانية وحدثت بين الطرفين معركة كبيرة، تمكنا بعدها من الإستيلاء على سفينة القيادة الإسبانية مع ثلاث سفن أخرى. ولكن بربروسا لم يُشِر إلى تاريخ محدد لهذه المعركة؛ مذكرات: ص 22؛ كاتب جلبي؛ تحفة الكبار في أسفار البحار، إسطنبول، 1293 هـ، ص ص 27-28. أما ستانلي لين ـ بول وأحمد توفيق المدني فيذكران إنهما كانا يضربان الحصار على بجاية سنة 1512؛ في حين يذكر يلماز اوزتونا إن أول حصار على بجاية كان في شهر كانون الأول 1514؛ المصدر السابق، ص 246؛

Lane-Poole, The Barbary Corsairs, pp. 40-41;

المدني، المصدر السابق، ص 12؛

ومع ذلك فلا يبدو إنهما على صواب لأن وصولهم إلى المنطقة كان في سنة 1513 بحسب سوسك. ومن هنا، فإننا إما أن نقبل التواريخ التي أشار إليها كل من أندرو هِس و فِشر، أو تواريخ جميل أبو النصر، التي لا تتناقض مع تواريخ سوسك. فطبقا لزعم أندرو هِس، فقد فُرض الحصار الأول سنة 1514، بينما فُرض الحصار الثاني سنة 1515. وقد حدد أبو النصر تاريخ الحصار الأول بسنة 1513:

Hess, The Forgotten Frontier…, pp. 61-63; Fisher, Barbary Legend...., p. 47; Abun-Nasr, Op. Cit., p. 148.

وثمة إجماع على إن الحصار الثاني كان في سنة 1515، وهذا ما يؤيده ساندوفال:

Sandoval, Op. Cit., I, p. 98.

أما سانوتو فيسجل وقوع هذا الحدث في مايس سنة 1516، بيد إن هذا التاريخ ربما يشير إلى تاريخ إستلامه المعلومات، ومن هنا فهو مقبول أيضا؛

Sanuto, Op. Cit., Vol. III, p. 381.

(2) عن سوء الوضع الذي كان يعيش فيه السلطان عبد الرحمن الحفصي بموجب تحالفه مع الإسبان بشأن نص المعاهدة المعقودة بين الطرفين: المدني، المصدر السابق، ص ص 133-134، التي إشترط فيها الإسبان عليه أن يرسل ولده محمد رهينة لديهم، وأن يرسل أخوه عبد الله إبنه البكر رهينة لديهم أيضا بموجب المادة السادسة من المعاهدة. وكتب عبد الرحمن رسالة بهذا المضمون في الثالث والعشرين من تشرين الأول سنة 1511. المصدر نفسه، ص ص 132-133.

(3) R. Le Tourneau, “Arudj”, *EI2*.

القباطنة بعد أن أُصيب عُرُوج في ذراعه اليسرى، فأخذه أخوه خير الدين إلى تونس، حيث بُترت ذراعه(1).

أما المرحلة الثانية فقد بدأت خلال سنة 1515. وفي هذه المرة، وبدعم من القوات البرية الحفصية من تونس(2)، قرر عُرُوج الإستجابة للدعوة مجددا. من جانب آخر، نجح خير الدين، وهو في طريقه إلى بجاية بسبع سفن، بتحرير المدينة من الجنويين(3). وفي هذه الأثناء أرسل مبعوثا، هو محي الدين ريّس، إلى إسطنبول، مع هدايا للسلطان العثماني سليم الأول وكبار المسؤولين العثمانيين في العاصمة(4). وهذه هي أول إشارة لوجود إتصال بين الأخوين والعاصمة العثمانية إسطنبول. وكان عليهما، بصفتهما محميي منافس السلطان سليم، قرقود، مغادرة بحر إيجة عندما تسنّم السلطان سليم العرش. وقد رحب السلطان بطلب الطاعة هذا بسرور(5)، ومنح مبعوثهما محي الدين ريّس قادسين حربيين من نوع قادرغة، فضلا عن تجهيز قوادسه(6).

بدأت المرحلة الثانية من حصار بجاية بنجاح بداية الأمر(7)، إذ نجح الأخوان بإحتلال القلعة بفضل مساعدة جنود أحمد بن القاضي(8). أما القلعة الداخلية فقد ظلت

---

(1) المدني، المصدر السابق، ص 165.

(2) Abun-Nasr, Op. Cit., p. 148; Currey, Op. Cit., pp. 67-70.

(3) Gürkan, Op. Cit., p. 48.

(4) كانت هذه الهدايا عبارة عن مائتي أسير، فضلا عن هدايا أخرى. للتفاصيل؛ مذكرات، ص ص 23-24.

(5) المصدر نفسه، ص 24.

(6) Hess, the Forgotten Frontire…, p. 63;

مذكرات، ص 24.

(7) كان من المقرر أن يتوجه الأخوان إلى سبتة، ومنها إلى الأندلس لإنقاذ المسلمين هناك، بعد عودة بيري ريّس من إسطنبول. ولكن حدث أن وصل وفد من بجاية حاملا رسالة ذكر فيها انه لم يعد بمقدورهم أداء الصلاة أو تعليم أطفالهم قراءة القرآن، بسبب ظلم الإسبان. وطلب الوفد من الأخوين التعجيل بإنقاذهم من الإسبان. مذكرات، ص 26.

(8) كان أحمد بن القاضي الغبريني زعيما دينيا لقبيلة قابيليا الكبرى، التي تحالف عُرُوج معها من أجل الدعم المحلي. وكانت قبائل قابيليا قد إنقسمت على ثلاثة قبائل خلال هذه المرحلة، وكان أحمد بن القاضي حاكما على واحدة منها، وهي قبيلة كوكو القاطنة في الجانب الشرقي من بجاية وأدت دورا مهما في حملات القباطنة، لاسيما لو أخذنا بنظر الإعتبار ان القبيلتين الأخريين قد وقفتا الى جانب الإسبان؛

R. Le Tourneau, "Kabylia", *EI2*;

المدني، المصدر السابق، ص 168؛ عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو؛ دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، الجزائر، 1972، ص ص 174-151.

صـامدة. وعنـدما وصـلت قـوة إسـبانية مكونـة مـن خمسـمائة جنـدي بقيـادة مانشـين دي فينتورا[1] (Manchin de Ventura)، طلب عُرُوج من حـاكم تـونس أبـي عبـد الله محمد بن الحسن الحفصي (1526-1494) مساعدة بتجهيزه بالمدافع[2]، بيد إنـه لم يستجب[3]؛ لذا إضطر الأخوان للإنسحاب مجددا. وقد عمل سوء الطقس، فضلا عن فرار الجنود المحليين، على خلق مصاعب جمّة؛ إذ لم تكن هنـاك قدرة لمقاومـة العَمـارة الإسبانية مـن دون إستخدام المـدافع[4]. وفـي المحاولـة الثالثـة تمكن عُرُوج مـن فتح بجاية بمناورة حربية ذكية[5]. ومع ذلك، قرر عُرُوج الإنسحاب بسرعة إلـى جيجل بسبب شحة البارود.

علـى أيـة حـال، ثمـة سؤال مهم لابـد مـن طرحـه: لمـاذا رفـض حـاكم تـونس تقـديم المساعدة؟ لقد كان حاميا لهما هناك، وأظهر رغبـة فـي تحقيـق الحصـار الأول. الجـواب هو إن الأمـور قد تغيرت؛ إذ لـم يكـن قـادرا علـى التحدي بـادئ الأمر، بسبب الحماسـة الكبيرة التي دخل بها عُرُوج المنطقة. وربما كان قد فكر أيضـا إن مـن الحماقـة إستثارة عداء الإسبان في وقت كان ضغطهم فيه قد خف. بمعنـى آخر، إن إيـواء القباطنـة شـئ، وإشهار السلاح ضد الإسبان شـئ آخر. وهنـاك أيضـا حقيقـة إن عدم عـودة عُرُوج إلـى تونس وعدم الإستقرار في المدينة التي فُتحت مؤخرا، جيجل، ربما يسوغ الخلاف الذي حصل عند إنتهاء تعاونهما المشترك.

---

(1) طبقا لساندوفال، فقد كان إسمه ماشين دي رينتيريا (Machin de Renteria)؛
Sandoval, Op. Cit., p. 98.

(2) Hess, The Forgotten Frontier…, p. 63;
ويذكر خير الدين سبب الإنسحاب من بجاية كما يأتي:"كنـا علـى وشك الإستيلاء علـى القلعـة. إلا إن عدم امتلاكنا للمدافع التي تُستعمل لقصف الحصون حال دون تمكننـا من فتح ثغرة كبيرة فـي القلعـة"؛ مذكرات، ص 28.

(3) كان السلطان سليم الأول قد أمر حاكم تونس بتقديم المعونـة اللازمـة للأخوين وحذره من التقصير فـي ذلك. وقد أدى إهتمامه بهما إلى تغيّر معاملة حاكم تونس تجاههما بعد أن شملهما السلطان بإهتمامه الخاص. يقول خير الدين:"ومنذ تلك اللحظة تغير موقف السلطان [ويقصد حاكم تونس]، وبدأ يبدي لنـا خلاف ما يُبطن لما كان يجده في نفسه من الحسد. لقد أدرك إننا لم نعد مجرد قراصنة بائسين مجردين من أيـة حمايـة، بل صرنا في خدمة وحماية السلطان العثماني المعظم. وهكذا شرع منذ ذلك الحين في التحفظ منا والإبتعاد عنا خوفا من أن نأخذ منه مملكته لحساب السلطان سليم خان".مذكرات، ص 27.

(4) R. Le Tourneau, "Arudj", *EI2*; İlter, Op. Cit., p. 74;
المدني، المصدر السابق، ص186؛ بسام العسلي، خير الدين بربروس، بيروت، 1980، ص 91.

(5) للتفاصيل: مذكرات، ص 28؛ المدني، المصدر السابق، ص ص169-171؛
Öztuna, Op. Cit., s. 284.

أسس عُرُوج هيبة كبيرة بين سكان بجاية، ومنذ ذلك الحين كان يحاول كسب تعاطف سكان المنطقة[1]. ولكن ولاء السكان لم يكن ايجابيا لصالح عُرُوج دائما[2]. ففي سبيل المثال، كان إستياء الجزائريين يتزايد من تصرفات بعض جنوده المشاكسين وحاولوا طردهم بمؤامرة سرية، على الرغم من عبارات التمجيد وتصويرهم منقذين في رسالة يعود تاريخها إلى سنة 1519، كتبوها إلى السلطان العثماني[3]. لقد كانوا هم الذين دعوا عُرُوجا في البداية. ومع ذلك، لابد من الإشارة إلى إن عُرُوجا حاول إقامة علاقات طيبة في المنطقة، وجهز الذرة للقبائل المجاورة لإسترضائها، كما توسط بين القبائل المتنازعة[4].

وعلى الرغم من عدم تحقيق نجاح في حملات بجاية، إلا إن الأخوين بربروسا نجحا في تأسيس قوة كبيرة في المنطقة، تنامت على نحو ملحوظ ومثير للإنتباه[5]. ولكن، بماذا نفسّر هذا التقدم السريع للأخوين في المنطقة خلال هذا المدة القصيرة نسبيا؟ لقد كانت هناك ثلاثة عوامل رئيسة لذلك؛ **الأول**، ضعف الأسر الحاكمة في شمالي أفريقيا وما نشأ عنها من حالة فراغ سياسي[6]؛ و**الثاني**، إن سكان شمالي أفريقيا كانوا مستاءين من هذه الأسر التي إختارت الإذعان للنفوذ الإسباني المتنامي في المنطقة. على هذا الأساس، فإن ظهور القباطنة كان يمثل الأمل لهم حينما تزايد إستياؤهم من الضغط الإسباني. وبتزايد قوتهم، بدأ قلق الحكام المحليين، لاسيما حكام تونس والجزائر، يتزايد، بل ولم يترددوا في التآمر ضدهم؛ بيد إنهم لم يفكروا بمواجهتهم، بسبب خشيتهم من نقمة شعبية[7]. أما العامل **الثالث**، فهو إن الحملات الإسبانية في المنطقة كانت غير مُكلفة. فطبقا لما ذكره غودفري فِشر (Godfrey Fisher) إن الحملات التي إحتُلت بها ثلاث مدن مهمة: طرابلس، ووهران، وبجاية، لم

(1) Lane-Poole & Kelly, p. 44; Currey, Op. Cit., p. 71-72.

(2) جلبي، المصدر السابق، ص 29.

(3) Temimi, "Lettre des Algérois au Sultan Selim Ire en 1519", *Revue d' Histoire Maghrebine*., Tom. V, Tunis, Jan. 1976, p. 98.

(4) R. Le Tourneau, "Arudj", *EI2*

(5) عن تحركات عُرُوج وخير الدين: الملاحق، (خارطة رقم 13).

(6) Mantran, Op. Cit., p. 248.

(7) Gürkan, Op. Cit., p. 51.

تستغرق أكثر من يومين ونصف اليوم، ولم تكلف أكثر من 350 إصابة[1]. وهذا يفسر لنا لماذا ظهر القباطنة العثمانيون على نحو قوي جدا، إلى حد تأسيس مملكتهم الخاصة، وهو الشئ الذي لم يكونوا ليحلموا به في الشرق.

لم تمضِ مدة طويلة حتى تزايدت شعبية الأخوين. ففي سنة 1516 غيّرت دعوة أخرى من مدينة الجزائر مسار الأحداث في المنطقة. فكما تمت الإشارة قبل ذلك، كان الإسبان، منذ سنة 1516، قد أنزلوا الوضع الإداري للجزائر إلى مرتبة إقطاعية تحت شروط ثقيلة، فضلا عن قيامهم بإنشاء حامية إسبانية في بينون الجزائر (Penon de Algiers). وأخيرا، إستسلم حاكم المدينة، سالم التومي، لضغط السكان المحليين وأرسل مبعوثا إلى جيجل طالبا مساعدة ضد الضغط الإسباني[2]. ولكن المؤرخ غودفري فِشر لا يعتقد إن سالم التومي هو الذي إبتدأ مثل هذه الخطوة، لأن خلافا سرعان ما نشأ بينه وبين عُرُوج. وطبقا لما يقوله، فإن لمثل هذه الدعوة سبب واحد، ألا وهو التوتر بين الفريقين: الموالون الذين يتزعمهم سالم التومي من جانب، وعرب البلاد، بضمنهم أولئك الذين ينتسبون إلى فريق إبن القاضي من جانب آخر. وقد وُصف سالم بأنه "عميل إسباني"، إستنادا إلى رسالة تعزية أرسلها له دي فيرا (De Vera) بمناسبة وفاة ولديه، وصفه فيها بـ "المحترم والمُوالي"[3]. من جانب آخر، فإن ستانلي لين ـ بول (Stanley Lane-Poole)، يحاول، بتقديم الحجج والبراهين، أن يثبت إن هذه الدعوة قد قُدّمت حينما رفض الجزائريون دفع الإتاوة بعد وفاة

---

(1) Fisher, The Barbary Legend…, p. 35.

(2) لا يؤيد أحمد توفيق المدني مثل هذه الرواية، ويذكر، بدلا من ذلك، إن سالم التومي حاول الإستحواذ على السلطة والتفرد بها بعد أن تمكن عُرُوج من فتح الجزائر. المصدر السابق، ص ص 172-175.

(3) Fisher, Op. Cit.,p.48;

وعن الرسالة المذكورة آنفا:

Muzaffer Arıkan and Paulino Toledo; XIV – XVI Yüzyıllarda Türk-İspanyol İlişkileri ve Denizcilik Tarihimizle İspanyol Belgeleriz Las Relacions Turco-Espanolas en los singles XIV y XVI: Documentos Espanoles relativos a la historia naval Ottomana, Ankara, 1995, p. 146, (hereafter: Arıkan & Toledo);

ويبدو إن الفكرة القائلة ان سالما كان عميلا لإسبانيا يجب أن لا تستند الى هذه الرسالة، إذ كان دي فيرا (De Vera) يكتب في وقت كان فيه سالم مقتولا من لدن عُرُوج، وكانت إسبانيا تعدّ لحملة لغزو المدينة. وعليه، فإن من الطبيعي ان تتوافق الرغبة الإسبانية العامة في استخدام أبناء سالم لأغراض سياسية، أو أن تخاطبهم بطريقة مهذبة.

فرديناند(1). وهذه الرواية تبدو أقرب للصحة؛ ففي الوقت الذي يردد فيه ساندوفال رواية ستانلي لين ـ بول، فإن فِشر يُحجم عن توضيح حجته أو شرحها: "لقد مات فرناندو الذي عقدوا ـ أي الجزائريين ـ معه سلما لمدة عشر سنوات، وثاروا ضد الإسبان في بينون بسبب عدم دفع الإتاوة التي أُجبروا على دفعها... وأخبروا هُروج بربروسا [Horruc Barbarossa]... لتحريرهم من العبودية والإتاوة التي كانوا يدفعونها للإسبان"(2).

على أية حال، زحف عُرُوج مع جماعة تابعة لحليفه إبن القاضي إلى الجزائر. وفي الطريق هاجم شرشال(3)، التي زعمت بعض المصادر إن "أحد القراصنة"، وهو المدعو قرة حسن، قد إحتلها(4)، وإن عُرُوجا، الذي كان منزعجا من نشاطاته ولم يكن يريد ترك دفاعاته الجانبية، إستولى على المدينة وقطع رأس قرة حسن هذا(5). ويزعم عزيز سامح إلتر إن ثمة خلطٌ في هذه الرواية(6)؛ فكما سنرى لاحقا، فإن خير الدين سيهاجم شرشال سنة 1525 لإقصاء نائبه السابق الذي ثار ضده، وكان يُدعى قرة حسن أيضا(7).

لم يواجه عُرُوج أية مقاومة ودخل الجزائر وسط ترحيب السكان في سنة 1516. وكان أول شئ فعله تدمير آثار الهيمنة الإسبانية في المدينة، ولاسيما قلعة البينون (8)، بإستخدام سلاح المدفعية التي لم يكن مداها كافيا لإلحاق الضرر بالقلعة، بخلاف المدفعية الإسبانية التي كان بمقدورها الوصول إلى الحدود القصيّة للمدينة، مما تسبب في إخفاقه بفتح القلعة. وقد أسهم هذا الفشل في تدهور شعبيته بين السكان الذين تضرروا مسبقا من التصرفات غير المسؤولة لبعض العساكر العثمانيين. وما أن تم

---

(1) Lane-Poole, The Barbary Corsairs, pp. 45-46; Currey, Op. Cit., p. 81.
(2) Sandoval,Op. Cit., I, p. 99.
(3) هي مدينة قيصرية الرومانية Caesarea.
(4) يحيى بو عزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج 1، الجزائر، 1965، ص 134؛ Bradford, Op. Cit., p. 61.
(5) Mouloud Gaid; Türkler İdaresi'nde Cezayir, trans: Faik Melek, Ankara, 1996, p. 21.
(6) İlter, Op. Cit., p. 75.
(7) Lane-Poole & Kelly, pp. 45-52.
(8) Sandoval, Op. Cit., I, p. 99; Fisher, The Barbary Legend..., p. 49; Gürkan, Op. Cit., p. 52.

الترحيب به، حتى إكتشف مؤامرة ضده بتدبير بعض عملاء الإسبان في المنطقة[1]، ومن أبرزهم سالم التومي الذي أُعدم بأمر من عُرُوج، الذي أصبح بذلك حاكم الجزائر[2].

ثالثا. إمتداد النفوذ العثماني إلى الجزائر:

بدخول القباطنة إلى الجزائر أصبح وضعهم مستقلا. وقد غيّر هذا الحدث توازن القوى في المنطقة، وحوّل الأخوين بربروسا من مجرد "قراصنة" بسطاء إلى عامل أكثر خطورة على السواحل الإسبانية. لقد أصبحا الآن ذوي إكتفاء ذاتي، وبذلك أصبحت لهما القدرة على إنجاز أعمالهما من دون الحاجة إلى موانئ شمالي أفريقيا وأهواء أصحابها، على الرغم من إن تلك الموانئ كانت ذات فائدة عندما سمح لهما السلطان التونسي بإستخدام قاعدة حلق الوادي، فضلا عن جيجل وجزيرة جربة، اللتين حصلا عليهما من الأسرة الحفصية أيضا[3]. من جانب آخر، أثبت الإستقرار في الجزائر فائدته للقباطنة، فبعد حصولهما على دعم الحلفاء المحليين المهمين، لاسيما أحمد بن القاضي، تزايدت أهميتهما في المنطقة وتعاظم نطاق نفوذهما. ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة منذ أن فكر عُرُوج وخير الدين بتأسيس شبه مملكة في المنطقة، حيث باشرا إدارة عملياتهما العسكرية، لا بل ومناوراتهما الدبلوماسية أيضا.

أعاد إستقرار الأخوين بربروسا إثارة إهتمام إسبانيا بالمنطقة. وكانت السياسات التوسعية للكاردينال زيمينس قد توقفت منذ سنة 1511 بعد فشل الحملة على جربة في آب 1510. من جانب آخر، كان موقع قلعة بينون، المحفوف بالمخاطر، قد أجبر الإسبان على إتخاذ موقف ضد تصاعد قوة الأخوين بربروسا، اللذين كانا مبعث قلق الإسبان منذ سنة 1513. ومن هنا، فبين سنتي 1516 و 1520، شنّ الإسبان أربع

(1) Gaid, Op. Cit., p. 21; Currey, Op. Cit., pp. 78-79.

(2) Gürkan, Op. Cit., p. 53;

عن تفاصيل هذه الحوادث: المدني، المصدر السابق، ص ص 174-176، وهو يذكر إن عُرُوجا ربما كان هو الذي نفذ حكم الإعدام بسالم التومي؛ اوزتونا، المصدر السابق، ص ص 248-249.

(3) J. Despois; "Djerba", *EI2.*

حملات نحو المنطقة، لكنها لم تكن حاسمة؛ فقد تحدّوا محاولة الأخوين للإستيلاء على الجزائر مرتين، ونجحوا في حملة أخرى في إقصاء الأخ الأكبر عُرُوج[1].

على أية حال، بعد إبتداء التنافس بين آل هابسبرك وآل فالوا على عرش الإمبراطورية، إنشغلت إسبانيا بالشؤون الأوربية مرة أخرى؛ إذ كانت هناك مشكلات داخلية لشارل الخامس لا في الإمبراطورية فحسب، بل في إسبانيا نفسها. وكان ألكوميونيروس[2] (Comuneros) قد دمروا شبه الجزيرة الايبيرية بين سنتي 1520 و 1522، بل ونجحوا في أسر نائب شارل الخامس. في مثل هذه الأحوال كانت الحرب ضد العثمانيين، أو ضد القباطنة في شمالي أفريقيا نوعا من أنواع الترف.

من جانب آخر، كان للعثمانيين خططهم الخاصة. فبعد إعتلائه العرش سنة 1520، قرر السلطان سليمان مهاجمة الغرب، بيد إن ديدنه البحري الرئيس كان إستئصال فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس لتأمين الشطر الشرقي من البحر. أما بخصوص الشطر الأوسط منه، فقد أصبحت الجزائر تحت حماية الدولة العثمانية إسميا منذ سنة 1519، عندما أرسل خير الدين مبعوثا إلى السلطان سليم الأول، ولكن لم يكن ثمة تعاون عسكري مباشر بين الطرفين. وخلال السنوات الأولى من حكم السلطان سليمان لم تُتخذ إجراءات فاعلة في غربي البحر المتوسط. وعليه، فمن الصعب تقدير تأثير القباطنة في هذه المرحلة. إلا إننا يمكن أن نستشف إن الجزائر، في هذا الوقت، لم تكن ولاية من ولايات الدولة.

كان نجاح الأخوين بربروسا نسبيا خلال هذه المرحلة؛ فلم يتمكنا إلا من صدّ هجومين إسبانيين على الجزائر ولم يتمكنا من مدّ سيطرتهما إلا على تلمسان فقط[3]. وبعد وفاة عُرُوج في سنة 1518، إضطر خير الدين، بعد سنتين، للخروج من الجزائر، وكان عليه أن ينتظر خمس سنوات أخرى للعودة إلى الجزائر منتصرا، ليُبعد مناوئيه. على أية حال، كانت محاولته للسيطرة على الجزائر مرهونة بالقضاء على الحامية

---

(1) Gürkan, Op. Cit., p. 55.

(2) وهم مواطنو إسبانيا أو أمريكا اللاتينية الذين نظموا أنفسهم وأسهموا في الانتفاضة المسلحة ضد حكم الإمبراطور شارل الخامس وإدارته بسبب التمييز الإجتماعي وزيادة فرض الضرائب وإنتشار أفكار الحرية بينهم. وأشهر إنتفاضاتهم خلال القرن السادس عشر هي تلك التي حدثت بين السادس عشر من نيسان سنة 1520 حتى الثالث من شباط سنة 1522. للمزيد من التفاصيل؛

Townsend Miller; The Castles and the Crown, New York, 1963.

(3) جلبي، المصدر السابق، ص ص 30-31.

الإسبانية، قلعة البينون، التي، إن لم يسيطر عليها، فلن يتمكن من توطيد حكمه في الجزائر. ولكن محاولة السيطرة على الجزائر لم تكن بالمهمة السهلة؛ فبعد إعدام سالم التومي، أنقذ بعض الجزائريين ولده يحيى وأخذوه إلى وهران وقدموا فروض الطاعة والولاء للحاكم الإسباني دييغو القرطبي(1). لكن الإسبان إستهانوا بأهمية هذه الفرصة.

وقبل ذلك، في حزيران سنة 1516، توفي الملك الإسباني فرديناند، وبقي الكاردينال زيمينس هو الحاكم الفعلي لإسبانيا. ومن هنا كان علية مواجهة الأخوين بربروسا برد سريع، فبدأ يخطط لحملة بحرية ضد الجزائر. وربما كان يظن إن من السهل إعادة الإستيلاء عليها بمساعدة سلاح المدفعية في قلعة البينون. ولو أخذنا بنظر الإعتبار الولاء الضعيف لسكان المنطقة تجاه الأخوين بربروسا، لأدركنا إن هذه المهمة لم تكن صعبة التحقيق(2).

وعلى الرغم من إن وجود الأخوين بربروسا كان ضربة للهيبة الإسبانية في المنطقة، وتهديدا للحامية الإسبانية في الجزائر أيضا، إلا إن زيمينس لم يتمكن من التخطيط لحملة ضد شمالي أفريقيا بسبب مشكلات دفع الرواتب والتجهيزات والنقل(3)، وهي مشكلات لا يمكن تجاهل تأثيرها السلبي في العمليات العسكرية(4). ومع ذلك، لم يكن الإعداد لهذه الحملة ردا على تنصيب الأخوين بربروسا في الجزائر فحسب، وإنما كان موجها ضد جزيرة جربة أيضا، القاعدة المهمة الأخرى للقباطنة المسلمين. وبهذا الخصوص، كان زيمينس يرسل الرسائل إلى نائبي الملك في صقلية ونابولي، دي فيرا (De Vera) وديل ريو (Del Rio)، لإتخاذ الإستعدادات اللازمة في حال شن حملة على جربة(5).

---

(1) Gaid, Op. Cit., p. 22;

المدني، المصدر السابق، ص 176.

(2) Karl Brandi; Carlo V, trans. by: Leone Ginzburg and Ettore Bassan, Torino, 2001, p. 62.

(3) Arıkan & Toledo, Op. Cit., pp. 144,145,157-159, 161-163; Sandoval, Vol. I, Op. Cit., p.94.

(4) Gürkan, Op. Cit., p. 85.

(5) Arıkan & Toledo, p. 175; Gürkan, Op. Cit., 60.

لم يكن الإسبان يفتقرون إلى الدعم المحلي عشية الحملة. وكان هذا الأمر طبيعيا، لأن وجود الأخوين بربروسا لم يكن لغرض تقديم العون للحكام المحليين، وإنما لتوطيد سيطرتهما الشخصية هناك بالدرجة الأساس. وقد أشرنا مسبقا إلى حالة الإستياء التي أظهرها حاكم تونس سالم التومي ضد الطموحات المتصاعدة للأخوين. وعليه، فإنه لم يتردد في إرسال رسالة إلى دي فيرا في شهر آب، يؤكد له فيها ولاءه لإسبانيا(1). فضلا عن ذلك، لم يتردد دي فيرا في اللجوء إلى المناورات الدبلوماسية مع يحيى بن سالم التومي؛ ففي إحدى الرسائل أشار إلى رغبته في معاقبة "قاتل والده"، وطلب منه التعاون في هذه المهمة(2). ولابد أن نضيف هنا تواطؤ الجزائريين أنفسهم(3). فعلى الرغم من وجود وثيقة أخرى تؤكد إن الأخوين بربروسا قد ظفرا بولاء السكان(4)، إلا إننا يجب أن لا نعيرها أهمية كبرى، لأن المؤامرة ضدهما ستتكرر في المستقبل، كما حصل في الماضي. وأخيرا، وافق حاكم تِنِس على القتال ضد الأخوين بربروسا بناءً على رغبة الإسبان(5)، وذلك كله يثبت تواطؤ الحكام المحليين مع الإسبان، أو، في الأقل، رغبتهم فيه.

وصلت القوة البحرية الإسبانية إلى الجزائر في الثلاثين من تموز 1516، وكانت مكونة من ستين سفينة تحمل ثمانية آلاف جندي، فضلا عن يحيى بن سالم التومي(6). ولكن نتيجتها كانت كارثة على الإسبان؛ إذ بدأت القذائف تُطلق من

---

(1) Ibid., p. 153.

(2) Ibid., p. 146;

الجيلالي، المصدر السابق، ص ص 43-44.

(3) مثال ذلك الرسالة التي أرسلها أحد شيوخ العشائر الإقطاعيين الذي كان يرى إن إمتداد النفوذ العثماني إلى الجزائر يقضي على مصالحهم ويقوض نفوذهم. وفي هذه الرسالة حث هذا الشيخ الكاردينال الإسباني زيمينس على إنتزاع الجزائر من العثمانيين قبل أن تأتي قوة النجدة، وناشده لمساعدة يحيى بن سالم التومي بعد مقتل والده. المدني، المصدر السابق، ص ص 175-176؛ وعن تواطؤ بعض أتباع سالم التومي: المصدر نفسه، ص ص 179-180.

(4) Arıkan & Toledo, p. p. 157.

(5) R. Le Tourneau, "Arudj", *EI2*.

(6) Gaid, Op. Cit., p. 23; in: Gürkan, Op. Cit., p. 61.

ويذكر ساندوفال أيضا ثمانية آلاف رجل وإسطولا جيدا؛

Sandoval, Op. Cit., I, p. 94;

الجنود الذين كان الإسبان يعدّونهم حلفاء لهم[1]، فضلا عن سوء الأحوال الجوية[2]، مما ساعد عُرُوجا في إيقاع هزيمة قاسية بهم في الرابع من تشرين الأول، كانت نتيجتها وبالا على القوات الإسبانية، إذ كلفتهم ثلاثة آلاف قتيل وأربعمائة أسير[3]. أما يحيى بن سالم التومي فلم يُسمع عنه بعد ذلك[4]. وبهذا مدّ القباطنة العثمانيون نفوذهم إلى الجزائر لأول مرة.

بعد هذا الإنتصار قرر عُرُوج توسيع مملكته؛ ففي سنة 1517 تمكن من فتح كل من تِنِس ومليانة[5]. من ناحية ثانية، توافقت دعوة مساعدة أخرى مع الطموحات الإقليمية المتصاعدة لعُرُوج. فقد كان هناك صراعٌ أسريٌ بين الأمراء الزيانيين في تلمسان بعد وفاة أبي عبد الله محمد سنة 1517، الذي سبق أن رضي بحكم تلمسان إقطاعية تابعة لإسبانيا طواعية بسبب خشيته من أن يكتسحه تصاعد النفوذ الإسباني في المنطقة[6]. وفي رسالة أرسلها إلى الملك الإسباني تتضح اللهجة الذليلة التي تدل على خنوعه:" إنني أُعِدّ نفسي خادمكم أكثر من أي حاكم مغربي... ولن أتوانَ عن خدمتكم"[7]. وبناءً على طلب الملك الإسباني، قام بإطلاق سراح (130) أسيرا مسيحيا، كما أرسل (22) حصانا أيضا، مع بعض الهدايا وإتاوة بلغت ستين ألف دوبلا

بينما يذكر المدني إن القوة كانت مكونة من 35 سفينة؛ المصدر السابق، ص 180.

(1) Gaid, Op. Cit., p. 23; Gürkan, Op. Cit., pp. 61-62.

(2) مع ذلك، فإن ساندوفال لا يذكر شيئا عن هذه العاصفة. ومن المحتمل إن ثمة خلط بين حملتي 1516 و 1519. ويشير خير الدين في مذكراته إلى الدور الحاسم للعاصفة في كلا الحملتين؛

Gazavât, p. 105.

(3) Sandoval, Op. Cit., I, p. 94; Bradford, Op. Cit., p. 67.

ومع ذلك، فقد ورد في مذكرات خير الدين إن عدد الأسرى كان 2700 أسير؛

Gazavât, p. 90.

(4) Ibid.

(5) مذكرات، ص ص 35-36. وكان إبن عم ملك تلمسان قد إحتل تِنِس بمساعدة الإسبان، بيد إن مصير هذا العميل الإسباني كان قد إنتهى عندما قرر عُرُوج إزاحته، بعد تلقيه دعوة من السكان المحليين. وطبقا لما ذكره خير الدين في مذكراته، فإنه وصل المدينة أولا ولم يواجه مقاومة. ولكن، ما أن غادر المدينة، تاركا عامله فيها، حتى أعاد الحاكم السابق تنصيب نفسه. وفي محاولة ثانية تمكن عُرُوج من فتح المدينة مجددا؛

Gazavât, pp. 94-6; Abun-Nasr, Op. Cit., p. 149;

المدني، المصدر السابق، ص ص 184-185؛ الجيلالي، المصدر السابق، ص 15.

(6) Lane-Poole & Kelly, pp. 50-51.

(7) Gürkan, Op. Cit., p. 62.

(Dobla)[1]. وقد قبِل خلفه، أبو حمو الثالث[2]، أن يحذو حذوه، فضلا عن الشروط المالية القاسية. وبسبب ذلك، طلب السكان من عُرُوج إزاحة النير الإسباني[3]، إذ كانت الإتاوة، وقدرها (1200) دوكة، ثقيلة عليهم، كما إنهم خسروا العوائد من رسوم الجمارك على تجارة عُرُوج الخارجية بهذه الصفقة[4]. ويذكر أندرو هِس إن علماء الدين في المدينة كانوا مؤيدين لفكرة الجهاد[5]، ولكنه لم يدعم رأيه بما يكفي من الأدلة.

نجح عُرُوج في الإستيلاء على تلمسان وعلى منطقة مهمة أخرى هي قلعة بني راشد[6] من دون أية مقاومة مسلحة، على الرغم من إن قوته العسكرية الضعيفة التي لم تكن تزيد عمّا يتراوح بين 350-400 رجل[7]، مما يعكس ضعف دفاعات المنطقة نفسها. وقبل كل شئ، إنسحب حاكم تلمسان أبو حمو الثالث إلى القلعة الداخلية، ثم فرّ بعد إدراكه عدم إمكان المقاومة[8]، فإستولى عُرُوج ريّس على المدينة

(1) للإطلاع على ترجمة انجليزية للنسخة الأصلية (الإسبانية) لرسالة حاكم تونس الى فرديناند؛
Colin Smith; Christians and Moors in Spain, Vol. II; 1195-1614, Warminister, 1989, pp. 156-159; Quinn, Op. Cit., p. 110;
والدوبلا هي التسمية الإسبانية لعملة عربية كانت تُستخدم في قشتالة تسمى "المرابطي" نسبة إلى المرابطين، وقد تم إستبدالها بالعملة البندقية "الدوكة" سنة 1497. للمزيد عن هذه العملة وتاريخها:
John Edward; Chriatian Córdoba: The City and its Region in the Middle Ages, Appendex II, Money and its Value, (*).

(2) هو أبو حمو أو أبو قلمون كما يسميه قومه: الملك الرابع والعشرون في الدولة الزيانية في تلمسان (غربي الجزائر)، حكم ما بين 1516-1518، وتولى الحكم بعده أخوه عبد الله الثاني الذي إتبع سياسة الحياد بين الجزائريين وإسبان. المدني، المصدر السابق، ص 168، 210.

(3) Lauri, Op. Cit., p. 249;
بو عزيز، المصدر السابق، ص 135.

(4) Abun-Nasr, Op. Cit., p. 149.

(5) Hess, The Forgotten Frontier, p. 64.

(6) قلعة مهمة إتخذ منها عُرُوج قاعدة لحماية مواصلاته وترك فيها حامية بقيادة أخيه الأصغر إسحق، وأناط بالحامية مهمة إشغال الإسبان في وهران وإعاقة تحركاتهم العسكرية. جاسم محمد حسن العدول؛ "عُرُوج: دوره في أحداث المغرب العربي وحوض البحر المتوسط الغربي"، التربية والعلم، العدد الثاني، شباط، 1980، ص 218.

(7) Gürkan, Op. Cit., 63.

(8) يُذكر إن أبا حمو توجه إلى منطقة أخرى تدعى أبو فاس، ومنها إلى وهران. العدول، عُرُوج، ص 219.

(تلمسان) بمساعدة السكان المحليين([1]). بعد ذلك، وجّه أنظاره نحو وهران، فمنع وصول الإمدادات منها إلى الحامية الإسبانية في القلعة الرئيسة([2]). وردا على ذلك، قام ثلاثمائة جندي من حامية وهران([3])، بمشاركة بعض المرتزقة المحليين([4])، بشن حملة لإنتزاع القلعة([5]). وفي الوقت نفسه، أرسل عُرُوج ثلاثة أرباع قواته إلى الجزائر بدعوى حاجتها إلى حامية أفضل([6]). وأدى تأزم الوضع إلى زيادة قلق خير الدين في الجزائر، فأرسل إلى قلعة بني راشد قوة نجدة بلغ قوامها ألفي رجل بقيادة أخيه الأصغر إسحق([7])، وبقي هو في المدينة، ربما بسبب ولاء السكان، أو لأنه لا يريد سقوط مدينة تلمسان في حال سقوط عُرُوج، بحسب ساندوفال([8]).

عند هذه النقطة، هناك روايتان مختلفتان: فطبقا لما أورده خير الدين في مذكراته، كان عُرُوج مُحاصَرا في القلعة وليس في تلمسان، وإن القوات الإسبانية مدعومة بقوات أبي حمو قامت بغزو القلعة أولا([9])، فقرر عُرُوج ريّس إنقاذها، ونجح في إنتزاع القلعة من الإسبان. بيد إن الإسبان أرسلوا قوة كبيرة أخرى ضده، بلغ قوامها ـ بحسب ما ذكره بربروسا ـ ما يتراوح بين ثلاثين ألف إلى أربعين ألف رجل (وهو رقم مُبالغٌ به)([10]). وقد منحه المهاجمون حرية المرور بأمان مقابل إخلاء القلعة. لكنهم، بعد

(1) Sanuto, Op. Cit., Vol. III, pp. 279-280.

ورد في كتاب "غزوات خير الدين" وجود دعم شعبي أيضا؛ إذ إن أعيان المدينة كاتبوا عُرُوجا بهذا المضمون؛

Gazavât, pp. 97-103.

(2) Ibid.

(3) Sandoval, Op. Cit., I, p. 100.

(4) ورد في كتاب "غزوات خير الدين" إن عددهم بلغ عشرين ألفا، وهو رقم مُبالغٌ به؛

Gazavât, p. 99.

(5) لابد أن نضيف أيضا إن هؤلاء المرتزقة المحليين كانوا ضعفاء. وعليه، فإن آمر حامية وهران ماركيز دي كومارا (Marquise de Comara) طلب من المرتزقة المحليين "33 طفلا من أبناء النبلاء" رهائن لأنه لم يكن يريد الإعتماد على ولائهم؛

Sandoval, Op. Cit., I, p. 101; Gazavât, p. 99.

(6) Gazavât, p. 98.

(7) Gazavât, p. 99.

(8) Sandoval., Op. Cit., I, p. 101.

(9) كان الإسبان قد أعادوا تنصيب أبي حمو الثالث خلال غياب عُرُوج.

(10) Gazavât, p. 99;

خروجه، تعقبوه وهزموه في معركة قُتل فيها[1]. إلا إن الروايات الإسبانية تقدّم وصفا مختلفا تماما. فطبقا لساندوفال[2]، فإن القوة العثمانية هي التي حوصرت في القلعة، وإن الإسبان حاولوا منع مرور قوة التعزيزات التي أرسلها بربروسا نحو تلمسان، أي إنهم حاصروا قوات إسحق، بيد إن قوات عُرُوج تمكنت من إيقاع الهزيمة بهم، بفعل وجود جاسوس مزدوج، ونجحت في رفع الحصار بفضل هجوم مفاجئ على المهاجمين الإسبان. ولكن الإسبان أرسلوا إلى القلعة قوة إنقاذ بقيادة مارتين دي آرغوت (Martin de Argote). وكانت هذه القوة أقوى نسبيا[3]، بحيث نجحت في الإستيلاء عليها. وفي هذا الوقت كان عُرُوج لا يزال في تلمسان مع حليفه أحمد بن القاضي لمواجهة القوات المشتركة لحاكم تلمسان المعزول أبي حمو وثلاثمائة جندي إسباني، إنضم إليهم دي آرغوت بقواته بعد السيطرة على القلعة. وبعد أن علم عُرُوج بنبأ الهزيمة الأخيرة لقوة التعزيزات، قرر الفرار من المدينة والتوجه إلى الجزائر، وترك رجاله داخل القلعة وفرّ سرا مع عدد قليل من الجنود، فأعاد الإسبان تنصيب أبي حمو في تلمسان بعد أن تعهد بدفع إتاوة قدرها أربعة آلاف دوبلا[4]، ثم تعقبوا عُرُوجا الذي كان يحمل ثروته معه. وأخيرا، وقع في فخّ مع ثلاثين رجلا من رجاله في مواجهة مع (45) جنديا إسبانيا. وقد قتله غارسيا دي تينيدو (Garcia de Tinedo) في الحادي والثلاثين من كانون الثاني سنة 1518[5].

من جانب آخر، فإن خير الدين لا يسجل وجود جيشين في مذكراته، ويصرّ على إن مقتل أخيه حدث بعد أن ترك القلعة. وقد نجحت قوة التعزيزات بالإلتقاء بجيش عُرُوج، وإن القوات المشتركة لم تُحاصَر في تلمسان، وإنما في القلعة، وكانت قادرة

يذكر أحمد توفيق المدني إن القوة بلغت عشرة الآف جندي، وهذا الرقم أقرب إلى التصديق. المصدر السابق، ص 190؛ من جهة أخرى، فإن قوات أبي حمو كانت تقدر بنحو خمسة عشر ألف مقاتل. أي إن العدد الإجمالي للقوات المشتركة يقدر بنحو خمسة وعشرين ألف مقاتل. العدول، عُرُوج، ص 220.

(1) Gazavât, pp. 99-102.

(2) Sandoval., Op. Cit., I, pp. 100-101.

(3) كان قوامها ألفي رجل مع بعض الخيّالة بحسب ما يذكر سانوتو، وهذا الرواية تبدو أكثر صحة من رواية خير الدين بربروسا.

Sanuto, Op. Cit., Vol. II, 498.

(4) Sanuto, Op. Cit., p. 498.

(5) Mantran, Op. Cit., p. 520; Gürkan, Op. Cit. p. 65;

اوزتونا، المصدر السابق، ص ص 250-251.

على إيقاع الهزيمة بالجيش الإسباني المكوّن من عشرة آلاف جندي قبل أن تستقر أخيرا في المدينة، ولكنها لم تكن قوية بما يكفي لمقاومة قوة الإنقاذ الإسبانية، فقبلت حرية المرور بأمان لأن "البقاء على قيد الحياة أفضل من الموت"(1). ومع ذلك، لم يحترم الإسبان المعاهدة. ويبدو إن الرواية الإسبانية تبدو أكثر صحة لأنها مستندة لا على رواية ساندوفال فحسب، وإنما على رسالة شارل الخامس نفسه أيضا(2). ومما يؤيد ذلك، إن أعيان الجزائر ذكروا، برسالة مؤرخة في سنة 1519 أُرسلت إلى السلطان سليم الأول، إن عُرُوجا كان قد قُتل في تلمسان(3). ولكن، عند هذه النقطة، لابد من الإشارة إلى إن روايتهم تشير إلى إن عُرُوجا هاجم بجاية بدلا من القلعة(4). ومن المحتمل إن خير الدين كان ينوي تحريف هذه الحقيقة في مذكراته للتخفيف من مسألة عدم تعرض أخيه للهزيمة، ليس هذا فحسب، وإنما فراره من المدينة أيضا؛ فبدلا من قبول رواية فرار عُرُوج من المدينة بثروته، يفضّل خير الدين التأكيد على إتفاقية المرور بأمان التي نكث بها "الكفار". من هنا، فإنه يريد تصوير وفاة أخيه بصورة بطولية: فقد قُتِل لأنه لم يكن يريد تسليم جيشه بعد أن ترك القلعة. ولكن في كلتا الحالتين فإن النتيجة واحدة، فقد قبضت عليه القوات الإسبانية، بعد أن ترك القلعة وترك معظم رجاله بداخلها.

مما لاشك فيه إن وفاة عُرُوج كانت ضربة موجعة لأخيه خير الدين؛ إذ إن وضعه لم يكن قويا حتى في الجزائر نفسها، لأن قواته كانت قليلة العدد. ومع ذلك، لم تواصل القوات الإسبانية حملتها إلى الجزائر، وإنما عادت إلى إسبانيا. يقول ستانلي لين ـ بول إن هذه هي "الفرصة الضائعة"، فقد كان بالإمكان إستئصال "القراصنة" في مثل هذا الظرف حينما توفي مؤسس هذه الدويلة الفتية(5).

في هذه المرحلة، كان الملك الإسباني الجديد، شارل الخامس، يفكر بأشياء أخرى. فقد كان مسرورا بالنتيجة، ولكنه كان مدركا لحقيقة مفادها إن الجزائر، طالما بقيت

---

(1) Gazavât, p. 101.
(2) Arıkan & Toledo, Op. Cit., pp. 185-186; Gürkan, Op. Cit.
(3) Temimi, Op. Cit., p. 98;
عن نص الرسالة: الملاحق، (وثيقة رقم 1).
(4) Lane-Poole, The Barbary Corsairs, p.53.
(5) Sandoval, Op. Cit., p. 138.

تحت سيادة خير الدين، فإن النصر سوف لن يكون مكتملا(1). وعليه، أصدر أمرا بشن حملة ضد الجزائر في سنة 1519 بقيادة نائب الملك في صقلية، و "القائد العام للبحر والقائد العام للجيش البحري والأراضي المفتوحة في شمالي أفريقيا"(2)، هوغو دي مونكادا (Hugo de Moncada)(3). وفي السنة نفسها، شُنّت حملة قوامها أربعة آلاف وخمسمائة جندي، ثم تعزز جيشه في بجاية بقوة بيرافان دي ريبيرا (Perafan de Ribeara)، وفي وهران بقوة ماركيز كوماريس (Marquis of Comares)(4). ويذكر المؤرخ التركي عزيز سامح إلتر انه إستعان أيضا بجنود متمرسين من المرسى الكبير(5). ويذكر غالوتا (Galotta)، إستنادا إلى الوثائق الإسبانية، وجود ثمانين مركبا وستة آلاف جندي(6)، في حين يذكر سانوتو إن عدد الجنود الإسبان كان عشرة آلاف جندي. بيد إن هذا الرقم الضخم ربما يكون مُبالغٌ به(7). وعندما وصل إلى الجزائر، أراد شن الهجوم بالسرعة الممكنة، ولكن المدعو غونزالو مارينو دي ريفيرا أصر على ضرورة إنتظار ملك تلمسان عبد الله الثاني، الذي سيأتي مع "الكثير من الخيالة العرب وجنود المشاة"(8). وهؤلاء الجنود لم يكونوا ذوي فائدة لأي حصار، ولكن مشاركتهم ستكون مهمة، وربما حاسمة، في المناوشات ضد القوات المحلية في الجزائر. على أية حال، قصفت القوات الإسبانية المدينة مدة ثمانية أيام. وفي اليوم الثامن غيّرت عاصفة هوجاء مسار الحملة؛ إذ عصفت رياح شمالية عاتية بالإسطول الإسباني، فُقدت بنتيجتها ستٌ وعشرون سفينة وأربعة آلاف جندي(9). أما الجنود الذين تمكنوا من البقاء على قيد الحياة من السفن

---

(1) Gürkan, Op. Cit., p.67.
(2) Fisher, The Barbary Legend… , p. 55; Lane-Poole & Kelly, p. 55.
(3) Tracy, Op. Cit., p. 134.
(4) Quinn, Op. Cit., p. 109; Lane-Poole & Kelly, p. 51.
(5) İlter, Op. Cit., p. 85.
(6) A. Galotta, "Khayr al-Din", *EI2*.
(7) Sanuto, Op. Cit., Vol. II, p. 58.
(8) أشار أحمد توفيق المدني إلى إن هذه القوة كانت بقيادة ملك تلمسان عبد الله الثاني الحفصي. ولكن قوة النجدة تأخرت مدة ستة شهور، مما تسبب بإرهارق الجيش الإسباني الذي كان مرهقا بسبب بناء القلعة، فتسبب ذلك في إضعاف قوته. المدني، المصدر السابق، ص 207. وعن تفاصيل المعركة التي تسمى في تاريخ الجزائر بمعركة (كدية الصابون) التي بدأت في السادس عشر/ السابع عشر من آب 1519 وإنتهت في الرابع والعشرين من الشهر نفسه: المصدر نفسه، ص ص 206-210.
(9) Sandoval, I, Op. Cit., p. 138;

الغارقة فقد فوجئوا أيضا بهجوم مغربي، ولم يبقَ منهم على قيد الحياة سوى ستمائة فقط(1). كانت هذه النتيجة إنقاذا لخير الدين، ناهيك عن الضربة الموجعة لهيبة الملك الإسباني الذي كان يرى في نفسه حاميا للعقيدة المسيحية. ويرى ستانلي لين ـ بول إن فشل مونكادا قد عزز فعلا من وضع خير الدين، ومهّد الطريق لحملته نحو الجزء الأوسط من شمالي أفريقيا، أو كما يسميه "الساحل البربري". وكانت النتيجة فتح كل من القُل(2) وعنّابة(3) وقسنطينة(4).

من جانب آخر، فإن الأحداث التي كانت تجري في عاصمة الدولة العثمانية غيّرت خارطة المشرق الإسلامي. فعلى عكس السياسات السلمية لوالده بايزيد الثاني، كان السلطان سليم الأول حاكما مولعا بالحرب. فما أن إعتلى العرش حتى صار شخصية مرعبة لمعاصريه وتمكن من مضاعفة مساحة الدولة في غضون ثماني سنوات(5). وخلال حكمه في طرابزون كان يراقب تحركات الزعيم الذي ظهر مؤخرا في بلاد فارس، الشاه إسماعيل ألصفوي. وعليه، فقد كان الصفويون الهدف الأول للسلطان سليم(6). وبعد إخماد ثورة القزلباش في الأناضول(7)، توجه نحو الشرق لمواجهة الشاه إسماعيل ألصفوي. وقد نجح الجيش العثماني، مدعوما بسلاح المدفعية، في مقاومة هجمات سلاح الخيالة ألصفوي. وكانت النتيجة هزيمة موجعة لجيش الشاه إسماعيل؛ إذ تم الإستيلاء على الأجزاء الشرقية من الأناضول، فضلا عن الأجزاء

ويتحدث سانوتو عن فقدان عشرين سفينة وستة الاف جندي؛

Sanuto, Op. Cit., Vol. II, p. 58.
(1) Ibid.

(2) تقع مدينة القل على بعد 71 كم (44 ميلا) غرب ولاية سكيكدة، و 100 كم (69 ميلا) عن جيجل.
(3) كانت تسمى "بونة" سابقا، وتقع شمال شرقي الجزائر على ساحل البحر المتوسط، وهي قريبة من مصب وادي سيبوز القريب من الحدود التونسية. ويقع ميناؤها بين رأسي كارد وروزا (خليج عنابة)، وهي من المدن الجزائرية المهمة وعاصمة ولاية عنابة. عندما فتحها العرب المسلمون في سنة 697م أسموها عنابة نسبة لأشجار العناب. تبلغ مساحتها نحو 51 كيلوا مترا مربعا (أي نحو 32 ميلا مربعا).
(4) Lane-Poole, The Barbary Corsairs, p. 55.
(5) Kinross, Op. Cit., p. 171.
(6) Fisher, Foreign Relation of Turkey…, pp. 83-94.
(7) Shaw, Op. Cit., p. 81.

الشمالية من العراق[1]. ومع ذلك، لم يستطع السلطان سليم متابعة إنتصاره. فخلال حملته ضد الصفويين، كان المماليك وإمارة ذي القدر يهددون مؤخرة جيشه[2]. ولمعالجة ذلك، قام السلطان سليم، أولا، بدمج أراضي إمارة ذي القدر بالدولة العثمانية، ومن ثم هاجم دولة المماليك المتداعية في كل من سوريا ومصر. وبعد هذا الإنتصار دخلت الأراضي العربية، ولاسيما الحجاز واليمن، ضمن السيادة العثمانية، وتخلت عن السيادة المملوكية التي إختفت عن ساحة الأحداث، فأصبح العثمانيون القوة المؤثرة الوحيدة لا في المشرق الإسلامي فحسب، وإنما في العالم الإسلامي أيضا[3].

وبعد سنتين، في سنة 1519، دخلت الجزائر ضمن ممتلكات السلطان العثماني أيضا، إذ أرسل خير الدين سفيرا إلى السلطان سليم، أجاب عنها بالإيجاب[4]. وكان الأخوان بربروسا قد أرسلا مسبقا مبعوثين علامة ولاءٍ للسلطان العثماني. كان المبعوث الأول محي الدين ريّس، الذي رحب به السلطان العثماني بحرارة[5]. أما المبعوث الثاني فهو قبطان شهير يُدعى كورد أوغلو مصلح الدين[6]. ويذكر خير الدين في مذكراته مبعوثا ثالثا بإسم حاجي حسين آغا[7]. ويقدّم سانوتو أيضا رواية عن وصول مبعوث من الجزائر، ولكنه يشير إلى إن إسمه كان سنان ريّس وليس حاجي حسين[8]. من جانب آخر، نشر الأستاذ عبد الجليل التميمي رسالة كتبها أعيان الجزائر مُجّدت فيها مآثر القباطنة، من الواضح إنها تشير إلى إن أبي العباس أحمد بن القاضي قد أُرسل بصفته مبعوثا[9].

على كل حال، بهذه الطريقة أو بتلك، أصبحت الجزائر ولاية عثمانية من الناحية الإسمية، وإستُكمل دمج الجزائر، التي قبلت سيادة السلطان العثماني، بالدولة

(1) Labib, Op. Cit., pp. 441-442.
(2) Brummett, Ottoman Seapower…, p. 36; Hess, The Ottoman Conquest of Egypt…, pp. 64-65.
(3) İnalcık; "Selim I", *EI2*; Brummett, Ottoman Seapower…, pp. 27-45.
(4) Lane-Poole & Kelly, p. 54.
(5) Gazavât, pp. 76-78.
(6) Ibid., pp. 87.
(7) Ibid., p. 114; see also: Currey, Op. Cit., p. 87.
(8) Sanuto, Op. Cit., Vol. II, p. 286.
(9) Temimi, Op. Cit., p. 98.

العثمانية([1]). وأرسل السلطان سليم ألفين من الإنكشارية وعددا من المدافع، ومنح إمتيازات لتجنيد متطوعين يتمتعون بالوضع نفسه الذي يتمتع به الإنكشارية([2]). بالمقابل، بدأ إسمه يُتلى في خطبة صلاة الجمعة، وسُكّت صورته على العملة المعدنية.

في تفسيرنا لموقف السلطان العثماني سليم الأول من إجابة الطلب الجزائري، يمكننا القول إن أسبابا عدّة دفعته إلى إتخاذ هذا الموقف، في مقدمتها رغبته في إبعاد أولئك "القراصنة"، أو صرف أنظارهم عن أراضيه، ثم رغبته بقيامهم بشن الجهاد ضد الكفار بإسمه؛ كما إن فتوحاتهم ستكون إضافة لممتلكات الدولة العثمانية. ولكن الأمر لم يكن مقتصرا على ذلك، فقد نجح الأخوان في توطيد حكمه الذي أصبح الآن يشمل شمالي أفريقيا الذي منحه الآن خير الدين للسلطان العثماني. كما إن السلطان سليم، بعد فتح مصر، كان يعدّ هؤلاء القباطنة تحت رعايته، ومن ثم فإن الأراضي التي كانت بحوزتهم، أو التي ستدخل بحوزتهم في المستقبل ستصبح ضمن نطاق نفوذه. وهذا هو السبب وراء إعلانه المغرب واحدة من أراضيه في كتاب (فتح نامه) الذي كتبه إلى ولده سليمان([3]).

السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا إختار خير الدين الخضوع للسلطان وهو في أوج قوته وكان بمقدوره تكوين دولة مستقلة في شمالي أفريقيا بعيدا عن نفوذ السلطان؟ هناك أسباب واضحة، في مقدمتها إن السلطان العثماني كان الحاكم الأكثر هيبة في العالم الإسلامي، لاسيما بعد الفتوحات الأخيرة. من جانب آخر، فإن الأخوة بربروسا كانوا غرباء عن المنطقة من وجهة نظر السكان المحليين، ليس هذا فحسب، وإنما جنودا عاديين باحثين عن الثروة لا شرعية لهم ليس إلا. وعلى الرغم من قدرتهم على حماية سواحل شمالي أفريقيا بأسرها، إلا إن النجاحات التي حققوها بقيت تحت تهديد

---

(1) Lane-Poole & Kelly, p. 54; Currey, Op. Cit., pp. 88-89.

(2) Galotta, "Khayr al-Din", *EI2*;

يذكر المؤرخ المغربي عبد الله لاوري إن عددهم كان ستة الآف إنكشاري؛

Lauri, Op. Cit., p. 249.

(3) İsmail Hami Danişmend; İzahlı Osmanlı Tarihi Kronojisi, II, Istanbul, 1971, p. 48; Gürkan, Op. Cit., p. 70.

الإنهيار المفاجئ طالما بقوا مغتصبين بأعين السكان المحليين. وفي شمالي أفريقيا، حيث كانت التركيبة الإجتماعية قبلية ـ دينية، وليست عسكرية، لم يكن بمقدور القباطنة القادمين من الشرق إجبار السكان على الطاعة الكاملة، لاسيما إن تصرفات بعض الجنود أثارت إستياء السكان، الذين، على الرغم من ذلك، مجّدوا جهود الأخوين بربروسا أمام السلطان سليم في رسالتهم سنة 1519، بسبب التهديد الإسباني الوشيك في تلك المرحلة. وثمة سبب آخر لذلك التعاون، هو وضع خير الدين في المنطقة؛ إذ لم يكن يعلم ما ستؤول إليه الأحداث لاحقا في وقت كان فيه الإسبان لا يزالون يتوسعون في المنطقة، لاسيما إنهم كانوا يتحكمون بالأماكن المهمة مثل وهران، وبجاية، وطرابلس الغرب، فضلا عن عدم ثقته بحكام المنطقة، ولاسيما حاكمي تونس وتلمسان(1)، اللذين كانا يحرّضان الإسبان ضده. يضاف إلى ذلك إن المشكلة الوحيدة في الجزائر لم تكن ولاء السكان فحسب، وإنما الحامية الإسبانية القوية، قلعة البينون، التي كانت تواجه قواعده العسكرية(2). وقد تجسدت مخاوف خير الدين من حكام المنطقة حقيقةً عندما تمرد عليه حاكم تلمسان مسعود(3) برفضه دفع الإتاوة، مما إضطره لشن حملة لفتح المدينة، أعقبها بفتح مدينة تِنِس في ربيع سنة 1520، عندما نجح إسطوله بإلحاق الهزيمة بعمارة إسبانية مكونة من خمس عشرة سفينة كانت تحاول تعزيز المدينة(4).

بعد هذين الفتحين، إنصرف خير الدين إلى تنظيم الوضع الإداري للجزائر، إذ قسّمها على قسمين إداريين، مثلما فعل عُرُوج قبله(5)، الذي عيّن عليهما زعيمين محليين بدرجة والٍ، وهما: أحمد بن القاضي، الذي كان حليفا للأخوين لوقت طويل،

---

(1) للتفاصيل عن ذلك:

Gürkan, Op. Cit., pp. 83-85.

(2) Quinn, Op. Cit., p. 110.

(3) هو الملك الزياني الذي تولى الحكم خلفا لشقيقه عبد الله الثاني، أخو أبو حمو الثالث. المدني، المصدر السابق، ص 210.

(4) Galotta, "Khayr al-Din", *EI*2.

(5) Gazavât, p. 95.

إذ مُنح القسم الشرقي، الذي كان خير الدين يتحمل مسؤوليته في الماضي؛ ومحمد بن علي، الذي عيّن حاكما على القسم الغربي[1].

ومع ذلك، فإن تلك الإجراءات لم تكن كافية، إذ تعرض خير الدين لضربتين سياسيتين قويتين، أولاهما تخلي أحمد بن القاضي[2] عنه بتحريض من حاكم تونس، مسعود[3]. أما الضربة الأخرى فهي ترك أحد عماله، وهو قرة حسن، الذي كان آمر حاميةٍ في شرشال أيضا، وكان قد إلتحق بالتحالف أيضا[4]. إزاء ذلك، وجد خير الدين نفسه في وضع صعب، ولكنه نجح في تحقيق إنتصارات كثيرة ضد مناوئيه، بيد إن فاعليتها كانت نسبية، فإضطر إلى الإنسحاب من الجزائر، لاسيما بعد إكتشافه مؤامرة محلية ضده بإثارة من ابن القاضي[5].

---

(1) قسم خير الدين الجزائر على قسمين، شرقي وغربي: فالقسم الشرقي يشمل بلاد القبائل الجبلية ويمتد من شرقي العاصمة الجزائرية إلى حدود المملكة الحفصية بتونس. أما القسم الغربي فيمتد إلى حدود دولة بني زيان التي ليس لها حدود دقيقة. المدني، المصدر السابق، ص 211؛ العسلي، خير الدين بربروس، ص 113؛ الملاحق (خارطة رقم 7).

(2) Hess, The Forgotten Frontier, p. 66.

(3) ليس من المؤكد لماذا ظهر مثل هذا الصِدام بين الحليفين السابقين، ولكن ساندوفال يذكر إن أحمد بن القاضي قد ترك عُرُوجا منذ عودتهما من تلمسان. وعليه، فقد عدّه خير الدين مسؤولا عن وفاة أخيه. وفي أحد الأيام، عندما إتهمه بترك أخيه، غادر إبن القاضي المدينة. ومن الطبيعي أن يستجيب إيجابا لعرض التحالف المغربي الذي عرضه عليه حاكم تونس. وعموما، فإن هذه الرواية لا يمكن أن تعدّ موضع ثقة، لأنها تميل إلى الاعتماد عموما على الأساطير والخيال عندما تتعامل مع السياسات الداخلية للمنطقة. فضلا عن ذلك، فلو كانت الرواية صحيحة، لكان خير الدين قد تناول الموضوع من قريب أو بعيد.

(4) ثمة روايتان لتفسير التغيّر الكامل والمفاجئ. تدّعي الرواية الأولى إن سبب ذلك يعود إلى خلاف شخصي بين خير الدين وقرة حسن حدث بعد مناقشة في الديوان؛

Gazavât, pp. 130-131;

جلبي، المصدر السابق، ص 34.

من جانب آخر، يزعم ساندوفال إن هذا الخلاف كان عائدا إلى حقيقة مفادها إن خير الدين قد سجن قرة حسن، متهما إياه بالجُبن. ولكنه إعتذر له فيما بعد، إلا إن قرة حسن لم ينسَ الإهانة؛

Sandoval, Op. Cit., I, p. 139.

(5) Gürkan, Op. Cit., p. 86.

يؤرّخ الإنسحاب من الجزائر في سنة 1520، بينما يزعم خير الدين في مذكراته إن ثلاث سنوات مرت بين الإنسحاب وإعادة الفتح. وطبقا لذلك، بما إن إعادة الفتح تؤرّخ في سنة 1525، فإن الإنسحاب لابد أن يكون في سنة 1522. والرواية نفسها تكررت في كتاب كاتب جلبي. على أية حال، في هذا السياق، فإن رواية خير الدين لا يمكن أن يُعتمد عليها، لأن ذكره لتسلسل الأحداث ملئ بالأخطاء. فضلا عن ذلك، من المعروف إنه بدأ بشن حملة ضد كل من القل سنة 1521، وقسنطينة وعنّابة سنة 1522 من قاعدته في جيجل. وعن تمرد إبن القاضي: المدني، المصدر السابق، ص ص 211-214.

قرر خير الدين الإستقرار في جيجل بقوته البحرية المكوّنة من تسع سفن، ومنها بدأ بقيادة رجاله خلال العقد اللاحق(1). ومن هناك واصل صراعه من أجل بسط نفوذه على المنطقة. ففي سنة 1521، فتح القُل، وفي سنة 1522 فتح كلا من عنّابة وقسنطينة(2). وفي سنة 1523 إلتقى مع قباطنة آخرين أمثال سنان ريّس(3) وآيدن ريّس في جربة(4). ثم إزدادت قوته على نحو كبير، بحيث أصبحت تضمّ إحدى وأربعين سفينة حربية(5)، تمكنت بها قواته من تدمير سواحل غربي البحر المتوسط. وفي سنة 1525 أصبح قويا بما يكفي لشن حملة على الجزائر مرة أخرى، بعد أن تحالف مع منطقة القبائل، فقرر مهاجمة ابن القاضي في معركة حاسمة تمكن بنتيجتها من إيقاع هزيمة مُرة به، فأصبح حاكم الجزائر مرة أخرى، ومنها توجه إلى شرشال لمعاقبة عامله، ثم إلى تلمسان، حيث ضاعف الإتاوة المفروضة على عاملها(6). بعد ذلك قضى السنوات اللاحقة بتعزيز وضعه في المنطقة عن طريق إعادة فتح مدينتي تِنِس وقسنطينة(7). فضلا عن حملة أخرى ضد عنّابة في سنة 1527. وفي السنة نفسها أيضا كانت هناك حملة فاشلة ضد جربة(8). فضلا عن ذلك، كانت هناك عمليات متفرقة في البحر.

مثلت عودة خير الدين إلى الجزائر مشكلة لدى ساسة آل هابسبرك. ولكن منطقة شمالي أفريقيا لم تكن القضية الرئيسة في تلك المرحلة. فقد كان شارل الخامس في

(1) جلبي، المصدر السابق، ص ص 34-35؛

(2) "Algeria", *EI2*; Lane-Poole & Kelly, pp. 57-59.

(3) Gürkan, Op. Cit., p. 86.

(4) جلبي، المصدر السابق، ص 37؛

Lane-Poole & Kelly, p. 58.

(5) Galotta, "Khayr al-Din", *EI2*.

(6) Ibid; Gürkan, Op. Cit., p. 88.

(7) İlter, Op. Cit., p. 89.

(8) طبقا لذلك، كان شيخ الجزيرة لا يتمتع بشعبية، وأراد القباطنة استغلال الشقاق والانقسام في الجزيرة. وبعد تراجعه أولا من الأراضي الداخلية، ظهر الشيخ أخيرا لأنه كان قادرا على إجتذاب تأييد العرب المحليين. كما إن القباطنة لم تكن لديهم تجربة في الجزيرة؛

Sanuto, Op. Cit., Vol. IV, pp. 464-465.

وضع أفضل نسبيا بفضل عقد معاهدة مدريد في الثالث عشر من كانون الأول 1526 التي أُجبر فيها الملك الفرنسي على مشاركته في مشاريعه المقبلة ضد الدولة العثمانية، إذ نصّت المادتان (20) و (22) منها على "التوصل إلى سلام عالمي... وإقامة تفاهم مع الأتراك، وغيرهم من الهراطقة والكفار"(1). بمعنى آخر، إن الدولة العثمانية كانت الهاجس الرئيس للإمبراطور شارل وليس القباطنة في الجزائر(2). وعلى الرغم من عدم إمكان الفصل بين الإثنين، إلا إن مستوى التعاون بين إسطنبول والقباطنة في الجزائر لم يكن بالمستوى الجدي خلال هذه المرحلة(3).

في هذه المرحلة نجح شارل الخامس في أن يجد لنفسه حليفا جديدا أثبت فائدته في التوازن البحري لقوى البحر المتوسط الغربية. ففي سنة 1528، وفي مرحلة حاسمة من الصراع حوّل الأميرال الجنوي أندريا دوريا(4) ولاءه من الملك الفرنسي لصالح شارل الخامس بسبب خلافات مالية إستغلها آل هابسبرك. وكان من شأن ذلك مساعدة وضع شارل الخامس ضد القباطنة في شمالي أفريقيا، إذ كان يعاني من إنعدام العدد الكافي من القوادس. ولم يكن لديه الخبراء ولا الموارد لبناء إسطول جديد(5). لذلك، فإن مثل هذه المساعدة أسهمت أيضا في تقوية دفاعات الساحل الايبيري.

رابعا: التحالف العثماني مع خير الدين بربروسا.

---

(1) Christopher Hare; A Great Emperor Charles V 1519-1558, London, 1917, pp. 102-104.

(2) Quinn, Op. Cit., p. 109.

(3) Gürkan, Op. Cit., p. 89.

(4) ينتسب أندريا دوريا الى فرع صغير لإحدى العائلات المهمة الأربع في جنوا. و بعد ان خدم الدويلات البابوية عندما كان شابا، تحول الى قبطان مرتزق وإكتسب سمعة كبيرة بالقتال ضد القباطنة المسلمين الذين ظهروا في المنطقة. ولكنه لم يستطع إنجاز الكثير، بسبب الثروات المحدودة لجنوا، بيد إن دوره في التنافس بين آل هابسبرك وفالوا لايمكن تجاهله. وطبقا لساندوفال، كان لأندريا دوريا مسبقا مشكلات مع الملك فرانسوا الأول، إذ لم يكن مقتنعا بالمبلغ والمصاريف الشهرية التي كانت تُدفع له. فضلا عن ذلك، فإن الملك الفرنسي إختار المدعو انتونيو روبيفو كالدي (Antonio Rupefo Caldi) أميرالا أعظم للقوة البحرية بدلا منه. في ظل هذه الأحوال كان من الصعب مقاومة العرض المغري لآل هابسبرك. وكان استقلال جنوا قد ضُمن بإستعادة سافونا. وتقرر دفع ستة الآف دوكة لأندريا دوريا عن كل سفينة مقابل تعهده بتجهيز كل منها بسبعة وثلاثين رجلا. والأكثر أهمية من ذلك كله، إن التجار الجنويين مُنحوا الحق بالتجارة في أي مكان ضمن ممتلكات آل هابسبرك؛

Sandoval, Op. Cit., II, pp. 316-317.

(5) Gürkan, Op. Cit., p. 98; Kinross, Op. Cit., p. 218; Currey, Op. Cit., p. 89.

خلال الحقبة الممتدة من 1529 حتى 1534 حدث تطوران مهمان مهدا الطريق لمرحلة جديدة أُعيد بموجبها تحديد مكانة خير الدين: أولهما نجاحه في إزاحة الضغط الإسباني من الجزائر عن طريق فتح الحامية الإسبانية، البينون، الذي إرتقى بعده إلى مستوى شخصية مؤثرة في نظام توازن القوى المتوسطية في القرن السادس عشر. أما الحدث الثاني فهو تعيينه أميرالا أعظم للقوة البحرية العثمانية سنة 1534. وفي سنة 1529 أيضا بدأت مواجهة مباشرة بين الدولة العثمانية وإمبراطورية آل هابسبرك، بحصار فيّنا، الذي سبقه الإجتياح العثماني لمملكة هنغاريا، الدولة العازلة بين الدولة العثمانية ودوقية النمسا، مقاطعة هابسبرك التقليدية. وقد أثرت هذه التطورات في مصير القباطنة بطريقتين: **الأولى:** إن مساعدة الدولة العثمانية للقباطنة أصبحت أكثر إلحاحا مما كانت عليه في أي وقت مضى مع تصاعد الصراع؛ إذ أصبح بمقدور القباطنة تسبيب مشكلات جديّة لممتلكات آل هابسبرك في جنوبي إيطاليا وفي شبه الجزيرة الايبيرية. بمعنى آخر، أصبحوا جزءا فاعلا ومهما في التنافس بين العثمانيين وآل هابسبرك؛ **والثانية:** أثبت تعيين ما كان يُسمى "قرصان بسيط "، مثل خير الدين، في وظيفة مهمة مثل وظيفة الأميرال الأعظم تنامي الطموحات العثمانية في غربي البحر المتوسط. فبعد أن أخفق الإسطول العثماني في مواجهة الإسطول الإمبراطوري في البحر الأدرياتيكي بقيادة الأميرال الجنوي أندريا دوريا، إستُدعي خير الدين إلى العاصمة العثمانية لهذا السبب[1].

وفي سنة 1535، أصبحت قوة القباطنة في المنطقة تشكل تهديدا حقيقيا لإمبراطورية شارل الخامس، في مرحلة كانت الدولة العثمانية قد حوّلت فيها إهتمامها نحو الشرق. ومن هنا ندرك إن الساسة العثمانيين كانوا يتصرفون بحكمة عندما أودعوا الإسطول العثماني إلى رجل له سمعة كبيرة وأصدروا الأوامر إليه بمواصلة عملياته في غربي البحر المتوسط أيضا: ففي الوقت الذي كانت فيه الجيوش العثمانية منشغلة بحملات الشرق، كان إسطولها الذي شيده خير الدين قد حقق إنتصارا سريعا على حاكم تونس، وفتح المدينة.

(1) عن تعيينه آمرا للإسطول العثماني منذ سنة 1533 حتى وفاته سنة 1546؛
Charles-André Julien, Histoire de l' Afriqe du Nord. Paris, 1931, p.521; Bradford, Op. Cit., pp. 111-121.

كانت هذه هي اللحظة الأكثر أهمية للقباطنة، إذ كان الوضع الجغرافي لتونس يشكل تهديدا أكثر مما كانت تشكله أية مدينة أخرى في شمالي أفريقيا ضد ممتلكات آل هابسبرك، فقد كانت قريبة من صقلية ومن السواحل الجنوبية لإيطاليا، فضلا عن قربها من مالطا، الذراع القوية لإمبراطورية آل هابسبرك في منتصف البحر المتوسط، وقاعدة يمكن أن تنطلق منها العمليات البحرية الإسلامية ضد المناطق الغربية في البحر المتوسط والسواحل الجنوبية لشبه الجزيرة الايبيرية. ذلك كله حدا بشارل الخامس إلى التفكير بشن حملة لإحتلالها، تكون بقيادته شخصيا، على الرغم من معارضة مستشاريه. وبغض النظر عن كل شئ، فإن خططه اللاحقة قد أوضحت نياته والسياسات طويلة بعيدة المدى التي كانت تعتمل في ذهنه تجاه هذه المنطقة.

كان خير الدين بربروسا قد قرر مسبقا مهاجمة قلعة بينون الجزائر في السادس من مايس 1529 عندما رفض آمر القلعة مارتن فارغاس (Martin Vargas) تسليمها(1). في ذلك الوقت كان الإمبراطور شارل الخامس في وضع أفضل نسبيا في غربي أوربا مما كان عليه في السابق؛ إذ إن تحالفه مع القبطان الجنوي أندريا دوريا قد خفف بعض الضغط عليه في المنطقة(2). ولكن تنظيم مقاومة قوية ضد الدولة العثمانية، التي كانت تحاصر فيّنا في هذه المرحلة، لم يكن بالمهمة السهلة، فضلا عن إن حملة أندريا دوريا المزمعة ضد القلعة لم تتحقق(3). وفي السابع والعشرين من مايس، لم يعد بمقدور القلعة الصمود أكثر، وسقطت بأيدي العثمانيين(4). وبهذا أزال خير الدين بربروسا الخطر الإسباني عن مدينة الجزائر، ليضيف ميناءً جديدا لإسطوله، ولقوته البحرية(5)، فضلا عن إنه عزز وضعه لا بين سكان الجزائر

---

(1) Gürkan, Op. Cit., p. 94; Lane- Poole & Kelly, pp. 59-60; Currey, Op. Cit., pp. 103-104.

(2) كان أندريا دوريا قد بنى إسطولا كبيرا، وأسهم في مساعدة فرسان القديس يوحنا للإستقرار في طرابلس الغرب ومالطا سنة 1530، لتوفير قواعد للتحرك في شرقي البحر المتوسط؛
Shaw, Op. Cit., p. 97.

(3) يشير سانوتو إلى إحتمال قيام أندريا دوريا بشن حملة بعد سقوط الحصن؛
Sanuto, Op. Cit., Vol. IV, pp. 11-12.

(4) Shaw, Op. Cit; Currey, Op. Cit., p. 97, 100-113.

(5) Gaid, Op. Cit., p. 33; in: Gürkan, Op. Cit., p. 94; Mantran, Op. Cit., pp. 250-251.

فحسب، وإنما بين القباطنة في المنطقة أيضا؛ فبعد هذا الإنتصار بدأوا بالعمل تحت إمرته. وبذلك أصبح خير الدين بربروسا مركز القوة العثمانية في غربي البحر المتوسط(1).

لم يكن الإنتصار في قلعة البينون هو الإنتصار الوحيد للقباطنة في سنة 1529. فقد هاجم إسطول عثماني آخر، مكون من أربع عشرة سفينة، بقيادة القبطان آيدن ريّس، إسطولا إسبانيا بقيادة القائد العام للإسطول الإسباني، رودريغو دي بورتوندو (Rodrigo de Portundo) الذي كان عائدا من جنوا، حيث نزل من سفينة شارل(2). وكانت نتيجة الإشتباك كارثية للإسطول الإسباني؛ إذ قُتل بورتوندو، وتم الإستيلاء على ستٍ من بين ثماني سفن من سفنه، بضمنها سفينة القيادة الإسبانية (قبطانة)، وتم إحراق واحدة أخرى(3).

أدت الإنتصارات البحرية المتلاحقة للعثمانيين إلى إنتشار حالة من الهلع في شبه الجزيرة الايبيرية؛ إذ كانت والدة الإمبراطور، جوانا، تؤكد له على الدوام إن ميزان القوى في شمالي أفريقيا بدأ بالتغيّر، وإن كلا من سواحل شمالي أفريقيا والحصون الإسبانية في وهران وبجاية ستكون تحت تهديد مَن أسمتهم بـ "القراصنة" الذين كانوا

---

(1) يسجل ساندوفال أيضا بداية التعاون. فطبقا لما يقوله كان بربروسا قد دعا كلا من سنان وعلي قرة مان اللذين وصلا بإسطوليهما. وكانت نتيجة الدعوة وصول سبعين سفينة؛

Sandoval, Op. Cit., Vol. II, pp. 379-380.

(2) Lane-Poole, The Barbary Corsairs, pp. 57-58.

وعلى الرغم من ذلك، فإن كاتب جلبي يشير إلى إن خير الدين أرسل إسطولا بعد أن علم إن شارل قد غادر إسبانيا؛ وهذا غير مرجح. وربما يكون قد علم بذلك لأن شارل لم يغادر شبه الجزيرة سرا. ومع ذلك، لم يكن بالإمكان تنفيذ مثل هذه الحملة، ولا حتى المجازفة بها.

Katib Çelebi; Tuhfetü'l-kibâr fi Esfâri'l-Bihâr, Orhan Şaik Gökaya (ed.), İstanbul, 1973, p. 55.

(3) طبقا لرسالة كتبها دوق كالابريا إلى الإمبراطورة جوانا.

Arıkan & Toledo, Op. Cit., pp. 200-201.

وعلى الرغم من ذلك، فإن ستانلي لين ـ بول يشير إلى إن سكان الجزائر شاهدوا سبعة قوادس ملكية: لذلك، فإن هذا الرقم يجب أن يكون ستة لأن القادس السابع كان قد إحترق.

Lane-Poole, The Barbary Corsairs, p. 58;

وللمزيد من التفاصيل: المدني، المصدر السابق، ص ص 129-220.

يشكلون مخاطر جديّة، كما لم تنسَ تذكيره إن خطر خير الدين بربروسا قد تنامى على نحو أقوى مما كان عليه في أي وقت مضى "بفضل السفن التي غنِمها منا"، وإن إسهامات "القراصنة الآخرين" الملتفين حول راية بربروسا(1) ليست اقل من خطره هو. لقد كانت الهزيمة كارثية بحق، وهي "أكبر إشارة وأشهر إنتصار حققه بربروسا على الإسبان في المعركة"(2)، إن لم تكن "أعظم هزيمة يتعرض لها الإسبان في حرب القوادس"(3).

في السنة اللاحقة (1530) توجه أندريا دوريا إلى شرشال(4) لتخليص الأسرى المسيحيين فيها. وبلغ عدد الجنود العثمانيين الذين إنسحبوا إلى القلعة الداخلية خمسمائة رجل، تاركين المدينة مجردة من الدفاعات؛ فدخلها أندريا دوريا وتمكن من تخليص ألف أسير مسيحي، وإستولى على تسع سفن للقباطنة(5). ثم قام العثمانيون بهجوم مقابل اجبر أندريا دوريا على الفرار، تاركا بعض جنوده - وكان عددهم 314 - بأيدي القباطنة العثمانيين، وقرر هو العودة إلى جنوا بالغنائم التي حصل عليها(6). أما بربروسا، بعد تلقيه الأخبار الأخيرة، فقد ظل ينتظر الإسطول العثماني في جزيرة بريفيزا، حيث كان يتوقع عودة إسطول دوريا من أجل إعادة تجهيز قوادسه(7). بيد إن دوريا فضّل العودة إلى جنوا(8).

وفي سنة 1533، نجح مبعوث الملك الهنغاري فرديناند في تأمين هدنة بين القوتين في إسطنبول(9). وكانت الأزمة في هنغاريا قد حُلّت على نحو مُرضٍ للعثمانيين، إذ

---

(1) Arıkan & Toledo, Op. Cit., p. 2; Gürkan, Op. Cit., p. 96.
(2) Fisher, The Barbary Legend, 59.
(3) Roger Bigelow; The Rise of Spanish Empire in the Old World and in the New, New York, 1918, p. 296.
(4) واحدة من أهم المدن الجزائرية تقع بين مدينة الجزائر ووهران وتبعد عن الأولى مسافة 120 كم (أي نحو 75 ميلا). حصنها عُرُوج وأقام بها قلعة مهمة ومصنعا للأسلحة ومعملا لصناعة الأخشاب. المدني، المصدر السابق، ص 222.
(5) يذكر أحمد توفيق المدني إن الإعداد لهذه الحملة كان في جنوا سنة 1530. ولكن الإسطول غادر السواحل الإيطالية في حزيران 1531 متجها نحو الساحل الجزائري. المصدر نفسه، ص 222.
(6) Sanuto, Op. Cit., Vol. IV, pp. 286, 325.
(7) Ibid., p. 322.
(8) يتوقع سانوتو إنه نزل على الجزائر؛ بيد إنه لم يجازف بمثل تلك الحملة.
Ibid., p. 286.
(9) Gürkan, Op. Cit., p. 99;

تم بموجبها الحد من توسع آل هابسبرك في المنطقة([1])، كما ضُمن ترشيح حليف العثمانيين في هنغاريا، جون زابوليا([2]). وقد أتاح هذا الهدوء النسبي في الجبهة البرية الأوربية المجال للجيوش العثمانية لتركيز إهتمامها نحو الشرق. في هذه المرحلة إنتقل مركز التنافس بين العثمانيين وآل هابسبرك من أوربا الوسطى إلى غربي البحر المتوسط، عندما ارتقى خير الدين إلى موظف رفيع المستوى في الدولة العثمانية، بعد أن إستدعاه السلطان سليمان إلى العاصمة العثمانية ليأخذ دوره الطبيعي في التاريخ البحري العثماني.

يمكن أن نؤرخ بروز خير الدين إلى مستوى شخصية متوسطية ودولية مهمة إلى أوائل العقد الثاني من القرن السادس عشر عندما كان يرسل المبعوثين إلى السلطان العثماني، ويعقد المناورات الدبلوماسية في المنطقة، ويُعرّض السمعة الإسبانية للضرر عن طريق الهزائم التي أوقعها بها. فبعد مقتل عُرُوج سنة 1518، إنشغل القباطنة في المنطقة بالشؤون المحلية. وكان خير الدين قد غادر الجزائر في سنة 1520 ليعود إليها بعد خمس سنوات. وعلى الرغم من إستمرار نشاطات القباطنة في البحر، إلا إن هذه المرحلة لم تشهد أي دور يمكن أن نوثقه لهم في السياسات العثمانية العليا. بيد إن هذا الوضع تغيّر بعد فتح قلعة بينون الجزائر، وأصبح خير الدين الحاكم الأول للجزائر.

من المفارقات الغريبة في تاريخ البحرية العثمانية إن أندريا دوريا وخير الدين لم يلتقيا في مواجهة مباشرة، على الرغم من إن كلا منهما عمل في البحر أكثر من عشرين سنة. ويفسر ستانلي لين ـ بول ذلك بقوله إن كلا منهما كان ينظر إلى الآخر بإحترام؛

Lane-Poole& Kelly, pp. 77-78.

(1) لابد من الإشارة هنا إلى إن النية الحقيقية للسلطان سليمان لم تكن فتح مملكة هنغاريا مباشرة، وإنما احتواء إعتلاء آل هابسبرك لعرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة. بيد إن هذا لا يعني عدم وجود خطط طويلة الأمد لديه عن مستقبل هذه المملكة. على أية حال، فإنه ربما يكون قد إختار السيطرة على المملكة على نحو غير مباشر عن طريق تقليل وضعها ذي الاستقلال شبه الذاتي بصفتها دولة دافعة للإتاوة كما كان عليه الحال في الولايات العثمانية الأخرى مثل ولاكيا ومولدافيا، وكان يرى إن من الصعب والمُكلف إقامة سيطرة مباشرة على الجانب الآخر من الدانوب.

Halil İnalcık; The Ottoman Empire, Classical Age: 1300-1600, London, 1973, p. 35.

وقد تم الدمج الحقيقي بعد وفاة جون زابوليا. للتفاصيل عن هذه الأحداث وعن دمج هنغاريا.

Inalcik, Halil ; "Ottoman Methods of Conquest", *Studia Islamica*, No. 2, 1954, pp. 103-129.

(2) جون زابوليا (1540-1526)، هو المدّعي بالعرش الهنغاري بدعم من النبلاء الهنغاريين ومن السلطان العثماني فيما بعد.

فضلا عن إنه، خلال سنوات قلائل، بدأ بإقامة تعاون مع الملك الفرنسي، أعقبه تعاون بين الأخير وبين الدولة العثمانية. وكان هو الشخص الذي شجع التراسل بين الملك الفرنسي والسلطان العثماني، بل وكان عنصرا فاعلا فيه(1). وبعد فتحه لتونس أرسل مبعوثا حمل رسالة السلطان سليمان إلى فرانسوا الأول. مقابل ذلك، كان مبعوث فرانسوا قد وصل إلى إسطنبول عن طريق الجزائر. ذلك كله يمكن أن يثبت فاعلية وساطة بربروسا في هذا التحالف. ومرة أخرى، فقد علم بربروسا بنيات شارل الخامس سنة 1535 عن طريق وكلاء فرنسيين(2). وكان فرانسوا يحاول دائما إخفاء حقيقة مفادها هي إنه على الرغم من كونه "الملك المسيحي المتعصب" (Roi Tres Chrétien)، فإنه في الواقع كان يتعاون مع "الكفار"(3). وحتى خير الدين يشير في مذكراته إلى رسالة كتبها الإمبراطور شارل الخامس إلى الملك الفرنسي يتوسل بها إليه التوقف عن التعاون مع "القراصنة"(4). ولكن فرانسوا الأول رفض مساعدة الإمبراطور في حملة تونس، "بسبب المعاهدات التي عقدها مع السلطان [التركي]، ومع بربروسا"(5). وطبقا لما ذكره براندي، فإن التعاون بين خير الدين والملك الفرنسي قد أجبر شارل الخامس على إعادة النظر في سياسته المتوسطية، والإعتراف بالأهمية المتزايدة لبربروسا خلال هذه المرحلة لأن:

> **"من الصعوبة بمكان إستمالة بربروسا، بسبب العداوة التي يكنّها لممالكنا وسواحلنا أكثر من غيره من الكفار، ولأنه أحد رعايا السلطان [التركي]، الذي أرسله على رأس القوة**

---

(1) İsmail Soysal; "Türk Fransız Diplomasi Münasebetlerinin İlk Deversi", İstanbul Üniversitesi Edebiyat Fakültesi Dergisi, 3, 1951-1952, pp. 63-64; in: Gürkan, Op. Cit., p. 100.
(2) Sandoval, II, Op. Cit., pp. 488-489;
وكانت هذه النشاطات مدعومة بالسفن الفرنسية التي صادفها الإسطول الإمبراطوري في طريقه الى تونس.
Ibid., p. 499.
(3) Ibid., p. 484.

(4) Gazavât, p. 177.
(5) Sandoval, II, Op. Cit., p. 488.

البحرية التي يقودها بصفته القائد العام لإسطوله، مزودا بالمعلومات التي حصل عليها من الملك الفرنسي"[1].

ليس هذا فحسب، وإنما ذهب الأمر به إلى حد التفكير بعقد تحالف معه، لأن من "الضروري أن نعرض له مساعدتنا ونشجعه ليصبح سيد أفريقيا، لاسيما في الأجزاء الغربية"[2]. وكاد شارل أن يتوصل إلى إتفاق مع البابا من أجل الدفاع عن السواحل الإيطالية في سنة 1533[3]. ويبدو إن الهدف من وراء ذلك إحتواء التعاون بين بربروسا والملك الفرنسي. من المؤكد، إذن، إن بربروسا أصبح أكثر خطورة على شارل مما كان عليه في أي وقت مضى.

ويمكننا أن نلاحظ تزايد أهمية القباطنة وارتقائهم إلى مستوى الإهتمام الدولي في المعاهدات الدولية أيضا. ففي معاهدتي مدريد (1526) وكامبراي (1529)[4] على حد سواء، لم تكن ثمة إشارة واضحة للقباطنة بوصفهم عدوا مشتركا، وإن المصطلح الذي كان يُستخدم هو "التركي والكفار الآخرين"[5]. ولكن، من خلال مفاوضات العثمانيين مع آل هابسبرك سنة 1533، التي جرت بين الصدر الأعظم إبراهيم باشا ومبعوث فرديناند، كورنيليوس (Cornelius)، أصبحت الجزائر والقباطنة مسألة مهمة، إذ عرض كورنيليوس لإبراهيم باشا مقايضة مثيرة للإستغراب: أن تُعاد كورون

---

(1) Brandi, Op. Cit., p. 341.
(2) Sandoval, Op. Cit., II, p. 481.
(3) Brandi, Op. Cit., p. 339.
(4) معاهدة سلام تم التوقيع عليها في الثالث من آب سنة 1529 بين فرنسا من جانب وآل هابسبرك من جانب آخر، أنهت حالة الحرب بين الملك الفرنسي فرانسوا الأول والإمبراطور شارل الخامس، إذ تخلى شارل الخامس عن مزاعمه في برغنديا، وأعاد إبني فرانسوا الأول الأسيرين لديه، مقابل دفع مليوني كراون. وكان هدفه من هذا السلام عبور الأراضي الإيطالية من دون إعتراض، وتسلّم التاج الإمبراطوري في روما، ليصل بذلك إلى قمة مجده. وتمكن بعدها من محاربة البروتستانت والعثمانيين. ويسمى أيضا سلام السيدات (Peace of Ladies)، لأن مفاوضاته تمت بين لويزا والدة الملك فرانسوا الأول ومارغريت النمساوية الوصية على الأراضي المنخفضة. للتفاصيل:
Hare, A Great Emperor…, pp. 115-116; R. Trevor Davies; The Golden Century of Spain 1501-1621, London, 1961, p. 92; P. J. Helm; History of Europe 1450-1600, London, 1976, pp. 93-94; Robert Finlay ; "Fabius Maximus in Venice: Doge Andrea Gritti, the War of Cambrai, and the Rise of Habsburg Hegemony, 1509-1530", *Renaissance Quarterly*, Vol. 53, No. 4, Winter, 2000, pp. 988-1031.
(5) Sandoval, Op. Cit., II, pp. 149, 339.

للعثمانيين إذا إعترفوا بحقوق فرديناند في هنغاريا، وإذا عادت الجزائر إلى "أصحابها السابقين"(1). وقد زُعم إن إبراهيم باشا كان يحاول تحييد بربروسا لمدة ثلاثة شهور لتمكين شارل الخامس من إرسال مبعوثين إلى إسطنبول(2)، وزُعم أيضا إن بربروسا أُمر بالعمل على طاعة الملك الفرنسي، مستخدما إياه بذلك أداة ضغط في الصفقة(3). وعندما كانت القوات العثمانية تتغلغل إلى أواسط أوربا سنة 1532، كان شارل الخامس يحاول تحييد الموارد الحربية للدولة العثمانية. وكان آل هابسبرك يتوقعون حدوث مجابهة بحرية حدودية مع خصمهم(4). وعليه، أمر شارل الخامس الأميرال أندريا دوريا بشن حملة في البحر الأدرياتيكي ضد الممتلكات العثمانية(5)، إجتاح فيها دوريا، بعد إخفاقه في إسترداد مودون من العثمانيين، كلا من كورنث وباتراس وليبانتو بنجاح في أيلول 1532. وكان السلطان العثماني قد توقع مسبقا ذلك وأرسل إسطولا إلى البحر الأدرياتيكي(6). بيد إن القوة البحرية العثمانية لم تتمكن من إعتراض الإسطول الإمبراطوري لأنه عاد إلى العاصمة العثمانية بسبب شحة المؤن. وفي السنة اللاحقة، أرسل العثمانيون قوة نجدة لإعادة فتح كورون، بيد إن إخفاقا آخر قد حصل(7). ومن هنا فقد تم إتخاذ قرار في العاصمة العثمانية: لابد من إستدعاء خير الدين.

تلقى خير الدين رسالة من السلطان سليمان عن طريق سنان آغا(8)، فغادر الجزائر في آب 1533 برفقة مولاي رشيد، أخو حاكم تونس(9)، وترك إدارة البلاد

(1) Joseph von Hammer-Purgstall; Büyük Osmanlı Tarihi, Vol. 5, trans: Mümin Çevil and Erol Kılıç, İstanbul, 1990, p. 110.
(2) Ibid., p. 115.
(3) Hammer, Op. Cit., p. 115.
(4) Sandoval, Op. Cit., Vol. II, pp. 430-431.
(5) Ibid., p. 452; Kinross, Op. Cit., p. 219

(6) إبراهيم بجوي، تاريخ بجوي، إسطنبول، 1283، ص 172.
(7) لطفي باشا، تواريخ آل عثمان، إسطنبول، 1341 هـ، ص ص 343-344.
(8) Gazavât, p. 193.
(9) Sandoval, Op. Cit., Vol. II, p. 470;
بينما يرى رودني كون إن التحالف بدأ قبل ذلك، منذ سنة 1532:
Quinn, Op. Cit., pp. 163-182;
إلا إن رأي ساندوفال يبدو أصوب نظرا لإعتماده على سجلات معاصرة.

لإبنه حسن(1)، مع حامية مكونة من أربعة آلاف جندي(2). وعند وصوله حظي بإحتفال مهيب ومقابلة مع السلطان وقدم له بعض الهدايا في التاسع والعشرين من تشرين الثاني 1533(3). بالمقابل، منحه السلطان عشرين ألف أقجة، وحُلة شرف(4)، وعيّنه أميرالا أعظم (قابودان دريا) للقوة البحرية العثمانية، ليس هذا فحسب، وإنما حاكما عاما (بايلربي) على الجزائر أيضا(5). في هذه اللحظة كان الصدر الأعظم إبراهيم باشا في حلب، وكان على خير الدين أن يلتقيه هناك(6). وفي

(1) Ibid., p. 469.

(2) Ibid., p. 709.

(3) يشير إدريس بستان إلى إن وصول خير الدين، طبقا لوثيقة بابوية، كان في التاسع من تشرين الثاني1533؛

İdris Bostan; "The Province of Cezayer-I Bahr-I Sefid"; in: The Kapudan Pasha, His Office and his Doman, Elizabeth Zachariadus (ed.), Rethymnon, 2002, p. 244;

إستنادا إلى:

Arıkan & Toledo, Op. Cit., p. 264;

ومع ذلك، ففي المصدر نفسه ورد تاريخ إرسال الرسالة من إسطنبول ما بين التاسع من تشرين الثاني إلى الخامس عشر من كانون الأول. وليس من الواضح ان تاريخ وصولها هو التاسع من تشرين الثاني تحديدا. ولكننا لابد أن نشير ايضا الى ان المصدر الأخير لم يستشهد بالوثيقة كلها. أما ستانفورد شو فيذكر إن التاريخ كان في السابع والعشرين من كانون الأول 1533.

Shaw, Op. Cit., p. 97.

(4) Bostan, The Province...., p. 244.

(5) Ibid.

(6) Gazavât, p. 203.

كان منصب القابودان دريا منصبا إداريا. وكانت واجباته الرئيسة إدارة دار صناعة السفن (الارسنال)، والإشراف على صناعة الأشرعة وتجهيز القوة البحرية، وإدارة الولاية (الايالة) التي مُنحت له عن طريق تأجير عوائدها الضريبية لجامعي الضرائب (الملتزمين)، بحيث يمكن تلبية تكاليف القوة البحرية؛

Salih Özbaran; "Kapudan Pasha", *EI*2;

وللمزيد من التفاصيل عن واجبات بربروسا في هذا المنصب؛

Gilles Veinstein; "La Dernière Flotte de Barberousse"; in: the Kapudan Pasha, His Office and his Domain, pp. 181-200.

يذكر أحد الباحثين إن مصطلح قبطان (Kapudan) لاتيني الاصل، بينما نظيره مصطلح أميرال (Admiral) عربي الأصل. ويشير إلى إنه مشتق من الكلمة اللاتينية كابيتانوس (Capitaqnus) أو كابيتانيوس (Capitaneus).

György Hazai;"A Propos de l'Histoire du Titre Kapudan Paşa"; in: The Kapudan Pasha, His Office and his Domain, pp. 3-6;

ولكن الراجح إن الكلمتين من أصل عربي.

كانون الثاني 1534 وصل إلى وجهته. بعد ذلك عاد إلى العاصمة للإشراف على تحضير الإسطول الجديد لمواجهة آل هابسبرك(1).

كانت أهداف الدولة العثمانية في التحالف مع خير الدين واضحة، إذ إن قوتها البحرية لم تكن قوية بما يكفي لمجابهة العدو في تلك المرحلة وفي مناطق غربي البحر المتوسط تحديدا. ولكن هل كانت القوة البحرية العثمانية ضعيفة في هذه المرحلة على نحو عام؟ من المؤكد إن الجواب سيكون بالنفي. ولكن كلامنا هذا ينطبق على الأجزاء الشرقية من البحر المتوسط أكثر من إنطباقه على الأجزاء الوسطى والغربية؛ إذ كان العثمانيون قوة بحرية منذ عهد السلطان أورخان الأول. وقد أشار البروفيسور كولن إمبر إلى إن السلطان أورخان (1324-1362) لم تكن لديه قوة لأنه كان يلجأ إلى مساعدة الإمبراطور البيزنطي لإنقاذ إبنه من أسر القراصنة(2)؛ ولكن، طبقا لخليل إنالجك، وإستنادا إلى مصدر معاصر، وهو سانتاكوزينوس (Cantacuzenus)، كان لأورخان قوة بحرية في أوائل سنة 1333 خلال حصار نيقوميديا(3)، وأدت هذه القوة البحرية دورا مهما في الفتوحات العثمانية. وكان السلطان مراد الأول (1362-1389) قد فتح شبه جزيرة بيجا (Bega)(4) بالتعاون مع القوات البرية والبحرية(5). وحدث تطور آخر عندما دمج السلطان بايزيد الأول (1389-1402) الإمارات العثمانية في غربي الأناضول. وكانت النشاطات البحرية لألوية مثل منتشة(6)، وآيدن، وصاروخان، وقارص، مهمة منذ بداية القرن الرابع عشر(7). وطبقا لخليل إنالجك أيضا، فإن نشاطها البحري نجح في إزاحة آثار الحصار البابوي

---

(1) Shaw, Op. Cit., p. 97; Currey, Op. Cit., pp. 116-118.

(2) Colin Imber; "Before the Kapudan Pashas: Sea Powers and the Emergence of Ottoman Empire"; in: The Kapudan Pasha…, p. 49;
وهذه الحقيقة لايمكن إلا أن تثبت ضعف القوات البحرية في ذلك الوقت، وليس عدم وجودها.

(3) İnacık, "Osmanlı Deniz Egemenliği", p. 52.

(4) لم أتمكن من تحديد موقعها بالضبط.

(5) Gürkan, Op. Cit., p. 105.

(6) See: Paul Wittik; Menteşe Beyliği, O. S. Göyay (trans.), Ankara, 1944, pp. 44-46, 56-57, 72-73; in Gürkan, Op. Cit., p. 105.

(7) See: "The Rise of the Turcoman Principalities in Anatolia, Byzantium and Crusades", *Byzantinische Forschungen*, IX, 1985, pp. 105-126.

ضد العالم الإسلامي الذي أُعلن سنة 1291، بعد سقوط عكا[1]. ومن هنا، فإن دمج الأساطيل العائدة لألوية غربي الأناضول عزز القوة البحرية العثمانية على نحو فاعل[2]. بيد إن خليل إنالجك نفسه يشير إلى إن هذه القوة البحرية لم تزل غير قادرة على تبوء مكانة الهيمنة على البحر المتوسط بكامله؛ إذ كانت غاليبولي، القاعدة البحرية الرئيسة للعثمانيين في ذلك الوقت، محمية بسور لتمكين البحرية العثمانية من شن تكتيكات الكر والفر. ومن الواضح إن ذلك يثبت إن العثمانيين لم يتمكنوا من مقارعة القوة البحرية البندقية في ذلك الوقت[3]. وكان السلطان محمد الأول (1402-1421) قد تحدى التفوق ألبندقي، ولكنه لم ينجح[4]. كما إعتمد السلطان محمد الثاني (الفاتح) على القوة البحرية أيضا خلال فتوحاته في شمالي بحر إيجة[5]. بيد إن صراعه ليكون سيد البحرين (خاقان البحرين)[6] بقي غير مكتمل على الرغم من جهوده للهيمنة على بحر إيجة بين السنوات 1456-1479. وكان أول تحدٍ بحري عثماني للهيمنة ألبندقية هو حرب 1499-1503[7]، خلال عهد السلطان بايزيد الثاني، الذي كان أول سلطان عثماني يدرك ضرورة تأسيس سياسة بحرية[8]. وكانت نتيجة هذه الحرب "سلاما مضطربا"[9]، مع البندقية.

من هنا، فكر الساسة العثمانيون بالتعاون مع خير الدين، الخبير بالشؤون البحرية، وجاء ذلك من إدراكهم إن التحالف معه سيكون مفيدا لتعزيز القوات البحرية للدولة،

(1) Gürkan, Op. Cit., p. 105.
(2) Ibid.
(3) Ibid.; İnacık, "Osmanlı Deniz Egemenliği", p. 53.
(4) İnacık, "Osmanlı Deniz Egemenliği", p. 53; in: Gürkan, Op. Cit., p. 105.
(5) İnacık, "Osmanlı Deniz Egemenliği", p. 53
(6) كان السلطان محمد الثاني (الفاتح) يستخدم لقب "سلطان البرّين وخاقان البحرين". والمقصود بـ "البرّين" الأناضول والبلقان، بينما المقصود بـ "البحرين" البحر الأسود وبحر إيجة؛
Ibid., p. 55; Kinross, Op. Cit., p. 112.
(7) Ibid., p. 53.
(8) Gürkan, Op. Cit., p. 106;
يرى المؤرخ جان غليت إن طموحات السلطان بايزيد الثاني قد تسببت في إنشاء قوة بحرية مسلحة بالمدفعية خاصة بالعثمانيين جزءا من سياستهم التوسعية، وإن ذلك ساعد في حماية التجارة وتنظيمها والسيطرة على الجزر والمواقع الساحلية، وعزز العمليات الهجومية ضد البندقية واليونان خلال 1463-1479 و 1499-1502؛
Glete, Op. Cit., p.17: see also: Labib, Op. Cit., p. 442.
(9) Gürkan, Op. Cit., p. 106.

لاسيما في الأجزاء الوسطى والغربية من البحر المتوسط(1). وقد أثبت ضغط أندريا دوريا سنة 1532 إن القوة البحرية العثمانية تحتاج إلى إصلاح، فضلا عن قباطنة مقتدرين من أجل التغلب على العدو(2). وكان لدى القباطنة القدرة على القيام بكلتا المهمتين. وطبقا لرسالة أُرسلت إلى دوج البندقية، تم إستدعاء بربروسا إلى العاصمة العثمانية ومُنح المنصب لأنه هو الشخص الوحيد المؤهل لحماية البحر بأكمله وفتح الجزائر والمناطق المجاورة لها(3).

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تلجأ فيها الدولة العثمانية إلى التحالف مع قبطان. ففي سبيل المثال، أسهم القبطان كمال ريّس في حملة اكريبوليس سنة 1470 بقيادة محمود باشا، وقاتل أيضا مع القوة البحرية العثمانية ضد البنادقة خلال الحرب العثمانية ـ البندقية 1499 ـ 1503(4). وفيما يخص هذه المرحلة، فإن التعاون بين العاصمة العثمانية وولاياتها الساحلية كان قد بدأ مسبقا (منذ إتفاقية 1519) . فضلا عن ذلك، كانت العاصمة تُبلّغ بالتطورات في غربي البحر المتوسط دائما. ويسجل سانوتو دعوة سنان ريّس من إسطنبول بينما بقي خير الدين في الجزائر سنة 1530(5). وطبقا لسجلّين في سانوتو في شباط سنة 1531، أرسل بربروسا هدايا إلى السلطان الذي أراد تكليفه بالعمليات البحرية العثمانية في غربي البحر المتوسط. وأشار سانوتو أيضا إلى إن توجيهات صدرت لبربروسا بعدم مهاجمة البنادقة(6). فضلا عن ذلك، يمكن الإستدلال من المدونات المختلفة إن ترقية محتملة لخير الدين كانت قد نوقشت مسبقا في أوربا الغربية. وطبقا لذلك، فإن القوة البحرية العثمانية، مدعومة بخير الدين،

---

(1) Gazavât, p. 193; Labib, Op. Cit., p. 443.

(2) وهذا الرأي يؤيده أندرو هِس أيضا بقوله: "إن العثمانيين لم يقيموا إتصالات مباشرة مع خير الدين إلا عندما أرسل شارل الخامس أميراله أندريا دوريا شرقا في غارة على المورة خلال الموسم لبحري لسنة 1532":

Hess, The Moriscos…, p. 9.

(3) Gürkan, Op. Cit., p. 106.

(4) Nejat Göyünç; "Kemâl Re'îs", *EI2*;

ويسجل سيدني نيتلتون فِشر أيضا وصول سفير من تونس إلى السلطان بايزيد الثاني عندما هاجم الإسبان تونس في أواخر القرن الخامس عشر.

Fisher, Foreign Relation of Turkey…, pp. 36-37.

(5) Gürkan, Op. Cit., p. 107.

(6) Sanuto, Op. Cit., Vol. IV, pp. 281, 348.

كـادت أن تشـن حملـة فـي البحـر الأدريـاتيكي، بهـدف غيـر محـدد، بـإمرة "باشـا غـاليبولـي"[1]، (الـذي كـان قـابودان دريـا أيضـا)، ولكـن القيـادة العامـة لهـا كانـت بيد بربروسـا، "لأنـه أكثـر تجربـة"[2]. ويشـير كاتـب جلبـي أيضـا إلـى خطـط بربروسـا بالمجئ إلى إسطنبول في تلك السنوات[3].

ومهمـا يكـن مـن أمـر، فبهـذه الترقيـة، أصـبحت الجـزائـر جـزءا مـن الدولـة العثمانيـة بمستوى أكثر مما كان عليه الحال في سنة 1519[4]، كما أصبح القباطنة جزءا من النظـام الإداري العثمـاني. ولـم يعُـد بربروسـا مجـرد "قرصـان بسـيط" فـي العمليـات البحرية، وإنما أصبح جزءا من السلّم الإداري العثماني، وأخذ يمارس دورا في التنـافس بين القوتين خلال ذروة الصراع البحري في القرن السادس عشر.

وممـا لاشـك فيـه إن هـذه الترقيـة وهـذا الـدمج قـد غيـرا مـن العلاقـة بـين العاصـمة العثمانيـة وولاياتهـا السـاحلية فـي شـمالي أفريقيـا علـى نحـو سـريع لتقـويض الإسـتقلال الذاتي للأخيرة؛ بمعنى إن العمليات البحرية للقباطنة، وفي مقدمتهم خير الدين، أصبحت تخضـع للسياسـة العثمانيـة العليـا. فمـا أن حـدثت الترقيـة حتـى بـدأت العاصـمة العثمانيـة تمـارس درجـة معينـة مـن السـيطرة علـى نشـاطات القباطنـة. ففـي صـيف 1534، قـدّم البنادقة إحتجاجا إلى السلطان إشتكوا فيه من تصرفات بعض القباطنـة العثمـانيين الـذين خرقـوا إتفاقيـة المعاهـدات (العهـد نامـة) بـين الدولـة العثمانيـة وجمهوريـة البندقيـة[5]. وتثبـت الإسـتجابة العثمانيـة للإحتجـاج ألبنـدقي إن مسـتوى السـيطرة علـى القباطنـة كـان

---

(1) حتى سنة 1533 كانت غاليبولي مركز ولاية الروميللي، وكان واليها آمر الإسطول؛
Halil İnacık; "Gelibolu", *EI*2.

(2) Sanuto, Op. Cit., Vol. IV, pp. 615, 616-618, 692.

(3) Çelebi, Op. Cit., p. 59.

(4) Shaw, Op. Cit., p. 97.

(5) في سبيل المثال، فإن قبطانين من القباطنة، وهما كولاكسيز أحمد (Kulaksız Ahmed) وكوهود سنان (Cuhud Sinan)قد عوقبا في البحر الادرياتيكي. وكان كولاكسيز، الذي كان قبطان مودون، طبقا لهذه الوثيقة، قد دمر سفنا كثيرة عائدة لجمهورية البندقية، فضلا عن قيامه بالإستيلاء على سفينتين كبيرتين من نوع (Göğe) كانتا في طريقهما إلى البندقية تحملان النباتات المنتجة للحبوب وغيرها من السلع. ثم أخذ أحد القباطنة البنادقة، المدعو آغوستو (Agosto)، إلى مودون وحصل على "حجة" من القاضي لكي يثبت إنه لم يحصل على أي شئ من القبطان الآخر. وعلى الرغم من ذلك، نجح آغوستو في الفرار، وظلّ يطالب بالتعويض. أما القبطان الآخر، نادالين (Nadalin)، فقد كان أقل حظا، إذ قام القبطان بقطع رأسه مع بعض من رجاله. أما موقف سنان ريّس فقد كان أكثر اعتدالا؛ إذ إستولى على ثلاث عشرة سفينة. وعلى الرغم من جهود الوسيط ألبندقي، إلا انه رفض إعادة البضائع التي تم الإستيلاء عليها؛

Gürkan, Op. Cit., pp. 108-109.

موجودا منذ أوائل سنة 1534. وكان السلطان سليمان قد أكد للسنيور ألبندقي مسبقا إن بربروسا قد أُمر بالإمتناع عن إلحاق الضرر بالممتلكات البندقية[1]. وقد أُرسل أمر سلطاني (خطٌّ همايوني) إلى بربروسا[2] أُمر فيه بالتقصي عن مسألة قيام قبطانين عثمانيين بالإعتداء على سفن بندقية وقتل أحد القباطنة البنادقة، بهدف معاقبة المنتهكين وتعويض الضحايا، لأن تصرفاتهم ـ بحسب الخط الهمايوني ـ مخالفة للعهدنامة الذي مُنح للبندقية[3]. وعليه، أصبحت نشاطات القباطنة خاضعة لمراقبة السياسة الخارجية العثمانية، فضلا عن إن ذلك يثبت وجود تدخل عثماني مباشر في الشؤون الداخلية لولاية الجزائر التي أصبح خير الدين حاكما عاما عليها، ليصبح القباطنة تحت السلطة المباشرة للسلطان العثماني.

ومع ذلك، فإن مثل تلك العلاقة لم تكن تعني تحجيم مسؤوليات القباطنة في شمالي أفريقيا؛ إذ إن الساسة العثمانيين أيضا كانوا يعدّونهم جزءا من قواتهم المسلحة، بل وطلبوا من الدول الأخرى التعاون معهم كما فعلوا مع الدولة العثمانية نفسها. والعلاقة بين خير الدين وفرنسا خير دليل على ذلك. وقد إنسحب ذلك على البندقية أيضا التي طُلب منها التعاون مع خير الدين[4]، ثم أصبحت لهجة إسطنبول أكثر جديّة بعد ستة شهور، حينما طُلب من البنادقة مساعدة خير الدين خلال إخلائه تونس، بدلا من تقديم المزيد من الشكاوى ضده إلى إسطنبول[5].

خامسا. النشاطات البحرية لخير الدين (1535 - 1546):

أسهم التشجيع العثماني للقوة البحرية الناشئة في شمالي أفريقيا، المتمتعة الآن برعاية السلطان، في القيام بالمزيد من الفتوحات في شمالي أفريقيا. وخلال هذه المرحلة كان خير الدين يقضي شتاء 1534 في مسافن إسطنبول من أجل تهيئة

(1) Ibid., p. 109.
(2) Ibid.
(3) Ibid.

(4) Gürkan, Op. Cit., p. 110.
(5) Shaw, Op. Cit., p. 97.

الإسطول العثماني للحملة القادمة[1]. وفي الأول من آب، غادر العاصمة بإسطوله الجديد الذي كان مكونا من مائة سفينة وأربعة وعشرين ألف رجلا[2].

في البداية هاجم خير الدين السواحل الإيطالية بهدف إخفاء الهدف الحقيقي لحملته[3]. ودمر أولا سان لوسيدو (San Lucido)، واسر معظم سكانها تقريبا. بعد ذلك توجه إلى كتارو(Cataro) بعد أن بلغته أنباء بناء قوادس فيها. لكنه، بعد أن وجد المدينة مهجورة، أحرق السفن الإسبانية الست التي عثر عليها[4]. ومن هناك وصل إلى البحر التيراني، فنهب خليج نابولي ودمره، ثم توجه إلى سبيرلونكا (Sperlonga)، ومنها إلى مدينة فوندي (Fondi) الإيطالية. وخلال هجومه عليها حصلت حادثة كان من شأنها دفع إيطاليا إلى التخلي عن هدنتها مع الدولة العثمانية، لتدخل في حرب معها بعد سلامٍ دام ثلاثة عقود ونصف. ففي غارة ليلية على هذه المدينة أرسى بربروسا ليختطف الحسناء الإيطالية الأميرة جوليا غونزاغا (Guilia Gonzaga)، التي كانت، كما تذكر المصادر، من أشهر الحِسان جمالا في عصرها، بحيث إن شهرة جمالها وصلت مسامع السلطان سليمان، لكثرة ما تغنى بها الشعراء، وصوّرها الرسامون. فقرر خير الدين خطفها وإهدائها لسيده مكافأة له على ترقيته، ليضيفها إلى حريمه. وتفيد بعض المصادر إن الصدر الأعظم إبراهيم باشا هو الذي طلب منه خطف الأميرة لتحل محل روكسلانة. لكن جوليا تمكنت أن تنجو بنفسها بقميص نومها، برفقة أحد الفرسان، الذي أمرت بقتله فيما بعد بطعنة خنجر، إما جزاءً على مبالغته في التحرش بها، أو خشية من الفضيحة لكثر ما إطلع عليه من أحداث في تلك الليلة[5]، لا أحد يدري!

---

(1) Lane-Poole, The Barbary Corsairs, p. 83; Currey, Op. Cit., p.131ff.
(2) İdris Bostan, “ The Province of Cezayir-I Bahr-I Sefid”, p. 246; cf: Arıkan &Toledo, Op. Cit., p. 265; Sandoval, Op. Cit., II, p. 473; Katip Çelebi, Op. Cit., pp. 64-65.
(3) Bono; Op. Cit., pp. 140-142; in: Gürkan, Op. Cit., p. 111.
(4) Sandoval, Op. Cit., II, p. 473; Currey, Op. Cit., p. 137.
(5) وردت هذه الحادثة في معظم المصادر التي تناولت حملة بربروسا على تونس، إلا إن أهمها تحديدا: Christopher Hare: A Princess of the Italian Reformation: Giulia Gonzaga 1513-1566, Her Family and Her Friends, London & New York, 1912, pp.111-121; Hare; A Great Emperor Charles V, p. 128; Ward and others (eds.); The Cambridge

توجه بربروسا من فوندي شمالا حتى حلق نهر التيبر (Tiber) في إيطاليا. وطبقا لما أورده بونو (Bono)، فإن المصادر المعاصرة تشير إلى إنه لم يكن ليواجه أية إعاقات لو كان قد قرر مهاجمة العاصمة القديمة للإمبراطورية الرومانية، روما. ويذكر اليسكاس (Ilescas) وجود إضطراب في المدينة بسبب الخوف من وقوعها بيد بربروسا. وكاد البابا كليمنت السابع أن يموت ذعرا، كما أفرغ الكرادلة الخزانة البابوية لتمويل الإستعدادات الدفاعية عن المدينة. لكن خير الدين توجه أخيرا إلى تونس، إذ كانت نيته تضليل خصومه من أجل إخفاء هدفه الحقيقي(1).

ظهر الإسطول العثماني قبالة ميناء بيزرتة التونسي، في الخامس عشر من آب 1534(2). وإستسلم الميناء من دون مقاومة، وكان خير الدين موضع ترحيب فيها. وفي الثاني والعشرين من آب ساد الموقف نفسه في مدينة تونس، إذ كان الناس متحمسين لوصول الرشيد بن محمد(3)، الذي وعد خير الدين بتنصيبه على العرش بدلا من أخيه مولاي الحسن، المتهادن مع الإسبان(4). بيد إن خير الدين كان قد أخذ مولاي الحسن إلى إسطنبول وتركه هناك. وعندما أدرك التونسيون إنهم خُدِعوا، رفعوا السلاح ضد خير الدين، فضلا عن قيامهم بإرسال مبعوث إلى الحاكم السابق، مولاي حسن نفسه الذي إنضم إلى الثوار أيضا، فوجد خير الدين نفسه مُحاصَرا، وقرر مواجهة الوضع، ونجح في قمع العصيان الذي راح ضحيته ثلاثة آلاف شخص، فضلا عمّا يتراوح بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف جريح(5). وأخيرا، قبِل سكان المدينة سيادة خير الدين بإسم السلطان العثماني، مقابل وعد بإعادة تنصيب الرشيد في تونس

Modern History, Vol. III, pp. 109-110, Lane-Poole & Kelly, p. 84; Currey , Op. Cit., pp. 138-140.

(1) Gonzalo de Illescas; Jornada de Carlos a Túnez, Madrid, 1804; (Day of Carlos V to Tunisia), in: Gürkan, Op. Cit., p. 112.

(2) Currey, Op. Cit., p. 140; Gürkan, Op. Cit., p. 112; cf: Shaw, Op. Cit., 97;
إذ يذكر إن تونس دخلت حظيرة الدولة العثمانية في الثاني من نيسان 1534؛
Ward, Op. Cit., p. 110; Lane-Poole & Kelly, p. 58.

(3) هو إبن سلطان تونس محمد بن الحسن الحفصي، إتسم بحسن السيرة خلافا لأخيه الحسن بن محمد، فحظي بتقدير السكان، ولجأ إلى خير الدين لمساعدته في القتال ضد أخيه.

(4) Illescas, Op. Cit; in: Gürkan, Op. Cit., p. 112; Mantran, Op. Cit., p. 258; Currey, Op. Cit., p. 141.

(5) Sandoval, Op. Cit., II, p. 474.

في القريب العاجل[1]. وهكذا دخلت تونس منظومة الدولة العثمانية، لتكون سببا لحربٍ مقبلة بين العثمانيين وآل هابسبرك من أجل السيطرة على الجزء الأوسط من البحر المتوسط[2].

كان الفتح العثماني لتونس ضربة للهيبة الإسبانية في المنطقة، بحيث إن الإمبراطور شارل الخامس فكر بقيادة حملة ضدها بقيادته شخصيا، ودفعته في ذلك نوازع شتى، في مقدمتها قربها من ممتلكات آل هابسبرك في جنوبي إيطاليا، ولاسيما مملكتي صقلية ونابولي، فضلا عن كون الجزائر، القريبة منها، كانت موطئ قدم مهم في شمالي أفريقيا، كما إن الإستيلاء على تونس كان من شأنه تسهيل عمليات القباطنة على نحو كبير، لأنها كانت نقطة التحكم بالتجارة بين شرقي البحر المتوسط وغربه[3]. وهذا ما يفسر لنا لماذا كان فرسان مالطا يضغطون من أجل شن مثل تلك الحملة[4]. كما أعرب شارل الخامس عن خشيته من بقاء تونس تحت قبضة بربروسا بقوله:"إذا ما بقيت تونس تحت سيطرة بربروسا، فإن الشواطئ كلها، من مسينا حتى جبل طارق، ستكون تحت تهديد القراصنة"[5]، وإذا ما تُرك هناك فإنه قد يزيد قوته في المنطقة عن طريق عقد التحالفات مع الحكام المحليين بدعم من القوات البرية والبحرية العثمانية، وستكون الحاميات الإسبانية في خطر. إذن، فلابد من شنّ حملة بالسرعة الممكنة، لاسيما وإن السلطان مشغول في الشرق مع الصفويين.

درس شارل الخامس خطة الحملة على تونس بتأنٍ، لأنه كان لا يريدها أن تتحول إلى "جزائر ثانية". ولو أخذنا بعين الإعتبار قربها الجغرافي من صقلية، الشهيرة بصناعة الحبوب، فإنها ـ أي تونس ـ تعدّ ذات أهمية قصوى في وقت كانت فيه تجارة الحبوب تُنظّم بموجب معاهدات دولية، فضلا عن إن شارل الخامس كان مدفوعا بدوافع دينية بصفته حاميا للعقيدة الكاثوليكية، في وقت كان فيه التوسع العثماني قد توقف نسبيا

(1) Illescas, Op. Cit; in: Gürkan, Op. Cit., p. 113.
(2) Quinn, Op. Cit., pp. 199-218; Lane-Poole & Kelly, pp. 85-86.
(3) عن الأهمية الجغرافية لتونس وسواحلها: الملاحق، (الخارطتان 9 و 10).
(4) Danshimend, Op. Cit., Vol. II, p. 477; Kinross, Op. Cit., p. 220.
(5) Sandoval, II, pp. 498-499.

في أواسط أوربا نتيجة لهدنة 1533[1]. وقد أعلن بهذا السياق: "إن رخاء المسيحية، ومقتضيات دولته، وشرفه الشخصي وسمعته تفرض عليه شن مثل تلك الحملة"[2].

بدأ شارل الخامس إستعداداته بالسرعة الممكنة، وأرسل رسائل إلى حليفه الأميرال الجنوي أندريا دوريا، وإلى نائبه في صقلية بيترو دي توليدو (الطليطلي)[3]، كما كاتب كلا من البابا والملك الفرنسي يطلب منهما المشاركة "بأقصى قدر من السرعة والإستعداد"[4]. كما طلب من فرانسوا تجهيزه بستة قوادس، وأن يعلن صراحةً إيقاف تعاونه مع بربروسا، ليس هذا فحسب، وإنما أن يعلن إن بربروسا عدوه. وقد رفض الملك الفرنسي كلا الطلبين، في حين وافق البابا على تقديم إثني عشر قادسا وربع الفوائد من عوائد الكنيسة[5].

تكوّن الإسطول الإمبراطوري من إثنين وثمانين قادسا بقيادة الفارو دي بازان (Alvaro de Bazan) القائد العام للإسطول الإسباني، الذي جلب خمسة عشر قادسا، بينما جاء أندريا دوريا بتسعة عشر قادسا. فضلا عن ذلك، أسهمت كل من نابولي بستة عشر قادسا، وجنوا بتسعة قوادس، وموناكو بقادسين، وفرسان القديس يوحنا في مالطا بأربعة قوادس [6]، كما أسهمت البرتغال أيضا بأربعة وعشرين من الكرافيل[7]. وبالإجمال، تجاوز العدد الكلي لقطع الإسطول الثلاثمائة سفينة من مختلف الأنواع والأحجام[8]. من جانب آخر، بلغت القوات البرية ستة وعشرين ألف جندي مرتزق، وألفين من الخيّالة، وستة عشر ألف مغامر مسلّح، مع عشرة آلاف بحّار، أي ما مجموعه أربعة وخمسون ألف جندي[9]. وأنيطت بأندريا دوريا مهمة قيادة القوة البحرية المتوجهة إلى تونس[1].

---

(1) Tracy, Op. Cit., p. 154.
(2) Brandi, Op. Cit, p. 354; in: Gürkan, Op. Cit., p. 114.
(3) أمرهما في هذه الرسائل بالتعاون معا لتوفير المؤن والمواد الغذائية والمدفعية للقوة البحرية؛ Sandoval, Op. Cit., Vol. II, pp. 483-484.
(4) Ibid., p. 484; see also: Currey, Op. Cit., 143-148.
(5) Ibid., p. 498; Ward, Op. Cit.
(6) Ibid.
(7) Ibid., p. 490; Caravels and Carracks, (*).
(8) Ibid., pp. 496.
(9) Sandoval, Op. Cit, p. 510;

أما قوة بربروسا فقد كان من الصعب تقديرها، إذ كان العدد الإجمالي لقوته قبل مغادرته إسطنبول أربعة وعشرين ألف جنديا. ولكن هذا العدد تناقص بعد أن دخل في صراعات مسلحة في تونس قبل فتحها. على أية حال، يشير ساندوفال إلى إن قوته كانت مكونة من سبعة آلاف تركي، وثمانمائة إنكشاري، وسبعة آلاف قوّاس، ومثل هذا العدد من رماة الرماح، وثمانمائة خيّال عربي من تونس، وحامية مكونة من ألف جندي في حلق الوادي[2]. ومن جهة أخرى أشار فون هاممر إلى إن بربروسا واجه الجيش الإمبراطوري بعد فتح حلق الوادي بـ (7200) مقاتل، ولكن (2500) من الخيّالة العرب تخلوا عنه، أي إن العدد الإجمالي لقوته كان (9700) مقاتل في المرحلة الأخيرة من الحرب[3]. أما خير الدين فقد ذكر في مذكراته إن عدد الجنود كان يتراوح مابين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف، ولكنه إنخفض بعد الهزيمة ليصبح ما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف جندي[4].

غادر الإسطول الإمبراطوري برشلونة في الثلاثين من مايس 1535، ووصل مدينة قرطاجة القديمة في السادس عشر من حزيران، ونزل الجنود من متون سفنهم في اليوم اللاحق[5]. وكان إحتلال قلعة حلق الوادي الهدف الرئيس للحملة قبل التوجه لإحتلال تونس. ولكن قوات خير الدين تمكنت من إعاقة تقدم القوات الإمبراطورية إلى حلق الوادي، ولكنها لم تحرز نجاحا كبيرا. ومع ذلك، إضطر شارل الخامس إلى تحويل وجهته من حلق الوادي إلى تونس، أما حصن حلق الوادي فقد بدأ يحتل مرتبة ثانوية في حساباته. وفي تونس نجح قائدان من قادة التحالف المسيحي في فتح بوابات

يذكر أحمد توفيق المدني إن قوة الإسطول المسيحي بلغت أكثر من خمسمائة سفينة تحمل أكثر من ثلاثين ألف مقاتل. المصدر السابق، ص 231؛ في حين يذكر دافيس إن القوة المسيحية بلغت ثلاثين ألف مقاتل ـ ثلاثون ألفا منهم من الإسبان ـ وأربعمائة سفينة:

Davies, Op. Cit., p. 94;

في حين ذكر جيمس تريسي إن الإسطول كان مكونا من 74-75 قادسا، بإستثناء السفن من نوع الفوستا (أي المراكب الشراعية)، التي بلغ مجموعها ثلاثمائة مركب؛

Tracy, Op. Cit., p. 154.

(1) Ibid., p. 155.

(2) Sandoval, Op. Cit., p. 502.

(3) Hammer, Op. Cit., p. 148.

(4) Gazavât, p. 210.

(5) Sandovall, Op. Cit., II, p. 506; Ward, Op. Cit., p. 111; Davies, Op. Cit., p. 95; Currey, Op. Cit., p. 159.

المدينة وإطلاق سراح ستة آلاف أسير مسيحي، وتمكنوا من إثارتهم ضد بربروسا، بدعوى إنه كان يعتزم إحراقهم أحياء[1]. نتيجة لذلك، نجح السجناء في السيطرة على البرج، مما أضعف موقف بربروسا في تونس، الذي فقد جزءا كبيرا من قواته، فقرر مغادرة المدينة متوجها إلى عنّابة مع ما تبقى من جنوده وقادته[2].

لم يبقَ أمام سكان تونس سوى التفاوض مع شارل الخامس لمنع إستباحة المدينة، فطلبوا منه مهلة ساعتين كي لا يدخل أحد إليها، ثم عرضوا مبلغ خمسين ألف دوبلا لمنع نهبها. بيد إن الجنود تمكنوا من الحصول على تصريح بإستباحة المدينة، بدعوى إن ذلك "حقهم الطبيعي ومكافأة لمثل هذه الحملة المُرهقة"[3]. وفي الحادي والعشرين من تموز 1535 دخل الجيش الإمبراطوري إلى تونس وإستباحها[4]، فنُهبت المدينة بوحشية وحُرقت حتى مكتبة حليفهم مولاي الحسن بن محمد. وفي السادس من آب عقد شارل الخامس إتفاقية ذات شروط قاسية مع مولاي حسن، إشترط فيها الأول على الثاني أن يتخلى له عن حقوقه الشرعية في مدن عنّابة وبيزرتة والمهدية والمدن الأخرى التي كانت تحت حكم الحفصيين[5]. وهذه الفقرة مهمة جدا في دراستنا، لأنها توضح لنا تصاعد طموحات الإمبراطور شارل الخامس لمواصلة التوسع في شمالي أفريقيا. فضلا عن ذلك، فقد نصت الإتفاقية على تخلي مولاي حسن عن حصن حلق الوادي، وأن لا يرحب هو أو مَن يأتي بعده بأعداء الإمبراطور لا في الشواطئ ولا في الأراضي، وأن لا يقبلوا الموريسكيين القادمين من إسبانيا، وأن يدفع له إثني عشر ألف دوكة ذهبية على دفعتين[6]. يضاف إلى ذلك، إن هذه الحملة كانت مشبّعة بالروح

---

(1) Gürkan, Op. Cit., p. 131; Davies, Op. Cit;

ذكر أحمد توفيق المدني إن عددهم كان عشرة الآف أسير. المصدر السابق، ص231.

(2) Gürkan, Op. Cit; Ward, Op. Cit., p. 111; Mantran, Op. Cit., 251; Kinross, Op. Cit., 221; Lane-Poole & Kelly, pp. 87-90;

جلبي، المصدر السابق، ص ص 46-47.

(3) Ibid.

(4) Sandoval, Op. Cit., Vol. II, pp. 553-554; Shaw, Op. Cit. p. 97;

في حين يذكر روبير مانتران إن إحتلال تونس كان في العشرين من تموز 1535؛

Mantran, Op. Cit., 251; see also: Ward, Op. Cit., p. 111.

(5) Ibid., pp. 559-561; Lane-Poole & Kelly, p. 90; Ward, Op. Cit., p. 111; Davies, Op. Cit., p. 97.

(6) Mantran, Op. Cit., p. 251;

الصليبية، وكانت ذات نتائج مهمة لصالح العالم المسيحي. فبعد أن تم إطلاق سراح الأسرى المسيحيين في المدينة، وتأمين عودتهم إلى أوربا، نصّت الإتفاقية نفسها على إمتناع مولاي حسن أو مَن يخلفه في أخذ الأسرى من الأراضي التابعة للإمبراطور وأخيه فرديناند، وأن يُسمح بإقامة كنيسة في تونس، وأن يتمكن المسيحيون من ممارسة دينهم سلميا. فضلا عن ذلك، كانت هناك فقرات ذات أهمية ثانوية تخص تنظيم وضع المسيحيين في تونس وحقوقهم بالتجارة[1].

أثبتت حملة تونس لسنة 1535 نيات شارل الخامس وخططه في المنطقة، كما بينت إهتمامه بهذا المعبر المائي المهم. وهذا وحده يمكن أن يفسر لماذا قاد الحملة بنفسه شخصيا في وقت كان فيه مستشاروه يحاولون إقناعه بالعدول عنها، كما يفسر لنا أيضا رأي احد المؤرخين الذي وصف المعركة بأنها " أكثر الحملات العسكرية المؤثرة التي نظمتها القوى المسيحية خلال تاريخها الطويل في غربي البحر المتوسط"[2]. على أية حال، لم يتمكن الإمبراطور شارل الخامس من شن حملة أخرى على المنطقة حتى سنة 1541. وقد تسبب هذا الإنقطاع في مواصلة الحملات في شمالي أفريقيا في إلحاق الضرر بأمن السواحل التابعة لإمبراطورية آل هابسبرك، إذ تمكنت أساطيل خير الدين من الوصول إلى السواحل الإيطالية بسهولة، وشن الغارات في الأجزاء الغربية من البحر المتوسط مجددا.

كان للهجوم الإسباني نتائج مهمة لدى الساسة في العاصمة العثمانية، إذ حثهم للإعداد لهجوم بحري، وتنفيذ خطة العمل التي نوقشت بين إبراهيم باشا وسفير فرانسوا الأول في العاصمة العثمانية[3]، جان دو لافوريه (Jean de la Forest). وقد أدى هذا التعاون إلى قلب ميزان القوى في البحر المتوسط لصالح العثمانيين مدة عقد آخر من الزمن.

وعن نص معاهدة التبعية التي وقعت بين مولاي الحسن بن محمد والإسبان: المدني، المصدر السابق، ص ص 257-261.

(1) Sandoval, Op. Cit., II, pp. 559-561.

(2) Henry Kamen; Golden Age Spain, New Jersey, 1988, p. 96.

(3) كلو، المصدر السابق، ص 135.

خلال السنة التي أعقبت إحتلال تونس قرر العثمانيون شن هجوم على الموانئ الإيطالية ردا على قيام بعض القوادس البندقية بمهاجمة سفينة تحمل بعثة دبلوماسية عثمانية[1]. وعلى الرغم من إن هذه هي ليست المرة الأولى التي تهاجم فيها سفنٌ بندقية سفنا عثمانية، وإن الأمور كانت تُعالجُ سلميا في كل مرة، إلا إن السلطان سليمان نفسه هو الذي كان يريد الحرب هذه المرة، فقد بلغ عنده الاستياء مبلغا. وعليه، أمر إسطوله بمغادرة أوترانتو والتوجه إلى كورفو[2].

كانت الإستعدادات في العاصمة العثمانية تجري على قدم وساق لإعداد إسطول جديد بإشراف السلطان سليمان شخصيا "الذي كان يذهب بنفسه مرتين في اليوم إلى دار صناعة السفن وإلى المكان الذي تصهر فيه المعادن لصنع المدافع... لغرض التشجيع والحثّ على الإسراع بالعمل". وقد جلب من الإسكندرية خمسين قادسا وعددا من المدافع. وشاع إن الحملة المزمعة ستتوجه إلى إيطاليا، بحيث إن البابا نفسه فكر بمغادرة روما، وأصبح جنوب إيطاليا يعيش في هلع شديد. وفي الربيع اللاحق تم إنزال مائتي سفينة تامّة التجهيز إلى البحر[3]. وفي السابع عشر من مايس 1537 غادر السلطان إسطنبول بصحبة ولديه الأميرين محمد وسليم، متوجها نحو فالونا على الساحل الألباني. وكان الإسطول بقيادة لطفي باشا صهر السلطان، وخير الدين بربروسا[4]. وكانت الغاية من هذه الحملة الإستيلاء على برنديزي التي تتحكم بالطرق المؤدية إلى مقاطعة بوغليا وكل من نابولي وروما[5]. ولكن الخطة فشلت بسبب إرتداد الملك الفرنسي عن تنفيذ الجزء المكلّف به في المهمة[6]. ومع ذلك، نجح إسطول

(1) Ward, Op. Cit., p. 114; Tracy, Op. Cit., p. 164;
جلبي، المصدر السابق، ص ص 49-50.

(2) Kinross, Op. Cit., p. 222; Lane-Poole & Kelly, pp. 94-95; Tracy, Op. Cit., p. 164.

(3) كلو، المصدر السابق، ص 136؛ ويرى هانس بيتر ثيونيسن إن التحالف العثماني ـ الفرنسي لسنة 1535 قد شجع السلطان سليمان على مهاجمة البندقية؛
Theunissen, Op. Cit., p. 162.

(4) كان الإسطول العثماني مكونا من مائة وخمسة وثلاثين قادسا بحسب ما يذكر ستانلي لين ـ بول؛
Lane-Poole & Kelly, p. 95.

(5) Ibid., pp. 95-96.

(6) كان من المقرر أن تهاجم القوات العثمانية إيطاليا من الجنوب، بينما تقوم القوات الفرنسية بمهاجمتها من الشمال؛
Tracy, Op. Cit., p.164.

السلطان في الوصول إلى فالونا بعد أن أمر جنوده بشن حملة على كورفو، أي على البندقية نفسها[1].

أنزل العثمانيون على الجزيرة خمسين ألف جنديا مدعومين بخمسين مدفعا. وهذا العدد الكبير من الجنود والمدافع يفسّر لنا مناعة الجزيرة وقوة تحصيناتها. وهذا ما حصل فعلا؛ إذ فاقت المقاومة التي واجهها العثمانيون توقعاتهم كلها. ومن بين تسع عشرة قذيفة مدفع صوّبها العثمانيون إلى المدينة، لم تُصب إلا خمسٌ منها هدفها، أما البقية فقد سقطت في البحر[2]. عند ذاك أمر السلطان، بيأس، جنود الحامية الإيطالية بالإستسلام، واعدا إياهم بعدم إلحاق الأذى، فما كان من قيادة القوات البندقية إلا أن ردت بقصف مدفعي أصابت أهدافها جميعا، وقتلت إحداها أربعة جنود دفعة واحدة أمام مرأى السلطان[3]، الذي، تأثرا بهذا المشهد ـ كما يذكر المؤرخ الفرنسي أندريه كلو ـ إضطر إلى رفع الحصار، وأطلق مقولته الشهيرة "حياة مسلم واحد لا يعوضها الفوز بألف قلعة"[4].

ولكن، هل كان إستشهاد أربعة مقاتلين أمام مرأى السلطان هو السبب الرئيس وراء إيقاف الحملة على إيطاليا؟ لا يبدو الأمر كذلك. فلم يكن السلطان ذلك الشخص الذي يهزه مثل هكذا مشهد. لقد كان السبب مختلفا تماما، ألا وهو عدم إيفاء فرانسوا الأول بتعهده بمهاجمة إيطاليا من الشمال[5]. وبذلك فقد السلطان القوة البرية التي كان يعوّل عليها لإكتساح إيطاليا، وإنهار مشروعه بوضعها بين طرفي كمّاشة مثلما كان يخطط[6]. عندئذ، عاد أدراجه إلى إسطنبول وأصدر إلى بربروسا، في أيلول 1537، الأمر بالخروج إلى بحر إيجة لوضع حد نهائي لسيطرة البندقية فيه. وما كان من الأخير إلا أن قام بشن هجوم كاسح على جزر بحر إيجة تمكن بموجبه من إخضاعها

---

(1) يرى البروفيسور صبحي لبيب إن نقطة التحول في الحرب البحرية من أجل السيادة حدثت حينما أمر السلطان سليمان قواته بالتركيز على مهاجمة كورفو بدلا من إيطاليا؛ إذ كانت كورفو جزيرة بندقية وهدفا مهما للستراتيجية العثمانية في السيطرة على البحر المتوسط؛

Labib, Op. Cit., p. 445.

(2) كلو، المصدر السابق.

(3) Lane-Poole & Kelly, p. 96.

(4) Ibid.

(5) Shaw, Op. Cit., pp. 88-89.

(6) Labib, Op. Cit., p. 444.

جميعا وأسر آلافا من المسيحيين[1]. وبعد سلسلة من المفاوضات، إضطرت البندقية، بعد أن تحولت إلى قوة بحرية ضعيفة، إلى عقد معاهدة سلام مع العثمانيين، في العشرين من تشرين الأول 1540، تخلت بموجبها عن جميع ممتلكاتها في بحر إيجة[2]. وردا هذا التطور الجديد، الذي أخذ يهدد الآن إيطاليا، التي كانت، حتى ذلك الوقت، بمنأىً عن هجمات بربروسا، بدأت أوربا تعيد حساباتها، لاسيما بعد سقوط مناطق كانت تُعدّ، حتى ذلك الوقت، مسيحية. وبعد تلك الغارات التي شنّها بربروسا على الموانئ الإيطالية، سادت حالة من الهلع لدى الشعوب الأوربية عامة، والبندقية خاصة.

على هذا الأساس، قررت البندقية، بالتعاون مع إمبراطورية آل هابسبرك، وبتحريض من البابوية، تشكيل "عصبة مقدسة" لشن "حرب صليبية" ضد العثمانيين[3]. وتمت الإستعدادات اللازمة لذلك، إذ تم إستئجار مائتي قادس، ومثل هذا العدد من الصنوف الأخرى من السفن، كما تم تسليح خمسين ألف جندي[4]. وأُسندت القيادة العليا لهذه القوة إلى أندريا دوريا[5]. وبغض النظر عن التفصيلات[6]، التي هي ليست هدفنا هنا، فقد كانت روح التفاؤل عارمة لدى قادة الحملة مسبقا، إذ بدأوا بتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية مسبقا فيما بينهم؛ فالإمبراطور شارل الخامس سيستعيد بيزنطة القديمة، والبندقية ستستعيد ممتلكاتها كلها، بما في ذلك الجزر التي خسرتها مؤخرا، أما فرسان

(1) Lane-Poole & Kelly, pp. 96-97.

(2) Lane-Poole & Kelly, p. 99; Theunissen, Op. Cit., pp. 163-164.

(3) يرى بعض المؤرخين، وفي مقدمتهم أندريه كلو، إن هذا التغير في موقف إيطاليا كان بسبب إستيائها من التقارب الحاصل بين الدولة العثمانية وفرنسا، الذي وضع حدا لهيمنتها على الجزء الشرقي من البحر المتوسط، إذ بات على كل من يرغب في ممارسة التجارة في شرقي البحر المتوسط أن يضع نفسه تحت حماية العلم الفرنسي بموجب معاهدة الإمتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لفرنسا سنة 1535. وهذا يعني إن التأثير السياسي والإقتصادي للفرنسيين سيتصاعد على حساب تأثير البندقية، التي شكل لها هذا التطور نهاية عهد؛ كلو، المصدر السابق، ص 140. أما عن العصبة المقدسة فقد تشكلت في الثامن من شباط سنة 1538؛

Ward, Op. Cit., p 114.

(4) كلو، المصدر السابق، ص 142؛ وذكر إسماعيل سرهنك إن قوة الإسطول كانت 52 سفينة خاصة بالإمبراطور شارل الخامس، و 70 سفينة بندقية، و30 سفينة بابوية، و 10 سفن لفرسان مالطا، و 80 سفينة إسبانية؛ المصدر السابق، ص 541.

(5) المصدر نفسه.

(6) للمزيد من التفاصيل عن ذلك؛ سرهنك، المصدر السابق، ص 542. وعن القوة الإسلامية في هذه المعركة؛

Lane-Poole & Kelly, pp. 97-98.

القديس يوحنا في مالطا فسيعودون إلى رودس. ولكن الرياح جرت بما لا تشتهي سفن التحالف.

كان من الممكن أن يؤدي هذا التحالف إلى تحقيق إنتصار مسيحي ساحق على الإسطول العثماني لولا إنعدام الرؤية الواضحة لدى الأطراف المتحالفة لما ستؤول إليه نتائج الإنتصار في حال حصوله. فإذا كانت إرادة الإنتصار موجودة لدى البابا، أشد المتحمسين لمحاربة العثمانيين، فإنها كانت مشوبة بالحذر لدى البندقية، ومنعدمة تقريبا عند شارل الخامس ـ في الأقل خلال هذه المرحلة ـ الذي كان يرى إن نتائج الإنتصار، في حال حدوثه، ستؤول للبندقية وحدها[1]. فضلا عن ذلك، فإن مصالح البندقية نفسها لم تكن تعني له شيئا مقارنة بالتحديات التي كانت تواجه إمبراطوريته، لاسيما مشكلة مارتن لوثر والبروتستانت الذين بدأ خطرهم ينتشر في القارة إنتشار النار في الهشيم[2]. فضلا عن ذلك، فإن المفاوضات التي كان يجريها مع بربروسا سرا لم تُفضِ إلى نتيجة تذكر[3]، مما أصابه بخيبة أمل كبيرة وهدر الوقت. ففي الوقت الذي كان يحاول فيه كسب ولاء خير الدين بالمال، طلب منه الأخير سواحل شمالي أفريقيا كلها، بينما عرض له شارل الخامس كلا من عنّابة وطرابلس وبجاية لا غير، شريطة تسليم إسطوله له وتدمير إسطول السلطان سليمان[4]. وإستمرت المفاوضات سنوات، لم يتوصل الطرفان فيها إلى نتيجة، وأدرك الإمبراطور، بعد أن أهدر جهده ووقته، أنْ لا أمل يرجى من ذلك "القرصان"، وإن بربروسا كان يماطل من أجل تعزيز قوته لينقضّ على أساطيله في الوقت المناسب.

---

(1) Ward, Op. Cit., p. 114.

(2) لم تكن مشكلة مارتن لوثر بحد ذاتها هي المشكلة الوحيدة التي واجهها شارل الخامس، بل إن مارتن لوثر كان مؤمنا إن إستمرار خطر الإجتياح العثماني من شأنه أن يمنع الإمبراطور من إتخاذ الإجراءات القاسية ضد إصلاحاته الدينية، لاسيما إن الإمبراطور إستعان بالأمراء الكاثوليك في حربه ضد العثمانيين. ومن هنا فإن مارتن لوثر كان يعتقد إن سلامة إصلاحاته تعتمد على قوة الجيوش العثمانية. ويذكر المؤرخ جورج فوريل إن السلطان سليمان ولوثر كانا حليفين سياسيين من جوانب كثيرة.
George W. Forell; "Luther and the War against the Turks", <u>*Church History*</u>, Vol. 14, No. 4, December 1945, pp. 259-260.

(3) عن هذه المفاوضات:
E. Walter and Monnereau; "Negotiations Between Charles Quent and Kheir ed-Din", <u>*Afrique Ruvue*</u>, 86, 1871, pp. 23-65; Ward, Op. Cit., p. 114.

(4) Ward, Op. Cit., p. 114.

في هذه المرحلة، الثامن والعشرون من أيلول 1538، قرر قادة التحالف المقدس شن الهجوم على الإسطول العثماني[1]. وبدأ الهجوم بغارة على قلعة بريفيزا (Preveza)[2]، مما أثار إنتباه خير الدين الذي جاء بإثنتين وعشرين سفينة فقط لمواجهة إسطول أندريا دوريا المكوّن من إحدى وثمانين سفينة بندقية، وست وثلاثين قادسا بابويا، وخمسين قادسا إسبانيا. وبعد أن إلتحم الطرفان في معركة ذكر المؤرخ الفرنسي أندريه كلو أنها "جرت على درجة كبيرة من الغموض"[3]، كان من المتوقع أن يُدمّر الإسطول العثماني تدميرا ساحقا نظرا لقلة عدد سفنه. إلا إن العكس حدث تماما، فقد إنصرف الإسطول العثماني بوحدات تكاد تكون سليمة تماما بعد أن أوقع بإسطول التحالف هزيمة نكراء[4].

أما كيف تمكن بربروسا من تحقيق هذا الإنتصار بسهولة، وما هي الخطة التي اتبعها في المعركة، فالأمر ليس بالسهولة التي يمكننا بها شرح التفصيلات بدقة[5]. ولكننا بإختصار، يمكن أن نقول إنه عندما علِم بنيّة الهجوم، أعاد قسما من إسطوله إلى البحر الأدرياتيكي، ثم انقضّ فجأة على إسطول التحالف أمام بريفيزا بمناورة عسكرية ذكية[6]. أما خطة قادة سفن التحالف فقد كانت تقضي بالهجوم مرة واحدة على الإسطول العثماني. في هذه الأثناء، وقبيل إبتداء الإشتباك الفعلي، إنفجرت سفينتان تابعتان للبندقية، وتمكن خير الدين من الإستيلاء على مركبين إسبانيين وإثنين آخرين، أحدهما تابع للبندقية والآخر تابع للبابا، مما أصاب أندريا دوريا بالإحباط قبل بدء الهجوم، ففضل الإنسحاب في جنح الظلام وعدم مهاجمة الإسطول العثماني[7].

---

(1) يرى المؤرخ جيمس تريسي إن إختيار شارل الخامس شهر أيلول لشن الهجوم لم يكن إعتباطيا، وإنما لأنه أفضل موسم لملاحة سفن الإسطول المسيحي؛

Tracy, Op. Cit., p. 172.

(2) للتفاصيل عن هذه المعركة:

Quinn, Op. Cit., pp. 237-256; Goffman, Op. Cit., pp. 140-148.

(3) كلو، المصدر السابق، ص 143.

(4) Imber, The Costs of Naval Warfare…, p. 203;

وذكر ستانلي لين ـ بول إن خسارة إسطول التحالف المسيحي بلغت ثمانين سفينة بندقية، وثلاث وستين بابوية، وثلاثين إسبانية، فضلا عن خمسين غاليونا ومركبا شراعيا، من مجموع مائتي سفينة حربية؛

Lane-Poole & Kelly, pp. 98-101.

(5) Goffman, Op. Cit., pp. 140-148; Lane-Poole & Kelly, pp. 98-104.

(6) Shaw, Op. Cit., p. 99.

(7) Goffman, Op. Cit., pp. 145-147.

ولكن، إذا كان ذلك سببا ظاهريا وراء تصرف أندريا دوريا، فمما لاشك فيه إن هناك أسبابا أخرى. فربما كان قد تلقى توجيهات سرية من شارل الخامس بعدم مهاجمة الإسطول العثماني[1]، ويبدو إن هذا السبب أقرب إلى الصحة. وهناك الكثير من الإعتبارات تؤيد ترجيحنا لذلك، في مقدمتها إن شارل الخامس كان يدرك جيدا إن الإسطول العثماني لم يكن متركزا كله في تلك المنطقة؛ كما إنه كان يريد، في قرارة نفسه، أن تبقى البندقية تحت التهديد العثماني المستمر، ومن ثم ستبقى تحت رحمته وتأتمر بأوامره. من جانب آخر، كان الإمبراطور يريد الإبقاء على سلامة الإسطول الإمبراطوري للإفادة منه في الدفاع عن السواحل الغربية من البحر المتوسط، التابعة له، ضد تهديد الهجمات المستمرة التي كان يشنها القباطنة المسلمون في شمالي أفريقيا، بدلا من إستنزاف طاقته في الدفاع عن أمن السواحل الإيطالية التي لم تكن تعني له شيئا. لقد بات من الواضح إن مصالح الإمبراطور ومصالح البندقية على طرفي نقيض.

كانت المواجهة في بريفيزا كارثة على دول التحالف المسيحي، أكبر من تلك التي حلّت بالعثمانيين بعد ثلاث وثلاثين سنة في معركة ليبانتو، لأن العثمانيين بعد تلك المعركة، عوضوا خسائرهم خلال بضعة شهور. أما المسيحيون، المنضوون تحت لواء الرابطة المقدسة، لم يخسروا هيبتهم فحسب، وإنما أصبح من المستحيل عليهم، بعد إنسحاب البندقية من الرابطة، مواجهة الإسطول العثماني الذي تعزز مؤخرا بقوادس من القوة البحرية الفرنسية. في هذا الوقت تقدمت البندقية بعروض للصلح[2] ـ ساندها فيها الملك الفرنسي ـ إلى السلطان سليمان، الذي أوضح إنه يفعل ذلك من باب التسامح ليس إلا. وبهذا تهدد الأمن المشترك للعالم المسيحي المتوسطي على نحو خطير؛ فالعثمانيون سوف لن يهجموا فحسب، بل سيذهبوا إلى أبعد من مالطا والقناة الصقلية. إزاء ذلك، انكفأت القوة البحرية المسيحية إلى وضع دفاعي غير فاعل، لكنه، على الرغم من ذلك، مُكلفٌ من الناحية الستراتيجية[3].

---

(1) وهذا الرأي يؤيده دانييل غوفمان أيضا، ولكنه يضيف إن إتجاه الرياح لم يكن في صالح الإسطول المسيحي في حينها؛

Goffman, Op. Cit., p. 148.
(2) Shaw, Op. Cit., p. 99; Goffman, Op. Cit., p. 149.
(3) Braudel, Op. Cit., p. 905.

أخيرا، في العشرين من تشرين الأول 1540، خضعت البندقية للعثمانيين، بعد مفاوضات مطوّلة إستمرت ثلاثة شهور، وافقت بموجبها على دفع ثلاثمائة ألف دوكة تعويضا عن أضرار الحرب، كما تخلت عن كل الجزر التي إنتزعها منها بربروسا في المورة، وإعترفت بفتوحات خير الدين بحر كلها في بحر إيجة[1]، مقابل موافقة العثمانيين على إستمرار حكمها في كريت وقبرص، فضلا عن إستعادة إمتيازاتها التجارية[2]. ونتستنتج من ذلك إن سلام 1540 كان كارثة أخرى للبنادقة. فبإستثناء كورفو وزانتة لم يبق بأيديهم سوى قبرص وكريت وبعض الحصون المعزولة على إمتداد الساحلين الألباني والدلماشي. وخلال أربعين سنة كانت الإمبراطورية البندقية قد تلاشت تقريبا. ومنذ سنة 1540 فصاعدا بدأ رخاء البندقية يعتمد أكثر من أي وقت آخر على تجارتها مع الدولة العثمانية. وعلى الرغم من توطد السلام بين البندقية والدولة العثمانية لمدة تقرب من ثلاثين سنة أخرى، وإن البندقية إستعادت عافيتها الإقتصادية، إلا إن هيبتها لم تعد كما كانت.

بعد هذه النتيجة أخذ المدّ الإسلامي يجتاح المناطق الممتدة على طول الساحل الشمالي للبحر المتوسط، حتى وصل إلى أشبيلية على حدود المحيط الأطلسي، وبات من الواضح إن "الإخطبوط" العثماني سيجتاح البحر المتوسط برمته بعد القضاء على القوة البندقية، وبات العالم المسيحي في حالة دفاع أكثر من أي وقت مضى، وكان على إسبانيا أن تتخذ الإستعدادات الدفاعية لمواجهة هذه التطورات.

تمثلت سياسة الدفاع البحرية الأوربية، التي تمثلها إسبانيا، خلال هذه المرحلة بثلاثة محاور: **الأول:** تعزيز المواقع الستراتيجية في جزيرة مالطا، حيث مقر فرسان القديس يوحنا؛ **والثاني:** تنظيم الدفاعات وتعزيز الحصون في السواحل الجنوبية الإيطالية، ولاسيما في نابولي وصقلية؛ **والثالث:** إستمرار إسبانيا بالدفاع عن سواحلها الشرقية عن طريق تنظيم وحدات لخفر السواحل في بلنسية وما جاورها. ومن ذلك ندرك إن خطة الدفاع الإسبانية كانت تقضي بإبقاء العثمانيين في الأجزاء الشرقية من البحر المتوسط، وإن المنطقة الممتدة من المعبر المائي الممتد من صقلية بإتجاه تونس

(1) كلو، المصدر السابق، ص 144؛
Ward, Op. Cit., p. 116.
(2) Shaw, Op. Cit.

كانت تمثل حدا بحريا ستراتيجيا لإمبراطورية آل هابسبرك، وخطا أحمر لا يُسمح للعثمانيين بتجاوزه. وتعزيزا لهذه الستراتيجية، فكر الإمبراطور بتوجيه ضربة بحرية للعثمانيين تصرف أنظارهم عن التفكير بالمزيد من التوسع غربا. وتقرر أن تكون الجزائر هدفا لهذه الضربة.

حشّد الإمبراطور جيوشه والأساطيل في حملة أراد لها أن تكون"هجوم المسيحية على الإسلام"[1]. ولكن هذه الحملة لم تحظَ بالتأييد اللازم. يذكر أندريه كلو إن البابا بولس الثالث (1549-1534) حاول إقناعه بالعدول عن شنّ حملته هذه بقوله: "انك سترتكب خطأ فادحا إذا ما خرجت غازيا لأفريقيا في شهر تشرين الثاني... فإنتظر الربيع"[2]. وشاطره الرأي أندريا دوريا. وعبثا كرر الملك فرديناند الأول[3] (1526-1564) القول لأخيه شارل أن الخطر العثماني محدقٌ، أكثر من أي وقت مضى، ببلاد المجر وفيّنا. لكن كلامه لم يُجدِ نفعا، فقد كان شارل مصمما على شنّ الحملة[4]. وما أن حلّت نهاية آب 1541 حتى أبحر بإتجاه مايورقا، حيث إحتشد كامل إسطوله: مائتا سفينة محمّلة بالجنود من ألمانيا وإيطاليا، ومائة وخمسون سفينة أخرى محمّلة بجنود إسبان من صقلية ونابولي، ومائتا سفينة قادمة من إسبانيا تحمل المدافع والعتاد والمعدات، ونحو ألف رجل ما بين مشاة وفرسان[5]. بالإجمال، فقد بلغ قوام الحملة نحو خمسمائة سفينة تحمل على متونها نحو أربعة وعشرين ألف جندي وإثني عشر ألف بحّار[6]. وكانت قيادة الإسطول البحري لأندريا دوريا، بينما تولى دوق ألبا قيادة القوات

---

(1) Helmut Nickel; "The Battle of the Crescent", ***The Metropolitan Museum Art Bulletin***, New Series, Vol. 24, No. 3, November, 1965, p. 115.

(2) كلو، المصدر السابق، ص 146.

(3) ولد في العاشر من آذار1503 في إسبانيا، وتوفي في فيّنا في الخامس والعشرين من تموز1564. وهو من آل هابسبرك، وكان أول أرشيدوق للنمسا بين1521-1564. وبعد وفاة لويس الثاني، حكم فرديناند بصفته ملكا على كل من بوهيميا وهنغاريا (1526-1564) . وبعد إقصاء أخيه شارل الخامس عن العرش بصفته إمبراطورا للإمبراطورية الرومانية المقدسة في سنة1556، حكم بصفته إمبراطورا حتى وفاته في سنة 1564؛

"Ferdinand I"; The New Encyclopaedia Britannica, Vol. IV, pp. 96-99; "Ferdinand I, Holy Roman Empire", Wikipedia, (*).

(4) عن إستحضارات شارل الخامس لحملة الجزائر:

Lane-Poole & Kelly, pp. 11.

(5) كلو، المصدر السابق، ص 147. وإختلفت المصادر في قوام الحملة؛ للتفاصيل: الجيلالي، المصدر السابق، ص ص 63-64؛ الجبوري، المصدر السابق، هامش 9، ص 152.

(6) المصدر نفسه، ص 147؛ المدني، المصدر السابق، ص 281.

البريّة. أما مدينة الجزائر فلم يكن فيها سوى ثمانمائة جندي عثماني وخمسة آلاف من البربر بقيادة حسن آغا[1] إبن خير الدين الذي بقي يدافع عن المدينة بدلا من خير الدين الذي كان في العاصمة العثمانية. إزاء هذه القوة العثمانية المتواضعة، كان من المفترض أن تكون حملة الإمبراطور "نزهة"، ولكنها تحولت إلى كارثة كبرى هزّت العالم المسيحي. فكيف يمكننا تفسير ذلك؟

لقد أساء قادة التحالف المسيحي إختيار المكان المناسب للنزول[2]. فعلى الرغم من وجود شاطئ بعيد بعض الشئ شرقي المدينة، فإنه كان سيوفر حماية كافية ضد الرياح والأمواج. وبدلا من ذلك، فإنهم إختاروا مكانا أقرب إلى المدينة، لكنه كان عُرضة لعواصف البحر. وبالفعل، فقد هبت منذ البداية عاصفة أرغمتهم على تأخير النزول إلى البر. وعند نزولهم تعرقل زحفهم بسبب وجود الروابي والمرتفعات التي لم يأخذوها بنظر الإعتبار. وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول وصل الجيش الإمبراطوري وتقسّم على ثلاثة أقسام أمام المدينة التي كانت صامدة وراء الأسوار. وعند الليل، هطلت أمطار غزيرة، ثم هبّت عاصفة هوجاء قلعت المراسي وفصمت الحبال ورمت بالسفن الواحدة على الأخرى فهشمتها[3]. وكانت أولى السفن التي إحترقت هي السفن الشراعية، في حين صمدت القوادس زمنا أطول[4]. لكن الجدافين سرعان ما فقدوا القدرة على تحريك المجاديف وإستولى الهلع على مَن كان في تلك السفن. ومما زاد الأمر سوءا إنهم كانوا عاجزين عن التخاطب والتفاهم فيما بينهم بسبب انتماءاتهم إلى جنسيات وقوميات مختلفة، فإنهزم الإيطاليون في فوضى شديدة، وفرّ الألمان من دون

---

(1) ذكر أحمد توفيق المدني إن محمد حسن آغا هو الإبن الروحي لخير الدين وخلفه الوفي، وهي إشارة ربما نستشف منها إنه ليس ولده وإنما ربيبه، وإن إبنه الوحيد هو حسان بن خير الدين؛ المدني، المصدر السابق، ص 321.

(2) كان الإسطول المسيحي قد إنطلق من مرسى ماهون في الثامن عشر من تشرين الأول 1541، ووصل إلى الجزائر في العشرين من الشهر وبدأ بإنزال جنوده بين الثالث والعشرين والخامس والعشرين من الشهر نفسه في منطقة وادي الحراش. المدني، المصدر السابق، ص 282؛

Davies, Op. Cit., p. 100.

(3) للتفاصيل عن سير الحملة ومجرياتها: المصدر نفسه، ص 282-297؛ ولتوضيح مواقع المدن الجزائرية وسواحلها: الملاحق، (خارطة رقم 11).

Lane-Poole & Kelly, p. 114ff.

(4) يذكر ستانلي لين ـ بول إنه خلال ست ساعات في يوم الخامس والعشرين منتشرين الأول غرقت مائة وخمسون سفينة؛

Lane-Poole & Kelly, p. 117.

قتال. وبعد يومين فُقدت (160) سفينة و 1200 محارب[1]، مما أصاب الإمبراطور بنوبة يأس شديدة، إعتزل في إثرها العالم، وعكف على الصلاة. وفي الوقت نفسه، حاول مَن تبقى من الجنود العثمانيين، من الأتراك والعرب، ملاحقتهم بهتاف "الله أكبر"[2]. وبقي الجنود المسيحيون خمسة أيام في طريقهم إلى سفنهم، ثم هبّت عاصفة أخرى أغرقت العديد من السفن وشتتت البقية في البحر، فلاذ الإمبراطور ومَن بقي معه من الجنود بالفرار إلى بجاية حيث إنعدمت الأغذية لدرجة إنهم وصلوا إلى درجة أكل الأعشاب ولحوم الكلاب والقطط[3]. لم يتعرض الإمبراطور بحياته قطْ لمثل هذه الهزيمة المُرّة: لقد فقد كل ما لديه من سفن ومدافع وعتاد وخيول، ومات من جنوده ما لا يحصى عددهم. وهكذا بدأ إنسحاب الإسطول المسيحي من أرض الجزائر في الأول من تشرين الثاني 1541[4].

كان للإنتصار العثماني في الجزائر نتائج مهمة في مسيرة الصراع البحري بين العثمانيين وآل هابسبرك، يمكن إجمالها بخمسة محاور رئيسة: **الأول**، إنه أكد تفوق العثمانيين بحرا في منطقة كانت تمثل آخر حلقة تستطيع من خلالها إسبانيا تأمين حدودها البحرية مع العثمانيين؛ **والثاني**، إنه شجّع العثمانيين على القيام بالمزيد من الحملات البحرية في شمالي أفريقيا في المواقع التي كانت خاضعة للنفوذ الإسباني؛ **والثالث**، إن العثمانيين تفرّغوا، بعد هذا الإنتصار، إلى الشرق حيث كان صراعهم محتدما مع الصفويين؛ و**الرابع**، إنه أسهم في تقويض هيبة الإمبراطور الإسباني في بلاده وفي أراضي الممتلكات التابعة له. كما عمل على تنمّر الفرنسيين والبروتستانت عليه أكثر من أي وقت مضى؛ **وأخيرا**، إن هذا الإنتصار، وهو آخر إنتصار بحري عثماني كبير خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، أسهم في تأجيل الحروب البحرية مدة عقد آخر من الزمان لم يدخل خلالها الطرفان في مواجهة جديّة.

ولكن الأمر اللافت للنظر في معركة الجزائر عدم مشاركة خير الدين بها، بسبب وجوده في العاصمة العثمانية حينها. وهناك، بما إنه أصبح جزءا من السلّم الإداري

---

(1) كلو، المصدر السابق، ص 147.
(2) المدني، المصدر السابق، ص 286.
(3) كلو، المصدر السابق، ص 148؛ وقد عزا أحد المؤرخين هزيمة الإسطول المسيحي إلى العناية الإلهية، مشبها إياهم بأصحاب الفيل؛ الشناوي، المصدر السابق، ص 919.
(4) المدني، المصدر السابق، ص 295؛ عن مخطط المعركة: الملاحق، (خارطة رقم 16).

العثماني، بصفته القائد العام للإسطول، فإنه كان خاضعا للأوامر العليا للقيادة العثمانية التي أرجأت توجهه إلى الجزائر منذ البداية. ولكن خير الدين، بفضل خبرته البحرية الطويلة، كان يعلم بتحركات الإمبراطور شارل الخامس ونيته في شنّ حملة كبيرة لإجتياح الجزائر، وإقترح، منذ حزيران 1541، تجهيز إسطول حربي قوامه مائة سفينة، تُرسل خمسون منها إلى الساحل الجزائري، بينما تقوم الخمسون الأخرى بإعتراض الإسطول الإسباني. لكن رجال البلاط العثماني لم يوافقوا على هذه الخطة[1]، بدعوى إن الدولة لا يمكن أن تستغني عن هذا العدد الكبير من السفن في وقت كان أمر الحملة مشكوكا فيه؛ فإذا ما تحققت الحملة، فسيمكن حينذاك إرسال الإسطول. وخلال هذا الوقت يُمكن الإعتماد على القوات المرابطة في دفاعات المدينة، وعندما يُرسَل الإسطول سيقع العدو بين طرفي كمّاشة: القوات البرية من جانب والإسطول القادم من جانب آخر. ولاشك إن رؤية ساسة القيادة العثمانية العليا عكست قصورا في التصوّر العسكري، فلم تكن تتحسب للأمور كما ينبغي، أو كما كان يتحسب لها خير الدين. على أية حال، ما أن وصلت أنباء الحملة الإسبانية إلى مسامع الساسة العثمانيين، حتى تقرر تجهيز خير الدين بإسطول قوي لمواجهة الموقف[2]، ولكن بعد أن حُسم الموقف وإنتهت المعركة.

بعد علمه بنجاة الإمبراطور وفراره إلى بلاده، قرر خير الدين ملاحقته إلى عقر داره. وتوافقت نيته هذه مع رغبة الملك الفرنسي في طلب مساعدة خير الدين ضد الإمبراطور، إذ كانت العلاقات العثمانية ـ الفرنسية تسمح بالقيام بتحرك من هذا النوع، لاسيما إن خير الدين أدى دورا مهما في تطوير تلك العلاقات في وقت مبكر من ثلاثينات القرن السادس عشر[3]. فمنذ صيف 1533، وصل مبعوث من خير الدين

(1) عن موقف البلاط العثماني من الحملة الإسبانية على الجزائر؛ المدني، ص 296.

(2) المصدر نفسه، ص 296.

(3) بدأت جذور هذا التحالف منذ سنة 1525، عندما طلب فرانسوا الأول من السلطان العثماني مساعدة عسكرية بعد الكارثة التي حلت به في معركة بافيا التي وقع فيها أسيرا بيد الإمبراطور شارل الخامس؛ De Lamar Jansen; "The Ottoman Turks in Sixteenth Century French Diplomacy", *Sixteenth Century Journal*, Vol. 16, No. 4, Winter 1985, pp. 452; Hare, A Great Emperor Charles V, p. 90-102; Sydney Nettleton Fisher; The Middle East: A History, New York, 1969, p. 223;

ويرى مؤرخ آخر إن سبب ذلك التعاون يعزى إلى إنعدام قوة بحرية لدى الفرنسيين، مما دفع فرانسوا الأول إلى التحالف مع العثمانيين؛

لمقابلة الملك الفرنسي، بصحبته عدد من الأسرى الفرنسيين أعادهم خير الدين للملك الفرنسي، وكان لذلك أثر كبير في نفسه، فأكرم الوفد أيّما إكرام(1). وبعد مدة وجيزة وصل إلى فرنسا سفير من السلطان يطلب منه عدم إبرام الصلح مع الإمبراطور "لأنه [أي السلطان] سيُلزمه [أي الإمبراطور] أن يعيد لفرانسوا كل ما أخذه منه خلال أسره"(2). نتيجة لذلك، تطورت العلاقات بين القوتين إلى درجة كبيرة، بحيث إن الصدر الأعظم إبراهيم باشا قال:" إن ملك فرنسا في سلم ووفاق معنا وكأنه أخ لإمبراطور الأتراك"(3). ويُذكر إن الملك الفرنسي ذكر للبابا كليمنت السابع (1523-1534) أيضا إنه لن يعارض غزو السلطان للبلاد المسيحية وإنما سيعينه في ذلك حتى يتمكن من إسترجاع ما كان يمتلكه، وإنتزعه منه الإمبراطور(4).

بعد زيارة هذين الوفدين إستمرت المفاوضات. فقد سافر المبعوث الفرنسي جان دو لافوريه لمقابلة بربروسا في أفريقيا، ثم في رودس، وأخيرا في حلب، حيث كان الصدر الأعظم إبراهيم باشا؛ فعقد معه إتفاقا يلتزم السلطان بمقتضاه أن يرسل خير الدين إلى كل من نابولي وأفريقيا في القريب العاجل(5). وقد صادق السلطان على هذا الإتفاق، وأرسل ستمائة ألف دوكة إلى بربروسا، الذي إنطلق إلى إيطاليا في الغارة التي حاول فيها أسر الأميرة جوليا غونزاغا. وبعدها بمدة، فتح تونس. وكان ذلك نجاحا لفرنسا، إذ خرج الحوضان الأوسط والغربي من البحر المتوسط عن الهيمنة الإسبانية، وباتت خطوط شارل الخامس مهددة. وقد أدت تلك التطورات إلى تزايد القلق الأوربي من إحتمال تحول ذلك التحالف إلى خطر يهدد العالم المسيحي، لاسيما بعد وصول سفير

G. R. Potter (ed.); The New Cambridge Modern History, Vol. I: The Renaissance 1493-1520, Cambridge, 1967, p. 264.

(1) كلو، المصدر السابق، ص 167؛ ويتحدث ستانفورد شو عن وجود بعض الإشارات التي تدل على إن فرنسا شجعت خير الدين للدخول في خدمة السلطان، أملا في أن يؤدي ذلك الى صرف أنظار آل هابسبرك عن الغرب؛

Shaw, Op. Cit., p. 97; Ward, Op. Cit., 109.

(2) Ward, Op. Cit., p. 115.

(3) كلو، المصدر السابق، ص 168.

(4) Ward, Op. Cit., p. 109.

(5) Christine Isom-Verhaaren; "Barbarossa and His Army Who Came to Succor All of Us: Ottoman and French Views of Their Joint Campaign of 1543-1544", *French Historical Studies*, Vol. 30, No. 3, Summer 2007, p. 401.

فرانسوا الأول، جان دو لافوريه، في مايس 1535، بصفته أول سفير في العاصمة العثمانية[1].

كانت التوجيهات التي تلقاها لافوريه تقضي أن يتوجه إلى بربروسا لإبلاغه بالمخطط الفرنسي الرامي إلى مهاجمة جنوا برا، في حين يقوم بربروسا بمهاجمتها بحرا[2]. وكان فرانسوا يؤكد دوما إن إخضاع جنوا وكورسيكا يخدم مصالح السلطان، ولكنه، في الوقت نفسه، كان يؤكد على أهمية صرف أنظاره عن مهاجمة الدانوب، لأن من شأن ذلك دفع الأمراء الألمان للإلتفاف حول الإمبراطور شارل الخامس، وهو ما يخشاه. لذا، فقد كان التحالف هجوميا ـ دفاعيا، وهو أول تحالف بين دولة أوربية وبين السلطان العثماني. ثم كُلّف لافوريه بالتوجه إلى الباب العالي لترتيب تقارب مع العثمانيين.

غادر لافوريه في سنة 1535 متوجها إلى بربروسا في تونس، ثم عاد إلى إسطنبول في حزيران من السنة نفسها، في وقت كان فيه السلطان في حملة ببلاد فارس بعد عودته من حملة بغداد. في هذا الوقت إختار شارل الخامس أن يوجه ضربته إلى تونس ليثبت لأوربا إنه هو حاميها، وليس الملك الفرنسي المتحالف مع السلطان "الكافر". وفي هذا الوقت أيضا منحت الدولة العثمانية فرنسا إمتيازات تجارية وسياسية في ممتلكات الدولة العثمانية[3]. وبغض النظر عن وجود وثيقة الإمتيازات أو

(1) مثلت المرحلة الممتدة من 1533 الى 1535 نقطة تحول في الدبلوماسية الفرنسية ـ العثمانية في منطقة البحر المتوسط، تم التركيز خلالها على المصالح الاقتصادية والإهتمام بالشؤون البحرية، لاسيما بعد أن بدأت أساطيل القوتين حملاتها على السواحل الأوربية؛

Jansen, Op. Cit., p. 454; Shaw, Op. Cit., p. 97.

(2) في هذه الأثناء كان هناك مبعوث من بربروسا في فرنسا، منذ تموز 1533، يتفاوض بشأن الإتفاقية المزمعة؛

J. Ursu; La politique orientale de François Ier , Paris, 1908, pp. 85-91; in: Jansen, Op. Cit., p. 455.

(3) ثمة إشارة الى إن الملك الفرنسي كان قد شجع دو لافوريه الى إقتراح عقد إتفاقية مع السلطان العثماني بعد حملة شارل الخامس على تونس مباشرة؛

V. L. Bourrilly; "L'Ambassade de La Forest et de Marillac à Constantinople, 1535-1538", _Revue Historique_, 76, May-June 1901, pp. 297-328; Shaw, Op. Cit., p. 97; see also: Michelle Raccagni; "The French Economic Interests in the Ottoman Empire", _International Journal of Middle East Studies_, Vol. 11, No. 3, May, 1980, pp. 339-376.

عدمه ـ إذ يشكك بعض المؤرخين في ذلك[1] ـ فإن مما لا شك فيه إن هناك التزامات عسكرية تم الإتفاق عليها بين الطرفين، إذ تضمنت إحدى الخطط، كما رأينا، شن هجوم بري ـ بحري على إيطاليا. لكن ذلك الهجوم أخفق، بسبب تراجع الملك الفرنسي عن تنفيذ الجزء المحدد له بالخطة[2].

لاشك إن هذه المحاولة أثبتت لنا تضارب الأهداف والرؤى لدى الطرفين من عقد هذا التحالف: ففي الوقت الذي كان فيه السلطان سليمان يسعى إلى تشكيل جبهة موحدة عازلة بين الإمبراطور الإسباني والبابوية بعاصمتها روما، لعزل الأخيرة، ومن ثم توجيه ضربته إليها لتحقيق هدفه الأسمى بتوحيد شطري الإمبراطورية الرومانية، كان الملك الفرنسي مشتتا بين نوازعه الشخصية ومصلحة مملكته التي تفرض عليه التعاون مع السلطان العثماني ضد مناوئه شارل الخامس من جهة، وبين شعوره بتأنيب الضمير المتأتي من عقيدته المسيحية التي لا تحبّذ تعاونه مع المسلمين. ومما لاشك فيه أيضا إن تضارب الهواجس والإرهاصات في نفس الملك الفرنسي أدى إلى فتور مؤقت في العلاقات بين الطرفين[3]، تمكن السفير الفرنسي الجديد رينشون من تبديده، بل وإعادة العلاقات إلى أقوى مما كانت عليه، لدرجة إن السلطان سليمان دعا الملك الفرنسي لحضور مراسيم ختان أبنائه وزواج إبنته الأميرة مِحرمة من الصدر الأعظم رستم باشا. ثم تطورت العلاقة بين الطرفين بعد أن إكتشف فرانسوا الأول إن شارل الخامس كان يخدعه، وإنه دبّر مؤامرة لإغتيال السفير الفرنسي، أثارت غضب السلطان، وإستنكرتها أوربا كلها، بما فيها البابا[4].

وإستمرت العلاقات بين الطرفين بتعيين سفير جديد هو بولين دو لاغارد (Polin du La Garde)، في الوقت الذي كانت فيه قوات التحالف الصليبي بقيادة شارل الخامس تُمنى بهزيمة مُرّة في الجزائر سنة 1541، أصبح في إثرها السلطان في أوج مجده، وتم الإتفاق بينه وبين الملك الفرنسي على مهاجمة شارل الخامس بهجوم فرنسي ـ عثماني مشترك؛ إذ يقوم قسم من الإسطول الفرنسي بمهاجمة السواحل الإسبانية،

(1) Jansen, Op. Cit., 451-470.
(2) Isom-Verhaaren, Op. Cit., pp. 401-402.
(3) Isom-Verhaaren, Op. Cit., p. 401.
(4) كلو، المصدر السابق، ص 173.

ويقوم القسم الآخر من الإسطول بتعزيز إسطول السلطان في البحر المتوسط. وقد وجّه السلطان سليمان رسالة إلى فرانسوا الأول، جاء فيها:

"يا مفخرة ملوك ملّة عيسى: إعلم إنه بطلب من وزيرك بولان منحتُه إسطولي العتيد المجهز بكل ما يلزم وأوصيت خير الدين، القبودان باشا بالإصغاء إلى مقاصدك وبصرف عنايته للقضاء على أعدائك"[1].

وفور وصول تلك الرسالة، في بداية نيسان 1543، إجتاز إسطول عثماني مكوّن من ثلاثمائة سفينة، من مختلف الأحجام والأنواع، مضيق الدردنيل متوجها إلى إيطاليا، تمكن خلالها بربروسا من إخضاع سواحل كالابريا وسردينيا وكورسيكا ونابولي[2]. وهناك تزوج، وقد شارف على الثمانين من عمره، من فتاة إيطالية في الثامنة عشرة من عمرها، إعتنقت الإسلام على يديه، في حين عجّل الزواج من منيته[3].

ومن السواحل الإيطالية توجه بربروسا إلى مرسيليا، ومن هناك تقرر شنّ الحملة العثمانية ـ الفرنسية المشتركة على السواحل الإسبانية، وعلى ميناء نيس الفرنسي التابع للنفوذ الإسباني[4]. لكن الحملة باءت بالفشل بسبب ضعف إستعدادات الإسطول الفرنسي من جانب، وتراجع فرانسوا الأول، كعادته، من جانب آخر[5]. على هذا الأساس، إحتل خير الدين ميناء طولون في الخامس من آب 1543[6]، وأجبر السلطات المحلية الفرنسية على شن حملة أخرى نحو نيس بين العشرين من آب إلى الثامن من أيلول[7]. ولكن الهجوم فشل هذه المرة أيضا بسبب شحة البارود لدى الفرنسيين[8]،

---

(1) المصدر نفسه، ص 174.
(2) Isom-Verhaaren, Op. Cit., pp. 411-416; Ward, Op. Cit., p. 112.
(3) كلو، المصدر السابق، ص 174.
(4) Isom-Verhaaren, Op. Cit., pp. 411-416.
(5) يفسر المؤرخ ستانفورد شو الموقف الفرنسي بقوله:"إن الشكاوى بشأن التعاون مع العثمانيين أدت بفرانسوا الأول إلى التخلي عن وعوده بالتعاون ضد آل هابسبرك"؛
Shaw, Op. Cit., p. 103; Isom-Verhaaren, Op. Cit., p. 407.
(6) Ward, Op. Cit., p. 77; Lane-Poole & Kelly, pp. 107-109.
(7) Shaw, Op. Cit., p. 103; Quinn, Op. Cit., pp. 275-290.
(8) سرهنك، المصدر السابق، ص 546.

وتكبُد القوات المشتركة، نتيجة لذلك، خسائر بلغت ثلاثمائة قتيل والعديد من الجرحى[1]، مما أثار غضب خير الدين، ناهيك عن السلطان سليمان.

بعد خيبة أمله من الموقف الفرنسي، فضلا عن عقْد سلام كرسبي[2] (Peace of Crespy) بين فرنسا وآل هابسبرك في الثامن عشر من أيلول 1544، إضطر السلطان سليمان للتوقيع، هو الآخر، لعقد هدنة مع آل هابسبرك في العاشر من تشرين الثاني 1545، نصّت على الإبقاء على الوضع القائم، مع إعتراف الإمبراطور شارل الخامس بالفتوحات العثمانية الجديدة، وإمتناع كلا الطرفين عن الإغارة على أراضي بعضهما البعض. وقد تحولت هذه الهدنة إلى معاهدة سلام دائم في الثالث عشر من تموز 1547 بعد وفاة فرانسوا الأول، مع شروط جديدة وسّعت الإمتيازات التجارية لآل هابسبرك[3].

في تقويمنا للعلاقات العثمانية ـ الفرنسية خلال هذه المرحلة، يمكننا القول إن هناك وفاقا بين القوتين، لاسيما في الميدان البحري ـ العسكري، عندما بدأت الأساطيل الفرنسية والعثمانية ـ التابعة لخير الدين ـ بالتعاون ضد العدو الإسباني المشترك. وكانت أولى المغامرات المشتركة بين الطرفين غير موفقة بسبب سوء إدارة الملك الفرنسي. ولكن الإنتصار العثماني في بريفيزا سنة 1538 على أساطيل التحالف المقدس تم بوجود المساعدة الفرنسية، لتبدأ بعدها حقبة إستمرت ثلاثين سنة من الهيمنة العثمانية

---

(1) على الرغم من إخفاق الحملة العسكرية الفرنسية ـ العثمانية لسنة 1543-1544، فإن التعاون بين القوتين أثبت فائدته للطرفين، إذ زاد من مخاوف شارل الخامس.

Clarence Dana Rouillard; The Turk in French History, Thought and Literature (1520-1660), Paris, 1941, p. 120.

(2) معاهدة بين الملك فرانسوا الأول وشارل الخامس، عُقدت في الثامن عشر من أيلول 1544، أنهت حرب السنتين بين الطرفين، وأعادت الوحدة إلى أوربا. فقدت بموجبها فرنسا كلا من آرتوا والفلاندرز، وتخلت عن مطالبتها بنابولي. وأعيدت بيدمونت وسافوي الى حاكمها الشرعي، وأعلن شارل مطالبته ببرغنديا، وإستمرت ميلان بحوزته بصفته إمبراطورا للإمبراطورية الرومانية المقدسة؛

Chronology of More Recent Times: 1501AD-1600AD, (*); Daniel Heartz; "An Elizabethan Tutor for Guitar", *The Galpin Society Journal*", Vol. 16, May 1963, pp. 3-21; Lacey Baldwin Smith; "Henry VIII and the Protestant Triumph", *The American Historical Review*, Vol. 71, No. 4, July 1966, pp. 1247-1264.

(3) Shaw, Op. Cit., p. 103; Braudel, The Mediterranean…, pp. 904-905.

في البحر المتوسط، مع الإستمرار بشن الغارات شبه اليومية ضد السواحل الإسبانية والإيطالية[1].

بعد الإخفاق في نيس قرر خير الدين العودة إلى إسطنبول، حيث توفي بعد مدة وجيزة، في آب 1546[2]، وقد تجاوز الثمانين من عمره بقليل، ودُفن في بشكطاش، إحدى ضواحي إسطنبول. وبوفاته، أنهى حاجي خليفة حديثه عن خير الدين بعبارته الشهيرة: "مات ريّس البحر"[3]. ولكن خير الدين لم يمُت إلا بعد أن ترك وراءه رجالا لمعت إسماؤهم في ميادين البحر المتوسط خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، ليواصلوا المهمة التي ابتدأها بمدّ النفوذ العثماني في شمالي أفريقيا وحماية المسلمين من هجمات الأساطيل الأوربية.

(1) عن تقويم المؤرخين الغربيين لحملة 1543-1544:
Isom-Verhaaren, Op. Cit., pp. 422-423.

(2) هذا ما تتفق عليه معظم المصادر، أما أحمد توفيق المدني فيذكر إن وفاته كانت في شهر مايس 1547؛ المصدر السابق، ص 317.

(3) Khalife, Op. Cit., pp. 68-69.

الفصل الثالث

تأرجح الكفتين
(1565-1547)

أولا: الإسبان والعثمانيون يكثفون نشاطهم في البحر المتوسط

إتسمت المرحلة الممتدة خلال عشرين سنة، بين وفاة خير الدين بربروسا سنة 1546 حتى وفاة السلطان سليمان القانوني سنة 1566، بمتغيرات كبيرة في الساحتين العثمانية والدولية، إنعكست على نشاط العثمانيين في البحر المتوسط. كانت أولى التطورات في الساحة العثمانية، البحرية تحديدا، ظهور قادة بحريين أخذوا على عاتقهم مهمة مواصلة الحملات البحرية الكبرى التي بدأها خير الدين بربروسا، الذي واصل نشاطه بدأب حتى وفاته، تاركا مهمة توسيع النفوذ العثماني في البحر المتوسط إلى محميه طُرغُد[1]، الذي برز في جو ساد فيه الهدوء ساحة البحر المتوسط. وقبل حديثنا عن النشاط البحري للعثمانيين خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، سنتطرق بإختصار عن التطورات الدولية خلال المرحلة الممتدة من سنة 1545 حتى سنة 1550، وهي تقابل تقريبا تاريخ وفاة خير الدين بربروسا حتى ظهور طُرغُد باشا.

حدثت ثلاثة تطورات مهمة في الساحة الأوربية إنعكست على الوضع في البحر المتوسط: **الأول** عقدُ معاهدة سلام بين السلطان سليمان وملك هنغاريا فرديناند الأول في العاشر من تشرين الثاني سنة 1545، توصل فيها الطرفان إلى هدنة[2]، أصر فيها السلطان على فرض شروط مهينة، بضمنها دفع إتاوة للباب العالي. وكان لهذه الهدنة أثر في إبعاد الحرب عن البحر المتوسط، سواء في جانبيه الشرقي أو الغربي، ويبدو إنها جاءت نتيجة مصاعب مالية كانت تمر بها الدولة العثمانية. ولكننا لا يمكن أن نغفل أثر غياب خير الدين بربروسا أيضا. والتطور **الثاني** وفاة الملك الإنجليزي هنري الثامن[3] (1509–1547) في ليلة 27–28 شباط 1547. أما التطور **الثالث** فهو وفاة الملك الفرنسي فرانسوا الأول أيضا، في الحادي والثلاثين

---

(1) ُطرغُد هو إبن شخص يدعى ولي (Veli). ولد في إحدى القرى القريبة من سيرولوز (Seroloz)، في سنجق منتشة. في وقت مبكر من حياته ظهرت علامات الشجاعة لديه، وبرز في الرماية والمصارعة. بعد ذلك، عمل في الملاحة، التي اكتسب منها شهرة كبيرة، وأصبح قبطانا. عن حياة طُرغُد؛
Khalifa, Op.Cit., pp. 77-78; Currey, Op. Cit., pp. 234-248.

(2) Braudel, Op. Cit., Vol. II, p. 905.

(3) ملك إنجلترا (1509-1547)، ولد في الثامن والعشرين من حزيران 1491 في غرينوتش (Greenwich) بالقرب من لندن وتوفي في الثامن والعشرين من كانون الثاني سنة 1547 في لندن. ناضل من اجل النهضة والإصلاح الديني في إنكلترا؛
John Bowle; Henry VIII: A Study of Power in Action Little, Brown, 1964.

من آذار من السنة نفسها. وكان مجئ زعماء أوربيين جدد، بمستشارين جُدد، يعني تغيّرا في السياسة والأفكار. في هذه المدة الزمنية الفاصلة، كانت هناك مرحلة هدوء في البحر المتوسط.

جاء هذا الهدوء بعد سلسلة من الحروب المستمرة التي أبقت البحر المتوسط حِكرا للعالم المسيحي، كان خلالها العالم الإسلامي محددا ضمن نطاق تحركاته الداخلية. ولكن هذا النظام أخذ بالتقوّض والإنهيار. فما أن تم إخضاع بعض البوابات الحيوية . بسقوط رودس في الشرق سنة 1522، وتحرير الجزائر في الغرب سنة 1529 . حتى أضحى البحر مفتوحا للإسطول العثماني. وما أن تحالف العثمانيون مع قباطنة ساحل شمالي أفريقيا بقيادة بربروسا، حتى أحرزوا تفوقا على معظم قوى البحر المتوسط تقريبا. ثم أصبحت القوة البحرية العثمانية، لاسيما بعد الوفاق بين السلطان سليمان القانوني والملك فرانسوا الأول سنة 1535، تشكل مصدرَ خطرٍ على الجانب المسيحي من البحر المتوسط. وقد تجسد ذلك بإخفاق آخر هجمة مسيحية كبرى من هذا النوع، وهي حملة شارل الخامس ضد الجزائر، في سنة 1541، أمام المدينة.

ومما يثير الدهشة إن الدولة العثمانية لم تتابع نجاحاتها في الجانب البحري؛ إذ لم تكن هناك مصادمات بحرية كبرى خلال هذه الحقبة حتى سنة 1550. فهل كان السبب في ذلك غياب بربروسا، أو هل لأن العثمانيين كانوا مضطرين، خلال حروبهم مع بلاد فارس، لشن حرب صعبة على بُعد مئات الأميال من إسطنبول، على أراضٍ جبلية مهجورة، حيث يتعذر شن الحملات في فصل الشتاء، وحيث يتطلب الجيشُ قوافلَ من التجهيزات؟ لاشك إن الحرب مع بلاد فارس سنة 1545، التي تعقدت بسبب الصراع الأسري بين السلطان سليمان وإبنه المتمرد مصطفى، فضلا عمّا وصل إلى درجة حرب شاملة في البحر الأحمر والمحيط الهندي ضد البرتغاليين[1]، أسهمت كلها في تحويل الماكنة البحرية العثمانية الضخمة بعيدا عن ميدان البحر المتوسط. وهذا التحول السلبي لدى العثمانيين، كان مرحلة "جرّ نفسٍ" لمدن

(1) كان الحصار الثاني على ديو سنة 1546. للمزيد من التفاصيل عن الحروب العثمانية – البرتغالية في البحر الأحمر والمحيط الهندي:
Salih Özbaran; "The Ottoman Turks and the Portuguese in the Persian Gulf, 1534-1581", *Journal of Asian History*, 6, 1972, pp. 45-87.

البحر المتوسط، وأبرزها صقلية، التي إنتهزت الفرصة لتقوية تحصيناتها، وأنزلت مراكبها لتجوب البحر مجددا.

في ظل هذه الأحوال ظهرت شخصيات جديدة في تاريخ الصراع البحري العثماني مع آل هابسبرك، كان من أبرزها طُرغُد باشا الذي كان من الشخصيات التي برزت خلال هذه المرحلة، في هذه المنطقة. ومن حسن حظ السلطان سليمان القانوني إن النشاط البحري العثماني لم يتأثر بفقدان بربروسا كثيرا. وبدخوله في خدمة السلطان العثماني أصبح واحدا من أعظم مجاهدي الإسلام في شمالي أفريقيا، ليواصل بعدها العثمانيون فتوحاتهم، ونشاطاتهم ضد تهديدات الأساطيل الغربية هناك. وشخصية طُرغُد من الشخصيات البارزة في تاريخ شمالي أفريقيا التي مازالت تنتظر الكثير من الدراسة.

كان طُرغُد باشا من بين أشهر القادة البحريين الذين ظهروا في هذه المرحلة وأكثرهم نشاطا. وهو من أصل يوناني، وبلغ في هذه المرحلة (1550) الخمسين من عمره، وله سيرة حافلة بالمغامرات البحرية، بضمنها أربع سنوات في المراكب الجنوية، حيث كان يعمل ملاحا في بداية 1544، عندما تفاوض بربروسا شخصيا من اجل افتدائه من آسره أندريا دوريا[1]. وفي سنة 1550 إستقر في جزيرة جربة[2]، ومنها بدأ مغامراته وبدأ بتجنيد بحارته. وبسبب عدم تعاون السكان المحلين معه، أفاد من النزاع المحلي للإستيلاء على المهدية في الساحل التونسي في ربيع سنة 1550 [3]، من دون إراقة قطرة دم واحدة[4]، فأصبحت ملاذا لسفنه ومحطة إنطلاق نحو شن المزيد من الغارات على صقلية[5].

---

(1) Braudel, Op. Cit., p. 908; Lane-Poole & Kelly, pp. 110-112, 124;
ويذكر ستانلي لين ـ بول إن إفتداءه كان في سنة 1543 مقابل ثلاثة الآف كراون، أشغل بعدها منصب رئيس قوادس القباطنة في غربي البحر المتوسط.

(2) جزيرة صغيرة في شمالي أفريقيا، تقع عند خليج قابس جنوب الساحل التونسي، تبلغ مساحتها 514 كيلو مترا مربعا (أي نحو 319 ميلا مربعا).

(3) Braudel, Op. Cit., p. 908; Lane-Poole & Kelly, p. 133; Currey, Op. Cit., pp. 249-250.

(4) كلو؛ المصدر السابق، ص 200.

(5) Braudel, Op. Cit., p. 909.

إسترعت شجاعة طُرغُد إنتباه السلطان سليمان، فعينه آمرا للإسطول العثماني[1]. ومنذ ذلك الوقت فصاعدا بدأ يعمل تحت راية السلطان بصورة رسمية بصفته أميرالا أعلى[2]. وكان العدو الذي تحرك ضده سنة 1551، هو منظمة فرسان القديس يوحنا، التي طُردت من جزيرة رودس وإستقرت في مالطا. ومنذ البداية إنتزع طرابلس من الفرسان سنة 1551، ليصبح واليا رسميا عليها.

يمكن تقسيم نشاطات طُرغُد ابتداءً من سنة 1550 حتى وفاته سنة 1565 على ثلاث مراحل: شهدت الأولى، الممتدة من 1550 إلى 1551 فتح طرابلس الغرب؛ وشهدت الثانية، الممتدة من 1551 إلى 1560، إخضاع جزيرة جربة في تونس؛ بينما شهدت المرحلة الثالثة، الممتدة من سنة 1560 حتى سنة 1565، حملة حصار مالطا التي استشهد في إثرها طُرغُد. ومن خلال هذا التقسيم للأحداث يمكننا أن نلاحظ إن نشاطات طُرغُد كانت موجهة نحو تحقيق الهدف العثماني في السيطرة على المثلث المائي في الجزء الأوسط من البحر المتوسط: طرابلس . تونس . صقلية. فهل تمكن من تحقيق هذا الهدف أم لا؟

في البدء، أحدث إستيلاء طُرغُد على المهدية، على الرغم من أهميته الستراتيجية المتواضعة، رعبا شديدا في العالم المسيحي، كما أثار إستياء الفرسان في صقلية. إلا إن الذي أثارهم أكثر لم يكن مجرد أمن سواحل صقلية فحسب، وإنما تونس أيضا، مملكة الحفصيين المتداعية[3]، التي كانت تحكم جزئيا من حكام تونس، الذين كانت إسبانيا، بفضل وجود حاميتها في حلق الوادي، تحميهم، وإن دعت الضرورة، ترفسهم بأقدامها، على حد تعبير فرناند براودل[4].

---

(1) يعود الظهور الفعلي لطُرغُد في الإسطول العثماني منذ سنة 1538 حينما شارك مشاركة فاعلة في معركة بريفيزا مع خير الدين بربروسا؛ إيفانوف، المصدر السابق، ص ص 202-201.

(2) Kinross, Op. Cit., p. 246.

(3) الحفصيون: سلالة بربرية حكمت في تونس، وشرقي الجزائر و طرابلس مابين 1229-1574. ينتمي الحفصيون إلى قبيلة مصمودة البربرية، ومساكنها في جبال الأطلس. استمدت التسمية من أبي حفص عمر (1195-1174) أحد أجداد الأسرة؛ محمد العروسي المطوي؛ السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، تونس، 2006.

(4) Fernand Braudel; "Les Espagnolls et l' Afrique du Nord de 1492 à 1577", in: <u>*Revue Africaine*</u>, 1928, p. 35ff.

السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان: لماذا إستاء الغرب المسيحي من هذا التحرك العثماني؟ وما الخطر الذي يمكن أن تشكله المهدية على العالم الغربي، وعلى الصقليين تحديدا؟ يبدو إن الصقليين، الذين كانوا يرون في تونس منطقة غنية بمواردها، كانوا يخشون من أن يقوم العثمانيون بتحويلها إلى دولة أقوى وأكثر تنظيما. وقد سبق للإمبراطور شارل الخامس أن قام بحملة قادها بنفسه، في سنة 1535، لإنتزاع تونس من بربروسا، الذي كان قد وطّد نفسه هناك قبل سنة. لكن، هل سيبقى العالم الغربي ينتظر ما سيقوم به طُرغُد، الذي قد يتلقى يوما ما دعما من العثمانيين (مثلما فعلوا مع بربروسا)، وأن يستولي على تونس؟ لقد كانت تجربة الجزائر حاضرة في الأذهان، وربما تكون المهدية مجرد بداية لخطوة أخرى. على هذا الأساس، أرسل شارل الخامس، في الثاني عشر من نيسان 1550، رسالة إلى السلطان سليمان يحتج فيها على تحركات طُرغُد: "لقد نكث الريّس بالهدنة"[1].

وبسبب لهجة الإمبراطور الذليلة تجاه السلطان، قرر قادة القوى المسيحية، وهم كل من نائب الملك في صقلية ألفارو دي توليدو، وأندريا دوريا، وكوسيم دي ميديتشي، والبابا يوليوس الثالث (1550-1555) إنتزاع المهدية من طُرغُد، حتى من دون إستشارة شارل الخامس[2]؛ فجمعوا، لهذا الغرض، خمسين قادسا، لحصار المدينة، الذي ابتدأ في الثامن والعشرين من حزيران سنة 1550، وإستمر نحو ثلاثة أشهر[3]. وما أن حلّ العاشر من أيلول حتى تمكن الإسبان والإيطاليون وفرسان مالطا من إحتلال المهدية [4]، بفضل إستخدام آلة السَّمبوكا[5]. وخلال الحصار، أو قُبيله، كان طُرغُد قد غادر المهدية، فاعتقدوا انه لم يعُد يشكل خطرا. ولكن، بعدم أسره أو القضاء عليه، أصبح إنتصارهم غير ذي قيمة[6]، ليس هذا فحسب، وإنما

---

(1) ويقصد بها هدنة سنة 1547 بين السلطان سليمان القانوني والإمبراطور شارل الخامس.

(2) كلو، المصدر السابق، ص 200.

(3) يذكر فرناند براودل، في الصفحة 910، من كتابه المذكور آنفا، إن الحصار إستمر مدة ثلاثة أشهر، بينما يذكر أندريه كلو، في الصفحة 200، من كتابه نفسه أيضا، إن الحصار إستمر مدة شهرين.

(4) Braudel, The Mediterranean..., p. 910; Mantran, Op. Cit., p. 253; Lane-Poole & Kelly, p. 134.

(5) السَّمبوكا (Sambuca): آلة شبيهة بالجسر المتحرك الذي يُرفع ثم ترمى به أسوار الحصن المُراد اقتحامه.

(6) على الرغم من إن الإنتصار المسيحي في المهدية لم يحقق النتائج المرجوة منه بالقضاء على قوة طُرغُد المتصاعدة، إلا إن الصقليين كانوا حريصين على الإستيلاء على هذا الموقع لبضع سنين في الأقل، لإقامة إتصالات مع سكان المنطقة من البدو. وقد تم توقيع إتفاقية بهذا الخصوص بين حاكم المهدية الصقلي والشيخ سليمان بن سعيد، في التاسع عشر من آذار سنة 1551. وبما إن فرسان القديس يوحنا لم يكونوا راغبين بتحمل المسؤولية عن

تحولت مغادرته المفاجئة إلى وبال على العالم المسيحي فيما بعد. فأين كان طُرغُد في هذه الأثناء، ولأجل أي شئ كان يخطط؟

كان طُرغُد في هذه الأثناء قد إنسحب إلى جربة يدبّر خطة عسكرية أفاد منها الكثيرون قبله، ومنهم السلطان محمد الفاتح نفسه[1]. فلما علم إنه سيُهاجم من أحد مواقع الجزيرة، شاد على اليابسة طريقا من الأخشاب، ثم طلاها بالشحم، وجرَّ السفن عليها بوساطة لفائف إسطوانية من ميناء القنطرة حتى الطرف الآخر من الجزيرة[2]. وفي هذه الأثناء كانت قذائف المدفعية تُخطئ إصابة الإسطول المسيحي الذي كانت سفنه ترابط في الميناء لمنع عَمارة طُرغُد من الإفلات. ولم يفطن أندريا دوريا إلى هذه الخدعة إلا حينما رأى، بأم عينيه، طُرغُد يستولي على السفينة التي كانت آتية إليه بالمدد[3]. وهكذا إنتهى الحصار المسيحي من دون نتيجة[4]، مما أتاح المجال لطُرغُد للقيام بخطوة أخرى، إلى الشرق قليلا، لتحرير طرابلس الغرب.

مثل هذه الخطط والإتفاقات، فقد تم تفكيك الحصن الصغير وتجريده من وسائل الدفاع، كما تم تدمير استحكاماته بعد تمرد عنيف بين أفراد الحامية. وفي الرابع من حزيران سنة 1554، أُعيد جنود حملة الإحتلال إلى صقلية؛

E. Pélissier de Raynaud; Mémoires historiques et géographiques, Paris, 1844, p. 83; Charles Monchicourt, " Études Kairouanaises", Part I: "Kairouan sous le Chabbîa", in; *Revue Tunisienne*, 1932, pp. 1-19.

أما رواية الفونس روسّو التي ذكر فيها إن الجنود تم سحبهم إلى إسبانيا فهي غير صحيحة كما يذكر فرناند براودل؛

Alphonse Rousseau, Annales tunisiennes, Algiers, 1864, p. 25; cf: E. Pélissier de Raynaud, Op. Cit., p. 83; Charles Féraud, Annales Tripolitaines, Paris, 1927, p. 56; cf: Braudel, The Mediterranean..., p. 910.

(1) للتفاصيل عن هذه العملية:
Currey, Op. Cit., p. 263.

(2) Lane-Poole & Kelly, p. 135.

(3) وردت هذه الرواية في كتاب أندريه كلو، الآنف الذكر، في الصفحة نفسها، على نحو مقتضب. لكن فرناند براودل يقدم تفاصيل أكثر مستقاة من الوثائق المعاصرة. للتفاصيل:
Braudel, Op. Cit., pp. 909-910.

(4) Lane-Poole & Kelly, pp. 135-136.

ثانيا: الفتح العثماني لطرابلس الغرب 1551 ونتائجه إقليميا ودوليا.

جاءت الأهمية الخاصة لطرابلس الغرب خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر تحديدا من موقع مينائها المتميز الذي لا يضاهيه ميناء آخر على إمتداد سواحل البحر المتوسط بين جربة والإسكندرية، لسهولة الوصول إليه وسعته للإيواء وقدرته في الدفاع ضد الهجمات البرية والبحرية على حد سواء. وقد أسهم فرسان القديس يوحنا الذين إحتلوا المدينة بين سنتي 1530–1551 في إنشاء الكثير من الحصون والمباني في هذا الميناء[1]. وخلال مرحلة الصراع العنيف بين العالمين الإسلامي والمسيحي إحتل موقع طرابلس، ذو الخطوط الملاحية السهلة في منتصف البحر المتوسط، قيمة إضافية تضاف للأهمية الستراتيجية المرتبطة بالمناطق الداخلية ذات الأهمية التجارية الحيوية، مما ضاعف أهمية الميناء لاسيما في وقت شهدت طرق الإتصالات التجارية العثمانية في الشرق فتورا في تلك المرحلة[2].

على هذا الأساس، كانت المهمة الثانية التي واجهت طُرغُد هي التخلص من وجود فرسان القديس يوحنا في طرابلس الذين كانوا يعيقون طرق التجارة العثمانية ويقفون حاجزا أمام التوسع البحري العثماني نحو الأجزاء الغربية من البحر المتوسط، فضلا عن تهديدهم للمكتسبات التي حققها العثمانيون في شمالي أفريقيا. ولكن، قبل أن نتحدث عن نشاطه ودوره في فتح طرابلس، لابد من تقديم لمحة بسيطة عن طرابلس خلال الحكم الإسباني (1510–1530)، ومن ثم حكم فرسان القديس يوحنا (1551–1530)[3]، حينما جاء طُرغُد لإنتزاعها منهم وإعادتها إلى المنظومة العثمانية.

في الخامس والعشرين من تموز 1510 إحتل الإسبان طرابلس بقيادة بيدرو دو نافارو (Don Pedro de Navaro)، وعزموا على إستصلاح البلاد وإسكانها[4]، ثم إنتقلت طرابلس

---

(1) K. S. Mc Lachlan; "Tripoli and Tripolitania: Conflict and Cohension during the Period of the Barbary Corsairs (1551-1850)", *Transactions of the Institute of British Geographers*, New Series, Vol. 3, No. 3, Settlement and Conflict in the Mediterranean Ward, 1978, p. 286.

(2) Ibid.

(3) للمزيد من التفاصيل عن هذه الحقبة: سمير عبد الرسول عبد الله ألعبيدي؛ طرابلس الغرب أثناء إحتلال الإسبان وفرسان القديس يوحنا (1551-1510)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، 2003، ص ص 31-123؛
Currey, Op. Cit., pp. 279-296.

(4) عن هذه التطورات:

والمناطق الساحلية القريبة منها إداريا إلى سلطة نائب الملك الإسباني في صقلية[1]. وعندما فتح العثمانيون مصر وإنهار النفوذ المملوكي فيها، تصاعدت هيبة السلطان العثماني، فإلتحقت برقة[2]، في السنة نفسها، وغيرها من المدن التابعة للمماليك بسلطة الباب العالي وأصبحت تحت حمايته، لكن ليبيا لم تنضم إلى السلطنة العثمانية رسميا. وفي سنة 1520، وصل وفد يمثل سكان تاجوراء[3] إلى إسطنبول، ملتمسا مساعدة عسكرية من السلطان سليم الأول، إستجاب لها بكل سرور[4]، فأرسل إلى طرابلس أسلحة وفصيلا من المتطوعين العثمانيين، وعيّن عنه ممثلا في تاجوراء، ما لبث أن اعترف به السكان المحليون[5].

كانت خطة السلطان سليمان في بسط سيطرته على شمالي أفريقيا جزءا من مشروع ضخم يتضمن تحقيق هيمنة كاملة على الأجزاء الشرقية من أوربا والبحر المتوسط. وبفتحه بلغراد في آب 1521، كان قد حقق الجانب البري من المشروع، ولم يبق عليه سوى تحقيق السيطرة على الجزء الشرقي من البحر المتوسط، بعد أن أمّن له والده، السلطان سليم الأول، الجبهتين السورية والمصرية. لكن فرسان القديس يوحنا كانوا عقبة في طريقه، وكان هدفهم الرئيس عدم السماح له بتحقيق تفوق بحري في المنطقة يتمكن بمقتضاه من إقصائهم. لكن مصير الفرسان كان قد تقرر؛ إذ أمر السلطان بمهاجمة رودس[6]، وتمكنت قواته من طرد فرسان القديس يوحنا من جزيرة رودس في كانون الأول 1522[7]، ففقدوا بذلك آخر قاعدة لهم

Bruce Allen Watson; Sieges: A Comparative Study, Westport, 1993, pp. 35-36.

(1) ويُذكر إنه طلب، في تشرين الأول 1511، من أتباعه في باليرمو وغيرها من المدن قبول دعوته للإنتقال إلى أفريقيا والإقامة فيها، مع وعد بحصولهم على أراض ومساكن جيدة وإعفاء كامل من الضرائب. وقد أُعفي التجار الإسبان من دفع الرسوم الجمركية، في حين أُرغم غيرهم على دفع الرسم بنسبة 50% من قيمة البضاعة.

(2) برقة: إسم يطلق على شرقي ليبيا وعاصمتها بنغازي.

(3) تاجوراء: كانت قرية ريفية تقع على مسافة 12 كم (7,44 ميل) إلى الشرق من طرابلس، وتعد الآن من أهم مدن الساحل الليبي وأجمل مناطقه السياحية، ويُعرف سكانها المحليون بأنهم أولاد البلاد الأصليون. "تاجوراء"، موسوعة ويكيبيديا الحرة (*).

(4) أتوري روسي؛ ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، تعريب وتقديم: خليفة محمد التليسي، بيروت، 1974، ص 131؛ إيفانوف، المصدر السابق، 217.

(5) ن، بروشين؛ ليبيا تحت حكم الإسبان والأخوية المالطية 1510-1551، موسكو، 1977؛ إيفانوف، المصدر السابق، ص 217.

(6) Marcello Maria Marrocco Trischitta; The Knights of Malta: A Legend Toward the Future, Italy, p. 3. (*).

(7) Ibid., p. 3.

في الشرق، وهرب من تبقى منهم إلى مسينا[1] بإيطاليا، وبقوا فيها من دون عمل، وأصبح مصير الجماعة نفسها موضع شك[2]. وخلال المرحلة الممتدة من تشرين الأول سنة 1523، حتى الرابع والعشرين من آذار 1530، جرت مفاوضات مكثفة تلبية لطلب البابا أدريان الرابع (Adrian VI)[3]، توّجت بمنح الإمبراطور شارل الخامس حقوق الملكية الإقطاعية في كل من مالطا وأوغوستا وطرابلس إلى فرسان القديس يوحنا[4]، مع القصور والقلاع والأراضي التابعة لها[5]. وهكذا شكل فرسان القديس يوحنا (الذين أصبحوا يُعرفون بإسم فرسان مالطا) قوة ضاربة. ومنذ ذلك الحين لم تحصل أية حملة عسكرية كبيرة في غربي البحر المتوسط من دون مشاركتهم. وخلال السنوات الممتدة بين 1535–1540، كان الفرسان ينزلون جنودهم مرارا على شواطئ تونس. وفي سنة 1541 أسهموا في حملة شارل الخامس ضد مدينة

(1) هذا ما ذكره إيفانوف من كتابه المذكور آنفا، ص 219؛ ولكن مارسيلو ماريا يذكر إن من بين الخيارات المتاحة التي كانت أمامهم: ميناء سود (Sued) الواقع على الساحل الشمالي من كريت، أو سيريجو (Cerigo)، وهي أقصى الجزر جنوبا من بين الجزر الأيونية. وهذا المشروع واجه معارضة شديدة من البندقية التي كانت تخشى من قربهم منها بسبب علاقاتها التجارية والسياسية الحسّاسة مع الدولة العثمانية. وثمة بضعة مواقع أخرى أخذت بعين الإعتبار، منها: ألبا، ومينورقا، وايبيزا، وأسجيا، وأخيرا مالطا. وكانت مالطا أفضل حل تم الإستقرار عليه، بسبب عائديتها للتاج الإسباني، ولأن شارل الخامس كانت لديه السلطة لتقديم مثل هذا التنازل؛

Ibid., p. 6.

(2) لتوضيح تحركات فرسان القديس يوحنا خلال مرحلة التيه (1530-1522): الملاحق، (خارطة رقم 14).

(3) أدريان الرابع: ولد في الثاني من آذار 1459 في اوترخت، وتوفي في الرابع عشر من أيلول سنة 1523 في روما. وهو البابا الهولندي الوحيد. إنتُخب بابا سنة 1522، وهو آخر بابا غير إيطالي حتى انتخاب يوحنا بولس الثاني سنة 1978.

(Adrian IV), *EB*;

ويُذكر إن موافقة شارل الخامس جاءت إستجابة لطلب البابا الذي كان موشكا على الوفاة؛

Trischitta, Op. Cit., p. 6.

(4) Victor Mallia Milanes; Charles V's Donation of Malta to the Order of St. John, (*);Watson, Op. Cit., p. 36.

(5) كانت طرابلس، في ذلك الحين، مستوطنة محلية صغيرة، محاطة بسور داخلي، محصنة من بعض ألاماكن بأبراج، لكنها مبنية أساسا على ارض مسندة. ومقابل الميناء كان هناك حصن قديم الطراز له أبراج من زواياه الأربع وجدران مبنية من الصخر جزئيا، وغالبا من الطين. وداخل الموقع كان هناك ثلاثون فارسا (من فرسان مالطا) و 630 من المرتزقة، اغلبهم من الصقليين؛

Braudel., p. 920.

الجزائر، كما كانت سفنهم تجوب مياه البحر المتوسط على نحو مستمر. وهاجموا شواطئ شمالي أفريقيا، بل ووصلوا إلى الجهات الشرقية من البحر المتوسط[1].

من جهة أخرى، لجأ فرسان مالطا إلى الأساليب الدبلوماسية في تحقيق آمالهم. وفي سبيل تحقيق ذلك، علقوا آمالهم على السلطان الحفصي مولاي حسن، فأقاموا معه علاقات ودية وتحالفات سياسية[2]. غير إن مولاي حسن هُزم في الصراع على السلطة في ليبيا في بداية 1531 عندما قمع خير الدين بربروسا إنتفاضة أنصار مولاي حسن في تاجوراء[3]. ثم إستولى خير الدين قرمان[4] في أوائل سنة 1533 على تلك المدينة التي إستسلمت، في كانون الأول 1532، للقوات الحفصية بعد حصار طويل[5]. وإكتملت هزيمة الحفصيين بإستيلاء خير الدين بربروسا على تونس سنة 1534، إذ وضع حدا نهائيا للدسائس الحفصية في ليبيا. وفيما تبقى من ثلاثينيات القرن وأربعينياته بقي وضع الفرسان بالغ الصعوبة، لاسيما بعد إنتصار العثمانيين في بريفيزا سنة 1538 وإستعادتهم الجزائر سنة 1541، وتسيّد الإسطول العثماني على البحر المتوسط من دون منازع.

سببت تلك التطورات قلقا شديدا لدى قادة الفرسان، وبدأوا يفكرون بالتخطيط لوضع حل لذلك. وفي الثامن عشر من تشرين الثاني 1540 قدم نائب الملك في صقلية مشروعا عرضه على الإمبراطور شارل الخامس، يقضي بشن حملة جديدة على كل من جربة وتاجوراء للقضاء على والي طرابلس العثماني مراد آغا، الذي كان قد تسلم مسؤولية قيادة الحرب ضد الفرسان منذ 1538 بعد مقتل خير الدين قرمان. ولكن شارل الخامس كان قد فقد حماسته بعد هزيمته في الجزائر سنة 1541، وترسخت القناعة لدى الأوساط السياسية الحاكمة بعدم جدوى المزيد من الحروب في شمالي أفريقيا. على هذا الأساس، لم تكن قوات الفرسان في وضع يؤهلها لمواجهة التحديات الجديدة، فأجرت حساباتها على أساس إن تحصينات طرابلس القديمة، وحاميتها القليلة العدد، لم تكن في وضع يسمح لها بمواجهة هجوم مشترك يشنه

(1) Tahir Guiga; Dorgouth Raīs, Le magnifique seigneur de la mere, Tunis, 1974, p. 62.

(2) Ibid.,

(3) إحدى المدن الليبية الساحلية.

(4) لم أعثر له على تعريف، لكننا نعرف إنه عمل على إستعادة طرابلس من فرسان مالطا بالتعاون مع خير الدين بربروسا؛ الجبوري، المصدر السابق، ص ص 183-185.

(5) روسي، المصدر السابق، ص 130؛ إيفانوف، المصدر السابق، ص 220؛ للتفاصيل: الجبوري، المصدر السابق، ص 183.

الإسطول العثماني وقوات مراد آغا. فضلا عن ذلك، طلب الأستاذ الأعظم للفرسان[1]، في السابع من كانون الثاني 1547، مساعدة البابا بولس الثالث، بقوة تتروح بين أربعة آلاف إلى خمسة آلاف جندي، مؤكدا انه لا يستطيع قهر مراد آغا من دون مساعدتهم. وخلال المدة 1546–1549، شن الفرسان بضع حملات حاولوا من خلالها تدمير حصون المسلمين القريبة من طرابلس، ثم بدأوا بتكثيف نشاطهم لنقل عاصمتهم إلى طرابلس[2].

ردا على ذلك، كثّف والي طرابلس مراد آغا إتصالاته بطُرغُد باشا، وقررا الإسراع قدر الإمكان في تثبيت مواقعهما على شواطئ خليج سرت[3]، وتأمين حماية مشتركة لشواطئ تونس وليبيا. وفي سنة 1549، وضع مراد آغا، تحت تصرف طُرغُد باشا، فصيلا من الرماة بلغ تعداده ألف رجل من الذين شاركوا بفتح المهدية. بيد إن قائد الفرسان دون جوان دي فيغا تمكن في السنة اللاحقة من الإستيلاء عليها مجددا، فتوجه مراد آغا وطُرغُد باشا إلى الباب العالي بنداء لطلب المساعدة العسكرية[4].

خلال هذه المرحلة، أدت الدبلوماسية الأوربية دورا مهما في الحملة العثمانية على طرابلس؛ إذ كان لفرنسا، بسبب عداوتها المعروفة لإسبانيا، التي كانت تدعم فرسان مالطا، دور رئيس في الهجوم العثماني المزمع على طرابلس. وكان الملك الفرنسي فرانسوا الأول قد حثّ العثمانيين مسبقا على خرق هدنتهم مع شارل الخامس قبل إنقضاء أجلها. وشجع ذلك السلطان سليمان على إطلاق التهديدات ضد شارل الخامس "بإرسال إسطول سيكون من القوة والعظمة بحيث يمكنه إزاحة جلالتك من الساحل البربري، ومن صقلية، ونابولي، وكل المدن التي إنتزعتها من الفرنسيين". كما ذكر أحد سفراء شارل الخامس:

" كان هناك حديث للتو عن الإنتصار الذي حققه جلالتكم هذه السنة في المهدية. إن آخر المعلومات هي إن السلطان

(1) جوان دي هوميديس كوسكين Juan de Homedes y Coscen (1536-1553).

(2) إيفانوف، المصدر السابق، 224.

(3) سرت مدينة ليبية تطل على البحر المتوسط، تقع في منتصف الساحل الليبي بين طرابلس وبنغازي على خط عرض 16:35:18 غربا، وتبعد عن العاصمة طرابلس 450 كم (نحو 281 ميلا) شرقا، وتجمع في طقسها بين الإعتدال البحري والمناخ الصحراوي؛ "سرت"، موسوعة ويكيبيديا الحرة (*).

(4) Guiga, Op. Cit., p. 96.

[التركي] سوف يخرق الهدنة بذريعة بناء التحصينات في هنغاريا، خلافا لبنود الإتفاقات السابقة"[1].

في السنة اللاحقة، 1551، قدم سيمون رينارد (Simon Rynard)، السفير الفرنسي لدى إسبانيا، المزيد من التفاصيل بشأن علم فرسان القديس مالطا بوصول المراكب والسفن العثمانية من مرسيليا. بعد ذلك، تزايدت إشارات الخطر: لقد عاد السفير الفرنسي من إسطنبول في الثاني عشر من نيسان، وهي إشارة مؤكدة إلى إن شيئا ما سيحدث. وأخيرا، وقعت الحرب؛ ففي الخامس عشر من تموز كان الإسطول العثماني قد وصل إلى نابولي، ومنه إلى خليج سرت. وهكذا وجّه العثمانيون الضربة الأولى. فهل يفسر لنا ذلك أهداف طُرغُد في مهاجمة طرابلس؟ يجيب فرناند براودل على ذلك بقوله:

" كيف يمكن لهم [ويقصد العثمانيين]، أن يتركوا المسيحيين بأمان في الساحل الأفريقي، من طرابلس، التي هي الآن تحت سيطرة فرسان مالطا، إلى المهدية وحلق الوادي، على إمتداد ذلك الخط الحيوي الذي يمكن أن يمزق خطوط إتصالاتهم مع الغرب، أو يعيقها على نحو جدي؟"[2].

لكن طُرغُد لم يكن قويا بما يكفي للصمود أمام إسطول أندريا دوريا، وإنما كان قادرا فقط على سحبه نحو جربة في نيسان 1551، بخدعة حربية بشق قناة عبر المناطق المالحة في الجزء الجنوبي من الجزيرة[3]، أي إنه كان في خطر من أن يُطرد من شمالي أفريقيا برمتها. فضلا عن ذلك، قيل إن فرسان مالطا كانوا يفكرون بالتخلي عن جزيرتهم الصخرية الخصيبة، لينقلوا قاعدتهم إلى المهدية أو طرابلس. فهل سيمنحهم العثمانيون الوقت الكافي لتشييد حصن جديد منيع عند بوابة ساحل أفريقيا الشمالي، حيث يمكنهم التحكم بالمياه الغربية، على غرار ما فعلوا في رودس شرقي البحر المتوسط؟

كانت الأحداث تجري بخطىً وئيدة، كان خلالها العثمانيون ينتظرون ذريعة مناسبة لشن هجومهم. وجاءت تلك الذريعة عندما بنى الإمبراطور شارل الخامس التحصينات على حدود

---

(1) Braudel, The Mediterranean…, p. 918.

(2) Ibid.

(3) C. Monchicoury, "Épisodes de La carrièrt tunisienne de Dragut"; in: <u>Revue Tunisienne</u>, 1917, pp. 317-324.

هنغاريا[1]، كما قام بمهاجمة حليف السلطان، طُرغُد، في أوائل سنة 1551. وفي شباط من السنة نفسها وصل مبعوث من السلطان[2] لمقابلة الإمبراطور شارل الخامس: "على الأخير أن يزيل حصن زوينوك[3] (Zoenok)، وأن يعيد تسليم المهدية، وإلا فهي الحرب"[4]. وتزامن ذلك مع حركة للإسطول، ويبدو إن طرابلس كانت هي الهدف. وفي الوقت نفسه، قدّم القبطان يوسف سنان باشا[5]، الذي كان قد وصل للتو إلى مسينا، طلبا آخر لإستعادة المهدية، في رسالة إلى نائب الملك في صقلية[6].

كان لتلك التطورات أثر سيئ في نفس شارل الخامس؛ فلم يكن يعلم ماذا سيفعل الإسطول العثماني لاحقا: هل سيبحر إلى مالطا، أم إلى المهدية، أم إلى طرابلس؟ أو هل سيبحر غربا للالتحاق بالقوادس الفرنسية؟ وماذا سيفعل الفرنسيون حينذاك؟ لقد كان شارل الخامس في حيرة من أمره.

توافقت التحركات الدبلوماسية والسياسية في أوربا مع نداء طلب المساعدة الذي سبق أن قدمه طُرغُد باشا للحكومة العثمانية، التي إستجابت للطلب؛ إذ عدّ السلطان سليمان الإستيلاء على المهدية إنتهاكا لمعاهدة الهدنة، وقرر إستئناف العمليات العسكرية. وتمت الاستعدادات بسرية تامة، وإنتهت قبيل صيف 1551، عندما خرج إسطول عثماني تعداده مائة وأربعون سفينة من مختلف الأحجام والأنواع إلى عرض البحر بقيادة يوسف سنان باشا، آمر الإسطول العثماني[7]، ثم إنضمت إليه عَمارات فرقتي بحر إيجة وبحر الأدرياتيك. ومن أجل تضليل العدو، قاما بمناورة لتحويل الإنتباه عن حقيقة نياتهما؛ ففي الثامن عشر من تموز أنزلا

---

(1) Zinkeisen, J. W.; Geschichte des osmanischen Reiches in Europa, Gotha, 1840-1863, Vol. II, p. 869; in: Braudel, The Mediterranean..., p. 919.

(2) وهو شخص من راغوسا كان قد سافر برا من إسطنبول إلى اوغسبرغ.

(3) لم اعثر لهذا الموقع على تعريف.

(4) Giacomo Bosio; I cavalieri gerosolimitani a Ttipoli negli anni 1530-31, ed. S. aurigemma, 1917, p. 317-324; in: Braudel, Op. Cit.

(5) قائد عسكري عثماني ورجل دولة من اصل الباني من مدينة فلورا. توفي في الثالث من نيسان سنة 1596.

(6) Braudel, The Mediterranean...Vol. II, p. 919.

(7) Lane-Poole & Kelly, p. 137.

جنودهما في جزيرة أوغوستا، وأسرا خمسة آلاف شخص، ثم إستدارت سفنهما نحو الجنوب، وإتجهت بأقصى سرعتها نحو خليج سرت[1] في الساحل الليبي.

ظهر الإسطول العثماني قبالة مدينة طرابلس، وهي الهدف الرئيس للحملة، في الخامس من آب 1551. وبغية عدم إضاعة الوقت، قام العثمانيون بإنزال قواتهم، البالغة عشرة آلاف مقاتل، بما فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة إنكشاري، مع عدد كبير من المدفعية ومعدات الحصار[2]، ثم إنضموا إلى قوات مراد آغا في تاجوراء وزوّارة[3]. وعند إقترابهم من المدينة باشر العثمانيون والليبيون بإتخاذ الإستعدادات للإنقضاض على حامية طرابلس التي كانت تضم ثلاثمائة فارس مالطي، ونحو ستمائة مرتزق إيطالي، ومائة جندي عربي كانوا في الخدمة العسكرية لدى الفرسان[4].

باشر العثمانيون قصف طرابلس في الثامن من آب 1551[5]. وفي البدء أخذت مدفعية القلعة ترد بقصف مماثل. لكنها ما لبثت أن تعطلت بعد مدة قصيرة، ودمرت الأسوار. ومما زاد الأمر سوءا إن مستودعات البارود تفجرت. والأهم من ذلك كله إن المرتزقة الطليان رفضوا القتال وطالبوا القوات العثمانية بأخذهم رهائن[6]. وفي نهاية المطاف أثاروا تمردا حقيقيا وأجبروا قادتهم على الإستسلام[7]، بعد مفاوضات إصر فيها العثمانيون على أن تُترك لهم حصون المدينة سليمة، مقابل الإبقاء على حياة الفرسان والمحافظة على حريتهم[8]. وفي الرابع عشر من آب 1551 إستسلمت المدينة[9]، ثم أُجلي عنها من بقي من الفرسان على قيد

---

(1) شكل خليج سرت، الذي كان يعرف سابقا بإسم خليج السدرة، جزءا من الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط، ويمتد بطول 800 كم (496 ميلا) من مدينة بنغازي شرقا حتى مدينة مصراتة. وتقع على شاطئه معظم موانئ تصدير النفط الليبي حاليا، ومن أقدمها ميناء السدرة التي يسمى بها الخليج أحيانا. "خليج سرت"، موسوعة ويكيبيديا الحرة (*).

(2) Guiga, Op. Cit., p. 96.

(3) زوارة: مدينة ليبية تقع على شاطئ البحر المتوسط، تبعد عن العاصمة طرابلس نحو 100 كم (69 ميلا) غربا، و 60 كم (38،4 ميلا) عن حدود تونس. وهي مدينة ذات أصول أمازيغية مازال سكانها يتحدثون الأمازيغية ويسمون مدينة زوارة بإسم تامورت، وهم من السكان الأصليين في ليبيا؛ "زوارة"، موسوعة ويكيبيديا الحرة (*).

(4) إيفانوف، المصدر السابق، ص 225.

(5) Meterier Ernest; Histoire de I' Afrique septenrionale (Berbérie), T. III, Paris, 1891, p. 73.

(6) إيفانوف، المصدر السابق، ص 225.

(7) Braudel., The Mediterranean..., p. 920.

(8) Ibid.

(9) إيفانوف، المصدر السابق، ص 225.

الحياة. أما الإيطاليون فقد تم إرسالهم إلى إسطنبول مع بعض أهالي المدينة، بينما تم تقطيع الجنود العرب إربا إربا، بوصفهم خونة. وهكذا سيطر العثمانيون على موقع ذي أهمية عسكرية كبيرة، وحلقة وصل بين دويلات شمالي أفريقيا. وتمت هذه العملية كلها خلال أسبوع واحد[1]. وهكذا عادت طرابلس الغرب إلى أيدي المسلمين بعد إحدى وأربعين سنة من الإحتلال.

على الرغم من محدودية المساحة الجغرافية التي تمت بها عملية فتح طرابلس الغرب، والمدة الزمنية القصيرة التي أُنجزت بها، إلا إن الأبعاد السياسية والستراتيجية لهذا الفتح تجاوزت الإطار الجغرافي والزمني الذي تمت به الحملة، لتشمل مناطق متعددة من أوربا، ولتمتد على حقبة زمنية إستمرت سنوات. ولاشك إن الإرتباط الوثيق بين فرسان مالطا والإمبراطور الكاثوليكي شارل الخامس قد إنعكس على الواقع السياسي في أوربا، التي كانت تشهد نزاعات حادة بسبب قضايا حدودية ومذهبية. من جانب آخر، إمتدت نتائج هذا الفتح إلى شواطئ البحر المتوسط وشمالي أفريقيا. ومن هنا، فإن هذه الحملة هي واحدة من الأمثلة التي توضح لنا اثر الحملات البحرية العثمانية في شبكة المصالح الدولية، التي لم تكن الحملات البحرية بمعزل عنها، بل كانت جزءا لا يتجزأ منها. وعموما، يمكن تقسيم نتائج الحملة على طرابلس على قسمين: نتائج مباشرة، ونتائج غير مباشرة.

بخصوص **النتائج المباشرة**، هناك نتيجتان مهمتان: **الأولى**، إن العثمانيين تمكنوا، بعد السيطرة على طرابلس، من الحصول على موقع ذي أهمية عسكرية، وحلقة وصل بين دويلات شمالي أفريقيا. كما إستعاد ميناء طرابلس، ذو الأهمية الحيوية لتجارة الذهب القادمة من الداخل الأفريقي، أهميته السابقة، بعد أن تحولت تجارة الصحراء، خلال الحكم المسيحي إلى تاجوراء، القريبة من طرابلس[2]. أما النتيجة المباشرة **الثانية**: فقد تم تعيين مراد آغا على رأس

---

(1) ايفانوف، المصدر السابق، ص 225؛ وعن تاريخ ليبيا خلال الحكم العثماني:
Rifaat Abou-El-Haj; "An Agenda for Research in History: The History of Libya between the Sixteenth and Nineteenth Centuries", *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 15, No. 3, August 1983, pp. 305-319;
وبعد إتمام السيطرة العثمانية على طرابلس الغرب، وقبل مغادرة سنان باشا، عُهد بولايتها إلى مراد آغا، على الرغم من إنه كان قد وعد طُرغُد ريّس بهذه الولاية. وفي السنة نفسها صدر فرمان من السلطان سليمان بتعيين مراد آغا واليا على طرابلس، فكان أول والٍ عثماني عليها؛ الشناوي، المصدر السابق، ص 929؛ الجبوري، المصدر السابق، ص 198.

(2) عن تفاصيل شبكة المصالح العثمانية في طرابلس الغرب وأهميتها للعثمانيين:

باشوية طرابلس في سنة 1551، بعد أن كان يحكم من تاجوراء. وخلال الإحتفالات الرسمية، أقسم مراد آغا على القرآن أن يتولى إدارة شؤون البلاد بإسم السلطان، وأن يحترم القوانين العثمانية ويطبقها[1].

أما بخصوص **النتائج غير المباشرة** للفتح العثماني لطرابلس الغرب، فهناك مجموعة نتائج يمكن تقسيمها على قسمين: يرتبط الأول بأثرها في الوضع السياسي في أوربا، في حين يرتبط الثاني بأثرها في البحر المتوسط وشمالي أفريقيا، وكما يأتي:

أولا: نتائجها على الوضع السياسي في أوربا:

- **الجبهة الفرنسية:**

بعد هزيمة فرسان مالطا، وتصدع هيبة الإمبراطور شارل الخامس، بدأت بوادر حرب شاملة تلوح في سماء القارة الأوربية، التي كانت تعاني أصلا من توترات سياسية. وكانت فرنسا من أهم المستفيدين من الإنتصار العثماني في طرابلس، وبدأت تشكل خطرا على العالم المسيحي الغربي؛ وكان لذلك آثار عكسية. فبسبب إستمرار الإستفزازات الفرنسية، إستولى الأباطرة المسيحيون (ملوك إسبانيا، وإنجلترا، وألمانيا)، إحترازا، في شهر آب 1551، على المراكب الفرنسية في الأراضي المنخفضة[2]، مما حدا بالفرنسيين إلى توجيه جهودهم جنوبا، نحو المرافئ الإيطالية، بعد تلقي أوامر بالإنضمام إلى الأرمادا العثمانية. وقد شكلت هذه التهديدات ضغطا مضافا على الإمبراطور شارل الخامس، الذي كان يعاني أصلا من مصاعب جدية وخطيرة، في الوقت الذي كان مهددا فيه من كل جانب.

النتيجة المهمة الثانية بهذا السياق هي تعزز موقف فرنسا في العالم المسيحي البروتستانتي؛ إذ أصبح بمقدورها مساندة البروتستانت في إنجلترا، وزرع بذور الإنشقاق في

B. G. Martin; "Mai Idris of Bornu and the Ottoman Turks, 1576-78", *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 3, No. 4, Oct., 1972, pp. 470-490.

(1) إيفانوف، المصدر السابق، ص، 225.

(2) وقد أعلن الرسول البابوي إن الحرب قادمة، وتم تجنيد الجنود من غاسكوني (Gascony)، وثلاثين ألف رجل وسبعة الآف حصان لدوق غيس (Duke of Guise)، للتوجه نحو كل من بار (Bar) وبرغنديا (Burgundy)؛

Braudel, Op. Cit., p. 921.

ألمانيا، فضلا عن تحالفها مع حليف شارل الخامس، دوق سكسونيا، الذي كان يحاول تهديد الجبهة العثمانية في هنغاريا، مما حدا بشارل الخامس إلى شن حرب ضد فرنسا.

- **الجبهة الألمانية**

شهدت الجبهة الألمانية، خلال هذه المرحلة، حربين مع الفرنسيين: تمثلت الحرب الأولى بتعاون الملك الفرنسي هنري الثاني[1] مع البروتستانت الألمان، وزحفه نحو الراين[2]. وشكلت هذه الخطوة المرحلة الأولى من هذه الحرب. أما المرحلة الثانية فقد تمثلت بالتوصل إلى إتفاق مع ألمانيا، لم يُكتب له النجاح، بعد قيام القوات الفرنسية بإجتياح ألمانيا من الجهة الجنوبية، وإيقاع الهزيمة بقوات الملك فرديناند الأول في العاشر من نيسان 1552[3]. أما الحرب الثانية فقد كانت في الجبهة الشرقية من أوربا، إذ إندلعت الحرب على الحدود الهنغارية ضد العثمانيين، وإنتهت، في الثلاثين من تموز 1552، سلبا ضد قوات الملك فرديناند [4]، الذي لم يتلق مساعدة من حلفائه الأمراء الفرنسيين، لاسيما دوق سكسونيا[5].

- **الجبهة الإيطالية**

كانت الحروب في الجبهة الإيطالية متقطعة: مناوشات، وحصارات، وحروب عصابات، وهدنات من وقت لآخر. ووضعت معاهدة التاسع والعشرين من نيسان 1552 نهاية للحرب بين الملك الفرنسي والبابا يوليوس الثالث[6]. كما أعلنت سيينا[7] (Siena) إستقلالها في

---

(1) ملك فرنسا منذ الحادي والثلاثين من آذار 1547 حتى العاشر من تموز 1559.

(2) إحتل خلالها كلا من تول (Toul) وميتز (Metz)، بعد ذلك، وصل إلى ضفاف نهر الراين في مايس. ومن ثم، عندما بدأ حلفاؤه الألمان بإجراء محادثات مع الإمبراطور، تراجع نحو الغرب. أما مقاطعة فردان (Verdan) فقد إحتلتها القوات المتراجعة في شهر حزيران؛

Ernest Lavisse; Histoire de France depuis jusqu'à la révolution, Paris, Vol. II, 1903-1911, p. 149; Gaston Zellar; La réunion de Metz à la France, 1552-1648, Vol. I, Paris-Strasbourg, 1972, (in 2 Vols.), pp. 35-36, 285-289, 305-306.

(3) Lavisse, Op. Cit., Vol. V, p. 150.
Zellar, G; Le siège de Metz par Charles-Quint, oct-dec.. 1552, Nancy, 1943.

(4) وهو أيضا آخر إمبراطور جرماني للإمبراطورية الرومانية المقدسة، بصفته صهر الملك لوي التاسع.

(5) J. W. Zinkeisen, Op. Cit., II, p. 873.

(6) Braudel, Op. Cit., p. 924

(7) سيينا: مدينة في توسكانيا بإيطاليا، وهي عاصمة مقاطعة سيينا.

السادس والعشرين من تموز. وكان لذلك نتائج خطيرة أدت إلى تمزيق خطوط الإتصالات الإسبانية المتوجهة نحو الشواطئ الإيطالية[1].

وفي سنة 1552 تمكنت الأساطيل العثمانية، بالتعاون مع القوادس الفرنسية، من إيقاع الهزيمة بإسطول أندريا دوريا بين جزيرتي بونزا (Bonza) وتيراسينا (Tirracina)[2]. ومع ذلك، فإن القوة البحرية العثمانية، على الرغم من الإلحاح القوي من جانب فرنسا، المتوجسة من نابولي، لم تضغط على الغرب أكثر. وقد وصلت العاصمة الإسبانية أنباء تفيد إن الإسطول العثماني دخل مايورقا في الثالث عشر من آب 1552، بهدف زرع الرعب في السواحل الإسبانية[3]. وربما كانت تلك العملية المحدودة بسبب نشوب الحرب ضد بلاد فارس. وفي تعليقه على ذلك، ذكر فرناند براودل:

"لو لم يكن الإسطول العثماني في مثل تلك العجلة للعودة إلى بلاده، فلربما كان قد حقق نصرا عظيما؛ إذ لم يكن بإمكان جنوا ولا نابولي مقاومة جهود مشتركة للحليفين العثماني والفرنسي، كما لم يكن لأندريا دوريا الوقت الكافي للنزول مجددا إلى البحر للتجهيز أو لتحصين المدن المهددة"[4].

---

(1) Ibid.

(2) عن هذه التطورات:
Charles Monchicourt; L' expedition espagnole de 1550 contre l' île de Djerba, Paris, 1913, p. 6; Ernest Charrière; Négociations de la France dans le Levant, " Collection de documents inédits sur l' histoire de France", Ier series, Paris, 1840-1860, Vol. II, (4 Vols.). 1943, pp. 167-169, 179-182;
وعن الهزيمة في بونزا:
Édouard Petit; André Doria, un amiral condottiere XVIe siècle, 1466-1560, Paris, 1887, p. 321.
وفي الليلة التي أعقبت الهزيمة في تيراسينا، إستولى العثمانيون على سبعة قوادس محملة بالجنود:
C. Manfronmi; Storia della marina italiana, Rome, 1897, III, p. 382; in: Braudel, Op. Cit., 924.

(3) عن هذه الأحداث لدينا أمثلة عن قيام الإسطول العثماني بحملات بالقرب من طولون، ووصوله إلى جنوبي نابولي، حيث كان البحارة العثمانيون يزودون سفنهم بالمنتجات المحلية ذات الكلفة الواطئة، كما يقومون بقتل الخنازير، ويقطعون أشجار البساتين للإفادة من خشبها لسفنهم.

(4) Braudel, Op. Cit., pp. 924-925.

ولئن تركت حملة العثمانيين على طرابلس آثارا في الساحة السياسية الأوربية، فمن الأحرى أن يكون لها آثارٌ في البحر المتوسط وسواحل شمالي أفريقيا، وهي ميادين الصراع الرئيسة. وإذا كانت سنة 1552 لم تشهد نشاطات مهمة في ميادين البحر المتوسط، فإن السنة اللاحقة، 1553، شهدت ثلاثة نشاطات رئيسة، وإن كانت قليلة الأهمية نسبيا، وهذه النشاطات هي: حملة قام بها القباطنة الجزائريون إلى أقاصي مضيق جبل طارق؛ وحملة قامت بها الأرمادا العثمانية في أواخر تلك السنة وصلت إلى كورسيكا، تزامنا مع حركة الأساطيل الفرنسية؛ وأخيرا، إحتلال الفرنسيين لجزيرة كورسيكا في أواخر تلك السنة[1]. وسنأتي على ذكر هذه النشاطات بشئ من التفصيل:

أولا: تعزيز النفوذ العثماني في الجزائر وتونس.

كان تعزيز النفوذ العثماني في الجزائر وتونس من أهم نتائج الحملة على طرابلس؛ إذ تمكن صالح ريّس، والي الجزائر (1552–1556) وهو موريسكي ولد بالإسكندرية في مصر، وترعرع في كنف بربروسا، من فرض سيطرته على مدينة الجزائر في نيسان 1552، وتمكن من ردّ زعماء منطقتي ورقلة[2] وتوغرت[3]، الذين كانوا يرفضون دفع الإتاوة، إلى أعقابهم بعد سلسلة غارات شنّها لإخضاعهم[4]. ومن تلك الغارات الظافرة عاد محملا بالذهب وبالوعود بأن الإتاوة، المكونة من بضعة نساء سوداوات من أعماق المهدية، سوف تدفع كل سنة. وقد كرس شتاء 1552–1553 في الجزائر لتجهيز الإسطول تجهيزا شاملا. وخلال شهر حزيران نزل البحر بأربعين مركبا، وقادسا، وغاليوتا، ومركبا شراعيا[5] . كلها مسلحة تسليحا جيدا. تمكن خلالها من الإستيلاء على خمسة كرافيل[6] (Caravel) برتغالية كانت تحمل المدّعي بالعرش ألشريفي، باحسن[7]. وقد تمكن صالح ريّس من أسره فعلا، هو وإسطوله وأتباعه المغاربة،

---

(1) Henry Joly; La corse française au XVe siècle, Lyons, 1942, p. 55.

(2) ورقلة: منطقة في صحراء الجزائر، وعاصمة ورقلة. أهم بلدياتها حاليا: تبسبست، وتوقرت، ورويسات، والنزلة، وتيماكين؛ ''ورقلة''، موسوعة ويكيبيديا الحرة (*).

(3) توغرت أو توقرت: منطقة في شمالي الجزائر، بُنيت حول واحة في الصحراء، إشتهرت بنخيلها، وكانت سابقا محاطة بخندق مائي ملأه الفرنسيون. والواحة المحيطة خصيبة جدا. وعلى بعد سبعة أميال من توغرت ثمة طرق طويلة تعبر الواحة بالإتجاه الشمالي ـ الشرقي إلى (الواد). وعلى بعد إثني عشر ميلا (أي نحو 19 كيلو مترا) إلى الجنوب الغربي هناك واحدة ومدينة تيماسين (Timacin)؛ ''توغرت''، موسوعة ويكيبيديا الحرة (*).

(4) Mantran, Op. Cit., p. 252

(5) ورد بصيغة (Brigantines): وهو مركب شراعي بصاريين.

(6) (Caravel) أو (Carvel): مركب شراعي صغير سريع الحركة.

(7) با حسن، أو (بو حسّون) كما تسميه المصادر الغربية؛

وقدّمه إلى الشريف السعدي محمد الشيخ عربون صداقة وحسن جوار، ولإقناعه بالعدول عن شن المزيد من الغارات على منطقة وهران[1]. ومع ذلك، فبعد ثلاثة أشهر، ذُكر عن حصول حوادث حدودية بالقرب من تلمسان، فإستعد لحملة جديدة ضد مراكش، وإتخذ الإحتياطات اللازمة لإعادة المدّعي بعرش الجزائر معه، با حسن.

ومن المحتمل إن صالح ريّس كان قد عاد إلى قاعدته بالجزائر في الوقت الذي وصل فيه الإسطول العثماني، بقيادة طُرغُد، إلى السواحل الجنوبية لإيطاليا. من جهة أخرى جرت محادثات بين طُرغُد والتونسيين (كان الملك التونسي قد تشاجر للتو مع الإسبان عند حلق الوادي)، عملت على إعاقة حركة الإسطول العثماني بين صقلية والمهدية. وبفضل تلك التأخيرات، أُتيح لأندريا دوريا الوقت الكافي لتجهيز المواقع المسيحية بالسفن السريعة على طول الساحل الإيطالي، لمراقبة تحركات العثمانيين لمساعدة الفرنسيين في إجتياح كورسيكا[2].

ثانيا: الإجتياح الفرنسي لجزيرة كورسيكا.

في هذه الأثناء كان القادة الفرنسيون يعقدون مجلسا للحرب، بهدف إجتياح جزيرة كورسيكا. وقد تم لهم ذلك بالحد الأدنى من الصعوبة بالتعاون مع الإسطول العثماني[3]. لكن

Lauri, Op. Cit., p. 251;

ويذكر المؤرخ الفرنسي بيير بيرثيه (P. Berthier) إن العثمانيين بدأوا بتوجيه أنظارهم نحو مراكش المجاورة بعد أن تمكنوا من بسط نفوذهم في المغرب الأوسط، وكان محمد الشيخ قد رفض تقديم الطاعة للسلطان العثماني ورفض ذكر إسمه بالدعاء أثناء الصلاة في مراكش، وشرع بالإندفاع لمواجهة المشروع العثماني. من جانب آخر، كان السعديون يحاولون الإستيلاء على تلمسان، ولاقت هذه السياسة نجاحا بادئ الأمر، إلا إنها جوبهت برد صاعق من العثمانيين في سنة 1551؛

P. Berthier,; "Les iberiques Face au Peril Turc sur le Maroc, a la Veille de la Bataille de Wadi-l- Makhazin (4 août 1578)", *Revue d' Histoire Maghrebine*, , p. 110; Mantran, p. 252;

من جانب آخر كان با حسن، آخر المدافعين عن سلالة بني وطاس، في صراع ضد محمد الشيخ المهدي للإستيلاء على مملكة فاس. وقد عمل العثمانيون على مساعدته في صراعه ضد محمد الشيخ، مما أدى بالأخير إلى التحالف مع الإسبان ضد العثمانيين، فأعاده الإسبان إلى حكم فاس سنة 1554؛

Brethier, Op. Cit., p. 110;

يحيى، المصدر السابق، ص ص 36-37.

(1) Braudel, Op. Cit., p. 927.

(2) Manfronmi, Op. Cit., p. 386; in: Braudel, Op. Cit., p. 928.

(3) في هذه الأثناء تم إحتلال باستيا في الرابع والعشرين من آب 1553، ووصل البارون دي لا غارد إلى سانت فلورنس في السادس والعشرين من الشهر. ومن ثم جاء دور كورفو،

العثمانيين رفضوا إطالة أمد الحصار على كالفي، آخر موقع في الجزيرة تحت سيطرة الجنويين، وقفلوا راجعين؛ ففي الأول من تشرين الأول 1553[1]، عبر الإسطول العثماني من خلال مضيق مسينا، ووصل إلى إسطنبول في كانون الأول، ربما بسبب الحرب مع بلاد فارس[2]. وهكذا، بفضل العثمانيين، أصبح للفرنسيين موطئ قدم في كورسيكا. وفي نهاية الصيف أصبحت الجزيرة بأيديهم[3]. ولكن، من جانب آخر، فإن قباطنة سواحل شمالي أفريقيا إستثمروا ذلك الجزء من البحر، الواقع بين سردينيا والساحل الأفريقي، أيضا[4].

ثالثا: تصاعد نفوذ الدول الصغيرة على حساب الدول الكبيرة.

كانت النتيجة المهمة الأخرى هي إعادة التوازن بين قوى البحر المتوسط، فمع إنتهاء فصل الصيف وإقتراب الشتاء (1553) إنقلب الوضع فيما يخص العلاقات بين الأساطيل العثمانية والفرنسية، فلم يعُد كلاهما بحاجة ماسّة إلى الآخر، مما فسح المجال لحصول تقارب بين جنوا وتوسكانيا. بمعنى آخر، إن إنعدام حضور الدول الكبيرة قد سمح للدول الأصغر أن تتصرف على نحو أكثر فاعلية من المعتاد. وقد تجسد ذلك، مثلا، بين سنتي 1554-1555، عندما تمكنت جنوا من إزاحة السيطرة الفرنسية على الجزء الأعظم من جزيرة كورسيكا[5].

حيث كان التجار الجنويون قد إتخذوها ملاذا. وأخيرا، في بداية أيلول، إستسلمت بونسيفاكو (Bonsifaco)، بعد محاولة للمقاومة. وهذه المدينة، مع كالفي، كانت مكانا لأكبر وجود جنوي في الجزيرة. وكان لطُرغُد دور رئيس في مساعدة الإسطول الفرنسي في تلك العمليات؛

(1) Braudel, Op. Cit., 928
Joly, Op. Cit., p. 53;
وتم الالتفاف على الرحلة الخارجية لإستثناء مملكة نابولي من الهجوم التي عُدّت من ضمن الأراضي الفرنسية.

(2) في سنة 1553 شاهد احد تجار لندن، وهو انتوني جينكينسون (Anthony Jenkinson)، وكان في حينها في حلب، السلطان سليمان القانوني وهو يدخل المدينة في موكبه الفخم، في طريقه إلى بلاد فارس، وكانت الحملة مكونة من: ستة آلاف حصان، وستة عشر ألف إنكشاري، وألف غلام يصاحبون السلطان، الذي كان يرتدي معطفا مرصعا بالذهب وعمامة ضخمة مصنوعة من الحرير، ويمتطي جوادا ابيضا. وكان هناك ثلاثمائة ألف رجل، يصحبهم مائتا ألف جمل (بحسب الرحالة الإنكليزي):
Richard Hakluyt; The Principal Navigations and Voyages of English Nation, London, 1599-1600, Vol. II, (3 Vols.), p. 112.

(3) Braudel, Op. Cit., p. 928.

(4) Joly, Op. Cit., pp. 8, 71-72.

(5) Braudel, Op. Cit., p. 933.

وهناك أيضا دولة الجزائر التي برّ نشاط إسطولها خلال هذه المرحلة نشاط الإسطول العثماني خلال تينك السنتين (1555-1554). ففي سنة 1554، قاد صالح ريّس جيشه، عن طريق البحر، إلى ميناء مليلة[1] على الساحل المغربي، ومن ثم، عن طريق البر، إلى كل من تازة[2] وفاس[3]، اللتين دخلهما دخولا ظافرا[4]، قاد في إثره غارة مباغتة ضد شرقي المغرب. وعلى الرغم من إن سلاح الفرسان المغربي لم يكن قادرا على مقاومة القربينات العثمانية[5] ، إلا إن العثمانيين لم يتمكنوا من تقديم أية مساعدة لمحمي الجزائريين (با حسن نفسه الذي أُسر في السنة السابقة)[6]، ونُصّب حاكما على فاس، ثم قتله الشريف السابق، الذي عاود دخول المدينة مع المهاجمين. وكلّ ما بقي للجزائريين من هذه الغارة هو جُزيرة بينون دي فيليس الصخرية (حجر باديس).

وفي السنة اللاحقة، 1555، تحول نشاط الجزائريين شرقا نحو بجاية[7]، أو بالأحرى نحو الحامية الإسبانية هناك، لأنها لم تعد مدينة بحق، وإنما عبارة عن حامية صغيرة مثلثة الشكل محصنة من زواياها؛ فضلا عن القلعة الإسبانية، وهي من مخلفات الحصن الأصلي في حلق الوادي؛ وبعض القلاع المطلة على البحر والمباني الإسلامية المواجهة للساحل[8]. في داخل

---

(1) مدينة مليلة أرض ذات إستقلال ذاتي تابعة لإسبانيا حاليا، محاطة من جميع أطرافها بالأراضي المغربية، إحتلها الإسبان سنة 1497.

(2) تازة: مدينة في الشمال الأوسط من المغرب، تبعد نحو 100 كم (نحو 69 ميلا)إلى الشرق من فاس، وتقع إلى الجنوب من جبال الريف، وهي عاصمة ولاية تازة. والمدينة مكونة من مدينتين منفصلتين سابقا بُنيتا على المسطحات المطلة على السهل الجبلي.
"Taza"; The New Encyclopaedia Britannica, Vol. IX, p. 853; "Taza"; Wikipedia, (*).

(3) مدينة فاس هي ثالث أكبر مدن المملكة المغربية بعد الدار البيضاء والرباط، وهي مدينة تاريخية عريقة، وأول عاصمة سياسية للمغرب. أسسها المولى إدريس الأزهر سنة 172 هـ؛ "فاس"، موسوعة ويكيبيديا الحرة (*).

(4) Braudel, Op. Cit., p. 933; Hess, The Moriscos…, p. 11.

(5) القربينة (arquebuse): بندقية قديمة الطراز.

(6) Ibid.

(7) Hess, The Moriscoss..., p. 11; Mantran, Op. Cit., p. 252.
المدني، المصدر السابق، ص 343.

(8) Paul Wintzer,"Bougie, place forte espagnole", in: B. *Soc. Géogr. D' Alger,* 1932, pp. 185-222, esp. p. 204 ff and 221;
ويذكر المؤرخ الفرنسي بيرثييه إن ذلك (أي السيطرة على بجاية) كان جزءا من خطة عثمانية، لاسيما بعد أن علم العثمانيون بالمشاريع التي كانت تحاك ضدهم، فقرروا إستباق المخطط الإسباني ـ المراكشي، وإنتزعوا بجاية من الإسبان في الثامن والعشرين من أيلول سنة 1555؛

تلك المتاريس كان يعيش نحو مائة رجل، مع خيولهم، ويعتمدون في تجهيزاتهم على الغارات التي كانت تُشن على سفن التجهيز. وفي إحدى تلك الغارات توفي الحاكم الإسباني في بجاية، لويس بيرالتا (Luis Peralta)، فخلفه في المنصب إبنه ألونسو (Alonso). وفي حزيران 1555، غادر صالح ريّس الجزائر مع الآف من الجنود. في هذه الأثناء، كان ألونسو يرسل صرخات إستغاثة إلى العاصمة الإسبانية[1]. وأُرسل له عن طريق البحر إسطول تجهيز صغير مزود بالمؤن والمدفعية، تمكن صالح ريّس من الإستيلاء عليه، فلم يصمد الحصن، إذ فرّ المدافعون إلى المدينة المجاورة التي لم تستطع الصمود أيضا، مما حدا بألونسو إلى الإستسلام، إزاء وعد بحماية حياته هو وأربعين شخصا من إختياره، ومنحهم حرية العودة إلى إسبانيا[2]. وبين الخامس والخامس والعشرين من آب ضرب العثمانيون الحصار على وهران (الخاضعة للنفوذ الإسباني) ليجعلوها نقطة إنطلاق نحو تحقيق المزيد من النجاحات، ثم تمكنوا أخيرا من تصفية محمد الشيخ (حليف الإسبان) جسديا في الثالث والعشرين من تشرين الأول 1557[3].

كان للهزيمة في بجاية أصداء واسعة في إسبانيا. وفي بلنسية، وكتالونيا، وقشتالة، دار حديث عن حملة إنتقام مزمعة سيقودها رئيس أساقفة طليطلة. لكن الحملة تأجلت بحجة عدم وجود الإمبراطور في المملكة، ولكن حالة الإستياء إستمرت، بحيث ما أن وطأت أقدام ألونسو دي بيرالتا إسبانيا، حتى إعتُقل وحوكم وقُطع رأسه في بلد الوليد[4] في الرابع من مايس 1556[5]. ولكن، هل كان ألونسو مذنبا إلى هذه الدرجة؟ يتساءل فرناند براودل. ما أن هوجمت بجاية حتى أرسل صرخة إستغاثة إلى إسبانيا في الوقت المناسب. ولكن بسبب تأخر

---

(1) Berthier, Op. Cit., p. 110.
عن نص رسالة الإستغاثة التي أرسلها لويس بيرالتا إلى الوصية على العرش الإسباني الأميرة جوانا؛ المدني، المصدر السابق، ص ص 345-346.

(2) Braudel, Op. Cit., p. 934.

(3) Berthier, Op. Cit., pp. 110-111;
لابد أن نذكر هنا إن سلطة العثمانيين في وهران لم تتوطد كليا بسبب مقاومة مولاي عبد الله، إبن محمد الشيخ، لنفوذ العثمانيين ومحاولاتهم المستمرة للتغلغل إلى داخل البلاد. وفي سنة 1563 فرض العثمانيون حصارا آخر على وهران. وأخيرا تمكن أندريا دوريا من إنتزاعها منهم في السابع من حزيران سنة 1563؛
Ibid., p. 111.

(4) بلد الوليد (بالإسبانية: Valladdolid): مدينة في مقاطعة قشتالة وليون ذات حكم ذاتي بوسط إسبانيا، حكمها المسلمون إبتداءً من القرن العاشر الميلادي، وفي القرن الخامس عشر أصبحت عاصمة مملكة قشتالة حتى إنتقلت العاصمة سنة 1531 إلى مدريد في ظل حكم الإمبراطور فيليب الثاني؛ "بلد الوليد"، موسوعة ويكيبيديا الحرة (*).

(5) Wintzer, Op. Cit., p. 221.

وصول الأنباء إلى أندريا دوريا كان كل شئ قد انتهى[1]. لقد سقطت الحامية الإسبانية في بجاية بأيدي العثمانيين[2].

في الوقت الذي كانت فيه العمليات البرية العثمانية تضيّق الخناق على تونس، توج الأميرال الأعظم العثماني بيالة باشا الإنقضاض على دفاعات أل هابسبرك البحرية عن طريق قيادة إسطول كبير، في صيف 1558، مكون من مائة وخمسين مركبا من إسطنبول إلى مينورقا، حيث نزلت القوات العثمانية وحرقت مدينة (الجديدة) التي لا تبعد سوى مائة وخمسين كيلو مترا عن الساحل الإسباني. وفي السنة نفسها أوقعت القوات العثمانية في الجزائر هزيمة نكراء بالإسبان وعملائهم في مستغانم، لتُنهي بذلك إستخدام وهران قاعدة بحرية إسبانية[3].

على هذا الأساس، فإن المبادرة في البحر المتوسط، لاسيما في الجزء الأوسط منه، الذي حاول الملك الجديد فيليب الثاني الإستيلاء عليه بحملة ضد طرابلس، بقيت بأيدي العثمانيين، الذين كانوا يتحركون بحرية من شرقي البحر المتوسط إلى منتصفه، ومن البلقان إلى شمالي أفريقيا، من دون التعرض لمضايقات فيليب.

(1) Braudel, Op. Cit., p. 934.

(2) للتفاصيل: المدني، المصدر السابق، ص ص 343-349.

(3) Hess, The Moriscos…, p. 11;
المدني، المصدر السابق، ص ص372-376؛ العسلي، الجزائر والحملات الصليبية...، ص 83؛
وبعد هذه النكسات المتوالية أعلن شارل الخامس تنازله عن عرش الإمبراطورية وقسّم البلاد على نصفين: ألمانيا لأخيه فرديناند، وإسبانيا وبلجيكا وهولندا وإيطاليا والمستعمرات الإسبانية في العالم الجديد لإبنه فيليب، ثم إعتكف في سنة 1556 في أحد الأديرة حيث قضى سنتين في العبادة والنسك، ومات سنة 1558، عندما كان الجيش الإسباني يصاب بنكسة كبرى بين مستغانم ومازغران، كان حينها يعاني من سكرات الموت، كتموا عنه أنباء الكارثة؛ المدني، المصدر السابق، ص 377.

ثالثا: رد الفعل الإسباني إزاء تصاعد النفوذ العثماني

إزاء تصاعد النفوذ العثماني وإمتداده في شمالي أفريقيا، إضطر الملك الإسباني الجديد فيليب الثاني إلى البحث عن السلام مع حليف العثمانيين التقليدي، فرنسا، بعقده سلم كاتو . كامبريسس[1] (Câteau-Cambrésis) سنة 1559، الذي أُطلقت بموجبه يد إسبانيا للتركيز على أكثر أعدائها خطورة، العثمانيون. وعلى الرغم من إن المسيحيين لم يتمكنوا من مقارعة التفوق العثماني في شرقي البحر المتوسط، إلا إن العثمانيين، في الوقت نفسه، لم يتمكنوا من مقارعة التفوق الإسباني في غربه. ومع ذلك، فلم يتوصل الطرفان إلى توازن ثابت؛ إذ كانت إسبانيا في وضع أكثر خطورة من أعدائها؛ وما فتئت ولايات السلطان سليمان في شمالي أفريقيا، بوجود طُرغُد باشا، تشكل تهديدا محتملا في الخاصرة الإسبانية[2]، وكانت غارات العثمانيين المستمرة على الحركة الملاحية وعلى موانئ الصيد في إيطاليا وجنوبي إسبانيا تجسيدا مستمرا لهذا التهديد. كما إن إتصالاتهم مع الموريسكيين في غرناطة قد نقلت "التهديد" الإسلامي إلى قلب الإمبراطورية الإسبانية[3]. ولم يكن بالإمكان تحجيم هذا التهديد إلا بعزل

---

(1) معاهدة عُقدت في الثالث من نيسان 1559، في مدينة كاتو بفرنسا، بين ممثلي كل من هنري الثاني ملك فرنسا، وفيليب الثاني ملك إسبانيا، وإليزابيث الأولى ملكة إنكلترا، ووضعت نهاية للنزاع الذي إستمر 65 سنة (1559-1494) بين فرنسا وإسبانيا للسيطرة على الممتلكات الإيطالية. كانت بنودها لصالح إسبانيا، اذ أعادت بموجبها فرنسا كلا من سافوي وبيدموند لحليف إسبانيا ايمانويل فيلبرت (1580-1528)، وتخلت عن إدعاءاتها في الأراضي الإيطالية، ووافقت على تعديل الحدود مع الأراضي المنخفضة التابعة لإسبانيا. بينما استعادت (أي فرنسا) كلا من كورسيكا وجنوا. للتفاصيل:

A. Armstrong,; " The Italian Wars of Henry II", *The English Historical Review*, Vol. 30, No. 120, October 1915, pp. 602-612; Armstrong, A; (book review): "Le Baron Alphonse de Roble; La Traité de Cateau- Cambrésis", *The English Historical Review*, Vol. 5, No. 14, January 1890, pp. 159-164.

(2) R. B. Wernham (ed.), The New Cambridge Modern History, Vol. III, (The Counter-Revolution and Price Revolution 1559-1610), Cambridge, 1986, pp. 251-252.

(3) Hess, "The Moriscos…", pp. 1-25.
التميمي، عبد الجليل؛ "تأملات جديدة..."، ص ص، 353-359.

ولايات شمالي أفريقيا عن قلب العاصمة. لذا، فإن كل شئ كان يعتمد السيطرة على وسط البحر المتوسط. وعلى وفق ذلك، فإن كل طرف قد طوّر ستراتيجيته البحرية على هذا الأساس. وهكذا بدأ الإسبان بتبني ستراتيجية دفاعية، وإنشغلوا في البحر المتوسط [1]. ومع تواصل جهود العثمانيين في بناء القوادس[2] كانت مهمة آل هابسبرك صعبة.

ومع توقيع سلام كاتو . كامبريسس، أمر الإمبراطور فيليب الثاني بالإنتهاء من إستقصاء إمكان إجراء الهدنة مع الباب العالي. وبدلا من ذلك، أعطى موافقته لمقترح الأستاذ الأعظم لفرسان مالطا، نائبه في صقلية، لإعادة الإستيلاء على طرابلس الغرب سنة 1556، التي فقدها الفرسان سنة 1551. وكان من المقرر، في حال نجاح هذا المقترح، أن يعقبه غزو بجاية التي خسرها الإسبان سنة 1555[3]، وبذلك تتم إستعادة حاجز الملكية عبر منتصف البحر المتوسط، وسيصبح بالإمكان عزل الجزائر[4]. بعد ذلك يمكن متابعة حملة ضد الجزائر، إنتقاما لهزيمة شارل الخامس في سنة 1541 وتحويل غربي البحر المتوسط إلى بحيرة حرة، تهيمن عليها الملكية الكاثوليكية[5]. ومن جهة أخرى عملت الملكية الإسبانية على تطوير قوة بحرية دائمة مكونة من قوادس قشتالة، وصقلية، ونابولي، وجنوا، وأصبحت هذه القوة البحرية تسيطر على غربي البحر المتوسط وتؤمن الإتصالات بين ممتلكات آل هابسبرك في المنطقة[6]. هذه هي ملامح السياسة البحرية العامة للإمبراطور فيليب الثاني لمواجهة إمتداد النفوذ العثماني في البحر المتوسط وشمالي أفريقيا.

على هذا الأساس، كانت الحرب حتمية بين القوتين الرئيستين، الدولة العثمانية وإسبانيا[7]، وبات من الضروري عقد هدنة بين الطرفين. وبين الحادي والعشرين من مايس 1558 والثاني من كانون الثاني 1559 جرت محادثات الهدنة مع العثمانيين في فيّنا، تقرر فيها دفع متأخرات الإتاوة السنوية للباب العالي (التي أُقرت في معاهدة 1547 ولم تدفع منذ سنة 1550). وقد أعرب الإمبراطور فيليب الثاني، تسويغا لموقفه أمام الرأي العام، عن موافقته بقوله:

---

(1) Wernham, Op. Cit., p. 252.
(2) Imber; "The Navy of Suleyman …,pp. 211-82.
(3) Davies, Op. Cit., p. 171.
(4) Ibid.
(5) Peter Pierson; Philip II of Spain, London, 1975, p. 152.
(6) Glete, Op. Cit., p. 18.
(7) R. B. Wernhem (ed.), Op. Cit., pp. 251-252.

"تعلمون إن ما أقوم به اليوم هو إن هناك قليلا من الأمل في أن يكون العالم المسيحي، بكل قواه، قادرا على مقاومة قوة العثمانيين... لقد حدث إن الوسيط، الذي له الخبرة والدراية بالبلاط [التركي]، قد أخذ على عاتقه، قبل بضعة أيام، الحصول على وعد سلام لإسبانيا من السلطان... إنني لا أريد أن أُحرق كل الجسور بيننا، متذكرا إن العثمانيين، المتخوفين من قواتي في البحر المتوسط، قد يعدلون شروطهم ويخففونها"[1].

وخلال الأشهر الأولى من سنة 1559، كان فيليب الثاني لايزال يفكر بمفاوضات لعقد هدنة تتراوح بين عشر إلى إثنتي عشرة سنة مع السلطان العثماني[2]، وأرسل بالفعل سفراءه إلى الباب العالي بخصوص تعاون محتمل مع الصدر الأعظم رستم باشا والهدايا التي سيكون من المناسب تقديمها له. وعند وصوله العاصمة العثمانية، خُوّل المبعوث الإسباني بعقد هدنة أمدها ثماني أو عشر، أو حتى خمس عشرة سنة، مع العثمانيين، وبدفع ما يتراوح من ثمانية إلى عشرة آلاف كراون سنويا إلى رستم باشا طوال مدة الهدنة، شريطة عدم خروج الإسطول العثماني صيف تلك السنة[3].

لقد فصّلتُ هذه المسألة، إلى حد ما، لا لشئ إلا لتوضيح حقيقة بشأن المفاوضات ونيات فيليب الثاني قبل معاهدة كاتو . كامبريسس، لأن الأمور ستتغير حالما يتم توقيع السلام مع الفرنسيين. ففي الثامن من نيسان 1559، أي بعد عقد معاهدة السلام بخمسة أيام فقط، أوضح فيليب الثاني تغير رأيه في رسالة مطولة إلى دوق سيسا[4] Sessa قائلا:

"... لقد عقدنا مؤخرا سلما مع ملك فرنسا، لذا فإنه يمكن الإفتراض إن [التركي]، المحروم من حليفه وليس لإسطوله ميناء

---

(1) Braudel, Op. Cit., pp., 967-968.

(2) تم إختيار فرانسيسكو دي تورتورينو (Francisco de Franchis Tortorino)، وهو جنوي من خيوس، الذي "لديه الخبرة والدراية بالبلاط العثماني"، الذي أبلغ رسميا بإستيضاح الأمر في إسطنبول. وتقدم الملفات الأرشيفية التي يستعرضها فرناند براودل في كتابه وصفا مفصلا لرحلته، إذ يذكر إن الرسائل القنصلية تذكر وجوده في كل من نابولي ومسينا، حيث حصلت له بعض المشكلات مع السلطات الإسبانية، قبل إنتقاله إلى البندقية. للتفاصيل:

Braudel, Op. Cit., p. 968 ff.

(3) Ibid., p. 969.

(4) سيسا (لم اعثر لها على تعريف).

صديق [في الغرب]، سوف لن يشن حملة ضد العالم المسيحي. فضلا عن ذلك كله، فهناك مسألة عمره المتقدم، ورغبته للراحة، والمشكلة التي تسببت له بسبب الخلاف والتنافس بين أبنائه"[1].

على هذا الأساس، أمر فيليب الثاني بإلغاء مفاوضات الهدنة مع العثمانيين بذريعة "إستحالة تقديم تضحيات كبيرة". ولكن هل هذا هو الدافع الحقيقي فعلا؟ من المؤكد إن الأمر ليس كذلك؛ لقد كان الدافع الرئيس لفيليب الثاني هو الحفاظ على ماء الوجه، لاسيما بعد أن تحرر من مشكلاته في الغرب، وبعد أن تم تفكيك الإسطول الفرنسي. لذا، لم تعُد ثمة حاجة لمتابعة تحركات السلام مع العثمانيين. يُضاف إلى ذلك إن فيليب الثاني كان، منذ أوائل حزيران 1559، يتابع عن كثب مشاريع فرسان مالطا ونائبه في صقلية ضد طرابلس، وأمر بشن حملة على طرابلس[2]. وكانت الحملة ضد طرابلس تعني حملة ضد طُرغُد، الذي كان بايلرباي المدينة منذ سنة 1556. ولكن إلى أي مدى أثار ذلك التحرك رد فعل العثمانيين؟

تسببت سياسة فيليب الثاني في إعادة فتح الصراع، في وقت كانت فيه الأمور تسوء في مركز صناعة القرار العثماني. وقد أوضح فرناند براودل العوامل التي شجعت فيليب الثاني على القيام بهذا العمل، يمكن تلخيصها بالمحاور الآتية:

أولا: بعد عقد معاهدة كاتو ـ كامبريسس، كان الملك الفرنسي هنري الثاني قد حلّ إسطوله المتوسطي. ومن الناحية العملية لم يعد هناك ملاحة عسكرية في موانئ جنوبي فرنسا لما تبقى من القرن، وإستعاد الإسبان حرية الحركة.

ثانيا: رغبة فيليب الثاني في خوض حرب شاملة ضد العثمانيين. فخلال صراعهما الطويل لم يدخل الإسبان حربا بحرية مع العثمانيين إلا مرتين، إذ نزل شارل الخامس في كورون سنة

---

(1) وهما سليم الثاني وبايزيد.

(2) كتب بهذا الخصوص رسالة إلى دوق فلورنسا، طالبا منه مساعدة قوادسه، بقوله:"يبدو لي إن من المجد الأعظم للرب وخدمة للعالم المسيحي بأسره أن لاتكون القوادس التي ادفعها إلى إيطاليا معطلة خلال ما تبقى من الصيف، وإنما تُستخدم لتدمير القراصنة ولتأكيد حرية الملاحة. على هذا الأساس، أمرتُ بشن حملة على طرابلس". كلو، المصدر السابق، ص 202؛

Braudel, Op. Cit., pp. 968-969.

1534، ومرة أخرى في سنة 1538 في كاستيلنوفو (Castelnuovo)، حيث إلتقى في معركة مع بربروسا.

ثالثا: يبدو إن العثمانيين وجدوا أنفسهم أكثر تورطا من أي وقت في السابق بالشؤون الداخلية (بسبب صراع أبناء السلطان سليمان على العرش)، وربما يكون فيليب الثاني قد أدرك إن هذه ليست هي اللحظة المناسبة للتحدث بشأن السلام معهم، بل على العكس، إيقاع الهزيمة بهم في الحرب.

ولكن، يبدو إن إسبانيا، خلال هذه المرحلة، أي في سنة 1559، كانت تواجه خطرا مزدوجا: العثمانيون من جانب، ومسلمو شمالي أفريقيا وقباطنتهم، بين طرابلس وسلا[(1)]، من جانب آخر. وعلى الرغم من إن كلتا المجموعتين كانتا تعملان بشكل منفصل أثناء فصل الشتاء، إلا إن جهودهما كانت مشتركة خلال موسم إعتدال الطقس. لذلك، كان لإسبانيا سبب وجيه للتوجس من قباطنة الجزائر الذين كانوا يشكلون تهديدا مباشرا لها. وقد رأينا مسبقا كيف قاد صالح ريّس حملة بعيدة على ورقلة في سنة 1552؛ وحملة أخرى إلى فاس في سنة 1553، التي تم الإستيلاء عليها، أُعيد بها با حسن إلى عرشه في تلمسان مدة قصيرة خلال سنة 1557، وبمساعدة من العثمانيين، تمكن من التراجع إلى عاصمته. فضلا عن ذلك، فقد نجحت دولة الجزائر في إزاحة الحامية الإسبانية من بجاية سنة 1555. أخيرا، في سنة 1558، حققت نصرا ساحقا على وهران[(2)]. أما في الغرب، فقد كان هناك خطر الموريسكيين، وهو خطر لا يُستهان به من جانب الإسبان.

ومنذ بداية القرن، في سنة 1509 تحديدا، كانت إسبانيا تسيطر على وهران، ونجحت مرات كثيرة في ضم تلمسان. ولكن هذا الوضع إنتهى في سنة 1551، حينما نجحت الحامية العثمانية في تثبيت نفسها على نحو دائم في تلمسان، التي أصبحت شوكة دائمة في خاصرة الحامية الإسبانية. وفي محاولة لمعالجة ذلك، نظم الإسبان حملة ضد مستغانم في سنة 1556، التي تبعد إثني عشر فرسخا[(3)] شرقي وهران، مما يعني قطع خطوط إتصالات العثمانيين مع تلمسان، لأنهم كانوا يستلمون كل التجهيزات والمدفعية الضرورية لعملياتهم على

---

(1) سلا: مدينة مغربية عريقة جدا، تقع على الضفة الشمالية اليمنى لوادي أبي رقراق، وتطل على المحيط الأطلسي. سُميت قديما بإسم شالة؛ "سلا"، موسوعة ويكيبيديا الحرة (*).

(2) Braudel, Op. Cit., p. 972.

(3) الفرسخ: هو ثلاثة أميال، أي نحو إثني عشر ألف ذراع أو 5544 مترًا.

الجبهة الغربية من ميناء مستغانم. ومثل هذه الحملة لا يمكن أن تخفق في الإستيلاء على موقع ضعيف التحصين مثل مستغانم. لكن الوقت هُدر لتدريب المتطوعين الجدد، فضلا عن إن عددا كبيرا من الجنود الإسبان (يقدر عددهم بنحو إثني عشر ألف جندي) سقطوا بأيدي جيش حسن باشا أو تحولوا إلى الإسلام[1]. وهذا يُظهر لنا القوة والتصميم اللذين نحتت بهما الدولة العثمانية مكانا لنفسها في بلاد المغرب. والأهم من ذلك القوة البحرية المتصاعدة، التي كانت تمتد من صقلية شرقا، حتى سردينيا شمالا، وجبل طارق غربا.

لكن دولة الجزائر، على الرغم من كونها الأكثر قوة من بين دول شمالي أفريقيا، لم تكن الدولة الوحيدة. فإلى الشرق قليلا كانت مملكة طرابلس تتطور على النمط الجزائري، لاسيما منذ أن سيطر عليها العثمانيون في سنة 1551، وتولي طُرغُد باشا حكمها في سنة 1556. ولكونها محددة بالجانب الأرضي، فإن طرابلس وجهت أنظارها نحو البحر: إذ إن مصدر دخلها الرئيس يأتي من هذا الجانب، من ساحل صقلية القريب جدا. وفي ما وراء صقلية كان طُرغُد يهدد الوجود المادي لغربي البحر المتوسط، شمالا حتى كتالونيا وبلنسية. وقد تجسد ذلك التهديد، بأفضل صوره، بالإنتصار الكبير الذي حققه في إدخال جزيرة جربة في منظومة الدولة العثمانية.

---

(1) عن السياسة الإسبانية في شمالي أفريقيا نذكر، في سبيل المثال لا الحصر:
Abun-Nasr, Op. Cit., pp. 102-145; Hess, The Forgotten Frontier…, pp. 213-264.

رابعا: الإنتصار العثماني في جربة 1560

تمثل أخطر ما قام به فرسان مالطا بالحملة التي شنوها سنة 1560 لإستعادة طرابلس في محاولة وصفها احد المؤرخين بأنها "واحدة من أكبر المعارك البحرية في التاريخ العالمي"[1]، في حين وصفها آخر بأنها "مثلت قمة القدرة العثمانية في البحر المتوسط. فبعد هذه السنة بدأ النشاط البحري العثماني بالإضمحلال"[2]. وبغض النظر عن رأينا في الوصف الأول، فإن هذه الحملة كانت، من حيث طبيعتها وحجمها، شبيهة بحملتي الإمبراطور شارل الخامس على تونس سنة 1535، والجزائر سنة 1541؛ إذ شاركت فيها قوات إسبانيا وصقلية ومملكة نابولي وألمانيا ومالطا والبابوية وفلورنسا، وحتى إمارة موناكو. وتم تعيين نائب الملك الإسباني في صقلية دوق مدينا سيلي قائدا للحملة المشتركة[3].

كان من المقرر أن تتوجه هذه الحملة إلى طرابلس، ولكنها أخذت إتجاها مختلفا عن الإتجاه الذي كان مُعتزما أصلا لأسباب عدّة، وكان القرار النهائي لشن الحملة قد تقرر في الخامس عشر من حزيران 1559 [4]. ويمكن تصنيف الدوافع وراء شن تلك الحملة على قسمين: الأول يخص الملك فيليب الثاني، والثاني يخص قادته والعاملين تحت لوائه.

بخصوص الإمبراطور فيليب الثاني كان هناك دافعان رئيسان: الأول شخصي، ويمكن إيجازه برغبته في "إستعادة ماء الوجه" الذي فقده بعد الإنتصار العثماني في طرابلس، وتضرر هيبته الشخصية في العالم الكاثوليكي، والمسيحي عموما. أما الدافع الثاني فقد كان سياسيا؛ وهذه النقطة يوضحها المستشرق أندرو هِس بقوله:

> **" بعد سقوط الدفاعات البرية والبحرية أمام التوسع الإسلامي، جمع فيليب الثاني إسطولا كبيرا بهدف إيقاف توسع الإمبراطورية الإسلامية غربا. وفي سنة 1560، سعت قوادس آل هابسبرك إلى**

---

(1) اوزتونا، المصدر السابق، ص 316.

(2) Braudel, Op. Cit., p. 987.

(3) أفرد المؤرخ هاملتون كيوري حيزا واسعا في كتابه عن هذه الحملة. للتفاصيل: Currey, Op. Cit., pp. 270-278.

(4) اوزتونا، المصدر السابق، ص 316.

سدّ الفجوات في الحدود الوسطى للبحر المتوسط عن طريق إزاحة القراصنة المسلمين [كذا] من المنطقة المحيطة بجزيرة جربة"[1].

أما فيما يخص قادة الملك ومَن كانوا تحت لوائه، فإن الدلائل كلها تشير إلى الدور الرئيس الذي مارسه كل من نائب الملك في صقلية دوق مدينا سيلي، والأستاذ الأعظم لفرسان مالطا، جان دو لا فاليت (Jean de La Valette)، اللذان كانت لديهما أسباب مشتركة للإستياء من تحركات طُرغُد باشا؛ فالأول كان يرغب في قيادة حملة ظافرة ضد مَن اسماهم بـ "الكفار"،[2] أما الثاني فقد كان يرغب في أن يكون حاكما لطرابلس التي كان من المزمع أن تنتقل إلى منظمته[3].

كانت الأحوال إلى جانب تنفيذ هذه الخطة لأسباب كثيرة؛ إذ كان تحصين طرابلس ضعيفا، وحاميتها لا تزيد عن خمسمائة إنكشاري عثماني فقط؛ وكان طُرغُد في حرب مفتوحة مع حاكم القيروان، الذي كانت قواته قد هزمت طُرغُد مسبقا وكانت معنوياته عالية؛ فضلا عن إحتمال تلقي بعض المساعدة من البدو الذين كانوا قد عانوا على أيدي بعض الجنود العثمانيين. وكان لنائب الملك في صقلية إتصالات معهم، بل وحتى بعض الحلفاء من أتباع طُرغُد. وهو نفسه إعترف إنه على الرغم من الرسائل والمشاعر المزعومة لهؤلاء الشيوخ، لكان من غير الحكمة الإعتماد عليهم[4]. وهكذا، وضع الإمبراطور فيليب الثاني السفن الإيطالية تحت تصرفه[5]. وكان من المقرر أن تبدأ الحملة بإستخدام القسم الإيطالي من بحرية الإمبراطور فقط. وكان عنصرا السرعة والمفاجأة يشكلان الأسبقية الأولى من وجهة نظره[6].

---

(1) Hess; "The Moriscos…", p.11;
يمكن تكوين فكرة معينة عن مفهوم "التغريب" في التاريخ البحري للبحر المتوسط من خلال المعالجة التاريخية لمعركتي جربة وليبانتو. فعلى الرغم من إن كلتا المعركتين شهدتا إنتصارا كبيرا لكل من الطرفين المتنازعين، كلّ على إنفراد، إلا إنه يمكن عقد مقارنة واضحة بينهما، إذ إن معركة ليبانتو، وليس الإنتصار الإسلامي في جربة، هي التي إستحوذت على إهتمام المؤرخين الغربيين؛
Monchicourt, Op. Cit.

(2) I. A. A. Thompson; "The Appointment of the Duke of Medina Sidonia to the Command of the Spanish Armada", *The Historical Journal*, Vol. 12, No. 2, 1969, pp. 197-199.

(3) كلو، المصدر السابق، ص 202.

(4) Braudel, Op. Cit., p. 974.

(5) Ibid., p. 975.

(6) Lynch, Op. Cit., p.236;

ولكن من الضروري أن نأخذ بنظر الحسبان التأخيرات التي رافقت تحضيرات الحملة[1]؛ فعندما غادر الإسطول، بعد أن تم تجميعه في مينائي سرقوسة ومسينا[2]، في الأول من كانون الأول 1556[3]، فإنه كان يضم سبعا وأربعين سفينة، وأربعة من سفن الغاليوت، وثلاثة غاليونات (بالإجمال أربع وخمسون سفينة وستة وثلاثون سفينة إمداد). وكان هناك إثنا عشر ألف رجل محمول على السفن[4]. إذن، فإن حجم الإسطول كافٍ لتوضيح التأخيرات أثناء زحفه. أما الإسطول العثماني، فقد بلغ نحو مائة مركب.

على هذا الأساس فإن أي أمل لتحقيق عنصر المفاجأة قد تلاشى[5]؛ فقد عَلِم العثمانيون، فضلا طُرغُد، الذي كان يستعد للدفاع عن طرابلس، بأمر الحملة. أما في

كلو، المصدر السابق، ص 202.

(1) تتفق معظم المصادر على إن الإعداد للحملة إستغرق ستة شهور: كلو، المصدر السابق، ص 202. إلا إن يلماز اوزتونا هو الوحيد من بين المؤرخين الذي يذكر إن الإعداد للحملة إستغرق ثلاثة أشهر تقريبا (من العاشر من شباط إلى الثاني من مايس)1560؛ المصدر السابق، ص 315.

(2) Lynch, Op. Cit., p. 236.

(3) Braudel, Op. Cit., p. 976-977.

(4) هذا ما أورده فرنانند براودل في الصفحتين 976 -977 من كتابه المذكور آنفا. اما بقية المصادر فتورد أرقاما متضاربة بشأن أعداد السفن والرجال الذين أُرسلوا في الحملة: يذكر إيفانوف (ص 226)، نقلا عن ايتوري روسي، أربعة عشر ألف جندي، ويذكر أندريه كلو (ص 202) إن عدد السفن بلغ مائة سفينة، بينها 53 قادسا، بينما يذكر يلماز اوزتونا (ص 315) إن عدد الجنود كان ثلاثين ألفا، وإن عدد السفن كان مائتي سفينة. لكن الرأي الأرجح والأرقام الأدق هي تلك التي أوردها فرنانند براودل، بصفته أدق المصادر بإعتراف المصادر الغربية، على الرغم من إن أندريه كلو إستقى معظم مادته العلمية عن هذا الموضوع منه، وعرضها بأسلوبه الخاص، إلا إنه إختلف عنه عند هذه النقطة.

(5) كان عُلُج علي يراقب أنباء الاستعدادات المسيحية أولا بأول، وكان يبلغ إسطنبول بتفاصيلها. كلو، المصدر السابق، ص 202؛ ويبين فرنانند براودل أهمية إقتناص عنصر المفاجأة بالتعليق الآتي:"... فهل كان اقتناص عنصر المفاجأة سببا في إبحار الإسطول في شهر كانون الأول على نحو غير محتمل؟ كما يعرف كل بحار، انه كان من الحماقة المغادرة في أي وقت من تلك السنة. ولكن الدوق [ويقصد دوق مدينا سيلي] كان جنديا، وليس بحارا. وقد أصر على خطته إزاء النصائح كلها، وغادر الإسطول مسينا. وواجه في الحال تقريبا طقسا رديئا. وكان الحل الوحيد هو التوجه نحو مالطا. فالبحارة يكثرون فيها، لأن الإسطول كان قد ابقي في مالطا بسبب سوء الطقس مدة عشرة أسابيع، حتى العاشر من شباط 1560. وخلال مدة الإنتظار الطويلة، تعرضت القوة الاستطلاعية للأوبئة والتلف، بحيث فقدت ألفين من رجالها من دون إطلاق قذيفة واحدة"؛

Braudel, Op. Cit., p. 978;

المدني، المصدر السابق، ص 378، إذ يذكر إن قطع الإسطول الإسلامي بلغت 86 سفينة حربية.

إسطنبول فقد بدأ العثمانيون بتحشيد إسطول بقيادة الأميرال الأعظم بيالة باشا مكون من مائتين وخمسين مركبا وأرسلوه إلى جربة على عجل[1]. وتذكر المصادر العثمانية إن الباب العالي أرسل إلى الملك الحفصي بتونس وواليي رودس والمورة فرمانات يخبرهم فيها بخروج الإسطول العثماني للدفاع عن طرابلس[2]، وجاء في أحد أوامر السلطان:

> **"تقرر توجيه القيادة العامة للحملة التي سترسل لنجدة طُرغُد باشا وتسند إلى بيالة باشا، و[صدرت] تعليمات بأسماء الأمراء وطبقات الجند من الجهات التي سترسِل المحاربين التامّي التجهيزات... وحُددت لهم التواريخ والأماكن التي سيأخذون منها المراكب، وأن يُكتب للأمراء بذلك ويُنبأ بتاريخ وصول الرسائل إليهم. كما وُجهت أوامر سامية إليهم بهذا الشأن، وأن يتم التأكد من إن المرشحين للحرب مستوفون للتجهيزات، وأن لا يقبل عذر المقصرين..."**[3].

غادرت قطع الإسطول المسيحي مالطا في أوقات مختلفة[4]، وإلتقت بالقرب من زوّارة[5]، وتمكنت في أوائل آذار 1560 من السيطرة على جزيرة جربة وإنشاء حصن فيها، أملا في تلقي المزيد من الإمدادات من صقلية[6]. ولكن تلك الإمدادات لم تصل إلا في وقت متأخر، مما أتاح لطُرغُد، الذي كان في طرابلس، الوقت الكافي للتوجه إلى جربة. من جانب آخر، كان هناك قلق كثير، أُضيف، إلى جانب رداءة الطقس، لدفع الإسطول المسيحي للتوجه إلى جربة بدلا من طرابلس[7].

---

(1) Lynch, Op. Cit., p. 236; Davies, Op. Cit., 171.
Braudel, Op. Cit., p. 978.

(2) التميمي، رؤية منهجية...، ص ص 83-84.

(3) المصدر نفسه.

(4) يذكر (John Lynch) في الصفحة 236 من كتابه المذكور آنفا، إن القوة الاستطلاعية أنزلت في السابع من آذار 1560، من دون حصول حوادث، وبذلك وضعت نفسها في موقف حرج، وكشفت خطأ القرار الذي إستندت إليه المهمة بأكملها.

(5) زوّارة: مدينة ليبية تقع على شاطئ البحر المتوسط، تبعد عن العاصمة طرابلس نحو 100 كم (69 ميلا) غربا، ونحو 60 كم (38،4 ميلا) عن حدود تونس. وهي مدينة ذات أصول أمازيغية، وما زال سكانها يتحدثون الأمازيغية، ويسمون مدينة زوّارة بإسم "تامورت"، وهم من السكان الأصليين في ليبيا.

(6) كلو، المصدر السابق، ص 202.

(7) Braudel, Op. Cit., p. 978.

في تقويمه لتحركات الإسطول المسيحي خلال هذه الحملة، علق الأستاذ عبد الجليل التميمي قائلا:

"... في ضوء ذلك ندرك إن قيادة الإسطول لم تضع مخططا محكما للهجوم، وإن إختلافات تلك القيادة ضيّع عليها فرصة ذهبية، وذلك بعدم التركيز على مهاجمة طرابلس الغرب... ، وإن طُرغُد كان يتحرك من طرابلس إلى جربة في محاولة منه للتخطيط والتنسيق ونقل الأسلحة، في الوقت الذي كان فيه الإسطول العثماني قد خرج من ميناء إسطنبول"[1].

أما أندريه كلو فيصف حالة الفوضى والهلع التي ذكرها الأستاذ عبد الجليل التميمي، بقوله:

" لقد إستولى الهلع على الجنود الذين هرعوا نحو زوارق الإنقاذ وإقتحموها إقتحاما. وكان القادة عاجزين عن صدّهم، وأبحرت القوادس في فوضى. أما السفن الشراعية فقد عصفت بها الرياح التي هبّت، فرمت بها إلى الساحل"[2].

في هذه المرحلة كان إسطول الأميرال الأعظم بيالة باشا قد سافر بسرعة فائقة من إسطنبول، ووصل إلى جربة خلال عشرين يوما فقط[3]، وهي مدة لم تكن مألوفة خلال القرن السادس عشر[4]. وقد وصل إلى قادة الحملة الأوربية خبر وصول الإسطول العثماني[5] بقيادة بيالة معززا بخبرة عُلُج علي باشا[6]. وباغت العثمانيون الإسطول المسيحي، الذي لم تُتح له

---

(1) عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية...، ص 84.

(2) كلو، المصدر السابق، ص ص 202-203؛
William H. Prescott; History of the Reign of Philip the Second, King of Spain, Vol. I, (new ed.), Philadelphia, 1891, pp. 385-386.

(3) يتفق معظم المؤرخين، ومنهم فرناند براودل، على إن مدة وصول الإسطول كانت عشرين يوما، بإستثناء يلماز اوزتونا الذي ذكر إن الإسطول العثماني وصل خلال 33 يوما؛ المصدر السابق، ص 315.

(4) Braudel, Op. Cit., p. 979.

(5) Braudel, Op. Cit., p. 979.

(6) قائد بحري من أصل إيطالي، تربى برعاية طُرغُد باشا، الذي أطلق عليه اسم أولوج علي وتولى قيادة الإسطول العثماني في المعركة التي جرت ضد الإسطول الإسباني عند جزيرة جربة بنجاح، وتم تعيينه بعدها واليا على أزمير. وإبتداءً من سنة 1556 أصبح قبطانا في الإسطول العثماني. وفي سنة 1565، إنضم الى إسطول بيالة باشا أثناء حصار مالطا.

الفرصة لتنظيم انسحابه أو مقاومته. ولعل سرعة إشاعة خبر تحرك الإسطول العثماني كان لها أثر في الفوضى التي حصلت بين قيادة الإسطول الإسباني[1]. ومع ذلك، دارت بعض المناوشات غير المتكافئة، أدت إلى تسجيل نكسة أوربية في جربة، إذ خسر الإسطول المسيحي ما يتراوح بين 30–32 قطعة بجربة، وفرّ البعض الآخر أو أُسر. أما الحامية الإسبانية بجربة، التي قاومت، فقد قضي عليها تماما، وشكلت رؤوس القتلى ما أُطلق عليه تاريخيا بـ (برج الرؤوس)[2] قرب برج الكبير[3]. وبسبب الخسائر التي أوقعها الإسطول العثماني في صفوف الإسطول المسيحي، فُقدت ثمان وعشرون سفينة من مجموع السفن ألثمان والأربعين، ناهيك عن السفن التي إستولى عليها العثمانيون. وكان مثل هذا الإنهيار المفاجئ نادرا في مياه البحر المتوسط.

إنتشرت أخبار تدمير الإسطول المسيحي إلى أنحاء أوربا كافة. وحملت السفن الناجية، في الثامن عشر من مايس 1560، الأخبار السيئة مع كثير من التفاصيل المرعبة. وكان من بين المحظوظين الذين فروا من قبضة العثمانيين أندريا دوريا، آمر الإسطول، ونائب الملك في صقلية نفسه وبعض من رفاقه المقربين[4]. وأخيرا، بعد إستسلام المرفأ، أصبح الإسطول

وبعد وفاة طُرغُد ريّس تم تعيينه واليا على الجزائر. تمكن من فتح تونس سنة 1569، وخلال حصار حلق الوادي غادر تونس بسبب حملة قبرص في السنة اللاحقة، فحقق إنتصارات هناك. وعُين أميرالا أعظم للقوة البحرية العثمانية في التاسع والعشرين من تشرين الثاني سنة 1571، بعد وفاة مؤذن زادة علي باشا في معركة ليبانتو التي كان قائد الجناح الأيسر فيها؛

Kıbrıs'ın Fethi (1570-1571), Ankara, Genel Kurmay Askeri Tarih ve Stratejik Etut Başkanlığı, Ankara, 1985, p. 72; Colin Imber; "The Reconstruction of the Ottoman Fleet after the Battle of Lepanto, 1571-1572", *Studies in Ottoman History and Law*, Istanbul, 1996, pp. 86;

وعن معنى إسمه ونشأته ونشاطه في القوة البحرية العثمانية؛

Orhan Koloğlu; "Renegades and the Case of Uluç / Kiliç Ali", in: Rossella Cancilia (ed.); Mediterraneo in Armi, (secc. XV-XVIII), Vol. 2, Palmero, Associane Mediterraneo, 2007, pp. 513-531;

محمد خير فارس؛ تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني حتى الإحتلال الفرنسي، دمشق، 1969، ص ص47-48.

(1) التميمي، رؤية منهجية...، ص 84.

(2) المصدر نفسه.

(3) بقي هذا البرج حتى الإحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830، إذ أجبرت فرنسا باي تونس على عقد معاهدة نص احد بنودها السرية على تدمير برج الرؤوس سنة 1882. التميمي، المصدر السابق، ص 85.

(4) Braudel, Op. Cit., p. 980; Prescott, Op. Cit., p. 386.

العثماني حرا في التصرف مرة أخرى. وفي الأول من تشرين الأول 1560 دخل بيالة باشا إلى إسطنبول دخولا ظافرا، على سفينة ذات راية خضراء، متبوعا بخمس عشرة سفينة مطلية باللون الأحمر الفاتح، في جو ساد فيه إطلاق العيارات النارية إبتهاجا، وتعالى هتاف الحشود وسط ضرب الطبول وقرع الصنوج[1].

في تقويمه للإنتصار العثماني في معركة جربة علق فرناند براودل قائلا:

"لقد كسب المسلمون معركة الهيمنة على وسط البحر المتوسط، وأصبحت طرابلس تحت قبضة العثمانيين أكثر من أي وقت مضى. أما العالم المسيحي فقد كان في كرب؛ إذ كان من الصعب ترك الأرمادا [التركية] طليقة في شواطئ إيطاليا، ناهيك عن الحملات التي يمكن أن تشنها خلال فصول الصيف"[2].

أما المؤرخ الإنجليزي اللورد كنروس فيقول:

" كانت درجة الهزيمة كارثة على العالم المسيحي أكثر مما كانت عليه في أي مكان في تلك المياه منذ فشل الإمبراطور شارل الخامس في الإستيلاء على الجزائر"[3].

---

(1) Ibid., p. 985.
ويقدم لنا أندريه كلو وصفا مشوقا لمشهد عودة الإسطول، بقوله:" كانت عودة بيالة باشا إلى إسطنبول عودة القائد المظفر. فلقد جاءت جموع غفيرة لإستقباله على شواطئ الدردنيل والبسفور، وشاهد سليمانُ، من كشك مطل على مدخل الميناء، مرور القوادس، وفي مقدمتها سفينة الأميرال التي كان في مؤخرتها القادة المسيحيون الفارو دي ساندي قائد جربة، وأميرالات صقلية ونابولي... وطيف بهم أمام العامة خلال الأيام اللاحقة في شوارع إسطنبول، هم وأسرى آخرين. كانت القوادس العثمانية المطلية باللون الأحمر تتابع، ثم تلتها القوادس التي نجت من المسيحيين. وقد نزلت صواريها ودفاتها وجُرّت كما تُجرّ الجثث الهامدة. وهلل الآف الناس لرجال السفن المظفرين، وكبروا. ولم يبق على هدوئه سوى السلطان الذي كان يرقب المشهد بعبوس، بحيث يجعل الناظر إليه يعتقد إن هذا الإنتصار لم يكن يهمه، وكأن شيئا لم يحدث"؛ كلو، المصدر السابق، ص 203.

(2) Braudel, Op. Cit., p. 985.

(3) Kinross, Op. Cit., p. 264.

وأيّا كانت آراء المؤرخين في تقويم هذا الحدث، فقد كان للإنتصار العثماني في جربة نتائج مهمة، يمكن تحديدها بالنقاط الآتية:

أولا: شجع الإنتصار في جربة العثمانيين على القيام بالمزيد من الحملات لإستعادة المرافئ القريبة، وأصبحت السيطرة على طرابلس، من الناحية الستراتيجية البحرية قوية ومؤكدة أكثر من أي وقت مضى، لاسيما إن الجزء الجنوبي من الحوض الأوسط للبحر المتوسط أصبح تحت سيطرة العثمانيين. فمثلا، دار الحديث عن حملة كان (التركي الأعظم) ينوي القيام بها ضد حلق الوادي في سنة 1561. وقد صحّت تلك التوقعات، فمنذ الثامن والعشرين من تشرين الأول 1560، جهز العثمانيون مائة وعشرين سفينة حربية إلى توسكانيا، وأصبحت السواحل الإيطالية والإسبانية في خطر الهجوم[1]. وقيل في إسطنبول إن الإسبان كانوا مذعورين جدا بسبب الهزيمة التي حدثت في جربة، بحيث إنهم كادوا أن يخلوا وهران[2].

ثانيا: بالإستيلاء على جربة أصبحت تونس محصورة بين ممتلكات العثمانيين في الجزائر وطرابلس، وكأنها بين طرفي كماشة. ولم تبق للإسبان ولحلفائهم الحفصيين سوى قلعة حلق الوادي[3].

ثالثا: كان الإنتصار العثماني في جربة سببا في دفع العالم المسيحي إلى توجيه أنظاره نحو البندقية. فخلال الكارثة، كانت البندقية وحدها هي التي بمقدورها مساعدة القوى المسيحية في إستعادة السيطرة على البحر. وفي فيّنا خاطب كونت لونا[4] (Count Luna)، الملك فرديناند الأول، في الثامن من تشرين الأول 1560، "كان من الأفضل لك يا صاحب الجلالة أن تعود إلى العصبة التي شكلها البنادقة يوما ما مع الإمبراطور... مولاي"[5]. وفي روما، تجددت فكرة العصبة ضد العثمانيين، بضمنها البندقية، خلال المحادثات بين البابا الجديد بايوس الرابع (1559–1565) ودون جوان دي زونيغا (Don Juan de Zuniga)، الذي كان يمثل

(1) يتحدث أندريه كلو، في الصفحة 204 من كتابه المذكور آنفا، عن خروج عمارة السلطان إلى حلق الوادي أو إلى وهران، سببت ذعرا في العالم المسيحي. ويبدو إن إسطنبول غالبا ما كانت تروّج أخبارا مضلِلة لتحقيق هدفين: زرع الرعب في صفوف العدو، وصرف الأنظار عن الوجهة الحقيقية للحملة المزمعة. قارن:
Braudel, Op. Cit., pp. 985-986.

(2) كلو، المصدر السابق.

(3) فارس، المصدر السابق، 1969، ص 49.

(4) لم أعثر له على تعريف.

(5) Braudel, Op. Cit., p. 986.

مع أخيه، آمر قشتالة، مصالح الإمبراطور فيليب الثاني في روما. وقد أجاب فيليب الثاني على اقتراح دي زونيغا: "إنني ادرس محادثاتك مع صاحب القداسة فيما يخص تشكيل عصبة مع البنادقة ضد العثمانيين"[1].

رابعا: تأكد إرتباط الولايات المغربية بالمركز، وأسهمت مثل هذه الحملات البحرية في تقديم الضمانات العملية للأهالي والمسؤولين بسرعة إنجادهم إذا جوبهوا بأي خطر خارجي. كما إن إنتصار العثمانيين في جربة أكد على الترابط والتأثير العثمانيّين للجنوب والساحل التونسي تحت لواء طُرغُد باشا، وزاد في الوقت نفسه من قوة القطعات البحرية لطُرغُد وحسن باشا والي الجزائر، إذ مُنح هذا الأخير عشر بواخر هي الأكبر حجما من مجموع ما تم الإستيلاء عليه[2].

خامسا: يشير هذا الإنتصار العثماني، إلى جانب أهميته الدولية، إلى إخفاق المسعى الإسباني الأخير على جربة، لاسيما إن الهزيمة التي أُلحقت به قد تُبعت، بعد مدة وجيزة، في الحادي والثلاثين من تموز 1560، بإستسلام الحامية الإسبانية التي بقيت في الجزيرة، في البرج الكبير[3].

سادسا: بدأ القباطنة العثمانيون بتوطيد سيطرتهم على ساحل شمالي أفريقيا، بإستثناء وهران التي بقيت بأيدي الإسبان. وبهذا الإنجاز بدأوا يتحركون بحرية نحو سواحل المحيط الأطلسي، عبر مضيق جبل طارق، ليصلوا إلى جزر الكناري، وليقطعوا الطريق أمام الأساطيل التجارية الإسبانية القادمة من العالم الجديد، بحمولاتها من كنوز وثروات.

أما بخصوص الرأي الذي طرحه كل من الأستاذ عبد الجليل التميمي والمؤرخ تريفور دافيس، القائل:"...إن البحر المتوسط أصبح [بعد الإنتصار في جربة] بحيرة عثمانية"[4]، فهناك رأي آخر يبدو أكثر صحة؛ إذ إن الدولة العثمانية لم تحقق سيطرة تامة على البحر

---

(1) Ibid.

(2) التميمي، رؤية منهجية، ص 85.

(3) G. Veinstien,; "A perçus sur l'entrée de l'Ile de Djerba dans l'Orbit Ottomane", <u>*Revue d' Histoire Maghrebine*</u>, issue 31-32, December, 1983, p. 405.

(4) التميمي، المصدر السابق، ص ص 85 - 86؛

Davies, Op. Cit., p. 171.

المتوسط خلال هذه المرحلة، ولا خلال المراحل اللاحقة، فما زالت هناك قبرص بأيدي البنادقة، ومالطا، بأيدي فرسان القديس يوحنا، الذين ما فتئوا يشكلون مصدر إزعاج للسفن العثمانية، ولموانئ شمالي أفريقيا.

ولكن، على الرغم من أهمية الإنتصار الكبير الذي تحقق في جربة، إلا إن الخطأ الذي وقع فيه العثمانيون هو إنهم لم يستثمروا النجاح الذي تحقق في جربة؛ فلمدة أربع سنوات (1561–1564) لم يغادر الإسطول العثماني مرافئه، كان خلالها العالم المسيحي في ذعر شامل. وكان من الصعب أن تحدث الصحوة المسيحية، كما يقول فرناند براودل، لو لم يسمح العثمانيون بها أصلا. ولكن، لماذا تلكأ العثمانيون في متابعة إنتصارهم؟

المصادر المتوافرة لا تقدم لنا الكثير من التفسير. ولكن ثمة بضعة تفسيرات محتملة يطرحها براودل وهو غير مقتنع بها تماما، من بينها: توتر العلاقات مع بلاد فارس، ووفاة بيالة باشا كما أشيع، والتنافس بين وزراء السلطان الذي يمكن أن يكون قد أثر في حركة الإسطول، وأخيرا إحتمال إستدعاء القوادس لعملية في البحر الأسود[1].

ولكن تقرير السفير الإسباني في فيّنا، بتاريخ الرابع عشر من أيلول 1560، يقدم لنا تفصيلات أكثر: لقد كان السلطان العثماني غير قادر على التوصل إلى إتفاق مع الشاه ألصفوي[2]. وبسبب غضبه من ذلك، أمر بإعلان حرب على الفرس. وقيل انه كان يعتزم قضاء فصل الشتاء في حلب ليستعد للحملة القادمة. ولكن قيل أيضا انه "سوف لن يتجرأ على مغادرة إسطنبول، لا بسبب عدم قدرته على الإعتماد على ولاء إبنه سليم فحسب، وإنما بسبب خشيته أيضا من تزايد شعبية بايزيد بين رعاياه، بحيث إن ثورة يمكن أن تحدث في تلك الأجزاء وتجعل من المستحيل عليه أن يعود"[3]. ونستطيع أن نخمن، إستنادا إلى ذلك، الوضع الداخلي العام في إسطنبول وتأثيره في خطط السلطان الحربية. على أية حال، يبدو إن الدولة العثمانية قد أصيبت بالشلل بسبب هذا النزاع في قلب الدولة. ويمكننا أن نضيف إلى تلك التفسيرات إن سنة 1561 كانت سنة سوء موسم حصاد في أنحاء الدولة كافة، وسنة

---

(1) Charriére, Op. Cit., Vol. II, pp. 657-658.

(2) وهو الشاه طهماسب الأول: ولد في الثالث من آذار 1514في شاه آباد بالقرب من أصفهان، وتوفي في 1576 في قزوين، حكم بين (1524-1576): تولى الحكم بعد أبيه الشاه إسماعيل الأول (1501-1524)، إتسم عهده بالحروب المستمرة مع الدولة العثمانية بسبب الخلافات المذهبية.

(3) Shaw, Op. Cit., pp. 108-109.

خلافات مع البنادقة على الحبوب وسنة مجاعة[1]. ولابد أن يؤثر ذلك كله في خطط السلطان وأهدافه. ومما يؤكد ذلك إن العثمانيين، في السنة نفسها، أعادوا تجديد الهدنة مع الإمبراطور التي كانت معلقة منذ سنة 1558[2]. من الواضح، إذن، إن السلطان كان يريد تركيز إهتمامه كله نحو الشرق، لأن سلام الوضع القائم الذي إختار فرضه على العالم المسيحي في البحر لم يكن كافيا. بإختصار، كان يريد تخليص جيوشه البرية أيضا من الجبهة الغربية. لذلك، في الوقت الذي شكلت فيه حملة جربة ضربة موجعة للهيبة الإسبانية، وإنتصارا ساحقا للمسلمين في وسط البحر المتوسط، فإنها أيضا كانت درسا لإسبانيا؛ إذ بات واضحا إن الإمبراطور فيليب الثاني، كما ذكرنا، لا يستطيع إحتواء العثمانيين، أو حتى يحمي ممتلكاته المتوسطية من دون قوة بحرية قوية.

على هذا الأساس، وإبتداءً من سنة 1560، شرع فيليب الثاني ببرنامج طموح لإعادة التسليح البحري في الموانئ والمسافن في كل من صقلية، وإيطاليا، وكتالونيا[3]. وأصبح الإسطول الإسباني في البحر المتوسط يتكون من نحو تسعين مركبا، وقسّم على أربع عَمارات من القوادس، وهي قوادس إسبانيا، ونابولي، وصقلية، وجنوا. وبين سنتي 1560 و 1564 تمت إعادة تسليح الإسطول تسليحا كاملا، كما تم تجهيزه بالرجال المدربين. وقد إستجابت المسافن الإيطالية للطلب الجديد، كما تلقى فيليب الثاني إعانة من البابا على شكل ضريبة فُرضت على رجال الدين، تسمى "كروسادا" أي "الصليبية". وبصفته حاميا للعالم المسيحي، فقد تلقى أيضا دعما من حليفاته الإيطاليات: سافوي، وفلورنسا، وجنوا، فضلا عن البرتغال. ومنذ سنة 1561 تمت إعادة الحياة لمسافن برشلونة، بمساعدة من التقنيين الجنويين والباسيك. وفي كانون الأول 1562 كان مجلس التشريع في قشتالة يجتمع لتقديم إعانة إستثنائية لتمويل البرنامج الحربي[4]. وكانت نتيجة تلك الجهود نشر نحو مائة قادس بين سواحل إسبانيا وأفريقيا[5].

إن المهلة التي أتاحها العثمانيون للإسبان، خلال تلك السنوات، مكّنت فيليب الثاني من تجربة قواته الجديدة ضد سواحل شمالي أفريقيا مجددا، فتمكنت من صدّ الهجوم الجزائري

---

(1) Braudel, Op. Cit., pp. 986-987.

(2) Ibid.

(3) Lynch, Op. Cit., p237.

(4) كلو، المصدر السابق، ص 205.

(5) Lynch, Op. Cit.

الكبير ضد وهران، وهي من أهم الممتلكات الإسبانية، بعد حصار إستمر شهرين (نيسان . حزيران 1563)[1]، وتمت إستعادة الحاميات الإسبانية وإيقاع أضرار جسيمة بإسطول حسن بن خير الدين بربروسا. ولكن الشئ الأكثر أهمية من الإنتصار هو الطريقة التي كُسبت بها المعركة. فبالإفادة مجددا من درس جربة، نظّم فيليب الثاني عملية الإنقاذ التي قام بها على نحو قوي وفاعل. وبفضل هذه العملية المنظّمة، تمكن الإسبان، بحلول سنة 1564، من إتخاذ الوضع الهجومي في غربي البحر المتوسط، الذي كان فيليب الثاني يعدّه من متطلبات الحد الأدنى، لاسيما بعد هزيمة جربة. وعندما قرر العثمانيون مهاجمة مالطا في السنة اللاحقة، تكشفت لهم جسامة الخطأ الذي وقعوا فيه، كما تكشفت لهم أيضا قوة الإسطول المسيحي الجديد.

خامسا: **الإخفاق في مالطا**: 1565

نتيجة للإنتصار العثماني في جربة أصبحت الطريق ممهدة للقضاء على المعقل المسيحي المنيع، حصن جزيرة مالطا، حيث فرسان القديس يوحنا. وجاء هذا القرار بعد أربع سنوات من السبات العثماني، وهو الخطوة الثالثة التي كانت تواجه طُرغُد لتحقيق السيطرة على المثلث المائي طرابلس . تونس . مالطا.

وحتى ذلك الوقت كانت القوة البحرية العثمانية قد حققت إنتصارات متلاحقة في السواحل الجنوبية من الجزء الأوسط في البحر المتوسط. ومن هنا، فإن السيطرة على مالطا كانت تمثل أهمية خاصة في الستراتيجية البحرية العثمانية خلال السنوات الأخيرة من حياة السلطان سليمان، الذي يبدو انه نَدِم على عدم القضاء عليهم خلال حملته ضد رودس سنة 1522، بحسب ما يروي ستانلي لين . بول[2].

---

(1) للتفاصيل عن معركة وهران، أو المرسى الكبير؛ بسام العسلي؛ الجزائر والحملات الصليبية (1547– 1791م)، بيروت، 1980، ص ص 87-97.

(2) Lane-Poole & Kelly, p. 141.

في تحليلنا للدوافع التي حدت بالعثمانيين إلى إتخاذ قرار القضاء على معقل فرسان القديس يوحنا في مالطا، لابد أن نأخذ بنظر الإعتبار الوضع الذي وصلت إليه الجزيرة خلال السنوات الثلاثين التي أعقبت منح الجزيرة للفرسان؛ إذ عزز الفرسان دفاعات مالطا، كما تم تجديد الأسوار المحيطة بمدينا (Mdina)[1]، وتم وضع إضافات وتعزيزات على حصني سانت أنجيلو وسانت إيلمو، الذي يهيمن على مدخل الميناء الكبير، ومارسا موسكوت[2]، وحصن سانت ميخائيل عند النهاية البرية لشبه جزيرة سينغليا[3]. من هنا، بات واضحا إن الفرسان يسعون لبناء قاعدة عسكرية دفاعية . هجومية في منتصف البحر المتوسط[4]، كان هدفها الرئيس مهاجمة الأساطيل الإسلامية والموانئ المنتشرة على إمتداد موانئ شمالي أفريقيا. ولكن، على الرغم من قوة تلك التحصينات، تمكن المسلمون من الإغارة على مالطا ثماني مرات خلال العقود الأولى لإستقرارهم، بل إن القبطان طُرغُد باشا أنزل عليها عشرة آلاف رجل، ثم أبحر إلى غوزو (Gozo)[5]، وتمكن من اسر أعداد كبيرة من السكان[6].

ومع ذلك كله لم يكن قرار الحملة الحاسمة قد إتخذ بعد إلا في أواخر خمسينيات القرن السادس عشر. ولكن لماذا في هذا التوقيت بالذات؟ يقدم لنا المؤرخ بروس ألِن واتسون تفسيرا قد يبدو معقولا للإجابة عن هذا التساؤل، يقول واتسون:

> **"...إن الأمور تغيرت كليا في سنة 1557، حينما تم إختيار جان دي لا فاليت . باريسوت (Jean de La Vallette – Parisot) أستاذا أعظم للمنظمة. وكان لافاليت هذا متدينا، ومدربا، وفوق ذلك كله، فهو جندي مدرب ذو تجربة كبيرة... ثم أرسل إسطوله للإغارة على ممتلكات السلطان سليمان في شرقي البحر المتوسط،**

---

(1) مدينا: هي عاصمة مالطا القديمة. وهي مدينة من مدن العصر الوسيط، ذات شوارع ضيقة، تقع في وسط الجزيرة. وتعرف أيضا بإسم "المدينة الصامتة". وهي تهيمن على منظر الجزيرة؛
(Mdina), Wikipedia, (*).

(2) ربما تكون كلمة (مارسا) مشتقة من كلمة (مرسى) العربية.

(3) للتفاصيل عن هذه التعزيزات؛
Lane-Poole & Kelly, pp. 141-142.

(4) عن الإستعدادات والتحصينات التي شادها الفرسان في جزيرة مالطا؛
Kinross; Op. Cit., p. 38; Prescott, Op. Cit., pp. 401-402.

(5) غوزو: جزيرة من جزر الأرخبيل المالطي في البحر المتوسط، وهي جزء من مالطا، وثاني أكبر جزيرة من جزر مالطا الأربع.

(6) The Knights of Malta: Dragut's Attack on Gozo of 1551, (*).

لاسيما سوريا ومصر. لكن إسطوله كان أكثر فاعلية في المياه الواقعة بين المهدية وصقلية وضمن بحر الأدرياتيك، متسببا في إغلاق التجارة الإسلامية مع البندقية"[1].

إذن، فإن الإعتبارات الإقتصادية كانت تمثل أهمية خاصة في الحسابات العثمانية. لكن، هل إن تلك الإعتبارات وحدها هي التي كانت تحرك السلطان؟ أم كانت لديه أهداف أخرى من وراء ذلك؟ لقد كان السلطان يدرك إن أهمية مالطا كانت تفوق أية إستفزازات يقوم بها لافاليت، وكان يعرف إنها محطة إنطلاق إلى كل من صقلية وإيطاليا، وإن ميناءها الكبير سيوفر لإسطوله قاعدة لهجمات أبعد في غربي البحر المتوسط، كما إن إستئصال المنظمة سيوفر حماية قوية لحلفائه في ساحل شمالي أفريقيا، وهو بحاجة إليهم إذا ما فكر بمدّ نفوذه إلى غربي البحر المتوسط، وبالنتيجة، تحقيق سيطرته الكاملة على البحر المتوسط. إذن، فإن الإعتبارات الستراتيجية هنا تفوقت على الإعتبارات الإقتصادية في خطط السلطان وأهدافه. على هذا الأساس، قرر السلطان، بتشجيع من مستشاريه، مهاجمة مالطا، في تشرين الأول 1564.

أما الرواية التي يقدمها المؤرخ اللورد كنروس فتبدو ذات أهمية ثانوية. يقول كنروس:

"إن ابنة السلطان، مِحرمة (Mihrimah)[2]**، إبنة روكسلانة، التي كانت تواسيه وتؤثر فيه في سنوات**

---

(1) Watson, Op. Cit., 36.

(2) الأميرة مِحرمة سلطانة (1578-1522): هي إبنة السلطان سليمان القانوني من زوجته الرابعة اليكساندرا ليسوفسكا، وهي سيدة اوكرانية إشتهرت بإسم روكسلانة، وهو الإسم الذي أُطلق عليها عند زواجها من السلطان سليمان. وإسم (مِحرمة) أيضا يُلفظ بصيغة مرحمة (Mirhumah) او مِحريامة (Mihri-a-Mah). سافرت مِحرمة مع والدها في أنحاء الدولة العثمانية عندما كان يكتسح الأراضي الواحدة تلو الأخرى. وقد ورد في أحد الأدبيات الفارسية إنها كانت تسافر في المعارك مع والدها على ظهر حصان يُدعى (البطل) في معركة جيزابار (Gizabar) في شمالي مصر خارج الإسكندرية. وفي سنة 1539، عندما بلغت السابعة عشر من عمرها، تزوجت الداماد رستم باشا (1505-1561)، ابن إبراهيم باشا، الذي كان الصدر الأعظم خلال عهد السلطان سليمان. وعلى الرغم من إن هذه الزيجة لم تكن سعيدة، إلا إن مِحرمة تألقت بكونها راعية للفنون وواصلت رحلاتها مع والدها حتى وفاة زوجها.
إن حقيقة تشجيع مِحرمة لوالدها بشن حملة ضد مالطا، وإنها وعدت ببناء أربعمائة قادس على نفقتها الخاصة، وإنها كانت تكاتب ملك بولندا سجسموند الثاني، وإنها، عند وفاة والدها، أقرضت خمسين إلف جنيها من الذهب (Gold Sovereign) لأخيها السلطان

شيخوخته، أصرت عليه لشن حملة بوصفها مهمة مقدسة ضد الكفار، وكان صدى صراخها يُسمع في السراي بعد إستيلاء الفرسان على سفينة تجارية كبيرة كانت في طريق عودتها من البندقية وهي محملة بكمية قيّمة من السلع الكمالية مخصصة لحريم السلطان" [1].

ولكن تلك الرواية، وإن صحت، لا يمكن عدها من الأسباب الرئيسة وراء إتخاذ قرار الحملة.

قسّم السلطان سليمان، الذي بلغ الآن (في سنة 1565) السبعين من عمره، قيادة الحملة على شخصين: رئيس قباطنة البحر، بيالة باشا، لقيادة القوة البحرية؛ ولالا مصطفى باشا، لقيادة القوات البرية. وبسبب إدراكه للخلافات القائمة بينهما، أمرهما بإحترام بعضهما البعض وعدم الإختلاف في الرأي[2]. كما كان السلطان يكنّ إحتراما خاصا لمهارة طُرغُد وحنكته، فضلا عن القبطان الذي بدأ نجمه بالصعود، عُلُج علي، الذي كان معه في طرابلس. وقد عينهما مستشارين للحملة، وأمرهما بالتقيد بتوجيهات الآمرَين، وعدم القيام بأي شئ إلا بإستشارتهما وموافقتهما[3].

بحلول منتصف نيسان 1565، أكمل العثمانيون إستعداداتهم، وكان من المتوقع أن تكون الأرمادا العثمانية ضخمة [4]، وأن تكون مدعومة بسفن قباطنة شمالي أفريقيا، من الشرق ومن الجانب الغربي أيضا[5]. من جانبها، كانت الحكومة الإسبانية تخشى من شن هجوم على حلق الوادي، وإتخذت الإجراءات لتجنيد أربعة آلاف جندي مشاة في إسبانيا تقرر إرسال بعضهم إلى كورسيكا، والبعض الآخر للخدمة في قطعات المشاة على ظهر السفن[6].

سليم لمواجهة متطلباته العاجلة، توضح لنا السلطة السياسية التي كانت تتمتع بها. للتفاصيل:

Leslie Peirce; Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire, Oxford, 1993, passim.

(1) Kinross, Op. Cit., p. 247; Watson, Op. Cit., pp. 65-67.

(2) Watson, Op. Cit.

(3) Kinross, Op. Cit; Lane-Poole & Kelly, pp. 144-146

(4) وهي: 140 قادسا، و 10 ماهونات، (وهو سفينة من نوع غاليسا)، و 20 سفينة مستديرة، و15 سفينة من نوع اصغر.

(5) Braudel, Op. Cit., p. 1015.

(6) عن الإستعدادات لهذه الحملة:

وأرسل فيليب الثاني تحذيرات في الإتجاهات كافة: " إن الإسطول [التركي][1] سيأتي بقوادس لم تشهد لها السنوات السابقة مثيلا"[2]. وفي نابولي إرتاب نائب الملك من إنه، وبسبب خطورة التهديد، سيجند ما بين عشرة آلاف إلى إثني عشر ألف رجل[3].

ظهرت القوة الرئيسة للإسطول العثماني، المكونة من (185) سفينة من مختلف الأنواع والأحجام،[4] أمام مالطا في الثامن عشر من مايس 1565[5]. ومنذ البداية ظهر الخلاف بين قائدي الحملة العثمانية، لالا مصطفى وبيالة؛ إذ كان لالا مصطفى يريد إحتلال غوزو (Gozo) أولا، وشمالي الجزيرة، مع عاصمتها مدينا (Mdina)، ليؤمن بذلك مؤخرة جيشه، ومن ثم يتجنب حصن سانت إيلمو[6] ليضرب النقطتين القويتين في الميناء مباشرة، وهما بورجو[7] (Borgo) وسينغليا[8]. بينما كان بيالة يرى إنه لابد من العثور على مرسىً آمن

---

(1) في النص الأصلي (العثماني).

Currey, Op. Cit., pp. 313-330.

(2) Ibid.

(3) هناك تضارب في أعداد الجنود؛ ففي الوقت الذي ذكر فيه فرنانד براودل الرقم المذكور أعلاه، أورد يلماز اوزتونا رقم عشرين ألف جندي؛ المصدر السابق، ص 320.

(4) وهي: 140 قادسا، و 10 ماهونات (وهو سفينة من نوع غاليسا)، و 20 سفينة مستديرة، و 15 من نوع اصغر؛

Braudel., Op. Cit., p. 1015;

أما وليم بريسكوت فيذكر إن القوة العثمانية بلغت 130 قادسا؛

Priscott, Op. Cit., p. 402.

(5) هذا ما ذكره كل من فرنانד براودل في الصفحة 1015 من كتابه المذكور آنفا، وأحمد توفيق المدني في صفحة 384 من كتابه. أما يلماز اوزتونا فيذكر إن الإسطول العثماني وصل مالطا في التاسع عشر من نيسان. ونرجح التاريخ الذي أورد فرنانד براودل، لإعتماده على وثائق معاصرة.

(6) يقع حصن سانت إيلمو عند رأس فاليتا، وهو الموقع الأمامي الأكثر أهمية للفرسان. وقد وُصف قرار فاليتا بإحتلاله حتى آخر رجل بأنه مفتاح الإنتصار الذي حققه الفرسان. وقدّر العثمانيون إن الحصن سوف يصمد لمدة ثلاثة أو أربعة أيام في الأغلب، ولكنه سقط أخيرا في الثالث والعشرين من حزيران، أي بعد واحد وثلاثين يوما من الحصار المستمر. وقد تم تحويل جزء منه الآن إلى مركز شرطة، بينما تم تحويل جزء منه إلى متحف حربي مفتوح للزوار؛

Miller, J., Op. Cit.

(7) بارجو (Bargo) أو بيرجو (Birgu): هي فيتوريوسا (Vittoriosa) الحالية، موقع حصن سانت أنجيلو (St. Angelo) ، الحصن الرئيس للفرسان، الذي كان لافاليت يشرف منه على دفاعات سانت إيلمو؛

Judith Miller; Malta, When Suleiman laid Siege," *New York Times*", September 28, 1986, p. 2.

(8) عن هذه الخلافات؛

لإسطوله قبل البدء بأية حملة برية. ولم يكن هناك مرسىً متاح لهذا الغرض إلا الميناء الكبير، مارسا موسكوت. ولغرض تأمينه كان لابد من الإستيلاء على حصن سانت إيلمو أولا الذي كان مصطفى باشا يريد تجنبه[1]. وإستجابة للمتطلبات البحرية، أنزل لالا مصطفى باشا قواته وبدأ بمحاصرة سانت إيلمو. وبعد أسبوعين، وصل طُرغُد بإسطوله، بكل سرعته للإفادة بأقصى حد من عنصر المفاجأة. وفي الحال، ضاعف عدد بطريات المدفعية، وبدأ بإطلاق النار ضد سانت إيلمو، مكثفا الحصار على نحو متزايد[2].

خرج الإسطول العثماني من الجزائر في الثامن عشر من مايس، متوجها نحو ميناء فاليتا الكبير[3]، الواقع على الشاطئ الجنوبي . الشرقي، وهو أحد أفضل الموانئ في مالطا بعد ميناء مارسا موسكوت. وفي ليلة اليوم نفسه 19/18، نزل ثلاثة آلاف رجل، تبعهم عشرون ألفا في اليوم اللاحق، وتم إحتلال المدينة من دون صعوبة تذكر[4]. وبقي فرسان مالطا يشغلون حصن سانت إيلمو الصغير فقط، الذي يهيمن على مدخل مارسا موسكوت، ومدينة بورجو، وهي منطقة محصنة كبيرة، فضلا عن كونها معاقل منيعة لفرسان القديس ميخائيل والقديس أنجيلو[5]. وفي الرابع عشر من مايس شنّ العثمانيون هجومهم على حصن سانت إيلمو، وهو أضعف نقطة، أملا، عن طريق السيطرة عليه، تحقيق سيطرة كاملة على ميناء فاليتا. وبدأت المدفعية بالقصف في الحادي والثلاثين من مايس. لكن الموقع لم يسقط حتى الثالث والعشرين من حزيران بعد قصف عنيف جدا[6].

Lane-Poole & Kelly, pp. 144-145.

(1) Kinross, Op. Cit., pp. 248-249.

(2) Ibid., p. 249

(3) عاصمة مالطا حاليا، بنيت على منطقة معركة الحصار الرئيسة بعد إنتصار فرسان مالطا، وسميت تيمنا بإسم المُدافع عن الجزيرة (جان باريسوت دي لا فاليتا)، زعيم المنظمة الذي كانت فطنته وقيادته القوية من أهم أسباب إنتصار الفرسان؛

Judith Miller, Op. Cit., p. 2.

(4) Prescott, Op. Cit., p. 405.

(5) Braudel, Op. Cit., p. 1017; Lane-Poole & Kelly, p. 150

(6) يذكر المؤرخ الإنجليزي اللورد كنروس وغيره إن سبب صمود الحصن مدة أكثر من شهر يعود إلى روح الحماسة العالية التي كان الفرسان يتمتعون بها، وإستعدادهم للموت وإستهانتهم به في سبيل عقيدتهم، وتمسكهم بتوجيهات قائدهم لافاليت بالقتال حتى آخر رجل وآخر حجارة في مدينتهم؛

Kinross, Op. Cit., p. 249; see also: Lane-Poole & Kelly, pp. 147-149.

إزاء سقوط سانت إيلمو، عرض السلطان سليمان شروط الإستسلام للفرسان. فما كان من الأستاذ الأعظم لافاليت إلا أن ردّ بعرض يقضي بحفر خندق تحت بورجو شريطة أن يُملأ بجثث الإنكشارية، مما أثار غضب لالا مصطفى باشا، الذي، ردا على ذلك، نقل إسطولا مكونا من ثمانين قادسا عبر البر من الميناء الأوسط (مارسا موسكوت) إلى الميناء الكبير (لافاليت). وهنا، بالتوافق مع جيشه في الجانب البري، إستعد لإستثمار حصني بورجو وسينغليا، مع حصنيهما: سانت أنجيلو وسانت ميخائيل[1].

بعد ذلك، شرع العثمانيون بشن سلسلة من الهجمات نحو النقاط المحصنة المختلفة لميناء مالطا الكبير وحاصروها. لكنهم، على الرغم من تكتيكاتهم العنيفة ومثابرتهم الصارمة، لم يتمكنوا من إحداث تأثير حاسم، بل تكبدوا خسائر أكبر بكثير من خسائر الفرسان المسيحيين. ومع إستمرار الحصار، الذي إستمر نحو شهرين، وتصاعد همّة الفرسان وإعتراضهم سفن الإمداد العثمانية، المحملة بالأغذية والمواد الطبية، بدأت معنويات الجنود العثمانيين بالهبوط، لاسيما بعد إنتشار الحمى التي أثارت مخاوفهم بحدوث طاعون، فضلا عن إستشهاد طُرغُد[2]. وقد أدى هذا كله إلى تناقص معنوياتهم وكفّ هجماتهم، لاسيما مع إقتراب شهر أيلول الخريفي، غير المحبّذ لدى البحارة العثمانيين، مما أثار مصدرا جديدا للنزاع بين آمرَي القوتين البرية والبحرية العثمانيّن، لالا مصطفى باشا وبيالة باشا. ففي الوقت الذي كان فيه لالا مصطفى باشا يستعد لقضاء فصل الشتاء في الجزيرة، على أمل محاربة الحاميات المسيحية وإحتلال العاصمة القديمة، مدينا، لإتخاذها قاعدةً لقواته، أصر بيالة باشا

---

(1) Ibid., p. 250.

(2) كان طُرغُد قد أصيب خلال هذه الهجمات بقذيفة مدفع من سانت إيلمو، سقط في أثرها، وإعتقد إنه مات. وخشية من تقوّض معنويات الجنود، ألقى مصطفى باشا معطفا على جسد طُرغُد، وحمله إلى مركز القيادة. لكن طُرغُد كان لمّا يزل حيا ليسمع، أخيرا، بسقوط سانت إيلمو. يدوّن اللورد كنروس اللحظات الأخيرة من حياة طُرغُد بقوله:" عند ذاك [يقصد بسقوط سانت إيلمو] أظهر بهجته ببضع علامات، ثم رفع عيناه إلى السماء، كما لو إنه يحمد الله، ثم مات في الحال؛

Kinross, Op. Cit, p. 249;

ويصف يلماز اوزتونا حادثة استشهاد طُرغُد بهذه العبارات:" أُصيب طُرغُد باشا في الهجوم السادس بشظية في رأسه، وجُرح بصورة بالغة، وإصطبغت لحيته البيضاء بلون أحمر قانٍ. وفي الحال، جاء كل من لالا مصطفى وعُلُج علي. وتلا لالا مصطفى القرآن، بعدها مات طُرغُد شهيدا، بعد أن بلغ الثمانين من عمره. ثم تقرر نقله إلى طرابلس، التي إستعادها هو وعُلُج علي مسبقا من ظلم المسيحيين، ودُفن هناك. ويُطلق على الموقع الذي إستشهد فيه طُرغُد حاليا إسم (رأس طُرغُد)؛ المصدر السابق، ص 321.

على إن الإسطول أهم من الجيش، وانه لن يجازف بسفنه في تلك المياه البعيدة من دون مرسىً مناسب، فضلا عن تزايد مخاوفه بشأن شحة الإمدادات، لاسيما بعد منتصف أيلول.

في هذه المرحلة، وصل إسطول مسيحي من صقلية بقوة تُقدّر بنحو عشرة الآف رجل بقيادة دون غراسيا دي توليدو (الطليطلي)، خلفا لأندريا دوريا، آمرًا للإسطول المسيحي، وأبحر خلف حصن سانت أنجيلو، مُرغما بيالة باشا، الذي لم يبذل محاولة لإعتراضه أو مهاجمته، على الهرب، ليتيح المجال للجيش المسيحي بالنزول، من دون إعتراض، في شمالي الجزيرة، مما إضطر لالا مصطفى باشا إلى رفع الحصار وإصدار أوامره بالجلاء عن مالطا، بعد أن ضُرب مخيمه، ودُمرت مدافعه[1]. وفي الحال بدأت الأرمادا العثمانية تبحر شرقا نحو البسفور، بعد أن فقدت ثلاثة أرباع قوتها[2]. وهكذا مثلت هزيمة مالطا بداية النهاية لمحاولة السلطان تأسيس هيمنة عثمانية على كامل البحر المتوسط.

إنتشرت أخبار هزيمة العثمانيين بسرعة، وسببت ذعرا في إسطنبول، "ولم يعد بإمكان المسيحيين حتى المشي في شوارع المدينة بسبب الحجارة التي كانت تقذف عليهم من الناس، الذين كانوا في حالة حداد"[3]. في هذه الأثناء، كانت مظاهر الإبتهاج في الغرب لا توصف. وفي الوقت الذي عزا فيه المداهنون الإسبان الإنتصار إلى الملك فيليب الثاني[4]. عزتهُ روما إلى الإرادة الإلهية.

في تحليلنا للأسباب التي أدت إلى هزيمة العثمانيين في حصار مالطا، تبرز لنا أولا نقطة جوهرية، ألا وهي توزيع القيادة بين شخصين، لالا مصطفى وبيالة باشا. وكان لالا

---

(1) Kinross, Op. Cit., p. 250.

(2) يصف لنا اللورد كنروس الحال التي رافقت وصول أنباء الهزيمة إلى إسطنبول فيقول:"إتخذ القائدان العثمانيان [ويقصد مصطفى وبيالة باشا] إحتياطا بإرسال برقيات عن طريق قادس سريع لتهدئة مزاج السلطان. وعند وصولهما إلى المياه الإقليمية تلقيا أوامر بوجوب دخول الإسطول إلى ميناء إسطنبول ولو بعد منتصف الليل. لقد كان السلطان مستاءً جدا من أنباء الهزيمة الكبرى الثانية [ويقصد هزيمته بعد فيّنا]"؛
Kinross, Op. Cit., p. 258.

(3) Braudel, Op. Cit., p. 1019.

(4) عبّر احدهم بالقول:" لمئات الآلاف من السنين من الآن سيبقى ملك إسبانيا العظيم فيليب الثاني يستحق المجد والشهرة، ويستحق أن يصلي العالم المسيحي كله له لسنوات لإنقاذ ترابه، إن لم يمنحه الرب مكانا بالجنة لإنقاذه بشهامة الكثير من الرجال في مالطا، التي كانت ستتبع رودس بأيدي الأعداء"؛
Braudel, Op. Cit., pp. 1019-1020.

مصطفى، الذي كان في السبعين من عمره، لا يفهم في الأمور البحرية، وإنما قائدا ميدانيا، وكل مؤهلاته إنه كان إبن عمة السلطان سليمان[1]. كما لم يكن منسجما مع بيالة باشا، القائد البحري المتمرس، ولا حتى مع طُرغُد. بمعنى آخر، إن حملة تحت قيادة واحدة وقرار واحد كانت ضرورية في شن مثل تلك الحملات المصيرية مثل حملة مالطا. وقد يفسر لنا ذلك سبب إنتصار السلطان في حملته الأولى ضد الفرسان في رودس سنة 1522، التي كانت تحت قيادته الشخصية، وإخفاقه في حملته الثانية عليهم، الموزعة بين قائدين غير منسجمين.

وبهذا السياق يذكر المؤرخ العسكري بروس ألن واتسون إن الخلاف بين لالا مصطفى وبيالة باشا هو الذي قرر مصير حصار مالطا؛ فالقيادة المنقسمة تؤدي إلى إنقسام الأهداف، ونادرا ما تؤدي إلى تحقيق النصر. وعلى النقيض من ذلك، نرى إن القيادة الموحدة لدى الجانب المسيحي، بقيادة لافاليت، وقدرته على تحديد هدفه بالضبط، وشجاعته، فضلا عن قراراته الموحدة، هي التي جمعت كلمة جيوشه المكونة من قوميات مختلفة، ووحدت المدافعين عن مالطا بطريقة لم يتوقعها المسلمون[2]. وهذا التناقض في القيادة، لدى الجانبين، يتيح لنا معرفة بعض الإجابات المقنعة عن سبب هزيمة العثمانيين وإنتصار المسيحيين.

وثمة نقطة تتعلق بالفرسان أنفسهم، فلئن فشلوا في الدفاع عن رودس سنة 1522، ونجحوا في مالطا، فإن لذلك أسباب أيضا. لقد كانت هناك أسباب يمكن أن نقول إنها أسباب نفسية حدت بالفرسان إلى الإستماتة في الدفاع عن جزيرتهم إلى حد الموت؛ إذ إن هزيمتهم في مالطا كانت ستعني ضياعهم وعدم إمكان العثور على مكان آخر يأويهم. وثمة عامل آخر يتعلق بمساحة الجزيرتين، رودس ومالطا؛ إذ كانت مساحة رودس 540 ميلا مربعا (أي نحو 871 كم^2)، بينما كانت مساحة مالطا 95 ميلا مربعا (153 كم^2) فقط. وهذه المساحة الصغيرة لمالطا كان لها أثر كبير في دفاع الفرسان المستميت عن جزيرتهم. وقد رأينا كيف إنهم، في سبيل المحافظة عليها، شادوا الحصون والمتاريس والإستحكامات المنيعة لحماية أنفسهم من الهجمات الإسلامية المتوقعة. وكان حصن لافاليت هو أقوى تلك الحصون، وله ميزة فريدة، فهو مكان ضيق محصن مفتوح على البحر، بطريقة تُمكّن الفرسان، القابعين خلف حصونهم، من جرّ العثمانيين من جهة الساحل الذي يقابل الحصن، حيث نيران الفرسان بإنتظارهم.

---

(1) اوزتونا، المصدر السابق، ص 320.

(2) Watson, Op. Cit., p. 50.

النقطة الأخرى هي إن العثمانيين، بسبب تفوقهم العددي، إستخفوا بقوة الفرسان القليلة العدد، ولم يأخذوا بنظر الإعتبار الروح المعنوية العالية التي كان يتمتع بها الفرسان، الذين كانوا يقاتلون حتى آخر جندي وآخر حجارة في جزيرتهم.

وثمة نقطة مهمة أخرى، ألمحنا إليها مسبقا عند الحديث عن إنتصار العثمانيين في جربة، وهي إن الجيش العثماني، والقوة البحرية تحديدا، لم يطور نفسه، ولم يواصل تدريباته لمدة أربع سنوات كان خلالها العالم المسيحي يسعى بكل طاقته لإعادة بناء قوته العسكرية وتجديد إسطوله. وهذه النقطة كانت واحدة من أهم أسباب هزيمة العثمانيين في مالطا.

أما بشأن النتائج التي أسفرت عنها حملة مالطا، فيمكن القول إنها أشرت بداية النهاية لمحاولة العثمانيين تحقيق هيمنتهم الكاملة على البحر المتوسط؛ كما أشرت إخفاق خطط طُرغُد في تحقيق سيطرته الكاملة على المثلث المائي: طرابلس . تونس . صقلية، ببقاء مالطا في منتصف الطريق بين السواحل الأفريقية وجزيرة صقلية، مما يعني عدم إمكان شن المزيد من الغارات على السواحل الشمالية للبحر المتوسط. كما أصبحت الحملات المتوجهة إلى غربي البحر المتوسط خاضعة لنفوذ قباطنة شمالي أفريقيا العثمانيين، وإلى جهود الموريسكيين، أكثر من خضوعها إلى القيادة المركزية العثمانية في إسطنبول.

وهكذا، بعد تاريخ طويل بالإنجازات العسكرية، كان للسلطان فيها الكلمة الأولى والقرار الأوحد، يبدو إنه أخذ الآن يفقد قدرته على قيادة الحملات بنفسه؛ إذ تركت هزيمة مالطا أثرا عميقا في نفسه. فبعد أربعين سنة من الإنتصارات المتواصلة، إكتشف السلطان إنه لم يعد ذلك الشخص القوي الذي يمكنه إخافة أوربا. وكان من الصعب عليه جدا هضم الهزيمة وإهانة جيشه في مالطا. وعليه، لم يكن أمامه إلا بذل محاولة أخيرة لإستعادة "شرفه الجريح"، بغض النظر عن عمره المتقدم وسوء حالته الصحية. محاولة أخيرة يثبت فيها عدم إمكان قهر الجيوش العثمانية. وقد صمم أولا على إعادة فتح مالطا بحملة يقودها هو شخصيا في ربيع السنة المقبلة. لكنه قرر أخيرا معاودة الحملات برا، إلى هنغاريا والنمسا، بسبب رفض الإمبراطور ماكسمليان الثاني[1] دفع الإتاوة المترتبة عليه للعثمانيين، وتجرؤه على شن غارات على الممتلكات العثمانية في هنغاريا[1].

(1) ماكسميليان الثاني: عاش بين الحادي والثلاثين من تموز 1527 حتى الثاني عشر من تشرين الأول 1576. وكان ملك بوهيميا من سنة 1562، وملك هنغاريا من سنة 1563،

على هذا الأساس، بدأ السلطان سليمان بزيادة بناء سفنه وتوسيع جيشه. وفي الخامس والعشرين من أيلول 1565 كان ثمة حديث في إسطنبول عن القيام بالمزيد من الهجمات الكبرى. وكان هناك حديث عن بناء مائة مركب في دار صناعة السفن العثمانية، وإن السلطان أيضا قد ذكر رقم خمسمائة مركب. وتذكر إحدى البرقيات بتاريخ التاسع عشر من تشرين الأول إن السلطان:" أصدر أوامره بأن يكون خمسون ألف جدّاف وخمسون ألفا من العزّاب في حالة إستعداد تام في منتصف آذار في الأناضول ومصر واليونان"، وإن "مالطا وصقلية وآوبليا ستكون هدفا لهذا الهجوم"[2]. وكتب السفير الفرنسي في مدريد فوركيفو (Fourquevaux)، في الثالث من تشرين الثاني قائلا إنه قد يُخشى أن يقوم العثمانيون بمحاولة كبيرة برا وبحرا إن لم يمُت السلطان كمدا من خيبة جيشه في مالطا. وفي الحادي والعشرين من تشرين الثاني سمعت مدريد من فيّنا إن السلطان ينوي، في السنة القادمة، وضع قوته العسكرية بكاملها ضد فيليب الثاني، بضمنها الإنكشارية وحرسه الخاص[3]. كما كشفت برقيات مؤرخة في الثاني عشر من كانون الأول إن السلطان سليمان قد أعلن الحرب على الإمبراطور، وسيقود جيشا من مائتي ألف رجل ضده، مما دعا فيليب الثاني إلى تقوية الدفاعات في أكثر موقعين مسيحيين عرضة لهجوم العثمانيين: مالطا وحلق الوادي[4]. وبعد شهر قيل إن الملك الإسباني قد عرض أربع مدن إيطالية للبنادقة لجرهم إلى تحالف ضد السلطان[5].

ولكن الإشارات كلها كانت تؤكد إن السلطان سليمان كان ينوي الذهاب شخصيا في حملة برية إلى هنغاريا، ومن هناك يزحف إلى فيّنا، حيث كانت الحرب قد بدأت مسبقا على الحدود

وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة من سنة 1564 حتى وفاته، وهو أحد أفراد أسرة هابسبرك؛

"Maximilian II"; The New Encyclopaedia Britannica, Vol. VI, p. 71.

(1) Kinross, Op. Cit., p. 252.

(2) Braudel, Op. Cit., p. 1021.

(3) Ibid.

(4) أرسل إلى مالطا ألف إسباني، وألف ألماني، وثلاثة آلاف إيطالي؛ وإلى حلق الوادي، أرسل خمسة آلاف إسباني مدرب، وأربعة آلاف إيطالي، وثلاثة آلاف ألماني؛ أي ما مجموعه إثني عشر ألف رجل.

(5) Braudel, Op. Cit., p. 1031.

البلقانية الطويلة سنة 1565[1]. وعبثا كان الملك الهنغاري مكسميليان يرسل الوكلاء والرسائل لإيقافها، ويشجع العودة إلى الهدنة التي تم الاتفاق عليها في الأول من حزيران سنة 1562[2]؛ ولكن العودة إلى الهدنة كانت بعيدة عن تفكير السلطان، الذي كان منهمكا بإستعدادات عسكرية كبرى: لقد كان هناك حديث عن قوة عثمانية قوامها مائتان وأربعون ألف رجلا. وكان القادة مستعدين لحملة كبرى. وقد عززت ذلك الأنباء التي كانت تترى من إسطنبول بين شهري تشرين الثاني وكانون الأول من سنة 1565، التي أفادت إن العثمانيين يقومون بالتحضير لإسطول أكثر قوة من الإسطول الذي حاصر مالطا؛ فطبقا للمعلومات التي كانت تصل إلى البندقية، كان قوام الإسطول العثماني الذي وصل إلى كاتارو (Cataro) في الحادي والعشرين من تموز مائة وأربعين مركبا[3]. وبعد بضعة أيام، بدأ الإسطول بمهاجمة سواحل أبروزي[4] (Abruzzi). وفي التاسع والعشرين من الشهر، نزل ما بين ستة آلاف إلى سبعة آلاف رجل بالقرب من فرانكافيلا[5] (Francavilla)، وإستولى على المدينة، ومن هناك شق الإسطول طريقه نحو اوترانتو. وبعد جولات كثيرة غير موفقة قفل الإسطول راجعا عن طريق ليبانتو. إذن، فهي حملة محدودة في الادرياتيك.

في هذه المرحلة لم يقم الإسبان بمهاجمة تونس أو الجزائر كما كان متوقعا، إذ كانوا مقتنعين بالتهدئة خلال الصيف الذي سبب خطرا لكلا القوتين. أما البندقية فقد أظهرت إهتماما قليلا بالآخرين لإستثارة المزيد من عطفهم، وأظهرت نفسها هدفا لهجوم "العدو". لقد ظهر العثمانيون أمام أبواب الادرياتيك، خلاف الاتفاقيات السابقة كلها[6]. وكان البابا بايوس

---

(1) طبقا لما ذكره المؤرخ ستانفورد شو، نجح الصدر الأعظم محمد صوقللو باشا في إقناع السلطان سليمان بضرورة شن حملة جديدة يقودها شخصيا للدفاع عن المناطق التي يسيطر عليها العثمانيون في كل من هنغاريا وترانسلفانيا ضد هجمات آل هابسبرك؛
Shaw, Op. Cit., pp. 106, 214.

(2) كانت المشكلات الداخلية المتزايدة قد دفعت السلطان إلى قبول الصلح مع آل هابسبرك في سنة 1562، والعودة الى صلح سنة 1547.

(3) Braudel., Op. Cit., pp. 1028-1031.

(4) أبروزي: منطقة في وسط إيطاليا تقع على بُعد سبعين ميلا (أي نحو 113كم) فقط عن روما.

(5) فرانكافيلا: مدينة صغيرة، أو كوميونة في مقاطعة مسينا في جزيرة صقلية بإيطاليا.

(6) وهي إتفاقية سنة 1547 بين السلطان سليمان والإمبراطور شارل الخامس، وما بعدها.

الخامس (Pius V) [1](1566–1572) هو الشخص الوحيد الذي يفكر بهذه الفرصة المهمة لتحطيم إسطول السلطان سليمان[2].

وخلال مسار الحملة البرية نحو هنغاريا خرّ السلطان بسبب المرض[3]، فإنتقلت القيادة إلى الصدر الأعظم الذي تمكن من الإستيلاء على آخر أقوى حصنين لآل هابسبرك على الحدود الشمالية في هنغاريا بين التاسع والعشرين من آب والأول من أيلول 1566. وفي السابع من أيلول توفي السلطان سليمان بعد نحو أسبوع من إصابته بالمرض. وبوفاته بقي الصدر الأعظم محمد صوقللو باشا الموجه الأول في الدولة إلى أن تسلم السلطان سليم الثاني منصب السلطنة سلميا، بعد عقود من الخلافات[4].

بإنتهاء عصر السلطان سليمان القانوني إنتهت المرحلة الثالثة من النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط، وفي الوقت نفسه إنتهى عهدٌ عدّهُ البعض واحدا من أعظم عهود الدولة العثمانية؛ إذ وسع السلطان سليمان حدود إمبراطوريته لتصل أقصى اتساع لها في عهده؛ إذ أضاف لها كلا من هنغاريا، وترانسلفانيا، وطرابلس الغرب، والجزائر، والعراق، ورودس وبلغراد. وحارب إمبراطورية آل هابسبرك في البحر المتوسط، والبرتغاليين في المحيط الهندي، وجعل الدولة العثمانية قوة بحرية كبرى. ولكن علامات الضعف بدأت تظهر أيضا؛ إذ شهد عصره، لاسيما خلال المراحل الأخيرة تصاعد نفوذ الحريم والصدر الأعظم وفقدان السيطرة على ممتلكات الدولة الواسعة، وإخفاق السلطان في معالجة الأزمات الإقتصادية والإجتماعية التي كانت تواجه إمبراطوريته وتهدد بإنهيارها[5].

---

(1) عن نشأته وسيرته؛
Braudel, Op. Cit., p. 1028.

(2) Ibid., p. 1035; Dana C.Munro, ; "The Popes and the Crusades", _Proceedings of the American Philosophical Society_, Vol. 55, No. 5, 1916, pp. 348-356.

(3) تعددت الروايات بسبب المرض الذي ألمّ بالسلطان سليمان؛ فهناك رواية تقول انه توفي بالخُناق (ضيق التنفس)، أو السكتة الدماغية، أو النقرس؛
Shaw, Op. Cit., p. 111.

(4) Shaw, Op. Cit., p. 111.

(5) Ibid.

الفصل الرابع

سنوات الحسم
(1580-1566)

أولا: الوضع في البحر المتوسط قبيل حملة قبرص

تركت وفاة السلطان سليمان القانوني أثرا كبيرا في السياسة البحرية العثمانية، لتبدأ بعدها مرحلة جديدة إتسمت بالتراجع قياسا بالمرحلة التي سبقتها، إذ لم يعد السلطان صاحب القرار الأول في توجيه السياسة البحرية لإمبراطوريته، فضلا عن تذبذب صناعة القرار في العاصمة العثمانية. وكانت حقبة السلطان الذي جاء بعده، السلطان سليم الثاني (1574-1566) مرحلة إنتقالية في السياسة البحرية وفي التاريخ العثماني بكل المقاييس. وبغض النظر عن وجهات نظر المؤرخين الذين يصفونه بـ "السكير" وما شابه، فإننا ينبغي أن نركز على مسألتين أساسيتين: الوضع العام في البحر المتوسط حين إعتلائه العرش أولا، ثم قدرته الشخصية ومهارته القيادية ثانيا. وبخصوص النقطة الثانية ستتم معالجتها في سياق الحديث عن الفتح العثماني لجزيرة قبرص. ولكننا لابد أن نعرف إلى أي مدى تمكن من متابعة سياسة أسلافه الأقوياء، والده السلطان سليمان القانوني وجده السلطان سليم الأول، وفيما إذا كانت الحقبة اللاحقة، التي شملت حكمه وحكم خلفه السلطان مراد الثالث (1595-1574) قد شكلت نقطة تحول في السياسة البحرية العثمانية يُمكن أن نزعم من خلالها إنها شكلت سنوات حسم للصراع الطويل بين العثمانيين وآل هابسبرك. وقبل أن نبدأ حديثنا عن سنوات حسم الصراع بين القوتين، الذي إنتهى بإنكفاء القدرة العثمانية إلى الشرق مجددا، بعد عقود من التوسع نحو غربي البحر المتوسط، لابد أن نأخذ بنظر الإعتبار وضع البندقية أولا، والوضع في غربي البحر المتوسط ثانيا.

على إمتداد القرن السادس عشر، وبالتحديد بين سنتي 1503 و 1570، كانت البندقية تناضل من أجل المحافظة على وضعها الإقتصادي في البحر المتوسط، وعلى درجة من الإستقلال في عالم طغت فيه المنافسة بين حكام أقوياء، السلاطين العثمانيون من جانب وأباطرة إسبانيا . هابسبرك من جانب آخر. ولغرض تحييد الأخيرين، عقدت البندقية معاهدة سلام منذ سنة 1509، أعقبتها بمعاهدة أخرى بعد عشرين سنة خلال حكم الإمبراطور شارل الخامس[1]. وكانت نتيجة هاتين التسويتين القبول بدور سلبي وثانوي في السياسات الأوربية[2]. من جانب آخر، كانت القدرة البحرية البندقية قد

---

[1] Libby, Op. Cit., p. 103.
[2] Ibid.

تلاشت تقريبا بعد الحرب العثمانية البندقية (1499–1503)، ثم ضعف إقتصادها إلى حد كبير بعد سيطرة العثمانيين على سوريا ومصر (1516–1517)، بعد أن فقدت موطئ القدم ذي الأهمية الحيوية لتجارتها الشرقية. وبعد سنوات من عقدها معاهدة تسوية مع شارل الخامس، إضطرت للدخول في حرب مع منافسه على الهيمنة المتوسطية، السلطان سليمان القانوني. وعلى الرغم من مساعدة الأساطيل الإسبانية والبابوية، هُزمت البندقية في معركة بريفيزا سنة 1538، وإضطرت إلى عقد إتفاقية سلام مهينة مع العثمانيين بعد سنتين. وخلال المرحلة الممتدة من 1540 حتى 1570كانت تتبع سياسة حذرة، ولم تدخل في مواجهة جدية مع العثمانيين.

في الجهة الأخرى من البحر، وعلى الجانبين الشمالي والجنوبي منه، أي في إسبانيا وشمالي أفريقيا، كانت الأوضاع تجري بطريقة يبدو إنها كانت ضد خطط العثمانيين. وتجلى ذلك خلال المرحلة التي سبقت الحملة العثمانية على قبرص، وهما ثورة الموريسكيين في إسبانيا بين 1568 و 1570، والفتح العثماني لتونس سنة 1569، بعد إحتلال الإسبان لها في السنة السابقة.

ففي إسبانيا، وفي ليلة رأس السنة 1568، وصلت مجموعة صغيرة من موريسكيي غرناطة وتغلغلت إلى المدينة، داعية كل الذين يريدون الدفاع عن "دين محمد" (ﷺ) إتباعهم[1]. وسرعان ما إمتدت الحركة إلى مناطق أخرى وتزايد إتباعها في بقية المدن الإسبانية[2].

لجأ الثوار إلى الجبال، وسرعان ما إنضم إليهم الموريسكيون، الذين قُدر عددهم بأربعة الآف، بضمنهم ثلاثمائة عثماني[3]. وسرعان ما وصل عدد الثوار إلى مائة وخمسون ألفا، بينهم خمسة وأربعون ألفا قادرين على حمل السلاح. وفي آذار تحرك الثوار من الجبال إلى السهول، وأقاموا إتصالا مع الجزائر. وفي الوقت نفسه أُبلغت القوادس الإسبانية بالخطر لمنع وصول محتمل للمساعدة من شمالي أفريقيا. وفي السادس والعشرين من تشرين الأول 1568، أُخبر مبعوث البابا رسميا بأنه:

(1) Braudel, Op. Cit., pp. 791, 1061.

(2) عن ثورة الموريسكيين؛

Hess, "The Moriscos…", pp. 4, 16

(3) Braudel, Op. Cit., p. 1062.

"إذا ما إستمرت الحرب خلال الشتاء، وإذا ما انتشرت إلى مناطق موريسكية أخرى، وإذا ما تدخل العثمانيون، فإن إسبانيا نفسها قد تسقط بأيدي المسلمين"[1].

ويبدو إن مدريد كانت مطلعة على الاتصالات بين الموريسكيين وبقية العالم الإسلامي[2]؛ تلك الاتصالات التي كان الغرض منها تقديم المساعدة للثوار، التي تجسدت بشن حملة عثمانية على الحاميات العسكرية الإسبانية في شمالي أفريقيا[3]. ذلك كله ركّز المخاوف من اقتراب وقوع إجتياح إسلامي قوي على إسبانيا. على أية حال، أخذت الثورة بالفتور. وفي كانون الأول طُرد الثوار من مدينة غرناطة[4].

وفي جبهة شمالي أفريقيا، كان والي الجزائر (منذ 1568) عُلُج علي قد غادر الجزائر في تشرين الأول من سنة 1568، بهدف الإطاحة بمحمي الإسبان في تونس، الملك الحفصي مولاي حميدة[5] (1542–1569)، وجهز لهذا الغرض قوة تتراوح بين أربعة الآف إلى خمسة الآف انكشاري[6]، متخذا الطريق البري عبر قسنطينة وعنابة، وإنضم كثير من المتطوعين إلى جيشه، لاسيما بضعة الآف من الخيالة، الذين ظهر بهم في ساحل بيجا[7] (Bèga)، التي تبعد مسيرة يومين من تونس. وقد تفرق جنود مولاي حميدة من دون قتال، ولجأ الوالي المهزوم إلى مدينته وذهب إلى الحصن الإسباني في حلق الوادي مع بعض أتباعه. وفي نهاية كانون الأول دخل عُلُج علي إلى تونس من دون قتال، وإحتلت قواته القصر الملكي ووطد حكمه في المدينة. وفي آذار من السنة اللاحقة، 1569، عاد إلى الجزائر تاركا في تونس حامية كبيرة تحت قيادة

---

(1) Braudel, Op. Cit., pp. 1062-1063.

(2) خلال الحرب تواردت معلومات تفيد إن السفراء الموريسكيين كانوا في طريق عودتهم من إسطنبول، واستُقبلوا في الجزائر، حيث وُعدوا بآلاف البنادق. ليس هذا فحسب، بل إن ثلاثة يهود، وهم تجار أغنياء جاءوا إلى فرنسا، ذكروا إن الإسطول العثماني سيبحر في سنة 1570؛

Ibid.

(3) Hess, "The Moriscos…", passim.

(4) Braudel, Op. Cit., p. 1063.

(5) ويسمى أحمد سلطان أيضا؛

Mantran, Op. Cit., 253.

(6) سرهنك، المصدر السابق، ص 562.

(7) لم أعثر لها على تعريف، ويبدو إن الإسم من الأسماء التي تغيرت الآن. ولكن توجد مدينة بالقرب من الساحل التونسي تدعى "باجة".

احد موظفيه، وهو السرديني القائد رمضان[1]. وبهذا دخلت تونس تحت الهيمنة العثمانية[2].

في مثل هذا الوضع كان من المتوقع أن يواصل العثمانيون تقدمهم نحو الأجزاء الغربية القصية من البحر المتوسط، إستمرارا للسياسة التي إتبعها السلاطين العثمانيون مدة عقود. ولكن الذي حصل هو العكس تماما. فما أن سيطر العثمانيون على تونس حتى وجهوا أنظارهم نحو الشرق مجددا بخلاف التوقعات كلها، مما شكل مرحلة تحول ستراتيجي في السياسة البحرية العثمانية التي كانت، خلال عقود، تتحرك لفرض هيمنتها الكاملة على البحر المتوسط. فما الذي حدث، وما هي أسباب هذا التحول المفاجئ؟

مما لاشك فيه إن هذا التحول لم يكن بمعزل عن التطورات التي كانت تجري في باقي أنحاء البحر المتوسط. لقد كان وضع البندقية الضعيف، فضلا عن إنشغال الإسبان بثورة الموريسكيين، وهزيمتهم في تونس، من الأسباب المهمة التي سهّلت للعثمانيين مهمة التفكير بإجتياح قبرص. وهذا بدوره يقودنا إلى تساؤل جوهري فيما إذا كانت العوامل الخارجية هي التي باتت تحرك ردود الأفعال العثمانية في السنوات التي أعقبت حكم السلطان سليمان. بمعنى آخر، إلى أي مدى بدأت الستراتيجية البحرية العثمانية تتراجع لتتحول إلى مجرد إستجابة لردود الأفعال التي تفرضها المتغيرات الخارجية؟ ربما يمكننا أن نفهم ذلك إذا ما تفحصنا صناعة القرار في داخل الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان سليمان. وتحديد هذه النقطة مسألة جوهرية في تقويم الإنجاز البحري الذي حدث في قبرص أولا، وفي تقويم المرحلة الأخيرة من النشاط البحري العثماني ثانيا.

---

(1) ايفانوف، المصدر السابق، ص 243.

(2) عن دخول تونس التبعية العثمانية؛ الجبوري، المصدر السابق، ص ص 206-207.

ثانيا: الفتح العثماني لقبرص 1570 ـ 1571

كانت قبرص مركزا حيويا في معظم الحروب البحرية في شرقي البحر المتوسط، ومحطة عسكرية تشرف منها القوات المتحاربة على غيرها، وملجأ للكثير من القراصنة المسيحيين الذين كانوا يغيرون على سواحل مصر والشام[1]. وخلال العقود السابقة ظلت البندقية تحاول الإحتفاظ قدر الإمكان بهذه المحطة الستراتيجية في شرقي البحر المتوسط، وقدمت الكثير من التنازلات للدولة العثمانية من أجل الإبقاء على قاعدة لها في شرقي البحر في تلك المنطقة لتأمين وضعها الإقتصادي[2]. ولكن هذا الوضع تعرض للتغير أيضا عندما بدأ العثمانيون يفكرون بالسيطرة على هذا المعقل الستراتيجي المهم وإنتزاعه من البندقية.

وخلال السنوات الأولى من حكم السلطان سليم الثاني أثار الإخفاق في مالطا، فضلا عن الإخفاق في حملة روسيا لسنة 1569[3] جدلا واسعا بين الساسة في الدولة العثمانية، إذ أسفرت مشكلة الحدود البعيدة في كل من هنغاريا وبلاد فارس عن مشكلات كبرى بخصوص التجهيز وبشن المزيد من الحملات اللازمة للتوسع أيضا. من هنا، فكر الساسة العثمانيون، بعد نقاش معمق، بخطوة أخرى لحل هذه الإشكالية. وأخيرا، وجهوا أنظارهم نحو المناطق المتبقية التي ما زالت فيها فرصة للتوسع[4]، لاسيما إن الوضع الجغرافي لجزيرة قبرص سهّل عليهم مهمة التفكير بهذه الخطوة، وإن كانت متأخرة إلى حد ما. وعلى الرغم من التحذيرات المتكررة من العالم المسيحي من إنه سوف يتوحد في حال تعرض المواقع البندقية في قبرص للهجوم العثماني، وافق السلطان سليم على الخطط المقترحة لتفعيل العمليات البحرية ضد الجزيرة[5].

قدم لنا فرناند براودل إشارة يمكن أن نستشف من خلالها إن التفكير بهذا المشروع يعود إلى عهد السلطان سليمان، لكنه لا يجزم بالمسألة، إذ يذكر إن التفكير بهذه الخطة

---

(1) Lane-Poole & Kelly, pp. 160-162.

(2) Toynbee, Op. Cit., p. 123.

(3) كان العثمانيون في هذا الوقت يفكرون بمشروع قناة الفولغا ـ الدانوب من أجل تحويل بحر قزوين إلى بحيرة عثمانية. ولكن إمكاناتهم المتاحة كانت أقل من أهدافهم الستراتيجية، ففشل المشروع؛
Guilmartin, Ideology and Conflict…, p. 740.

(4) Hess, The Moriscoss…, p. 12.

(5) Ibid.

ربما يرجع إلى سنة 1563[1]. وربما وافق السلطان على عقد هدنة مع الإمبراطور فيليب الثاني بسبب رغبته في تسوية مشكلاته الداخلية قبل المباشرة بمثل هذا المشروع الكبير[2]. ولاشك إن هناك جملة أسباب كانت وراء التفكير بمثل هذا المشروع، يمكن تقسيمها على ثلاثة أسباب أساسية: سياسية . ستراتيجية، وإقتصادية، ودينية. تمثلت **الأولى** بكون قبرص قاعدة مركزية بيد القوى المسيحية وسط الممتلكات العثمانية، فضلا عن كونها نقطة مواصلات بحرية مهمة بين مصر والأناضول، مما شجع العثمانيين على إستكمال هيمنتهم على الشطر الشرقي من البحر المتوسط بكامله[3]. وتمثلت **الثانية** بالحاجة إلى تأمين التجارة والمواصلات البحرية مع مصر والشام، فضلا عن الإشراف على الممر التجاري الذي يربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط لكسر إحتكار البرتغاليين في البحار الشرقية. أما **الثالثة**، أي الأسباب الدينية، فقد كانت ذريعة لتسويغ الإجتياح ليس إلا، بذريعة عائدية قبرص إلى الممتلكات الإسلامية بسبب وجود رفات عدد من الشهداء خلال عملية الفتح الإسلامي للجزيرة في سنة 648م، وإرتباط جزيتها بالخزانة المملوكية التي انتقلت إلى العثمانيين، وأخيرا قيام القراصنة المسيحيين بإعتراض سفن الحجاج المسلمين المتوجهين لأداء فريضة الحج[4].

ومهما يكن من أمر، فإن الأمور تغيرت بعد وفاة السلطان سليمان، فلم يكن مشروع قبرص من ضمن إهتمامات السلطان الجديد سليم الثاني، وإنما كان بإيحاء من

---

(1) Braudel, Op. Cit., pp. 1060-1063;
قارن: نهار محمد نوري القرة غولي؛ التطورات السياسية في قبرص 1878-1914، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، 2003، ص 12؛ اذ يؤكد ان مشروع ضم قبرص لم يتضح على نحو عملي إلا في عهد السلطان سليمان القانوني الذي مثل ظهوره مرحلة التفكير الجدي بضم الجزيرة للدولة حينما تبلورت في عهده جميع المسوغات لهذا الضم، وهو يذكر إن التفكير بضم الجزيرة كان في سنة 1562، وإن المحاولة الفعلية لضم الجزيرة كانت في سنة 1563، عندما كان القراصنة المالطيون يهددون السفن العثمانية، وكانوا يقطعون الطريق على الحجاج المسلمين وهم في طريقهم لأداء فريضة الحج. وظل السلطان سليمان يجمع السفن ويحشد الرجال والعتاد تمهيدا لإجتياح الجزيرة، إلا إن وفاته حالت دون تنفيذ المشروع؛ وللمزيد:
Hess, The Moriscoss…, p. 15.

(2) Shaw, Op. Cit., p. 106.

(3) القرة غولي، المصدر السابق، ص 11.

(4) المصدر نفسه، ص ص 12-13؛
Goffman, Op. Cit., 154.

المحيطين به، ولاسيما الصدر الأعظم محمد صوقللو باشا[1]، والمستشار اليهودي جوزيف ميكاس[2]، الذي قيل انه هو صاحب الفكرة، وإن النار التي التهمت دار صناعة السفن البندقية بالصدفة في الثالث عشر من أيلول سنة 1569 كانت من تدبيره أيضا، أو بالأصح من تدبير وكيل مأجور له[3]. وكان ميكاس يأمل تحويل قبرص إلى وطن لليهود يكون هو ملكا عليه[4]. وقد تسبب ذلك في نشوء نزاع بينه وبين الصدر الأعظم الذي كان لا يريد إثارة البندقية ومن ثم الدخول في مواجهة معها. ولكن المسألة حُسمت أخيرا بتدخل السلطانة اليهودية نوربانو[5]، والدة الأمير مراد (السلطان مراد الثالث فيما

---

(1) ولد في سنة 1506، وتوفي في سنة 1579، وهو رجل دولة عثماني من أصل بوسني ـ صربي. دخل الخدمة العثمانية منذ صباه عن طريق نظام الدفشرمة، وخدم في الإنكشارية، وترقى في سلم النظام الإداري العثماني تدريجيا ليصبح آمر الحرس الإمبراطوري (1546-1543)، والأميرال الأعظم للإسطول العثماني (1546-1551)، والحاكم العام للروميللي (1555-1551)، والوزير الثالث (1555-1561)، والوزير الثاني (1565-1561)، وأخيرا الصدر الأعظم (1579-1565) خلال عهد ثلاثة سلاطين: سليمان القانوني، وسليم الثاني، ومراد الثالث. أغتيل على يد أحد البوشناق في الثاني عشر من تشرين الأول سنة 1579، لتنتهي بذلك خمس عشرة سنة من حياته بصفته الحاكم الفعلي للدولة العثمانية؛
"Mehmed Sukollo Paşa", Wikipedia, (*); Imber, The Ottoman Empire…, p. 201.

(2) وهو اليهودي دون جوزيف ناسي (1524-1579)، ويُعرف أيضا بإسم يوسف ناسي في الدولة العثمانية. كان دبلوماسيا وإداريا وشخصية متنفذة في الدولة العثمانية خلال عهد السلطانين سليمان القانوني وابنه سليم الثاني. كثيرا ما تتحدث المصادر عن دوره في تحريض العثمانيين لمحاربة البنادقة للإستحواذ على قبرص. فقد نفوذه بعد وفاة السلطان سليم الثاني. للتفاصيل:
Cecil Roth; "Joseph Nasi, Duke of Naxos, and the Counts of Savoy", *The Jewish Quarterly Review*, New Ser., Vol. 57, The Seventy-Fifth Anniversary Volume of the Jewish Quarterly Review, 1967, pp. 460-472**;** Constance H. Rose; "New Information on the Life of Joseph Nasi Duke of Naxos: The Venetian Phase", *The Jewish Quarterly Review*, New Ser., Vol. 60, No. 4, Apr., 1970, pp. 330-344**.**

(3) Braudel, Op. Cit., p. 1060; Theunissen, Op. Cit., p. 172.

(4) تتحدث المصادر كثيرا عن دور جوزيف ميكاس في إقناع السلطان سليم الثاني بضم قبرص للممتلكات العثمانية، وتذكيره دوما إنها تضم أجود أنواع الخمور؛
Edward Creasy; History of the Ottoman Turks, Beirut, 1961, pp. 217-218; Shaw, Op. Cit., p. 178;
أما ثيونيسن فيشكك في قدرته على إقناع السلطان بذلك؛
Theunissen, Op. Cit., p. 172.

(5) Shaw, Op. Cit., p. 178.

بعد 1574-1595)، مما دعا البندقية إلى الاستغاثة بمساعدة أوربا، ولكن فرنسا والنمسا لم تكونا مستعدتين للتخلي عن الإمتيازات التي حصلتا عليها من الدولة العثمانية في سنة 1569. ويبدو إن العثمانيين كانوا على علم بالخلافات في مواقف الدول الأوربية، مما شجعهم على المضي قدما في تنفيذ مشروعهم، مما أدى إلى قيام تقارب بين إيطاليا وإسبانيا، بتشجيع من البندقية، التي كانت تمتلك إسطولا مهولا؛ ولكنه، مقارنة بالإسطول العثماني، كان متواضعا، بل وتافها؛ وإذا ما هوجمت من هذا "العملاق" فلا يمكنها أن تصمد إلا بدعم من بقية العالم المسيحي، من إيطاليا وإسبانيا تحديدا، بمعنى آخر، من فيليب الثاني الذي يحكم كلتيهما.

من جانب آخر، كان السلطان الجديد سليم الثاني، الذي اعتلى العرش في سنة 1566، غير ميّال للحرب[1]، وعندما كانت ثورة الموريسكيين لا تزال مستمرة، حالت متطلبات الحرب الروسية، والعمليات واسعة النطاق في البحر الأحمر[2]، دون اتخاذ أي عمل في الغرب. ولكن بما إن ثورة الموريسكيين لم تكن قد إنتهت بعدُ، فقد كانت مشكلة دعمهم ملحة. فهل سيرسل العثمانيون إسطولا إلى الساحل الإسباني؟ وهل كان العثمانيون يفكرون بمساعدة الموريسكيين أصلا؟ المصادر المتوافرة تشير إلى إن العثمانيين، خلال هذه المرحلة، لم يولوا قضية الموريسكيين الإهتمام المطلوب، بخلاف السياسة التي ساروا عليها قبل تولي السلطان سليم الثاني، على الرغم من صرخات الإستغاثة التي كانت تصل من الموريسكيين إلى إسطنبول. الأستاذ عبد الجليل التميمي نشر عن هذا الموضوع دراسة ضمّ فيها وثيقتين (فرمانين) عثمانيتين تؤكدان إن السلطان العثماني أوكل مهمة مساعدة الموريسكيين بوالي الجزائر عُلُج علي بدلا من تقديم مساعدة مباشرة من إسطنبول[3]. كما بيّن التميمي في دراسته هذه إن الصدر الأعظم محمد صوقللو باشا كان يفضل مساعدة الموريسكيين على مهاجمة قبرص[4]. فلماذا هذا التلكؤ في الأهداف والمواقف في مركز صناعة القرار في العاصمة

---

(1) Kıbrıs'ın Fethi, p. 70.

(2) عن هذه التطورات؛

J. Richard Blackburn ; "The Collapse of Ottoman Authority in Yemen, 968/1560-976/1568", Die Welt des Islam, New Ser., Vol. 19, Issue 1/4, 1979, pp. 119-176.

(3) التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص ص 200-203.

(4) التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص 197.

العثمانية؟ وهل كانت الأهمية الستراتيجية لقبرص أهم من الإعتبارات الدينية لدى العثمانيين خلال هذه المرحلة؟

مع ضعف السلطان سليم الثاني أصبح البلاط العثماني مركزا للمؤامرات السياسية بين الساسة العثمانيين. وكان أبرز هؤلاء الصدر الأعظم محمد صوقللو باشا، الذي قيل إنه كان صديق البندقية، وكان يتبع سياسة مرنة في الوقت نفسه، بسبب وجود منافسين آخرين مثل: الوزير لالا مصطفى، مرشد السلطان السابق، والأميرال بيالة باشا، وأخيرا المتنفذ اليهودي جوزيف ميكاس، الذي كان على إتصال مع دوق توسكانيا الأعظم، ومع جنوا، ومع إسبانيا، وربما مع البرتغال[1].

لذلك، يبدو إن هناك سياسة عثمانية مركزة وثابتة لتحقيق هذا الهدف منذ وقت مبكر، ولكنها لم تعد ضمن ستراتيجيات السلاطين العثمانيين، وإنما ضمن خطط رجال البلاط والشخصيات المتنفذة، إذ كان لكل شخص دورٌ فيها؛ واحد لتهدئة مخاوف البندقية، وآخر لمعالجة العلاقات مع إسبانيا أو فرنسا[2]. لقد كان العثمانيون يحاولون تهدئة الأطراف كلها. وعلى الرغم من رغبتهم بمساعدة الموريسكيين، إلا إنهم، من دون قصد، تخلوا عنهم لمتابعة أهدافهم الخاصة، مصممين على عدم إضاعة أية فرصة لإنتزاع قبرص[3]. وسعوا أيضا، في السنة نفسها، إلى تجديد التحالف الفرنسي . العثماني الذي كان قد فتر على نحو كبير منذ التقارب بين فرنسا وإسبانيا في 1567–1568[4].

---

(1) Braudel, Op. Cit., p.1075.

(2) سر هنك؛ المصدر السابق، ج 2، القاهرة1312 هـ (1894م)، ص 557. ومن الجدير بالإشارة إنه في شهر الثامن عشر من تشرين الاول 1569، أرسل كلاود دو بورج (Claude de Bourg)، بصفته سفيرا خاصا إلى السلطان سليم الثاني لتجديد معاهدة الإمتيازات الفرنسية ـ العثمانية (التي كانت قد إنتهت بوفاة السلطان سليمان في سنة 1566)، والمطالبة باسترجاع بعض الممتلكات الفرنسية التي إستولى عليها المترجم اليهودي جوزيف ميكاس (دون جوزيف ناسي)، الذي يُعرف بإسم دوق ناكسوس؛

Jansen, Op. Cit., p. 461; Shaw, Op. Cit., p. 177.

(3) التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص ص 197-198؛ الشناوي، المصدر السابق، ص 925؛

Lynch, Op. Cit., p.219.

(4) Braudel, Op. Cit., p.1076.

في هذه المرحلة كان العثمانيون، ولمدة شهور، يعيدون التسليح على نحو مسعور. لكن لا أحد كان يعلم أين ستكون الضربة. هل ستكون في مالطا، أم في حلق الوادي، أم في قبرص؟ في الوقت الذي كان فيه التخمين مستمرا في الغرب، بدأ العثمانيون بضرب البندقية في قبرص. وبسبب الشتاء إستغرقت الأخبار بعض الوقت للوصول إلى البندقية، على الرغم من إنها كانت قد أُنذرت بالخطر[1].

في اللحظة الأخيرة رفضت البندقية تصديق سوء حظها. لقد كانت ضحية لا لسياستها، وإنما لممتلكاتها المبعثرة، الممتدة على المواقع الساحلية، وضحية لإقتصادها الذي أجبرها على الإعتماد على العالم الخارجي. إن وضع البندقية لا يمكن أبدا، في أي حال من أحوال، أن يكون مشابها لوضع الإمبراطوريات العظمى مثل الدولة العثمانية وإسبانيا، وهما إمبراطوريتان غنيتان بالموارد البشرية والإمكانات الإقتصادية. على هذا الأساس فقط يمكن فهم السياسة الخارجية لجمهورية البندقية؛ إنها مسألة وجود (raison d'état)، كما يسميها فرناند براودل[2]. وبحلول النصف الثاني من القرن السادس عشر كان الوضع كله قد تغير، وإلتفّ المدّ ضد البندقية، وضد إسلوبها السياسي، بالأحرى ضد إسلوبها بالحياة كله[3].

منذ نحو ثلاثين سنة كانت البندقية في حالة سلام مع الدولة العثمانية، وكان ذلك السلام ناجحا، لكنه أثر في بنيتها السياسية وأضعف دفاعاتها أكثر مما ينبغي. وبسبب ضعف دفاعاتها، وفساد إدارتها العسكرية، وقبل كل شئ تفكك إسطولها[4]، أصبحت بمستوى من الإستعداد أقل بكثير من مما كانت عليه قبل عقود. وكان ذلك بسبب العثمانيين، ولكنها لم تنظر بجدية إلى إتباع سياسة معادية لهم. فهل فكر العثمانيون بمكافأة ذلك؟

كان العثمانيون يأملون أن تستسلم البندقية من دون قتال، وأن يؤدي أول عمل هجومي إلى مفاوضات فورية. لذا، قاموا بإعتقال التجار البنادقة في كانون الثاني

(1) Ibid., p. 1078.
(2) Ibid.
(3) Frederic C. Lane; "Venetian Shipping During the Commercial Revolution", *The American Historical Review*, Vol. 38, No. 2, Jan., 1933, pp. 219-239.
(4) كان ذلك بموجب المعاهدة التي عقدتها مع الدولة العثمانية في سنة 1540.

1570، وصادروا بضائعهم. وفي المورة طُبقت إجراءات مشابهة. على أية حال، لا يبدو إن هذا الإجراء كان يمثل خطرا؛ فقد تلقت السفن البندقية وعودا بالتعويض عن الأضرار، وهو أمر شائع خلال القرن السادس عشر. ولكن، منذ الأول من شباط، بدأ العثمانيون يطالبون بتسليم قبرص بصورة غير مشروطة، بإسم "الحقوق التاريخية للدولة العثمانية"[1]. ثم بدأوا بمهاجمة الأراضي البندقية بقوة تراوحت بين 25–30 ألف رجلا بصورة غير متوقعة، كما شنوا هجوما واسع النطاق حول القواعد الأمامية الدلماشية[2]، بقوة بلغ قوامها ستين ألف شخص . وهي القوة التي كان من المقرر إرسالها لمساعدة الموريسكيين[3].

أخيرا، وصلت الأنباء الرسمية للمطالب العثمانية إلى البندقية، عن طريق المبعوث العثماني جاووش قباذ، الذي سُمح له بمقابلة مع مجلس الشيوخ ألبندقي في السابع والعشرين من آذار[4]. ولكن لم يُسمح له بتقديم عرض رسمي عن رسالته الشفهية. بدلا من ذلك أسمعه البنادقة عبارات نابية. وأخيرا، رُفض المطلب العثماني بواقع 199 صوتا من مجموع 220 صوتا. لقد بدا واضحا إن البندقية مصممة على القتال[5]، وأظهرت نياتها الحربية، وأعدت إسطولها وجهزته بالرجال وبالمدفعية الضخمة، وأرسلت إلى قبرص قوة استطلاعية أخفق العثمانيون في إعتراضها، وأرسلت بضعة الآف من الرجال إلى دلماشيا[6]. أما العثمانيون فلم ينزلوا عند الطرف الجنوبي لقبرص حتى شهر تموز. وحتى ذلك الوقت، كانت البندقية تحاول التقيد بالأحكام قدر الإمكان، وقبل كل شئ، عدم الظهور بمظهر الرعب أو الخوف، أو مواجهة التهديد بالتهديد، أو العنف بالعنف[7].

---

(1) Braudel, Op. Cit., p. 1079.

(2) ويذكر يلماز اوزتونا ان عدد السفن التي توجهت لفتح قبرص كان اربعمائة سفينة، وهو أكبر عدد تجمع حتى ذلك الوقت دفعة واحدة؛ المصدر السابق، ص 369. أما إسماعيل سرهنك فيذكر إن قوة الإستطلاع العثمانية بلغت360 سفينة؛ المصدر السابق، ص 558.

(3) Kinross, Op. Cit., p. 265.

(4) Goffman, Op. Cit., p. 152ff.

(5) Theunissen, Op. Cit., p. 172; Peter Topping; "Venice's Last Imperial Venture", *Proceedings of the American Philosophical Society*, Vol. 120, No. 3, Jun., 1976, p. 162.

(6) Braudel, Op. Cit., p.1080.

(7) William Miller; "The Last Venetian Islands in the Aegean",

كان رد الفعل الإسباني تجاه الأنباء القادمة من الشرق متوقعا: لقد وضعت كل من نابولي وصقلية وشمالي أفريقيا في حالة إستعداد تام، إذ ليس ثمة سبب للإعتقاد إن العثمانيين سوف يستثنون الممتلكات الإسبانية من هجومهم. وأكدت البرقيات الواردة إلى مدريد إنهم سوف لن يهاجموا، ولكن هل يمكن الإعتماد على البرقيات دوما؟ لا يبدو الأمر كذلك. ففي الثاني عشر من آذار كتب نائب الملك من نابولي:

> **"تلقيت رسالة من [إسطنبول]... من احد أكثر وكلائنا ثقة... إنها تؤكد لي عن تجدد العداوات في دلماشيا... إن الأرمادا العظيمة، التي هي الآن تحت الإستعداد، لا تنوي التوجه نحو البنادقة فحسب... "**[1].

على هذا الأساس جمع الإسبان أكبر عدد ممكن من القوادس والرجال، وأرسلوا القوة إلى إتجاهين: حلق الوادي، ونابولي. وقد وُجهت الكتيبة الثانية، التي كانت بقيادة جينا أندريا دوريا، في الثالث من مايس 1570، إلى المواقع الساحلية، حيث كان التهديد العثماني قد لاح في الأفق[2].

كانت البندقية، لبعض الوقت، قد أهملت المنطقة الشرقية من ممتلكاتها المتوسطية، فانخفض عدد سكانها، البالغ نحو خمسين ألف شخص، على نحو كبير، وهم من الفلاحين الارثذوكس اليونانيين، الذين إستعبدوا وإضطُهدوا من أسرة لوزينان الفرنسية الحاكمة، فقروا الإنضمام إلى العثمانيين[3]. وقد بذل السلطان سليم الثاني جهودا لكسب الجماهير، واعدا إياهم، في حال الإستيلاء على الجزيرة، بإحترام حياتهم وملكياتهم، وبعدم مضايقتهم او التحرش بهم[4]. وعندما نزلت القوات العثمانية سنة 1570 بقيادة لالا مصطفى قائد الجيش[5]، وبيالة باشا[1] قائد الإسطول، أصبح البنادقة

TheEnglish Historical Review, Vol. 22, No. 86 , April, 1907, p. 305.

(1) Braudel, Op. Cit., p.1081.

(2) Ibid.

(3) Shaw, Op. Cit., p. 178.

(4) Kinross, Op. Cit., p. 265.

(5) يُذكر إن صوقللو كان يخشى من قيام أي وزير بفتح قبرص فيحصل على شهرة وينافسه. وفي الوقت نفسه كان يقول إن محاولة كهذه سوف لا تقتصر على حرب عثمانية – بندقية فحسب، بل ستجر دولا أوربية جديدة. اوزتونا، المصدر السابق.

قلقين من توقع ثورة يونانية، بدأت علائمها تُلاحظ في أحد الأقاليم[2]. ولأجل استباق تلك الثورة قبل وقوعها، أعمل البنادقة السيف بأربعمائة يوناني. وعندما وصل العثمانيون، عاملوا سكان الإقليم معاملة طيبة، واستثنوهم من الضرائب مدة محدودة. وفي الهجمات اللاحقة أثبت اليونانيون معارضتهم للقتال ضد البنادقة، وفضلوا مساعدة العثمانيين بتجهيزهم بالطعام والمعلومات عن حال الجزيرة. إذن، لقد تم إقناع العديد من أولئك بسهولة بما يكفي لتقديم الطاعة للفاتح العثماني[3].

نزلت القوات العثمانية من جنوبي الأناضول في الخامس عشر من مايس 1570 من دون أي إعتراض[4]، وكانت مهمتها الرئيسة إخضاع الحصون البندقية في كل من نيقوسيا[5] وفاماغوستا[6]. وتقدمت قوة عثمانية أخرى إلى نيقوسيا بقوة قُدرت بنحو خمسين ألف رجلا. وكان البنادقة قد إستدعوا مسبقا مهندسين عسكريين وخبراء لتحديث حصونهم. لكن دفاعات نيقوسيا لم تكن مكتملة، فإستسلمت للعثمانيين خلال ستة

---

(1) كان بيالة باشا قد عُيّن لقيادة الإسطول، لأن مؤذن زادة علي باشا كان قائدا ميدانيا وليس قائدا بحريا. وينحدر بيالة باشا من أسرة مجرية نبيلة. تسلم وظيفة والي سنجق غاليبولي وإمارة البحر. يوصف بأنه ذو قابليات واسعة، وجرئ، وجسور. وقام بعمليات ناجحة مع طرغد ريّس خلال 1555- 1558. تمكن من إستعادة ميناء وهران من الإسبان، كما شن حملات على جزيرة مايورقا. نتيجة لذلك كله، تم تعيينه أميرا أعظم للبحرية في الجزائر. وفي الثالث عشر من مايس 1560، دمر الإسطول المسيحي أمام جزيرة جربة. وبعد أربع عشرة سنة من توليه منصب الأميرال الأعظم أصبح الوزير الثالث في سنة 1568. حقق نجاحا في حملة قبرص، وتوفي في الحادي والعشرين من كانون الثاني 1578؛
Kıbrıs'ın Fethi, p. 72.

(2) Kinross, Op. Cit., p. 265.

(3) Ibid.

(4) Shaw, Op. Cit., p. 178;
يذكر يلماز اوزتونا إن القوة العثمانية كانت مكونة من مائة ألف شخص، ستون منهم من المشاة، اما البقية فقد كانوا من البحّارة والمجدفين؛ اوزتونا، المصدر السابق، ص 370؛ أما حجم الإسطول فقد بلغ 360 سفينة بقيادة القبودان الأعظم مؤذن زادة علي باشا، وكانت تحمل جنودا من الأناضول والروميللي، ونحو خمسة الآف إنكشاري بقيادة الوزير لالا مصطفى باشا؛ سرهنك، المصدر السابق، ص 558.

(5) نيقوسيا هي عاصمة قبرص وأكبر مدنها، تقع بالقرب من وسط الجزيرة، ويمر بها نهر بيديوس، وهي أيضا العاصمة الإدارية لمنطقة نيقوسيا، وهي العاصمة المقسّمة الوحيدة في العالم، إذ يتبع الجزء الشمالي منها تركيا، بينما يتبع الجزء الجنوبي منها اليونان.

(6) فاماغوستا: مدينة تقع على الساحل الشرقي لجزيرة قبرص.

أسابيع، وذُبح من تبقى في حاميتها، بعد نهب المدينة التي قيل إنها كانت تضم عددا من الكنائس بعدد أيام السنة[1]، وتم تحويل الكاتدرائية إلى جامع، وعُرض الفتية المِلاح والفتيات الحِسان للبيع في أسواق العبيد.

لم يبق سوى حصن فاماغوستا، الذي حوصر وصمد للحصار في الربيع اللاحق، لمدة ثلاثة أشهر[2]. وكانت الحامية البندقية قد أصيبت، وأصيب حاكمها مارك انتونيو براغادينو[3] (Mark Antonio Bragadino). ومع ذلك، بقيت المقاومة البندقية عنيفة، وذكرت إحدى البرقيات الواردة إلى إسطنبول "إن فاماغوستا لا يدافع عنها رجال، بل عمالقة"[4]. وبعد بناء حصون وحفر خنادق عميقة بما يكفي لإحتواء الخيالة، شن العثمانيون سلسلة من الهجمات من خلال إحداث صدع في الأسوار، ولكنها واجهت مقاومة شرسة وباسلة أيضا. وكان البنادقة قد ملأوا الخندق بمواد سريعة الإشتعال، وأضرموا النار فيها، تاركين اللهب يستمر أياما عدّة. وكان المدافعون قد لجأوا إلى أكل لحوم الحيوانات، بما فيها الحمير والكلاب[5]. وبعد حصار إستمر ثلاثة أشهر إستسلم براغادينو بشروط مشرّفة، تمثلت بتسليم الحصن، مقابل المحافظة على حياة كل من يود الرحيل عنها، ونقل الحامية مع أسلحتها بالسفن العثمانية إلى كريت، ومنح سكان المدينة الأمان[6]. وعندما توجه براغادينو، مع ثلاثة من قادته وحارسه الشخصي، لتسليم مفاتيح المدينة، عامله لالا مصطفى بكياسة في البداية، وتشاورا بصورة ودية معا. بعد ذلك، حدثت مشادة كلامية، أولا بشأن الاتهام بقيام براغادينو بذبح الأسرى العثمانيين، ومن ثم بشأن المطلب الذي قدمه لالا مصطفى لتأمين عودة آمنة للسفن[7]. وعندما رفض براغادينو ذلك، بدعوى تعارضه مع شروط الهدنة، إستشاط لالا مصطفى غضبا، وتنكر للهدنة كلها. ثم قام بتقييد براغادينو بالسلاسل، وأجبره على مدّ رقبته إلى الأعلى، ثم

(1) Kinross, Op. Cit., p. 265.

(2) اوزتونا، المصدر السابق، ص ص 370-371؛
Hammer, Op. Cit., Vol. 6, p. 408; Prescott, Op. Cit., p. 620.

(3) Goffman, Op. Cit., p. 156.

(4) Kinross, Op. Cit., p. 266.

(5) Ibid.

(6) Kıbrıs'ın Fethi, p. 77.

(7) Kinross, Op. Cit., p. 266;
ويذكر إسماعيل سرهنك إن براغادينو توجه إلى سرادق لالا مصطفى وتطاول عليه بألفاظ خشنة، فضلا عن قيامه بقتل أسرى عثمانيين. وربما كان ذلك سبب المصير الذي لاقاه على يد الأخير؛ المصدر السابق، ص 558.

قطع أذنه اليمنى وجدع أنفه. وبعد أسبوعين من السجن، قُيّد بالمِشهرة[1] في الميدان الرئيس في فاماغوستا، وسُلخ جلده حياً، وقُطّع جسده إرباً وعُرض أمام الناس، بعد رفضه إعتناق الإسلام [2]. بعد ذلك، وبناء على أوامر لالا مصطفى، قُطعت رقبته وحُشيت بالتبن، وطيف به في المدينة على ظهر بقرة.

وفي الأول من آب 1571 سقطت فاماغوستا وتم فتح قبرص في غضون ثلاثة عشر شهرا[3]. وكان على البندقية أن تسلم الجزيرة للسلطان بعد سنتين، بموجب المعاهدة التي نصّت للسلطان بتعويض مناسب لتغطية تكاليف الفتح [4].

في تقويمنا لما حصل في قبرص تبرز لنا مسألة مهمة، ألا وهي ان السلطان العثماني لم يعُد الشخص الأول في إتخاذ القرارات السياسية والعسكرية المصيرية للدولة. ومثلما رأينا، فقد أدت العوامل الخارجية، المتمثلة بالأحداث في كل من الأدرياتيك وإسبانيا وتونس، فضلا عن ضعف البندقية، والأحداث الداخلية التي تمخضت عن وفاة السلطان سليمان، ومن ثم هيمنة رجال البلاط العثماني، وغيرهم من الشخصيات المتنفذة، دورا رئيسا في صناعة القرار العثماني. وقد أدى ذلك إلى تراجع في السياسة العثمانية التي إتبعها السلاطين السابقون في مدّ الهيمنة العثمانية على كامل البحر المتوسط.

أما بشأن النتائج التي أسفرت عنها حملة قبرص، فهناك نتيجتان رئيستان: **الأولى:** تأكيد الهيمنة العثمانية الكاملة على شرقي البحر المتوسط، وبذلك اكتسب العثمانيون موقعا ستراتيجيا لخطوط اتصالاتهم البحرية مع دول المشرق الاسلامي، لاسيما الطريق التجاري البحري الذي يربط موانئ مصر بالأناضول؛ و**الثانية:** بفتح قبرص، قضى العثمانيون على هيمنة البندقية في شرقي البحر المتوسط، ودفعوها، مُكرهةً، إلى

---

(1) المِشهرة (pillory): آلة خشبية للتعذيب تُدخل فيها يد المجرم أو المُدان ورأسه لغرض التشهير به أمام الناس؛
Kıbrıs'ın Fethi, p. 77;
القرة غولي، المصدر السابق، ص 16.

(2) Kinross, Op. Cit., p. 266.

(3) اوزتونا، المصدر السابق، ص 370؛
Goffman, Op. Cit., p. 156; Lane-Poole & Kelly, pp. 164-165;
إذ يذكر إن سقوط حصن فاماغوستا كان في الرابع من آب.

(4) Ibid., p. 157.

الإنضمام للدول الغربية لإستعادة مواطئ قدمها التجارية في البحر المتوسط. ولكن، حتى ذلك الوقت، لم تدّخر البندقية جهدا في سبيل تسوية الأوضاع ومنع وصول الأمور إلى حافة حرب قد تضرّ بمصالحها.

ثالثا: الحلف المقدس ومعركة ليبانتو 1571

إتهم الإسبان البندقية بالعزم على عقد سلام منفرد مع العثمانيين يضمن مصالحها، مما دفعهم إلى التلويح بإستخدام القوة ضد الموانئ الإيطالية[1]. وخلال هذه المرحلة، كانت إيطاليا تحاول التوصل إلى إتفاقية منفصلة مع الباب العالي. وفي كانون الثاني 1570 أرسلت مبعوثها البايلو ألبندقي جاكوبو راغازينو (Jacopo Ragazzino) إلى

---

(1) إن الطبيعة المؤكدة للنشاطات الإسبانية غير معروفة على وجه الدقة، لكن فرناند براودل، وهو أكثر المصادر دقة، يذكر إنها كانت شائعات ليس أكثر؛
Braudel, Op. Cit., p. 1089.

إسطنبول، حيث كانت الإتصالات بينه وبين صوقللو مستمرة. وهذه المبادرة هي التي أرجات توقيع التحالف الغربي. لم تعطِ البندقية موافقتها النهائية إلا بعد أن تتأكد نهائيا أنْ لا أمل يُرجى من إسطنبول. على أية حال، ففي بداية أيلول تشكلت العصبة[1]، ووضعت مسودة المعاهدة التي أرسلت مسودتها إلى الحكومات المعنية لإجراء التعديلات التي إستغرقت من آب حتى الأول من تشرين الأول 1570، ولم تستأنف حتى الحادي والعشرين من الشهر نفسه[2]. وأخيرا، في الخامس والعشرين من مايس 1571، أُعلن عن تشكيل العصبة رسميا في باسيليكا القديس بطرس في روما[3].

إتفق الموقعون مبدئيا على إقامة إتحاد دائمي (confederación perpetual)، وعلى عقد إتفاقية عسكرية أمدها ثلاث سنوات (1571–1573)، تقضي بأن يرسل الحلفاء في كل سنة إسطولا مكونا من مائتي قادس ومائة سفينة مستديرة، تحمل خمسين ألفا من الخيالة وأربعة آلاف وخمسمائة حصان[4].

يرى المؤرخون الغربيون، في مقدمتهم فرناند براودل، إن البابا بايوس الخامس، الذي نجح في جمع البنادقة والإسبان في موقف موحد، قد كسب، منذ البدء، دبلوماسية هذه الحرب، كما تمكن من وضع الأطراف جميعها على الخط الذي رسمه أول الأمر، ألا وهو إعلان الحرب الصليبية الثالثة عشرة منذ قيام الدولة العثمانية، وتحريك مصالح المجتمع الأوربي، لاسيما البندقية، وتحسيسها بالخطر العثماني القادم[5]. وقد ذكر في الكتاب الذي حرره إلى الملك الإسباني، في الثامن من آذار 1570:

---

(1) تشكلت العصبة المقدسة من: البابوية، وإسبانيا (مع نابولي وصقلية)، وجمهورية البندقية، وجنوا وتوسكانيا، وفرسان مالطا.

(2) Davies, Op. Cit., p. 173.

(3) Braudel, Op. Cit., p. 1091.

(4) تم الإتفاق أن تنعقد العصبة لمدة إثنتي عشرة سنة، وأن تكون دفاعية ـ هجومية. وعلى الرغم من إن هذا التحالف كان موجها أساسا إلى الشرق، إلا إن الحملة درست إمكان شن حملات على كل من الجزائر، وتونس، وطرابلس. وكانت إسبانيا ترى إن مجال تجارة المغرب سيتم القضاء عليه من الآن فصاعدا، وإن الحلف المقدس هو الواجهة القانونية التي يستند إليها الحلف لتسويغ كل تحرك ضد المغاربة. وقد تعهدت، مقابل ذلك، بفتح أسواق إيطاليا للبنادقة وتموين الحملة بأسعار معقولة، كما التزمت بعدم تصعيد أسعار التصدير. كما نصت معاهدة الحلف على عدم حق أي طرف بعقد معاهدة منفصلة مع العثمانيين إلا بموافقة باقي الدول المشاركة بالتحالف. وعلى ضوء ذلك أعلن عن وجود الحلف رسميا في الخامس والعشرين من مايس 1571؛ اوزتونا، المصدر السابق، ص 371.

(5) Lane-Poole & Kelly, p. 166.

"لا توجد دولة في العالم المسيحي، أية دولة، تستطيع أن تقف لوحدها بوجه الدولة العثمانية. وعليه، ينبغي على الدول المسيحية كافة أن تتحد لكسر الغرور [التركي]"[1].

كان لدى بايوس الخامس إحساس عال بالصراع بين العالم الكاثوليكي من جانب، والمسلمين والبروتستانت من جانب آخر. وكان يحلم بشن معارك كبيرة لوضع حل سريع للنزاعات أو الخلافات التي قسمت العالم المسيحي على نفسه. وسرعان ما تبنى خطة لتوحيد أمراء العالم المسيحي ضد العثمانيين[2]. وفي مسعاه لتحقيق ذلك، طلب من فيليب الثاني تناسي خلافاته مع فرنسا بشأن زعامة روما، "لأن مثل هذه الخلافات أدت إلى دفع الملك المسيحي المتعصب [ويقصد الملك الفرنسي شارل التاسع[3]] إلى عقد تحالف مع السلطان العثماني"[4]. أما العمل المهم الآخر من أعمال بايوس الخامس فهو الإسهام في دعم القدرة البحرية الإسبانية.

كان الباب العالي على علم جيد بخلفية هذا التحالف كله منذ البداية. وبفضل شبكة جاسوسية قوية أدرك الصدر الأعظم محمد صوقللو باشا نوعية المفاوضات بين الأطراف المتنازعة وإختلاف أرائهم وتوزيع المسؤوليات العسكرية وتقسيم التكاليف والمصاريف، فضلا عن أنواع السفن. وسعى، لكن متأخرا، إلى إبرام صلح مع البندقية، وإجتذاب فرنسا، في محاولة منه لتفتيت الحلف المقدس من الداخل. غير انه لم يوفق في ذلك، وكان عليه أن يجابه أكبر تجمع بحري مسيحي في شرقي البحر المتوسط[5].

على أية حال، كانت القوادس العثمانية في البحر منذ بداية صيف 1571. وقد وصلت أنباء إلى إيطاليا مفادها إن (250) قادسا و(100) مركب آخر شوهدت في إسطنبول[6]. أبحر (196) قادسا عثمانيا من العاصمة العثمانية وتوزعت بين

(1) اوزتونا، المصدر السابق، ص 371.

(2) Lane-Poole & Kelly, p. 164.

(3) حكم ما بين الخامس من كانون الثاني 1560 حتى الثلاثين من مايس 1574.

(4) Braudel, Op. Cit., p. 1029.

(5) كانت أجهزة المخابرات العثمانية في البندقية وروما قد أبلغت الديوان الهمايوني خبر معاهدة الإتفاق عندما كانت في مرحلتها التحضيرية. وبين 1570 وصيف 1571 كان الإسطول العثماني قد فتش عن الإسطول المسيحي ولم يعثر عليه. ولعل ذلك يؤكد لنا إن الدولة العثمانية لم تكن غافلة.

(6) Kıbrıs'ın Fethi, p. 56;

نيغروبونتي، وهي قاعدة تجهيز رئيسة، وبين قبرص[1]. وفي حزيران 1571 وصلت القوة الرئيسة من الإسطول العثماني إلى كريت[2]، معززة بسفن عُلُج علي. وبعد بضعة حملات في جزر بحر إيجة أصاب الجنودَ الإعياءُ والمللُ بعد طول انتظار وعدم وجود راحة بسبب توقع القادة العثمانيين الهجوم البحري المسيحي عليهم[3].

من جهة أخرى، غادر الإسطول المسيحي ميناء مسينا في السادس عشر من أيلول 1571؛ وكان هدفه الأول كورفو، حيث كان يأمل أن يتلقى معلومات دقيقة عن وضع الإسطول العثماني، الذي كان متجمعا في خليج ليبانتو. وقد أبخست التقارير حجم الإسطول العثماني. لكن الجانب العثماني وقع في الخطأ نفسه. نتيجة لذلك، قرر الأميرال العثماني ومستشاروه الإنقضاض على السفن المسيحية الراسية في جنوب ساحل كورفو. في هذه الأثناء، قررت الدول المتحالفة شن الحرب بسبب إصرار البنادقة الذين هددوا بالقتال منفردين لو تطلب الأمر ذلك، فضلا عن تلهف قادة البابا، وحماسة دون جوان، الذي لم يتردد من الذهاب إلى أبعد من الصلاحيات التي منحت له من فيليب الثاني[4].

التقى الإسطولان في السابع من تشرين الأول 1571 عند بزوغ الشمس، عند مدخل خليج ليبانتو[5]. وأصبح المسلمون والمسيحيون قادرين على رؤية أعدادهما الحقيقية: مائتان وثلاثون سفينة حربية على الجانب العثماني[6]، ومائتان وثمانية سفن على

سرهنك، المصدر السابق، ص 558.
ذكر بعض المؤرخين إن الإسطول العثماني كان مكونا من 180 - 200 سفينة. بينما تذكر المصادر الغربية رقما من 230 سفينة و 70 غاليوتا. كما إلتحق عُلُج علي باشا والي الجزائر بالإسطول ومعه 20 سفينة، ورديف باشا ومعه 54 سفينة أخرى؛ التميمي، رؤية منهجية...، ص ص 89 – 99؛
Lane-Poole & Kelly;
إذ يذكر إن قوام الإسطول كان 95 قادسا.

(1) في هذه الأثناء كان الكعك يُصنع في كل من مودون وبريفيزا، وهي إشارة إلى إن شيئا يُخطط له في الغرب.

(2) بلغ قوامها 300 مركب: 200 قادس و 100 مركب شراعي صغير.

(3) التميمي، رؤية منهجية...، ص 99؛
Shaw, Op. Cit., p. 178.

(4) Braudel, Op. Cit., p. 1101.

(5) Nafpaktos The Naval Battle of Lepanto, (*).

(6) تختلف المصادر في ذكر أعداد الإسطولين العثماني والمسيحي. وربما يعود ذلك إلى الإختلاف بين أعداد القوة التي انطلقت من الموانئ والأعداد التي وصلت فعلا

الجانب المسيحي[1]. وقد عززت ست غاليسات[2] بندقية، مجهزة بالمدافع قوادس دون جوان، التي كانت، في العموم، أفضل تجهيزا بالمدافع والبنادق من القوادس العثمانية[3].

إنتهت نتيجة المعركة ماديا لصالح التحالف المسيحي وكانت خسارة العثمانيين فيها كبيرة؛ إذ فر ثلاثون قادسا من المعركة بقيادة عُلُج علي بعد أن إلتفت بخفّة ومهارة حول قوادس جينا أندريا دوريا الضخمة. أما القوادس العثمانية الأخرى فقد أُسرت وتفرقت بين المنتصرين أو غرقت. وفي هذه المقابلة، فقد العثمانيون ما يزيد عن ثلاثين ألف قتيل (بضمنهم قائد القوة البحرية مؤذن زادة علي باشا)[4] وجريح وأكثر من ثلاثة آلاف أسير، وتحرر أكثر من خمسة عشر ألف أسير مسيحي. أما المسيحيون فقد خسروا عشرة قوادس، وما يتراوح بين سبعة آلاف إلى ثمانية آلاف قتيل[5]، وإثني عشر ألف جريح، من ضمنهم كثير من أشهر النبلاء من إسبانيا وإيطاليا. وكان من بين الذين تمكنوا من الفرار الروائي الإسباني سيرفانتس صاحب الرواية الشهيرة "دون كيشوت"، الذي أُصيب بذراعه اليسرى بعد أن كان يقود مجموعة من الجنود على ظهر السفينة (الماركيزة)[6]. بعبارة أخرى، فإن أكثر من نصف القوة البشرية أصبح خارج الحسابات العسكرية[7]. ولم تكن خسارة الدولة العثمانية خسارة مادية، وإنما كانت خسارة معنوية. إذ زالت شهرتها بكونها دولة "لا تقهر"، وثبت فعليا إمكان قهرها.

إلى موقع المعركة. قارن مثلا: يلماز اوزتونا، ص 372، إذ يذكر إن عدد سفن الإسطول العثماني بلغ اربعمائة سفينة.

(1) Braudel, Op. Cit., 1102;
قارن: اوزتونا، المصدر السابق، ص 372، اذ يذكر: "أما الإسطول المسيحي (الارمادا)، فكان يتكون من 295 سفينة و ثلاثين ألف جندي، وستة عشر ألف جذاف، و 280 من سفن الحربية نوع قادرغة؛ 144 منها بندقية و 70 إسبانية، و 12 بابوية، و 6 مالطية، و 3 جنوية، و 3 سافوائية. كان القائد العام للإسطول المسيحي اخو فيليب الثاني، دون جوان"؛ ويذكر إسماعيل سرهنك أرقاما مقاربة، المصدر السابق، ص 559.

(2) نوع من أنواع السفن الضخمة إستخدم أول مرة في البحر المتوسط في معركة ليبانتو من لدن البنادقة.

(3) Braudel, Op. Cit., p. 1102.

(4) اوزتونا، المصدر السابق، ص 371.

(5) Nafpaktos The Naval Battle of Lepanto, (*).

(6) Lane-Poole & Kelly, p. 177; Creasy, Op. Cit., p. 221.

(7) Braudel, Op. Cit.; cf: Gofmann, p. 159;
إذ يذكر ان مائتي قادس أسرت أو تحطمت، ونحو ثلاثين ألف بحار وجندي عثماني قد هلكوا، من بينهم مؤذن زادة علي باشا. قارن ذلك مع ما ذكره يلماز اوزتونا في صفحة 374 من كتابه، إذ يقول:" كانت هناك 142 سفينة عثمانية بين

المسألة المهمة هنا هي تلك المتعلقة بالستراتيجية البحرية العثمانية خلال هذه المرحلة. فإذا ما كان الهدف الرئيس للعثمانيين تحقيق مكاسب إقليمية، فإن المنطق التاريخي يفترض عدم دخولهم في مواجهة شاملة مع الإسطول المسيحي، وإنما تعزيز المواقع التي إحتلوها في قبرص مؤخرا وتجنب تفادي مواجهة شاملة مع إمبراطورية آل هابسبرك. وهنا يظهر لنا تساؤل مهم: هل كان بمقدور العثمانيين تلافي الإصطدام مع الإسطول المسيحي؟ وهل كان بمقدورهم تحقيق النصر في ليبانتو؟ الجواب نعم على كلا السؤالين؛ فقد تحمس العثمانيون لإرسال معظم إسطولهم غربا بكامل قوته خلال ربيع 1571، بعد مدة وجيزة من بناء الحصون في قبرص، وتلقى القائد البحري العثماني أوامر صريحة من السلطان سليمان الثاني للإشتباك مع الإسطول المسيحي في المعركة[1]، ليس هذا فحسب، وإنما تظهر الإشارات التي ذكرها الأستاذ يلماز أوزتونا إن قادة الإسطول العثماني كانوا متحمسين لشن مثل تلك المعركة الفاصلة[2]. من جانب آخر، يمكننا القول إن التكتيكات الخاطئة التي إتبعتها القيادة العثمانية كانت سببا مباشرا في تلك النكسة، ولو لم تكن خطط المعركة على النحو الذي جرت عليه، فلربما كان بالإمكان الخروج بنتيجة مختلفة كليا[3].

غريقة وجانحة على الأرض أو مستولى عليه. استولى الإسطول المسيحي على 60 سفينة، تم إقتسامها بين دول الحلف. كما تم الإستيلاء على 117 مدفعا كبيرا و 256 مدفعا صغيرا صالحة الإستعمال. وتم تخليص ثلاثين ألف أسير مسيحي. وسقط الآف من العثمانيين قتلى، واخذ 3460 أسيرا. كان مجموع القتلى والأسرى العثمانيين يقارب العشرين ألف شخص. من جانب آخر، كانت خسائر المسيحيين ثمانية آلاف قتيل، وعشرين ألف جريح، وقليلا جدا من الأسرى. ولم تبق سفينة حربية أو نأقلة مسيحية غير مصابة".

(1) Halil Inalcik; "Lepanto in the Ottoman Documents"; Gino Bezoni (ed.), Il Mediterraneo Nella Seconda Meta del 500 Alla Luce di Lepante, Firenze: Leo S. Olschki Editore, 1974, *Civilta Veneziana Studi*, 30, pp. 186-187; in John F. Guilmartin, Lepanto: The Battle That Saved Christendom? Prepared for the Centre d'Études d'Histoire de la Défense Conference Autour de Lépante: Guerre et Géostratégie en Méditerranée au Tournant des XVIe et XVIIe Siècles, Paris, 22-24 October 2001, 1st Revision, 28 October 2001, (*).

(2) اوزتونا، المصدر السابق، ص ص 373-374.

(3) Gulilmartin, The Battle of Lepanto, pp. 7-8.

على إمتداد هذا الحدث أجمع المؤرخون على إن معركة ليبانتو كانت حدثا متميزا، لكنها في النهاية لم تؤدّ إلى شئ لصالح قوى التحالف المقدس. أما كيف جرت المعركة، وما أثرها في التاريخ البحري العثماني، وما أثرها في تاريخ البحر المتوسط وتداعياتها حتى نهاية الصراع البحري مع آل هابسبرك سنة 1580؟ هذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه.

تكتيكات المعركة

على الرغم من كل ما قيل وكُتب عن معركة ليبانتو، فإن ما كُتب عن كيفية حدوثها، أو كيف تم تحقيق نتيجتها (سلبا فيما يخص العثمانيين، وإيجابا فيما يخص التحالف المقدس المسيحي) قليل جدا[1]. وقد حاول المؤرخ العسكري الأمريكي جون غلمارتن (John Guilmartin) معالجة هذا الجانب من المعركة، إلا انه ربط أدلته وإستنتاجاته بما كتبه ألفرِد ماهان[2] (Alfred Mahan) عن الحروب البحرية الأطلسية. وهنا سنحاول تجاوز حالات المقارنة بين ليبانتو والحروب الأطلسية، مركزين إهتمامنا على ليبانتو نفسها، مع بعض الأمثلة القليلة المستوحاة من المعارك البحرية المتوسطية التي تعرضنا إليها مسبقا. وبما إن تركيزنا هنا سينصبّ على الجوانب الفنية، فإننا سنحاول الإختصار قدر الإمكان. ومن المهم أيضا أن نأخذ بنظر الإعتبار النظرية التي قدمها المستشرق اندرو هِس الذي نجح في وضع معركة ليبانتو ضمن إطار ستراتيجي متعدد الثقافات، وهذا ناشئ، إلى حد كبير، عن تجنبه لكثير من المزاعم الغربية، الثقافية منها والستراتيجية[3].

من الناحية الفنية (التكتيكية)، فإن الغموض في معركة ليبانتو كليٌّ تقريبا[4]. ولكن، عندما تُذكر ليبانتو فإنها تحمل معاني صراع عنيف أبرز الإمكانات كلها للإنخراط

---

(1) كتب ستانلي لين ـ بول عن هذا الجانب على نحو مقتضب؛
Lane-Poole & Kelly, pp. 174-175.

(2) Alfred. Thayer Mahan; Influence of Sea Power upon History: 1660-1783, Boston, 1890.

(3) Hess, The Forgotten Frontire…, pp. 90-91.

(4) الكتاب الوحيد الذي يتضمن معالجة شاملة للتكتيكات المُستخدمة في ليبانتو هو كتاب المؤرخ الفرنسي ميشيل ليسو:

في "معركة برية في البحر"[1]. وفي بحثه القيم عن تكتيكات معركة ليبانتو حاول غلمارتن دحض وجهة النظر القائلة: "يبدو إن إنتصار الحلف المقدس على العثمانيين جاء نتيجة للحماسة الدينية أكثر من كونه نتاج تكتيك ذكي"[2]، وهي نظرية تبناها المؤرخون الأتراك، لاسيما أنور يلدرم، من خلال تقديم مجموعة من الأدلة والبراهين سنعرض لها لاحقا. فهل إن وجهة النظر هذه صحيحة؟

الدليل المتوافر لا يدعم وجهة النظر الأخيرة، وإنما يؤيد فرضية غلمارتن؛ إذ تم التخطيط لمعركة ليبانتو بشكل مدروس، وقاتل فيها الطرفان بشكل جيد. وكانت خطط قائدي المعركة . دون جوان النمساوي ومؤذن زادة علي باشا . مفهومة وليست معقدة. وقد بذل فيها الطرفان أفضل جهد ممكن للإفادة من القوات المتاحة، ومن الخط الساحلي، ومن طبيعة الأرض، بطريقة أصبح بالإمكان معها إستغلال أكبر قدر ممكن من الطبيعة المتغايرة الخواص للإسطولين[3]. وكانت لدون جوان النمساوي مشكلات عميقة الأثر بخصوص مسألة الثقة، وإختلاف الأهداف، والضغط السياسي ضمن قيادته، مما هدد بتمزيق خططه. وبما إن تأكيدنا هنا مركزٌ على الجانبين الفني والبشري من هذا النزاع البحري، فإننا يمكن أن نبدأ، من هنا، بتحليل المعركة من الناحية الفنية.

كان إختلاف الأهداف والمقاصد ضمن دول العصبة المقدسة عميقا، وهي حقيقة انبثقت من الواقع الإقتصادي، ومن ثم إنعكست على الأهداف الفنية (التكتيكية)؛ فقد كانت البندقية، كما نعلم، تريد حربا قصيرة وسلاما سريعا، بطريقة وُصفت بأنها "خيانة" للعصبة المقدسة من وجهة نظر الإسبان[4]. وللبنادقة الحق كله في ذلك؛

Michel Lesure; Lepante: la crise de l'empire Ottoman, Paris, 1972.

(1) John F., Guilmartin; The Tactics of the Battle of Lepanto Clarified: The Impact of Social, Economic, and Political Factors on Sixteenth Century Galley Warfare"; in: New Aspects of Naval History, Graig L. Symonds (ed.), Annapolis, 1981. pp. 41-65.

(2) Guilmartin, The Tactics of the Battle of Lepanto…, p. 43.

(3) Ibid.

(4) Braudel, Op. Cit., p. 1125.

إذ إن الحرب مع العثمانيين كانت تعني قطع شريان الحياة التجارية للبندقية المتوجهة إلى الشرق، كما إن تعبئة الإسطول بهذا الحجم كان يعني القضاء على قوتها العاملة.

أما إسبانيا، فلم تكن تجارة البحر المتوسط تعني لها الشئ الكثير، إذ كانت تجارتها الرئيسة مع أمريكا. على هذا الأساس، كان الضغط المادي والعسكري على إسبانيا أكثر مما كان على البندقية. ولكن ما هي مصلحة إسبانيا في ذلك؟ لقد وجدت إسبانيا في الحلف المقدس مجالا مناسبا لتوسيع سمعتها في العالم الكاثوليكي، ولمنع البندقية من الإستفراد بنتائج الإنتصار في حال حدوثه، ولإضافة قوة لابأس بها في المنطقة ضمن أساطيلها الكبيرة نسبيا[1]، والشئ الأهم هو الإعتبارات الستراتيجية، إذ كانت إسبانيا تتطلع إلى تحقيق مكاسب ستراتيجية في مدن وسواحل شمالي أفريقيا الإسلامية، وكانت "تناضل" لإبقاء العثمانيين في شرقي البحر المتوسط، بعيدين عن شمالي أفريقيا، وعن حلفاء العثمانيين، الموريسكيون.

أما أهداف الدول الإيطالية التابعة لإسبانيا، ولاسيما جنوا، فقد كانت أهدافا مختلفة إلى حد ما؛ إذ كانت جنوا، مثل البندقية، تعتمد على التجارة كليا. وبعد أن إضطرت إلى التخلي عن مواطئ قدمها التجارية في شرقي البحر المتوسط، بعد قرون من الصراع المرير مع البندقية، بدأت تتاجر في الأراضي العثمانية. ولكن، عندما بدأت البندقية تعتمد على إحتكار المواد الخفيفة، ذات القيمة العالية، كالتوابل والسلع الكمالية، الذي اضرّ بالتجارة العثمانية أيضا، تصاعد وزن التنافس الجنوي لدى العثمانيين على حساب البنادقة، مما أعطى الجنويين فرصة أكبر في المفاوضات مع العثمانيين[2]. وثمة إشارات بأن التجار الجنويين كانوا يزودون الإسطول العثماني بالكثير من مادة البرونز

(1) للحصول على تحليل أثر العوامل الإقتصادية على أساطيل قوادس البحر المتوسط عموما؛
John F. Guilmartin, Gunpowder and Galleys: Changing Technology and Mediterranean Warfare at Sea in the Sixteenth Century, New York, 1974, pp. 105-122.

(2) See: Robert S. Lopez, "Market Expansion: the Case of Genoa", *Journal of Economic History*, Vol. 24, No. 4, December, .1964, pp. 445-464.

الضرورية لصناعة المدافع[1]. ولكن، مرة أخرى، فإننا يجب أن لا ننسى إن جنوا كانت ضمن الفلك الإقتصادي والسياسي لإسبانيا . هابسبرك.

من هنا، فقد تمثل الإسهام البحري الرئيس لجنوا في الحلف المقدس بأحد عشر قادسا بقيادة جينا أندريا دوريا، الذي كان يعمل بتوجيه من الإدارة الشخصية للتاج الإسباني، واعني بذلك، الإمبراطور فيليب الثاني شخصيا. ولكن هذه الخدمة لم تكن من دون ثمن، فقد كان كل قادس من قوادس أندريا دوريا يكلف إسبانيا كل شهر ثلثا إضافيا مما يكلفه مثيله القادس الإسباني[2]، وكان جينا أندريا دوريا يدفع نسبة سنوية قدرها 14% من الفوائد على الأموال، كان فيليب يستعيدها منهم لشراء خدمتهم. إذن، فإننا لايمكن أن نفهم مصلحة جينا أندريا دوريا بالتعاون مع العثمانيين، كما فعل البنادقة فيما بعد.

على هذا الأساس، فإن إرتداد، أو "تمرد" أحد الحلفاء خلال المعركة كان أمرا واردا جدا، وكان على أندريا دوريا أن يحتاط له. وهذا الأمر لم يكن موجودا لدى قادة الإسطول الإسلامي؛ فعلى الرغم من وجود إختلافات في الفلسفة التكتيكية العسكرية بين قباطنة شمالي أفريقيا[3] وموظفي المؤسسة البحرية العثمانية المركزية، فإن القيادة كانت موحدة.

أما بخصوص القدرة القتالية للإسطول المسيحي، فقد كان ما يزيد عن نصف القوادس التي حاربت في ليبانتو من البندقية، إي نحو (108) من مجموع (206)، أي ما نسبته 52% تقريبا. أما إسبانيا ونابولي وصقلية، فقد أسهمت (49) قادسا، أي ما نسبته 24%. وكان لدى جينا أندريا دوريا (11) قادسا، أي 5%، بينما أسهمت كل من جنوا، وسافوي، وبقية المغامرين البحريين الإيطاليين (23) قادسا، أي ما نسبته 12%. كما أسهمت البابوية وفرسان القديس يوحنا بنسبة تراوحت بين 3–7% توزعت

---

(1) William H. McNeill, Venice, the Hinge of Europe 1091-I797, Chicago, 1974, pp. 134-37: see particularly p. 135;
وهو يستشهد بمعلومات استقاها من خليل إنالجك. ولكن تجارة القصدير العثمانية ـ الجنوية تقلصت إلى حد كبير بعد الإستيلاء على خيوس من جانب النقابات الجنوية التي كانت تسيطر على التجارة سنة 1556.

(2) Guilmartin, The Tactics of the Battle of Lepanto…, pp. 32-33.

(3) Ibid., p. 45.

بينهما[1]. وهذه النسب المئوية ما هي إلا إشارات تقريبية عن القوة القتالية؛ فهي لا تتضمن، مثلا، الغاليوتات، ولا الغاليسات البندقية الست، ولم تأخذ بنظر الإعتبار إختلاف الطرفين المتنازعين بتجهيز قوادسهما بالقوة البشرية. وفي العموم، كانت القوادس المسيحية أقل قدرة على المناورة من مقابلتها الإسلامية، لكنها كانت أكثر قوة من الناحية الفنية، لاسيما في الصدام وجها لوجه، عندما كانت تصطف في خط متسلسل. وكانت هذه الحقيقة واضحة في كل جانب من جوانب المعركة. وزع دون جوان إسطوله على الأقسام التقليدية الأربعة: القلب (ميدان المعركة الرئيس)، والميمنة، والميسرة، والمؤخرة[2]. وفي يوم المعركة كان لكل جناح في الجانب المسيحي(53) قادسا. وقد مثّل ذلك عدد الحد الأقصى للقوادس التي تستطيع أن تناور في خط واحد جنبا إلى جنب من دون فقدان سلامة التشكيل[3]. وكان للجناح الأيمن

---

(1) يذكر إسماعيل سرهنك إن قوة الإسطول المسيحي كانت على النحو الآتي: (70) سفينة إسبانية بقيادة دون جوان، و (12) سفينة بابوية بقيادة مارك انتونيو، و (8) سفن صقلية. وكان إسطول البندقية مكوّن من (108) سفن، وإسطول نابولي من (32) سفينة، وإسطول مالطا من (6) سفن، وشاركت فرنسا بثلاث سفن. وكان بين السفن البندقية ست سفن من نوع الغالي (ويقصد الغاليسات)، بمدافعها الكبيرة قياسا لحجمها؛ سرهنك، المصدر السابق، ص 559.

(2) ثمة اتفاق بين المؤرخين بخصوص التشكيل العام للإسطول المسيحي. ولكن الإرباك يخص الأعداد الدقيقة للقوادس الخاصة بكل طرف. وقوات التحالف المسيحي كانت تختلف من يوم لآخر من حيث الحجم والتركيب، بوصول او انقطاع او إرسال بعض القوادس لمهمات استطلاعية الخ. وفي العموم فإن عدد قوادس الإسطول المسيحي بلغ 208 قوادس. وقد إتبعت هنا الأرقام التي وردت في كتاب:
Roger C. Anderson; Naval Wars in the Levant, 1559-1853, Princeton, 1953, p. 38;
بوصفها أفضل توفيق لكمّ البيانات المتضاربة. وعموما، فإن المؤرخ جون غلمارتن يستشهد بالوثائق الكثيرة ذات الصلة بالموضوع في مجموعة المتحف البحري بمدريد، فضلا عن مصادر أخرى، مثل:
Colección Sanz de Barutell (Simancas), Art. 4, Vol. 2, titled "Relación de las Galeras, Naos y Fragatas que huvo en la Armada de su Magestad. . ." See also: Baron Purgstall von Hammer, Histoire de L'Empire Ottoman, J. J. Hellert, (trans.), Paris, 1835-1841, p. 424, and Althea Weil; The Navy of Venice, London, 1910, p. 263.

(3) كان الإستخدام الإسباني لكلمة القلب هو (Batalla)، وهو تعبير مشتق، على ما يبدو، من تعبير (المعركة الرئيسة)، وهو من مصطلحات العصر الوسيط التقليدية. وكانت كلمتا (Cuerno Izquierda) و (Cuerno Derecha) تُستخدمان للأجنحة، وكلمة (cuerno) تعني "جناح" بالسياق العسكري، و "قرن" (horn). اما مؤخرة العمارة فقد كانت تُسمى (Socorro)، أي" الإسعاف"؛

الإسلامي (54) قادسا، ربما للسبب نفسه، بينما كان للميسرة الإسلامية ما لا يقل عن (78) قادسا[1]. وثمة سبب للإعتقاد إنها كانت تنوي الإلتفاف، ومن ثم الإنقضاض، على الميسرة المسيحية[2].

أما قوة القلب المسيحية، ذات الحاجة الأقل على المناورة من الأجنحة، فقد بلغ قوامها (62) قادسا، وهو ترتيب إتبعه المسلمون أيضا؛ إذ كان قلب قوتهم مكونا من (61) قادسا[3]. وكانت مؤخرة عمارة دون جوان مكونة من (38) قادسا[4]. على أية حال، كان كل من دون جوان ومؤذن زادة قد ركزا خططهما في الوسط، على القوادس الـ (61) إزاء الـ (62) التي كانت تحيطها عمارات إحتياطية ذات حجم أصغر. لكن، بما إن دون جوان ركز قوادسه المتبقية في عمارة بمؤخرة خط المعركة الرئيس، تحوطا دفاعيا، فإن مؤذن زادة قدّم القوادس المتبقية إلى آمر جناحه الأيسر، عُلُج علي[5]، أملا في إستخدام أعدادها المتفوقة وقدرتها على المناورة للإلتفاف على الجانب المسيحي.

---

(1) Guilmartin, The Tactics of the Battle of Lepanto..., p. 46. Guilmartin, Gunpowder and Galleys…, pp. 201-203; cf: Kıbrıs'ın Fethi, p. 56;
إذ يذكر إنها (87) سفينة.

(2) Jack Beeching; The Galleys at Lepanto, New York, 1982, pp. 99-101.

(3) هذا ما ذكره جون غلمارتن في:
The Tactics of the Battle of Lepanto, pp. 46-48;
في حين يذكر مصدر آخر إن قوة القلب الإسلامية كانت مكونة من 85 سفينة من نوع قادرغة (قادس)؛
Kıbrıs'ın Fethi, p. 56.

(4) بخصوص تشكيل الإسطول الإسلامي، إعتمدنا هنا على الأرقام التي أوردها جون غلمارتن، الذي إعتمد بدوره على كتاب:
Rosell Cayetano; Historia del Combate Naval de Lepanto, Madrid, 1853, p. 99, cited in: Olesa Muñido, Vol. I, p. 371;
ويذكر ليسو (Lesure, p. 115) الأرقام الإجمالية. وإن أقرب مصدر معاصر عن الجانب الإسلامي هو كتاب الموظف الروماني ديميتيريوس كانتيمير؛
Dimetrius Cantemir, The History of the Growth and Decay of the Othman Empire, N. Tindal trans, London, 1734;
إذ يذكر قوة مكونة من 170-270 سفينة. وليست كل القوادس والغاليوتات التي عدّدها أسهمت في المعركة.

(5) كان لعُلُج علي سيرة بحرية طويلة ومتميزة، وتولى إمرة الإسطول العثماني بعد سنة واحدة من معركة ليبانتو. وبدأ سيرته البحرية بصفته قبطان قادس تحت رعاية

كانت أولى قرارات دون جوان وأكثرها نجاحا تحطيم حالة "عدم الانسجام القومي" في إسطوله الموزع بين عِمارات مختلفة، لمنع وقوع نكسة كبرى[1]. وكان توزيع القيادة في الجانب المسيحي كالآتي: كان دون جوان بسفينته (Real) يقود القلب شخصيا[2]. وكان جينا أندريا دوريا قائد الميمنة، والبندقي أوغسطين بارباريغو(Augastin Barbarigo) قائد الميسرة، في حين كان الإسباني دون ألفارو دي بازان (Don Alvaro de Bazan) قائد المؤخرة[3]. وكان إلى يسار دون جوان، البندقي سيباستيان فينير (Sebastian Venier)، بسفينته (القبطانة)، وإلى يمينه القائد البابوي مارك أنطونيو كولونا (Marc Antonio Colona).

إنطوت نتيجة معركة ليبانتو على إختلافات في التصميم وعلى القدرات الفنية للسفن الحربية، وعلى الطريقة التي إستخدمها فيها قادة المعركة. والإختلافات التقنية في تصميم السفن الحربية كانت مهمة؛ اذ مثّل ظهور (الغاليسات) البندقية إبتكارا تقنيا حقيقيا؛ وهي حقيقة أثبتت إنها عامل رئيس أسهم في هزيمة المسلمين[4].

خير الدين بربروسا. وفي سنة 1560 إشترك في الحملة التي أدت إلى إنتصار ساحق للمسلمين في جربة.

(1) Jermey Black; European Warfare 1494-1660, London- New York, 2002, p. 218.

(2) Prescott, Op. Cit., 621; Lane-Poole & Kelly, pp. 167-168.

(3) تدل كلمة (القبطانة) على قادس قائد الفرقة القومية او العمارة؛ وتدل (البطرونة) على قادس القائد الثاني. وكانت كلمتا (القبطانة) و (البطرونة) تستخدمان عموما بصفة عناوين، مثل:

La Capitana de Napoles;

أي: قادس آمر العمارة النابولية. وكانت السفينة (Real) تدل على القبطانة الملكية، كما فعل دون جوان عندما عُيّن ممثلا للملك الإسباني؛

Guilmartin, The Tactics…, pp. 48-49.

(4) في تقويمه لدور هذه الغاليسات يقول المؤرخ دانييل غوفمان:" ربما يكون الإستخدام المبتكر للغاليسات البندقية، وهي سفن تجارية كبيرة حورت للإستخدام العسكري عن طريق نصب مدافع على الأجزاء الفوقية للسفن، هي التي كسبت المعركة لصالح العصبة الكاثوليكية. إن ستراتيجية دون جوان في وضع هذه التراكيب الضخمة في واجهة إسطوله وتوجيهها نحو خط العدو عملت على تحطيم التشكيل العثماني وتعريض القوادس العثمانية إلى نيران المدافع المنصوبة على جانب السفن والهجمات الجانبية من الخط الثاني للمراكب الكاثوليكية"؛

Goffman, Op. Cit., p. 159.

من جانب آخر، كانت العوامل البشرية فاعلة في المستوى الثاني أيضا، أي المستوى الفني، وأثرت في الطريقة التي صُممت بها القوادس، وهي نقطة جوهرية لفهم معركة ليبانتو والصراع في البحر المتوسط عموما. ففي الوقت الذي لا يمكننا فيه القول إن القوادس البندقية كانت أفضل من القوادس الإسبانية أو من القوادس البابوية، فإننا لا نستطيع القول أيضا إن القوادس النابولية كانت أكثر تفوقا من القوادس العثمانية أو من قوادس شمالي أفريقيا. لقد كانت كل واحدة منها مصممة ومسلحة لإنتزاع الحد الأقصى من القدرات البشرية المتاحة[1].

لذلك، كان من الصعب، لغير العين المدربة، التمييز بين القادس الإعتيادي الإسباني، أو المالطي، أو البندقي، أو نظيره الإسلامي، من دون الإشارة إلى الرايات التي كانت ترفعها؛ إذ كانت أبعاد القادس تبلغ (36) قدما طولا، وما يتراوح بين (17-18) قدما عرضا، تعلوها ركائز، وهي إطارات التجديف التي تمتد بطول 24 قدما تدعم أوتدة المجاديف[2]. وهذه مواصفات عامة، لكننا لو دخلنا في التفاصيل، فقد كان هناك إختلاف بين قادس وآخر، فالمدافع الإسبانية كانت أطول وأثقل من المعتاد، والمدافع البندقية كانت أقصر وأخف وزنا، لكنها كانت تطلق قذائف أكبر حجما[3].

وفي الفصل الأول سبق أن تطرقنا إلى بعض النقاط المهمة عن الطبيعة التقنية لسفن البحر المتوسط. ولكن التطور الجديد في ليبانتو دخول الغاليسات البندقية، وهي سفن حربية شراعية، ونوع من أنواع القوادس الكبيرة. وكانت الغاليسات البندقية الست التي حاربت في ليبانتو . التي لا يمتلك المسلمون ما يضاهيها . قوادس تجارية وُضعت

---

(1) للتفاصيل عن القدرة البحرية لآل هابسبرك خلال القرن السادس عشر:
Glete, Op. Cit., pp. 21-22.

(2) ثمة بعض الإختلافات في هذه الأرقام، ولكن بدرجة ضيقة؛
Roger Charles Anderson; Oared Fighting Ships, London, 1962, pp. 567-68; Olesa Muñido, Ch. III, "El Buque," pp. 169-279;
إذ ناقش تركيب القوادس بصورة شاملة؛ و:
Bjorn Landstrom, The Ship, New York, 1961, pp. 127-39;
إذ يقدم ملخصا تصويريا رائعا لمعظم ماهو معروف بشان تطور تاريخ قوادس البحر المتوسط.

(3) هذا البيان مستند إلى قياس وتحليل أعداد من المدافع التي مازالت موجودة في مجموعات بعض المتاحف العسكرية في كل من مدريد ولشبونة والبندقية وإسطنبول.
Guilmartin, The Tactics of the Battle of Lepanto..., p. 49.

في خدمة الإسطول قبل مدة قليلة من حدوث المعركة[1]. ومع إقتراب المعركة أفاد الإسطول المسيحي من أحجامها الكبيرة والثقيلة لتحميلها بالمدفعية الثقيلة[2]. وربما كانت كل واحدة منها تحمل أربعة أو خمسة مدافع محشوة[3].

كانت قوادس البحر المتوسط تُصنّف، طبقا لتصميمها وخصائصها، إلى ثلاثة أصناف رئيسة: القوادس الإسبانية وتوابعها الإيطاليات؛ والقوادس البندقية؛ والقوادس الإسلامية[4].

كانت القوادس الإسبانية، والمالطية، والصقلية، والجنوية، والبابوية، مراكب هجومية. ولكن الأمر تغير بعد حدوث دورة إرتفاع الأسعار في البحر المتوسط[5]، اذ اضطر الإسبان إلى التخلي عن المراكب المجانية المستأجرة لصالح العبيد والمُدانين الأرخص سعرا[6]، وقد إنسحب ذلك على القدرة القتالية الإسبانية[1]. ومن الطبيعي أن ينعكس هذا الوضع على الدويلات الإيطالية التابعة لإسبانيا، للسبب نفسه.

---

(1) See: Ladstrom, Op. Cit., pp. 134 ff; Anderson, Ored Fighting Ships…;
الذي يتضمن فصلا كاملا عن التطور التقني للغاليسا. وقد عرف العثمانيون كيفية بناء مثل هذه السفن، التي كانوا يسمونها مؤونة أو معونة (Maona)، ولكنها كانت مفتقرة إلى التسلح بالمدافع؛
J. R. Hale, "Armies, Navies and the Art of War", New Cambridge Modern History, Vol. II, Ch. XVI;
إذ يقدم رؤية مهمة عن أصولها.

(2) Guilmartin, The Tactics of the Battle of Lepanto..., p. 50.

(3) هذه الأرقام مستندة إلى تحليل تسليح أربعة غاليسات نابولية أبحرت مع الارمادا العثمانية لسنة 1588 في كتاب:
Michael Lewis; Armada Guns, London, 1961, p. 138;
والغاليسات البندقية في ليبانتو كانت أقل تسليحا، ويذكر ليسو إن كل واحدة منها كانت تحمل 22 مدفعا ثقيلا؛
Lesure, Op. Cit., p. 116.

(4) ربما كانت قوادس شمالي أفريقيا تتكون من فئة مختلفة، ولكن لايمكن وضعها ضمن هذه التصانيف. وفي ضوء هذه الأفضلية للغاليوتات الكبيرة، فإن هذه النقطة تبقى موضع نقاش إلى حد كبير.

(5) Omer Lutfi Barkan, and Justin McCarthy, ; "The Price Revolution of the Sixteenth Century: A Turning Point in the Economic History of the Near East", *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 6, No. 1, Jan. 1975, pp. 3-28.

(6) Guilmartin, The Tactics of the Battle of Lepanto..., p. 53.

كان الوضع الستراتيجي لإسبانيا في البحر المتوسط وضعا دفاعيا بالدرجة الأساس. ومن هنا، تمكن المسلمون من مهاجمة الموانئ والمدن الساحلية الإسبانية، أو التي كانت إسبانيا تدّعي بعائديتها لها (وأعني بذلك بعض سواحل شمالي أفريقيا). وقد ردّت إسبانيا على ذلك، ولكن النفقات الكبيرة لإبقاء القوادس مسلحة تسليحا جيدا وبحالة إستعداد تام خلال موسم الهجوم، من أواخر شهر آذار حتى منتصف تشرين الأول، لمواجهة الغارات الإسلامية، عملت على إضعاف القوة البحرية الإسبانية[2]. وتلافيا لتلك المشكلة، أخذت الأساطيل الإسبانية بإستخدام أعداد قليلة من الرجال المتخصصين، بدلا من العدد الكبير من غير المتخصصين، فضلا عن إنها طوّرت تركيب سفنها لتحقيق مضاعفة سرعة الانطلاق[3].

أما الوضع الستراتيجي للبندقية فقد كان وضعا دفاعيا أيضا، مثل وضع إسبانيا. لكن البندقية كانت تعتمد على الدبلوماسية وعلى سلسلة الموانئ المحصنة للدفاع عن تجارتها أكثر من إعتمادها على القدرة البحرية لقوادسها. وقد وظّفت لهذا الغرض قوة لا بأس بها من البحارة الماهرين لبناء إسطول كبير يكون جاهزا وقت الحرب. وبذلك تمكنت من تطوير إسطول ضخم خلال مدة قصيرة جدا قياسا لإمكاناتها المتواضعة. وقد إعتمدت،

---

(1) حدث أول إستخدام منظم للمُدانين بوصفهم مجدفين على القوادس البندقية سنة 1549؛

Alberto Tenenti; Piracy and the Decline of Venice, Berkeley, 1967, pp. 124-25; cf: Ismail Uzuncarsili, Osmanli Devletenin Merkez ve Bahriye Teskilati, Ankara, 1988, p. 482;

إذ ذكر عمارة عثمانية مكونة من 41 قادسا في سنة 1566 كانت من بينها (القبطانة) وقادسين آخرين جُهّزا بالمجدفين من "العزّاب"، وهم من سلاح المشاة المتطوعين بإجور، وثلاثة قوادس جهزها العبيد بالمجاديف، وباقي الـ 36 جُهّزت بالمجاديف بوساطة مجدفين مرتزقة من اليونانيين.

(2) لا يبدو إن إسطول القوادس الإسبانية في البحر المتوسط كان يتكون من أكثر من ستين قادسا، أو نحو ذلك؛

Guilmartin, Op. Cit.

(3) هذه النقطة قدمها أحد القادة البحريين الإسبان المعاصرين من ذوي الخبرة والكفاءة، وهو دون غراسيا دي توليدو (الطليطلي)، الذي أنقذ مالطا سنة 1565، في وثيقة يرجع تاريخها إلى نحو سنة 1568 بعنوان " خطاب بشأن ما تحتاجه القوادس للملاحة على نحو جيد، سواء مع العبيد المستخدمين وغيرهم من الناس [كذا]"؛

Colección Navarrete, vol, XII, dto. 83, fol. 309ff; in: Guilmartin, Op. Cit., p. 54.

في سبيل جعل هذا الإسطول ذا قدرة قتالية عالية، على التركيز على السرعة الشراعية، بسبب إفتقارها للقوة البشرية المقاتلة المتخصصة[1].

وبما إن البندقية وإمبراطورية آل هابسبرك كانتا في وضع دفاعي في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، فقد كان العثمانيون في وضع هجومي. وهذا الوضع منح العثمانيين مزايا فريدة؛ فإذا كان القادس الإسباني مركبا هجوميا، والقادس البندقي وسيلة إنقضاض، فإن القادس العثماني/ الإسلامي[2] كان مركب إنزال مسلح ستراتيجي.

كان القادس العثماني، الذي لم يكن سريعا مثل القادس البندقي ذي الأشرعة، أفضل مركب للقتال. ولم يكن ذلك مصادفة، وإنما كان متأتيا من وظيفة القادس العثماني نفسه، التي كانت محصورة ضمن عمليات نقل الرجال والمؤن والبنادق والتجهيزات إلى مواقع الحصار وحمايتها من التدخل. فضلا عن ذلك، فقد كان العثمانيون وحلفاؤهم في شمالي أفريقيا متفردين في إمتلاك أعداد كبيرة من رماة السهام الماهرين الذين كانوا يجيدون إستخدام أقواس ذات كفاءة عالية. وكان هذا السلاح فاعلا أثناء الإشتباك المباشر الذي برع فيه العثمانيون. وكانت هناك ميزة أخرى تمثلت بهيأة القادس العثماني نفسه، الذي كان أوطأ من القوادس المسيحية. وهذه الميزة مكّنته من الإحتفاظ بسرعته وبقدرته على المناورة بشكل كبير (إذ إن القوادس العثمانية كانت تسحب كمية أقل من الماء مقارنة بالقوادس البندقية او الغربية)، وهي حقيقة ذات أهمية كبيرة في ليبانتو. وبأخذ هذه الخصائص بنظر الإعتبار، يمكننا الآن أن نتناول الخطط التي تمت بها المعركة على نحو أسهل. ولابد من القول أولا إن المركز (القلب) كان نقطة جذب لكل من قائدي المعركة: دون جوان ومؤذن زادة.

---

(1) ثمة دليل على إن الرماة البنادقة كانوا يفضلون الاشتباك بجو تام الهدوء، بحيث إن حركة مؤخرة القادس يمكن أن تتيح لهم التحكم بإسقاط قذائفهم على أقرب نقطة من الهدف؛

Tenenti, Op. Cit., p. 79; Guilmartin, Op. Cit., p. 55.

(2) كانت قوادس المؤسسة المركزية العثمانية وقوادس محاربي شمالي أفريقيا تسمى (Turcos) باللغة الإسبانية، كما يشير إلى ذلك جون غلمارتن، ص 55، من بحثه المذكور آنفا.

مما لاشك فيه إنه إذا كان بمقدور قوة القلب المسيحية المحافظة على خط متماسك، فإنها ستتمكن من التغلب على أي شئ يمكن للمسلمين أن يضعوه أمامها[1]. وفي العموم، فإن قوادس إسطول التحالف كانت تتمتع بميزة توجيه النيران نحو القوادس الإسلامية الأوطأ مستوى، وفي الوقت نفسه كانت محمية من رماة السهام المسلمين. وكانت هذه مشكلة لم يكن بمقدور المسلمين تجاوزها تقريبا، على الرغم من تفوقهم في المزايا القتالية على غيرهم، كما حدث في بريفيزا عندما تمكن خير الدين بربروسا من إحباط مناورات أندريا دوريا في مخادعة بارعة[2]، وفي جربة سنة 1560 عندما تمكن بيالة باشا من الإمساك بأندريا دوريا (الأكبر) وتجريده من سرواله أمام أنظار جنوده ودهشتهم[3]. ولكن هذه الحالات كانت إستثنائية، وإن أي اشتباك كان سيحيل المعركة لصالح القوادس المسيحية[4].

من هنا، عمل المسلمون كل ما بوسعهم للإلتفاف على جوانب قوة القلب المسيحية، ونجحوا في ذلك إلى حد ما، ولكن ليس على نحو حاسم؛ فمن اجل بلوغ (القلب) المسيحي أو تحطيمه كان على مؤذن زادة أن يتعرض للأجنحة المسيحية أولا، وكان ذلك يعني ضرورة سحبها إلى الخارج، للإلتفاف عليها وتحطيم قدرتها. وكان عليه، في الأقل، إزاحة أحد الأجنحة المسيحية، لأن (القلب) لايمكن أن يصمد من دون إحداها مدة طويلة.

ولغرض تحقيق هذا الهدف كان عليه أن يتوقع تقديم تضحيات كبيرة في (القلب)، مقابل وضع أساس قوي للمناورة في الأجنحة. على هذا الأساس، أعطى مؤذن زادة أوامره إلى محمد صوقللو باشا لإزاحة أحد الجوانب المسيحية، وكان هذا هو مفتاح الخطة الإسلامية؛ إذ كان ذلك يعني سحب أعداد من قوادس الميسرة المسيحية نحو المؤخرة من أجل تحطيم قوة (القلب) المسيحية. ولكن، مرة أخرى، لماذا الميسرة؟

---

(1) للإستشهاد بمثال بارز، فإن أندريا دوريا الأكبر، وهو يقود 39 قادسا، كان قد تفاجأ وهو يجوب السواحل الإيطالية في سنة 1557، بوجود ما لا يقل عن 103 قادس إسلامي. وعلى الرغم من تأثر قوته على نحو شديد، فإنها نجت بخسارة سبعة قوادس فقط.

(2) Guilmartin, Gunpowder and Galleys, pp. 42-56.

(3) Guilmartin, The Tactics…, p. 57.

(4) Ibid., p. 59.

من الواضح إن بحّارة بارباريغو كانوا يعلمون إنه ينبغي عليهم القيام بخطة سريعة لمنع محمد صوقللو من الإلتفاف حولهم، بسبب ضعف قوتهم هناك؛ فمن بين القوادس [illegible][1]. وعلى النقيض من الميسرة، كانت الميمنة أكثر تناسقا وقوة.

ما الإستنتاج الذي يمكن أن نخرج به من حالة عدم الإنتظام في توزيع القطعات المسيحية؟ الإستنتاج هو انه في الوقت الذي لم تكن فيه الميسرة والقلب يستلمان أوامر منتظمة ومتوازنة عن المعركة، كانت الميمنة والمؤخرة تتسمان بحالة انتظام وتوازن[2]. ومن الواضح أيضا إن دون جوان ومؤذن زادة كانا ينويان التوجه والقتال عند الجبهات القريبة من الخط الساحلي، لحماية خطوط الاتصالات ودعمها لوجستيا.

من هنا، إضطر الإسطولان إلى شق طريقهما على طول الساحل نحو بعضهما البعض بحذر؛ الإسطول المسيحي من الشمال، والإسطول الإسلامي من الجنوب. وكان من الصعب إخفاء تحركات مثل هذه القوات الكبيرة. وعندما إلتقى الطرفان في صبيحة السابع من تشرين الأول 1571، كانا في حالة إستعداد جيدة؛ فقد خطط كلا القائدين للمعركة على نحو جيد، وإستعدا لها، وأعدا قواتهما. وفي مثل هذه الحال، فإن أداء بعض قادتهم الثانويين لم يكن بالأمر المهم. ومن هنا، فإن أداء الميسرة المسيحية بقيادة أوغسطين بارباريغو كان نقطة محورية حاسمة. أما دفاع محمد صوقللو فيمكن أن يُقال عنه إنه جرى على نحو جيد. وعندما جرى القتال فإنه كان قريبا من الساحل، وتمكنت إحدى عمارات المؤخرة المسيحية من إسناد الميسرة في الوقت المناسب جدا. أما عُلُج علي، فيبدو إنه انتزع نصرا في جبهته، بمعزل عن النتيجة الكلية للمعركة[3]. من جانبه، قاد دون جوان قواته وقاتل على نحو جيد. أما مؤذن زادة فقد اخطأ فقط في قبول

---

(1) Guilmartin, Gunpowder and Galleys, p. 199.

(2) في التاسع من أيلول كانت المؤخرة مكونة من 29 قادسا، كالآتي: 10 قوادس بندقية، و 19 قادسا غربيا غير منتظمة. وعند نهاية المعركة، ارتفعت النسبة البندقية للمؤخرة من 10 قوادس من مجموع 29 قادسا إلى 16 قادسا من مجموع 33 قادسا؛

Guilmartin, The Tactics…, p. 60.

(3) للتفاصيل:

Kıbrıs'ın Fethi, p. 74.

الدخول في المعركة ككل، ويبدو انه كان خاضعا لأوامر مباشرة من إسطنبول للدخول في الإشتباك. وثمة دليل أيضا انه أساء تقدير حجم القوة المحتشدة ضده. وفي التحليل النهائي، فقد أسفر أمله الحقيقي الوحيد في فقدان التماسك لدى الجانب المسيحي في خسارة المعركة برمتها.

وفي دراستنا لمعركة ليبانتو لابد لنا من التأكيد على البطء الشديد الذي كانت تناور به القوادس الكبيرة[1]، وكان لذلك نتائج حاسمة ومصيرية، لاسيما فيما يخص القوادس البندقية والإسلامية التي كانت تعوّل على القدرة القتالية لمراكبها الشراعية لتعويض النقص في الرجال المتخصصين بالمعركة. ولابد من الإشارة هنا إلى إن خيار الاشتباك في المراكب الشراعية لم يكن خيارا صحيحا، وإن قوة المناورة الدقيقة المطلوبة لم يكن بالإمكان إنجازها إلا بوجود المجاديف. وكان من غير الممكن الإبقاء على تشكيل قابل للإستمرار بوجود الأشرعة. وأخيرا، فإن القادس، بغلافه الإسفلتي وعارضته الشراعية الكبيرة كان عُرضة للهجوم تجاه نيران المدفعية، إذ كان بمقدور قذيفة واحدة تدمير القادس كليا.

وعلى الرغم من إن الإسطولين المتقابلين كانا باديين لبعضهما البعض بُعيد الفجر، إلا إن تبادل إطلاق النار لم يبدأ إلا قُبيل الظهيرة. كان ذلك عند جهة الشاطئ، حيث تنتشر قوادس محمد صوقللو، الذي كان ينوي إعتراض الغاليسات البندقية التي كانت تغطي عَمارة بارباريغو. ويبدو إن المدفعية الثقيلة لهذه الغاليسات أحدثت ضررا كبيرا بالعَمارة الإسلامية، التي إستمرت بشق طريقها حول المؤخرة المسيحية ونحوها. وقد نجحت في ذلك تقريبا؛ إذ وصل القتال إلى المرحلة التي كان يريدها المسلمون، ولكنهم أصيبوا بخيبة أمل حينما تمكن بارباريغو من تحويل عَمارته من الجهة اليسرى نحو الخلف تسعين درجة تقريبا، ليُبقي المسلمين أمام الساحل[2]. وخلال هذه المرحلة توفي بارباريغو، وكانت خسارة المسيحيين به ثقيلة، لكن الميمنة الإسلامية كانت قد تعرضت لهزيمة كلية؛ إذ تمكنت قوات الميسرة المسيحية من المناورة على نحو فاعل بإستخدام المدفعية على أفضل نحو لتغطية حركتها التراجعية حتى تأتيها أوامر شن الهجوم[3].

(1) Guilmartin, The Tactics…, p. 63.

(2) Lesure, Op. Cit., pp. 129-133.
(3) Guilmartin, The Tactics…, pp. 62-63.

أما (القلب) المسيحي فقد أضحى في قبضة المسلمين ربما بعد نصف ساعة من الهجوم الأول. ويبدو إن الغاليسات البندقية قد تعرضت لخسائر جسيمة أوقعتها بها القوادس الإسلامية المندفعة أثناء مرورها. ولابد إن قوات مؤذن زادة قد أعادت تشكيلها خلال لحظات قليلة قبل الإصطدام. على أية حال، كان القتال عنيفا في المركز، مُركّزا على سفينة مؤذن زادة (سلطانة)، وعلى السفينة المسيحية (Real)[1]. وفي هذا القتال قُتل مؤذن زادة، كما تفرقت عمارة جينا أندريا دوريا وفقدت قواته تماسكها[2]. وربما كان القادة المسيحيون، لاسيما البنادقة، قد أدركوا إن جينا أندريا دوريا قد هُزم بالمناورات إلى الدرجة التي أصبح فيها الوقت متأخرا جدا لمعالجة الأمر وتقبّل الخسائر التي أوقعها بهم المسلمون. في هذه الأثناء، التفّ عُلُج علي، الذي كان يراقب توسع الفجوة بين الميمنة والقلب المسيحيّن، نحو الداخل، موجها ضربة عنيفة بينهما، مُحدثا تأثيرا عميقا في الميسرة المسيحية، وكاد النصر أن يتحقق للمسلمين[3].

في هذه المرحلة كانت (قبطانة) فرسان القديس يوحنا قد هُزمت، كما تم الإستيلاء على بضعة قوادس. لكن هذه الكارثة المسيحية إنقلبت بوصول قوة المؤخرة بقيادة دون الفارو دي بازان، الذي وجه ضربة قاضية لقوة القلب الإسلامية، بطريقة لم يعُد بمقتضاها إستمرار المسلمين بالقتال ممكنا. وأخيرا، عند رؤيته لإنهيار (القلب) الإسلامي، جمع عُلُج علي ما تبقى من قواته، وإنسحب إلى أسفل الخليج، بنحو ثلاثين قادسا، هي أكبر قوة إسلامية تنجو من المعركة. وهكذا إنتهت معركة ليبانتو، لأن دون جوان كان قد أفاد من المزايا الفنية وقدرات السفن والرجال المتاحين له على نحو أفضل مما فعل مؤذن زادة.

---

(1) Ibid., p. 63.

(2) Lesure, Op. Cit., pp. 137-139.

(3) كان عُلُج علي قد تمكن من تحقيق إنتصار على إسطول جينا أندريا دوريا في هذه المرحلة، وتمكن من تشتيت مراكبه وإستولى على خمس عشرة سفينة من سفن البندقية ومالطا. أما الإسطول ألبندقي الذي كان أمام الجناح الأيمن للعثمانيين بقيادة الأميرال بارباريغو فقد تعرض لخسائر جسيمة، إذ قتل الأميرال بارباريغو. من جانب آخر تعرضت مراكب العثمانيين التي كانت في قلب كتيبة الجناح الأيمن لخسائر جسيمة أيضا؛ سرهنك، المصدر السابق، ص 560.

أثر معركة ليبانتو في التاريخ العثماني

ترك إنتصار الإسطول المسيحي المتحالف على القوادس العثمانية في ليبانتو أصداءً عميقة في التاريخ الأوربي، الممتلئ بكمّ هائل من المؤلفات التاريخية منذ حدوثه. وقد مجّد المؤرخون الغربيون وغيرهم إنتصار التحالف المسيحي ضد عدوهم التقليدي[1]، الأتراك العثمانيون، الذين كانوا يتزعمون العالم الإسلامي ويتحدون العالم المسيحي. لكن الجانب العثماني من هذا الحدث المهم بقي مجهولا تقريبا، ولا نعرف عنه إلا الشئ القليل مما تركه لنا مدونو الأخبار العثمانيون المعاصرون، الذين لم يكرّسوا سوى صفحات قليلة لهذا الحدث في أعمالهم[2]، مركزين رواياتهم، في الغالب، على الجوانب المادية لتلك المواجهة البحرية، وتبنوا، في العموم، موقفا لا مباليا تجاه النتائج الأوسع لهذا الحدث. فالبعض منهم، متأثرا بنموذج العصر الذهبي العثماني، مال لعدّه أعظم مظهر من مظاهر الإضمحلال الطويل الذي سيطر على الدولة العثمانية خلال القرون القادمة، في حين ألمح البعض الآخر إلى تأثيره المثبط على توسع الدولة العثمانية.

وفي دراسته الرائدة عدّ فرناند براودل إنتصار الإسطول المسيحي المتحالف في ليبانتو إشارة "لنهاية خيبة الأمل الكبيرة، ونهاية لعقدة النقص الحقيقية من جانب العالم المسيحي، ونهاية لا تقل عنها لشعور التفوق التركي الحقيقي"[3]. ولو أخذنا بنظر

---

(1) في سبيل المثال نذكر:
Ian Fenlon; "Lepanto and the Art of Creation", *History Today*, Vol. 45, Issue 9, September 1995, pp. 24ff; Manuel da Costa Fontes ; "The Batalha de Lepanto in the Portuguese Oral Tradition", *Hispanic Review*, Vol. 47, No. 4, Autumn, 1979, pp. 487-503.

(2) إن أهم مصادر المعلومات العثمانية عن معركة ليبانتو موجودة في:
Katip Çelebi, Tuhfetü'l Kibar fi Esfar'l Bihar;
الذي يسميها حملة الإسطول المهزوم (سفر صنغن دوننما)؛ و صولاق زادة؛ تاريخ صولاق زادة، إسطنبول، 1297 هـ (1879م)، ص ص 593-594؛ مصطفى سلانيكي أفندي، تاريخي سلانيكي؛ بجوي، المصدر السابق.

(3) Braudel, Op. Cit., p. 1103.

الإعتبار الحقيقة التي يراها براودل:"عقدة النقص الحقيقية من جانب العالم المسيحي"، التي كان يقابلها شعور حقيقي بالتفوق من جانب العالم الإسلامي . ممثلا بالعثمانيين . فإن النتيجة المباشرة لهذا الحدث على الدولة العثمانية وعلى المجتمع والثقافة العثمانييّن، سواء كان رسميا أو شعبيا، يستحق إهتماما خاصا. السؤال هنا هو كيف أثرت هذه الهزيمة في التاريخ البحري العثماني وفي القيادة السياسية العثمانية في إسطنبول؟ هل إنها أنهت شعور العثمانيين بالتفوق حقا؟ وما الدروس التي يمكن إستنباطها من هذا الحدث؟ ربما كانت هزيمة ليبانتو أول هزيمة بحرية كبرى للبحرية العثمانية بعد هزيمة مالطا. فكيف تصرف العثمانيون إزاءها وكيف نظروا إليها؟

كانت ليبانتو تحت الحكم البندقي منذ سنة 1407 حتى سنة 1499 حينما إحتلها العثمانيون بعد محاولة فاشلة سنة 1483، ثم تحولت إلى واحدة من الألوية الإحدى عشر في ولاية الجزائر (إيالة الجزاير) ضمن النظام الإداري العثماني[1]. وبما إنها كانت حدا ستراتيجيا . تقع على الحزام الفاصل للمجال الثقافي والتجاري للبحر المتوسط الذي يفصل البحر إلى نصفين، إسلامي/ عثماني و مسيحي/ أوربي . فإنها خضعت لإدارة خاصة ووضع مالي خاص[2]، إذ كانت الإدارة العثمانية تمارس سيطرة على الجنود على نحو دوري. ومنذ البداية بدأت بتجنيد المجدفين للقوة البحرية العثمانية على نحو مستمر خلال القرن السادس عشر، وهي الحقبة التي كان فيها الإسطول العثماني مستمرا بنشاطه في البحر المتوسط والمحيط الهندي[3]. وكان المجدفون يُجلبون أساسا من السكان المحليين اليونانيين المتمرسين بالشؤون البحرية، مقابل إعفاءات ضريبية. وعند الحاجة، كان مسؤولو الدولة يطالبون سكان الإقليم بإنشاء السفن وتجهيزها. أما الضرائب العاجلة (مثل ضريبة الأقجة)، التي بدأت تُستقطع في السنوات الأولى من القرن السادس عشر[4]، فقد أصبحت ضرائب دورية في الايالات البحرية، ومنها ليبانتو،

(1) İnalcık; The Ottoman Empire, The Classical Age, …, p. 31;
المقصود هنا بـ (الجزائر) الجزر، وليس مدينة الجزائر في شمالي أفريقيا.

(2) Ibid.

(3) عن الحالة الحدودية في الدولة العثمانية؛
Colin Heywood; The Frontier in Ottoman History: Old Ideas and New Myths; in: D. Power and N. Standen (eds.); Frontiers in Questions, Eurasian Borderlands, 700-1700, London, 1999, pp. 228-250.

(4) Özveren & Yıldırım, An Outline …. , pp. 147-170

ثم تحولت فيما بعد إلى ضرائب دورية في أنحاء الدولة في أواخر القرن السادس عشر. وعشية المعركة البحرية التي جرت في ليبانتو، كان الملل قد تسرب إلى نفوس سكان ليبانتو جرّاء تجهيز الجيش العثماني بالرجال والمؤن خلال سبعين سنة من الحروب المستمرة[1]. على هذا الأساس بدأوا بعدم الإمتثال للمطالب الجديدة للحكومة المركزية. وكما ذكر بعض مدوني الحوليات العثمانية، فإن الأميرال الأعلى للإسطول العثماني أخفق في تجنيد العدد اللازم من المحاربين والمجدفين من هذا الإقليم لتجهيز السفن المشاركة بالحملة[2]. فضلا عن ذلك، فإن أصحاب التيمارات، الذين كان يُتوقع منهم دعم القوة البحرية، اخفقوا في تلبية واجباتهم، لأن معظمهم كان قد غادر الإقليم. وثمة أدلة على إن بعض الزعماء الدينيين اليونانيين بدأوا بإقامة إتصالات مع البنادقة[3]، وإن الأساقفة الأرثدوكس في سالونيك ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما أرسلوا مبعوثا إلى القيصر الروسي إيفان الرابع / الرهيب (1533–1584) والملك البولندي سجسموند الثاني (1548–1572)، قامت القوات العثمانية في ولاكيا بإعتراضه[4]. وعلى الرغم من ذلك كله، فقد إستخف زعماء الجماعات الدينية اليونانية بالنزاع التقليدي بين

---

(1) Çelebi, Op. Cit.

(2) للإطلاع على الفرمان السلطاني الذي أُرسل إلى والي ليبانتو لتجنيد المجذفين سنة 1565؛ أرشيف رئاسة الوزراء العثمانية، سجلات الشؤون المهمة (مهمي دفتري)، سجل رقم 5، ص 247؛ نقلا عن:
Yildirim, Onur; "The Battle of Lepanto and Its Impact on Ottoman History and Historiography", in Rossella Cancila (ed.), Mediterraneo in Armi (secc. XV-XVIII), vol. 2, Palermo: Associazione Mediterranea, 2007, 537.

(3) كتب آر. إم. داوكنس ملاحظة على لوحة ملونة لمعركة ليبانتو رسمها أحد الرهبان، ويدعى لورنس، في أحد أديرة سانت اثاناسيوس (St. Athanasios) ، بناءً على رغبة رجل أسهم في تخليصه من الموت هبة للمساعي الحميدة للقديس سبايريدون (St. Spyridon) ، القديس الأعظم في كورفو. واللوحة التي يعود تاريخها إلى سنة 1571 كُتب على ظهرها النقش الآتي:" معركة ليبانتو التي حطم فيها البنادقة إسطول الأتراك [...] الذي حوصر وأنقذه القديس سبايريدون من كيركيرا (Kerkyra)". والطريقة التي صُور بها العثمانيون في هذه اللوحة مهمة جدا لفهم ومضات عن الرأي العام للسكان المحليين؛
Dawkins, R. M.; "A Picture of the Battle of Lepanto", *The Journal of Hellenic Studies*, Vol. 50, Part I, 1930, pp. 1-3.

(4) أرشيف رئاسة الوزراء العثمانية، سجلات الشؤون المهمة (مهمي دفتري)، سجل رقم 9، ص 228؛ نقلا عن:
Yildirim; The Battle of Lepanto…, p. 538.

البطريركية في إسطنبول والبابوية في روما، وإستمروا بجهودهم لإستئصال الحكم العثماني من المنطقة.

حدث ذلك كله في وقت كان فيه العثمانيون يركزون قوتهم في الداخل وفي الخارج؛ ففى المستوى الدبلوماسي، كانوا قد عقدوا للتو معاهدة مع النمسا سنة 1568 [1]، وعدّلوا شروط السلام مع بولندا في السنة نفسها، وفتحوا كلا من تونس وقبرص بين سنتي 1569 و 1570–1571. فضلا عن ذلك، فإن العلاقات الدبلوماسية مع بلاد فارس، المنافس الرئيس في الشرق، كانت للتو قد أخذت تنحو منحى سلميا، بعد زيارة قام بها مبعوث فارسي للعاصمة العثمانية[2]. وأخيرا وليس آخرا، فقد مهدت سلسلة الإنتصارات التي حققها العثمانيون في البحر المتوسط (وأعني بها تونس وقبرص)، الطريق لتحقيق تقارب بين العثمانيين والبنادقة، خلال الأشهر الأولى من سنة 1570، تراجع مؤقتا بسبب الحملة العثمانية على قبرص. وعليه، فعند عشية هزيمة ليبانتو، كان العثمانيون لا يزالون يحافظون على علاقاتهم الدبلوماسية مع القوى السياسية الرئيسة في ذلك الوقت بشروط إيجابية لتعزيز تفوقهم ضد جيرانهم الشرقيين والغربيين على حد سواء. على أية حال، كان من دواعي إستياء العثمانيين تعثر المفاوضات مع البنادقة بسبب حملة قبرص التي أبعدت البنادقة عنهم، وحثتهم للإنضمام إلى العصبة المقدسة التي نظّمها البابا بايوس الخامس.

في مثل هذا الجو السياسي حدثت الهزيمة العثمانية الماحقة من جانب الإسطول المسيحي المتحالف في ليبانتو، موجهة ضربة كبرى للعملية المتواصلة لتركيز القوة الدولة العثمانية في الجبهة الدبلوماسية، مسببة، بذلك، خيبة أمل كبرى لدى القيادة السياسية العثمانية. وقد شهدت حقبة ما بعد ليبانتو تغيّرا سريعا بخصوص العلاقات السياسية والإقتصادية والدبلوماسية العثمانية مع أوربا؛ إذ حوّل العثمانيون أنظارهم بعيدا نحو كل من إنجلترا وفرنسا[3] وهولندا، الذين كانوا يستعدون للحلول محل البنادقة في تجارة البحر المتوسط[1].

---

(1) Shaw, Op. Cit., p. 177.

(2) Yildirim, Op. Cit.

(3) لابد من التأكيد هنا إن الجهود الدبلوماسية العثمانية مع فرنسا لم تكن وليدة هذه الأحداث، وإنما هي مجرد تجديد لمعاهدة الإمتيازات التي تم توقيعها في ثلاثينيات القرن. ونصت الإتفاقية الجديدة التي تم التوقيع عليها في سنة 1569 في زمن

أما على المستوى المحلي، فقد أضافت الحروب المستمرة أعباء مالية إضافية على كاهل السكان. وكان من شأن ذلك، فضلا عن تأثير تقلب الأسعار الناشئ عن تدفق الفضة من أمريكا، تفعيل عملية الهجرة من الريف إلى المدينة، مما أدى إلى تغيّر ديناميكية النظام الإجتماعي والإقتصادي العثماني؛ إذ وقع الفلاحون بين مطالب الدولة والإلتزامات تجاه الأعيان المحليين. وقد أسفر هذا المأزق عن هجرة أعداد متزايدة من الفلاحين، مما ضاعف من مشكلة فرض الضرائب على من بقي منهم في الأرياف والضواحي. ولكون الدولة العثمانية دولة زراعية الإقتصاد أساسا، فإنها أخفقت في المحافظة على قاعدة عوائدها بسبب عملية الهجرة تلك. فضلا عن ذلك، فقد أثرت زيادة الأعباء الضريبية على سكان الأرياف في ولائهم تجاه الأسرة العثمانية الحاكمة. وكما نعلم، فقد كان النزاع العثماني . الصفوي قد تعزز، إلى حد كبير، بسبب تزايد إستياء القبائل التركمانية . التي أُجبرت على التوطن بهدف دفع الضرائب . فضلا عن سكان الأرياف في وسط الأناضول. ومنذ منتصف القرن تقريبا، بدأت قطاعات مختلفة من المجتمع العثماني بإظهار علامات الإستياء بأشكال مختلفة[2]. وإلى جانب هذا الوضع المتزايد السوء، أُضيفت جهود الإدارة المركزية العثمانية لقمع حالات التمرد في بعض الولايات البعيدة مثل اليمن والحجاز 1567-1571 [3]. فضلا عن ذلك، كانت الأعباء المالية الملقاة على كاهل دافعي الضرائب تزداد بمرور الوقت، لاسيما إذا علمنا إن إستعدادات الجيش البري العثماني لحملاته ضد الدولة الصفوية شرقا وإمبراطورية آل هابسبرك غربا كانت تتطلب موارد إقتصادية هائلة. وقد أضافت حادثة ليبانتو عبئا

السلطان سليم الثاني على تأكيد الإمتيازات القنصلية والتجارية السابقة، وأضيف لها إعفاء الفرنسيين من دفع الضرائب الشخصية، وأن يكون لفرنسا حق البحث عن الأسرى الفرنسيين في الدولة العثمانية وإطلاق سراحهم، وأن يقوم السلطان العثماني بحماية السفن الفرنسية من عمليات القرصنة، وأن تقوم السفن العثمانية بمساعدة السفن الفرنسية في حال تعرضها لخطر قرب السواحل العثمانية، وأن يكون للفرنسيين جميع ما للبنادقة من إمتيازات؛ للتفاصيل: سرهنك، المصدر السابق، ص 557.

(1) Shaw, Op. Cit., p. 181; D'Angelo, Op. Cit. , pp. 271-285.

(2) يذكر كولن إمبر إن الدولة العثمانية كانت تعاني، خلال شتاء 1571-1572، من هجمات مستمرة على سواحل المورة والساحل الألباني، إذ كان الثوار يهاجمون القطعات الإسلامية العائدة من ليبانتو، ورفضوا دفع الضرائب أو توفير الجدافين للإسطول الجديد، والتعاون مع "العدو"؛

Imber, The Reconstruction…, p. 85.

(3) İnalcık; The Ottoman State: Economy and Society, pp. 331-335.

إضافيا إلى هذا الضغط المتزايد على كاهل دافعي الضرائب العثمانيين، لأن السلطان سليم ووزيره محمد صوقللو باشا شرعا بمشروع طموح بهدف تعويض الخسائر في ليبانتو بعد هزيمة الإسطول العثماني.

من جانب آخر، كان لمعركة ليبانتو أثر كبير في السياسة العثمانية في المحيط الهندي. فقبل هزيمة ليبانتو كان العثمانيون قد نجحوا في إستعادة حكمهم في كل من اليمن وعدن 1569–1570، وإستعدوا لشن هجوم شامل ضد البرتغاليين في المحيط الهندي. وبهذا السياق يشير البروفيسور التركي خليل إنالجك إلى حقيقة مفادها إن العثمانيين "لو لم يتلقوا ضربة موجعة لقوتهم البحرية في ليبانتو، فلربما كانوا قد واصلوا سياستهم الطموحة في المحيط الهندي"، مشيرا إلى إن العثمانيين، في حال إستخدام اليمن قاعدة ستراتيجية، كان بمقدورهم توسيع سلطتهم بعيدا إلى المحيط الهندي[1]. على أية حال، فإن الهزيمة في ليبانتو حثّت العثمانيين لإعادة النظر بمثل تلك المشاريع البحرية الواسعة.

أما بخصوص الأثر المباشر لهزيمة ليبانتو على الوضع السياسي في شرقي البحر المتوسط، فإنها لم تعمل سوى على تأكيد الوضع البحري الذي بقي بموجبه التفوق البحري في شرقي البحر المتوسط بأيدي المسلمين، بينما بقي التفوق البحري في غربه بأيدي المسيحيين حتى نهاية الصراع"[2]. وكما ذكر احد المؤرخين:

> **" لم يتمكن أي طرف من الأطراف التي ظهرت في ليبانتو من إحتلال اراضٍ، ولم يتمكن أي منهم من تحقيق فوائد ستراتيجية، أو يحقق أدنى نجاح، مهما كان نوعه. إن العثمانيين لم يجردوا البندقية من أغنى وأثرى ممتلكاتها وأهم**

(1) Inalcık, Op. Cit., p. 334.
(2) Roger Charles Anderson; Naval Wars in the Levant 1559-1853, Princeton, 1952, pp. 8-54; William. H. McNeill; Europe's Steppe Frontier, 1500-1800, A Study of Eastward Movement in Europe, Chicago, 1964, p. 55.

قواعدها البحرية فحسب، بل إنهم حرموا الأطراف المسيحية اللاتينية أيضا من أهم قاعدة لهم، قبرص"[1].

إلى جانب ذلك، فإن تطور القوة البحرية العثمانية أعاد ترتيب توازن القوة منذ أوائل القرن السادس عشر، إذ تم تحييد جمهورية البندقية بحريا، كما عملت سلسلة الفتوحات البحرية التي إبتدأت من ليبانتو، ومودون، وكورنث، ونافارينو، في أواخر خمسينيات القرن الخامس عشر، ثم إستؤنفت بفتوحات رودس، وبريفيزا، وقبرص خلال القرن السادس عشر، على تجريد البنادقة من كل مناطقهم التجارية الرئيسة. صحيح إن البنادقة بدوا منتصرين خلال المواجهة في ليبانتو، لكنهم، مع ذلك، إستنزفوا ثرواتهم كلها خلال حروبهم المكلفة مع العثمانيين منذ سنة 1570 وما قبلها، وربما يفسر لنا ذلك قبولهم معاهدة جديدة مع العثمانيين في السابع من آذار 1573[2]، وافقوا بموجبها على التنازل عن كل الحصون التي سيطروا عليها مؤخرا في كل من ألبانيا والبوسنة، وإعادة كل السجناء العثمانيين من دون فدية، وتحديد إسطولهم بستين قادسا، ودفع ثلاثمائة ألف سكوين تعويضات[3]. لذلك، فليس من الخطأ أن نقول إن "الإنتصار"[4] المسيحي في ليبانتو لم يقدّم فائدة تُذكر ولم يخدم أي غرض، مهما كان نوعه، للبنادقة[5]. وقد

---

(1) Ronald C. Jennings; Christians and Muslims in Ottoman Cyprus and the Mediterranean World, 1571-1640, New York, 1993, p. 5;
ويذكر أحد المصادر إن السفير البندقي في إسطنبول قد أُبلغ بوجوب قبول عقد الصلح مع الدولة العثمانية مهما كان الثمن؛
Kıbrıs'ın Fethi, p. 87.

(2) Shaw, Op. Cit., p. 178.

(3) عن تفاصيل شروط الصلح الذي فرض على البندقية؛
Kıbrıs'ın Fethi, p. 88;
سرهنك، المصدر السابق، ص 561.

(4) أجد من الضروري هنا وضع كلمة (الإنتصار) داخل قوسين، لأن الكلمة نفسها أخذت بُعدا جديدا، وربما فقدت معناها.

(5) بهذا السياق ذكر المؤرخ البريطاني كولن إمبر إن البندقية، على الرغم من الإنتصار في ليبانتو، لم تستعد قبرص أبدا، وإضطرت، إمعانا في الإذلال، إلى أن تدفع للسلطان تعويضات حرب؛
Imber, The Reconstruction…, p. 85;
لكن المؤرخ نفسه يخفف من لهجته بعد ذلك فيقول إن ذلك ليس صحيحا تماما (ويقصد عدم قيمة الإنتصار المسيحي في ليبانتو)، لأن معركة ليبانتو ـ على حد تعبيره ـ أنقذت العصبة المقدسة، والبندقية تحديدا، من المزيد من الهجمات العثمانية؛ إذ تخلى السلطان عن خطته لمحاصرة كريت، وتمكنت البندقية من إحتلال الجزيرة مدة عقد آخر؛

تسببت إزاحة البندقية من العالم التجاري المتوسطي، الذي أصبح الآن تحت هيمنة العثمانيين، في تشجيع إنجلترا التي كانت، حتى ذلك الوقت، خارج إطار العالم المتوسطي، لتدخل في إتصال تجاري مباشر مع العثمانيين[1]. من جانبهم، رحب العثمانيون بمثل هذا التطور، الذي لم يكن يخلو من فائدة لهم بالتأكيد. فبما إنهم كانوا يرون في التحالف البندقي . الإسباني . البابوي تهديدا مرعبا لوجودهم، فإن مصلحتهم بالتقارب مع الدول الغربية والشمالية أصبحت سياسة حيوية بعد كارثة ليبانتو. وقد بلغ التقارب العثماني مع إنجلترا إلى حد السماح للقراصنة الإنجليز بإستخدام الموانئ العثمانية في شمالي أفريقيا وألبانيا والمورة، والتعاون معهم في بعض الحالات. من جهة أخرى، فبعد سنة واحدة من الهزيمة، أرسل السلطان سليم الثاني مبعوثا إلى الملك الفرنسي شارل التاسع[2]، عارضا عليه مساعدة الإسطول العثماني ضد إسبانيا، ومقترحا القيام بشن هجوم فرنسي . إنجليزي . هولندي مشترك ضدها[3].

النتيجة المهمة الأخرى لهذه الهزيمة التي يمكن ملاحظتها في السياسة العثمانية التقليدية هي توسيع الإمتيازات الاكليركية للأمم الأجنبية بهدف الحصول على حليف ضمن العالم المسيحي. وكانت البندقية قد إتخذت موقفا حياديا بسبب منحها بعض الإمتيازات التجارية خلال القرن السادس عشر، وبذلك مُنعت من وضع قوتها البحرية الهائلة في خدمة الكنيسة المسيحية ومن خلفها البابوات ذوي الروح الصليبية. كما حصل

Imber, Loc. Cit.
ولكن ينبغي أن نضيف إن فرص شن هجوم كبير ضد العثمانيين كانت ضئيلة، إذ حدثت المعركة في نهاية موسم الحملات، ومن غير المحتمل أن يجازف أي قائد بحري بالبقاء بكامل إسطوله في البحر خلال عواصف فصلي الخريف والشتاء. فضلا عن ذلك، فقد كان الجدافون والبحارة منهكين وبدأت المؤن بالنفاذ. وقد يفسر لنا ذلك سبب عدم إمعان قوى التحالف المسيحي في الضغط على القوة البحرية العثمانية أو التفكير بالقضاء عليها نهائيا، لاسيما إذا أخذنا بعين الإعتبار إن المعركة جرت في شرقي البحر المتوسط، بعيدا جدا عن قواعد تجهيز الأساطيل الغربية. ويبدو إنهم قد إنسحبوا بعد أن أدركو إن العثمانيين لن يستطيعوا، بأي حال من الأحوال، تجميع إسطول جديد خلال موسم الربيع القادم.

(1) Yildirim; The Battle of Lepanto…, p. 553; S. A. William Skilliter; Harborne and the Trade with Turkey 1578-1582: A Documentary Study of the First Anglo- Ottoman Relations, Oxford, 1977, pp. 102-103.

(2) حكم ما بين الخامس من كانون الاول 1560 حتى الثلاثين من مايس 1574.

(3) İnalcık, The Ottoman State: Economy and Society, p. 365.

البنادقة على وثيقة إمتيازات أخرى من العثمانيين بعد سنتين فقط من واقعة ليبانتو[1]. ومع ذلك، فإن مشاركتهم في التجارة الخارجية العثمانية إضمحلت على نحو كبير. ونتيجة للهزيمة في ليبانتو، فإن التغيّر الحقيقي جاء من حقيقة إن العثمانيين اخذوا يتطلعون إلى أوربا، وبدأوا بتوجيه إهتمام أكثر لكل من إنجلترا وفرنسا وهولندا، الذين كانوا، بإعتقاد العثمانيين، يقاتلون ضد الأعداء المشتركين، آل هابسبرك والبابوية.

بقدر تعلق الأمر بردود أفعال القيادة السياسية العثمانية تجاه هزيمة ليبانتو، فإنها لم تكن مستعدة لمثل هذه الهزيمة الكارثية. ولكن، على الرغم من أن الساسة العثمانيين صُعقوا بها، إلا إنهم لم يتأثروا بنتائجها كثيرا على المدى القصير. وقد عملوا، من أجل تلافي نتائجها السلبية، على قلب تأثيراتها المحتملة البعيدة المدى. وهنا فإن الخشية من إحتمال قيام الأساطيل المتحالفة المنتصرة بالقيام بشن هجمات جديدة محتملة على الأهداف العثمانية، بضمنها العاصمة، دفعت القيادة السياسية لتوجيه مصادر ثرواتها وطاقاتها كلها لإعادة بناء الإسطول[2]، وقد تم ذلك خلال مدة خمسة أشهر تقريبا. وهذه المدة الزمنية القصيرة تبين لنا قدرة الدولة العثمانية للتكيف في مثل هكذا أحوال[3].

فضلا عن ذلك، فإن الشروع بشن حملة جديدة ناجحة ضد حلق الوادي وتونس في سنة 1574 يثبت لنا الصحوة السريعة للقوة البحرية العثمانية من تأثيرات ذلك الحدث. من جهة أخرى، لابد أن نذكر إن قلق القيادة السياسية العثمانية بشأن الرأي العام

---

(1) أرشيف رئاسة الوزراء العثمانية، سجلات الشؤون المهمة (مهمي دفتري)، سجل رقم 21، ص 165؛ نقلا عن:

Yildirim; The Battle of Lepanto…, p. 554.

(2) عن إعادة بناء الإسطول العثماني بعد معركة ليبانتو كتب المؤرخ كولن إمبر بحثا موسعا:

Imber, The Reconstruction…, pp. 85-101.

(3) علق المؤرخ التركي يلماز اوزتونا على هذا الموضوع بقوله: ''أثبتت هزيمة ليبانتو إن العثمانيين أمة على درجة من القدرة والرفاهية؛ إذ شيدوا عددا من السفن يعادل ما فقدوه في ليبانتو، وجهزوها وأثثوها وانزلوها في البحر المتوسط خلال شهور عدة. ويعدّ هذا العمل من أسرع الأعمال التي سجلها التاريخ، ففي الوقت الذي كان فيه البنادقة يشيدون التماثيل على شرف إنتصارهم، كان العثمانيون يعملون في مصانع سفنهم على قدم وساق وبجهد منقطع النظير. وقد منح السلطان قسما من أراضي حديقته الخاصة للمصنع لغرض إنشاء ثماني سفن. وشيد العثمانيون خلال الشتاء الذي أعقب ليبانتو فقط 153 سفينة حربية وجهزوها، وهو عدد أكبر من العدد الذي فقدوه في ليبانتو. وبذلك يكون الإسطول العثماني قد فاق مجموع سفن الحلف المقدس عددا''؛ اوزتونا، المصدر السابق، ص ص 374-375.

يستحق بعض الإهتمام؛ إذ نُظّمت مهرجانات ومواكب كبيرة لـلإحتفال بـإستكمال تشييد الإسطول الجديد بهدف التأثير في الرأي العام. وخلال تلك الإحتفالات أبحرت السفن المُنشأة حديثا على بحر مرمرة بقيادة الأميرال الأعظم عُلُج علي لزرع الثقة في نفوس سكان العاصمة الذين ربما كانوا المجموعة الوحيدة التي لاحظت عودة الإسطول المنكسر من ليبانتو.

أما فيما يخص تأثير الهزيمة في النشاطات العسكرية العثمانية، فإن هذه الهزيمة شجعت العثمانيين على إعادة النظر بمشاريعهم البحرية. ولكنها، من جانب آخر، ضاعفت حماستهم نحو الجهة البرية، حينما كثف الجيش العثماني نشاطاته نحو وسط أوربا غربا، ونحو بلاد فارس شرقا.

على هذا الأساس، فعند تقويمنا لأثر هزيمة ليبانتو في العثمانيين، فإن أفضل إستنتاج نخرج به هو ما ذكره أحد المؤرخين بقوله:

"من الصعوبة بمكان عدّ الهزيمة في ليبانتو هزيمة فاصلة بأي حال من الأحوال، ولا حتى نذير سوء لما سيحدث لاحقا. لقد كان فتح قبرص أكثر أهمية بكثير من معركة ليبانتو"[1].

وقد تجسد ذلك على نحو أفضل بالمحاورة التي جرت بين الصدر الأعظم العثماني محمد صوقللو باشا والسفير البندقي في إسطنبول باربارو (الذي لم يُسمح له بالعودة إلى البندقية خلال حملة قبرص وبعد معركة ليبانتو). فعندما سأل السفير البندقي صوقللو بشان الخطط العثمانية بعد معركة ليبانتو، أجاب صوقللو:

" كما ترون، إن شجاعتنا لم تضمحل بعد معركة ليبانتو. ثمة فرق بين خسائركم وخسائرنا. لقد إنتزعنا منكم أرضا [مشيرا إلى قبرص] كان بمقدوركم بناء مملكة عليها، وبذلك قطعنا أحد أذرعكم، [في حين] إنكم هزمتم إسطولنا الذي لايعني أكثر من حلق لحيتنا. إن فقدان الذراع لايمكن تعويضه، ولكن اللحية الحليقة يمكن أن تنمو على نحو أكثف"[2].

(1) Jennings, Op. Cit., p. 5.

(2) هذه المحاورة وردت في:

على هذا الأساس، فإن الأثر السلبي الرئيس لهزيمة ليبانتو وقع على دافعي الضرائب من سكان الدولة. لقد وضعت الحقبة الطويلة للحروب البحرية، التي تُوِّجت بحملة ليبانتو، أعباء مالية مستمرة على الفلاحين، لاسيما أولئك الذين يعيشون في الايالات البحرية. وإن سعي العثمانيين للحصول على إسطول جديد في البحر المتوسط بعد هزيمة ليبانتو قد أضاف عبئا ماليا جديدا. وعليه، فإن الهزيمة في ليبانتو لم تكن سببا رئيسا، وإنما إحدى العوامل التي ضاعفت الإستياء الشعبي لدى قطاعات واسعة من سكان الدولة[1].

H. Uzunçarşılı; Osmanlı Tarihi, II Selim'in Tahta Çıkından 1699 Karlofça Andlaşmasına Kadar, Vol. III. Part I, Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara, 1983; in: Yildirim, The Battle of Lepanto…, p. 555.

(1) Yildirim, Op. Cit., p. 556.

أثر المعركة في تاريخ البحر المتوسط وتداعياتها حتى سنة 1580

تركت معركة ليبانتو علامة بارزة في التاريخ البحري الحديث عموما وفي تاريخ البحر المتوسط على وجه التحديد[1]. وبعد أن عرضنا لأثر هذه المعركة في التاريخ العثماني، سنحاول الآن معالجة الأثر الذي تركته في تاريخ البحر المتوسط؛ إذ إن الإنتصار المسيحي يؤشر نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة. ومن وجهة نظر الكثير من المؤرخين، فإن نتيجة ليبانتو أدت إلى حسم الصراع القديم الذي نشأ بين المسلمين والمسيحيين بعد سقوط العاصمة الشرقية للإمبراطورية الرومانية، كما دشنت مرحلة لم يعد بمقتضاها البحر المتوسط يحتل موقعا مركزيا في الإهتمامات الأوربية. فبعد أن تم تحجيم دور العثمانيين في البحر سنة 1571، فإنهم دخلوا في مرحلة اضمحلال طويلة أنهت حقبة الصراع المرير بينهم وبين إمبراطورية آل هابسبرك[2].

وكما هو متوقع، فقد بالغت المصادر الغربية في أهمية الهزيمة العثمانية، ووفرت، فيما بعد، أساسا للدليل الذي كان يرى إن العالم المسيحي الموحد، الذي كان كل من الإمبراطور فيليب الثاني والبابا بايوس الخامس يقودانه، بدأ بدفع العثمانيين نحو الأراضي البرية في آسيا، موطنهم الأصلي. ولم يمنع القوى المسيحية من إستثمار إنتصارها العسكري لإستعادة المناطق الشرقية من العثمانيين سوى إرتداد البندقية عن العصبة المقدسة خلال سنة 1573 [3].

---

(1) إن دراسة كل ما كُتب عن معركة ليبانتو يتطلب مجلدات كثيرة. وهنا سنورد بعض المصادر الأوربية التي أبرزت أثرها في التاريخ الأوربي؛
Ludwig von Pastor; The History of the Popes, from the Close of the Middle Ages, ed., R. F. Kerr, London, 1923-1953, xviii, pp. 444-449; and E. H. Gombrich, "Celebrations in Venice of the Holy League and the Victory of Lepanto", in: Studies in Renaissance and Barouque Art, ed. Jeanne Coutauld, London, 1967, pp. 62-68; Berthier, Op. Cit., p. 111.

(2) J. H. Elliott; Imperial Spain 1496-1716, London, 1963, pp. 238-244; H. G. Koenigsberger and G. L. Mosse; Europe in the Sixteenth Century, New York, 1968, pp. 174-211, 245-274; and: Leopold von Ranke, The Turkish and Spanish Empires in the 16th and 17th Centuries, trans. Walter K. Kelley, Philadelphia, 1854, pp. 33-34.

(3) Hess, Andrew; "The Battle of Lepanto and Its Place in

ولكن، مهما كانت المسوغات التي قُدّمت لعدم إستثمار الإنتصار الغربي، فإنها لا يمكن أن تصمد طويلا بوجه النقد التاريخي الحديث وتكرر التهديد العثماني على حد سواء. ومع إماطة اللثام عن الملفات الأرشيفية الغربية والعثمانية على حد سواء، أشار عدد من المؤرخين، ولاسيما فرناند براودل وأندرو هِس[1]، إلى سلسلة من الحقائق غير المنسجمة مع نظرية الإنتصار هذه، وأبرز هذه الحقائق: إنتزاع العثمانيين جزيرة قبرص من البنادقة سنة 1571، وخسارة البندقية لموطئ القدم الشرقي الستراتيجي، ليس هذا فحسب، بل وقبولها دفع إتاوة للسلطان العثماني أيضا لغرض حماية مواقعها التجارية ضمن الأراضي التي كانت تحت السيطرة العثمانية، فضلا عن قدرة العثمانيين في إستعادة إسطولهم بسرعة، مؤكدين بذلك صحة عبارة الصدر الأعظم محمد صوقللو بشأن القدرة الاستردادية للدولة العثمانية. فعندما سُئِل عن التكاليف الضخمة في إعادة بناء إسطول السلطان بعد سنة 1572، أجاب:

"إن الدولة العثمانية قوية، وإذا صدر فرمان لإلقاء المراسي من الفضة، وصناعة حبال الأشرعة والصواري من الحرير، وقطع الأشرعة من الساتان[2]، لكان بالإمكان أن ينفذ للإسطول بأكمله"[3].

ومهما كان رأي المؤرخين في تلك الدلائل، فإننا لا يمكن أن نتجاهل إنتصار العثمانيين في تونس سنة 1574، وإنتصارهم في معركة وادي المخازن سنة 1578 أيضا؛ وهما حدثان عظيمان لهما دلالة كبيرة في إثبات قدرة العثمانيين في تحجيم قدرة المسيحيين ومتابعة إنتصارهم البحري، لا في شرقي البحر المتوسط فحسب، بل في غربه أيضا. وقد أدت هذه الإشارات إلى ظهور رؤى جديدة بشأن نتائج الإنتصار البحري المسيحي لسنة 1571[4]. وعلى الرغم من إن المعركة نفسها لم تسفر عن مكسب ستراتيجي عظيم للعصبة المقدسة، لأن قلب الدولة العثمانية بقي سليما في كل

Mediterranean History", *Past and Present*, No. 57, November 1972, p. 54.

(1) See: Braudel, Op. Cit., p. 1103; Hess, The Battle of Lepanto..., p. 55.

(2) الأطلس (Satin): نسيج حريري صقيل.

(3) بجوي، المصدر السابق، ص ص 498-500.

(4) مثال ذلك الموضوع الذي كتبه فرناند براودل بعنوان "الإنتصار الذي لم يسفر عن شئ"؛

Braudel, Op. Cit., pp. 1103-1106.

من أوربا وآسيا، فإن الإنتصار المسيحي عمل على وضع حدّ لتقدم العثمانيين في البحر المتوسط، وأنهى أسطورة عدم إمكان هزيمتهم، وأشر بداية الاضمحلال البحري العثماني[1].

على أية حال، فإن نشر دراسة فرناند براودل عن البحر المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني سنة 1949 أنهى تلك السجالات بشأن الأثر التاريخي لإنتصار العصبة المقدسة. فبغوصه عميقا في حركة حياة البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، يقود براودل القارئ إلى التاريخ المحيط بمعركة ليبانتو، بعد وصف دور العوامل الإقتصادية والإجتماعية والتقنية في تحديد قدرة العثمانيين وآل هابسبرك للسيطرة على حدودهم[2]. ولكنه ما أن إقترب إلى التاريخ العثماني، حتى بدأ يلجأ إلى وثائق الملفات الغربية، البندقية تحديدا، والدراسات الأكاديمية الأوربية في ترتيب معلوماته عن معركة ليبانتو[3]. ومن هذه المعلومات إعتنق براودل فكرة مفادها

> **"إن الإنتصار أنهى شعور المسيحيين بالدونية في علاقتهم مع العثمانيين، وإن تلك النكسة البحرية، على الرغم من إنها لم تكن السبب المباشر، أشرت بداية الإضمحلال البحري العثماني"**[4].

بيد إن براودل أنهى نقاشه عن تأثير ليبانتو في تاريخ البحر المتوسط متسائلا فيما إذا كان المؤرخون اللاحقون سوف يقدمون رؤية أفضل لهذا الحدث التاريخي المهم[5]. وفي صفحات لاحقة من كتابه أوضح حدثين مهمين خلال حقبة ما بعد ليبانتو لم تحظيا بالإهتمام المناسب: **أولهما**، مقتل الملك البرتغالي دون سيباستياني[6]، وهزيمة جيشه في

---

(1) إن حدود السلطة العثمانية في القرن السادس عشر قد تم توضيحها في:
Koenigsberger, Op. Cit., pp. 191-196; Braudel, Op. Cit., pp. 661-669, 776-780.
إذ يناقش براودل هنا أسباب تدهور القوة لبحرية العثمانية.

(2) Braudel, passim.
إذ يعرض أمثلة للحدود المؤثرة في نشاطات الدولة الكبيرة خلال القرن السادس عشر.

(3) Ibid., pp. 1088-1106.

(4) Ibid., p. 1103.

(5) Ibid., pp. 1103-1104.

(6) ملك البرتغال، ولد في لشبونة في العشرين من كانون الثاني 1554، وقتل في الرابع من آب 1578 في معركة القصر الكبير.

معركـة القصـر الكبيـر فـي المغـرب خـلال صـيف 1578[1]، وهـي مسـألة ذات نتـائج عظيمة؛ و**ثانيهما**، الهدنة العثمانية . الإسبانية سنة 1580، التي من دون ربطها بسلسلة التطورات التاريخية تبدو وكأنها غير مفهومة[2]. بيد إننا إذا ما أخذناهما معا، فإن عمل براودل لا يغير صورة التاريخ البحري العثماني على نحو جوهري. لقد أشرت معركة ليبانتو نقطة تحول بحيث إنها أحدثت تطورا في وضع الجانب المسيحي في الصراع بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية.

يبدو إن سبب الحذر الذي ورد في عمل براودل كان متأصلا في حقيقتين: **الأولـى**، عدم إطلاعه على الوثائق والملفات العثمانية؛ **والثانيـة**، إخفاقه في تعقب الوثائق التـي إستندت إليها الدراسات الحديثة بشأن نشوء العصبة المقدسة وتطورها. ومن المعروف إن التـاريخ العثمـاني الـذي إنـتظم حـول معركـة ليبـانتو يكتنـف تفاعـل حضـارتين. ولكـن عندما زحفت الدلالة التاريخية حول هذا الحدث المتوسطي أمام القارئ في كتابه، فإن مصـادر قليلـة تحدثت عن الجانب الإسـلامي[3]. وعليه، فإن مسألة كيفية كتابة تـاريخ متوسطي للأحداث المحيطة بهذا الحدث الدموي لابد أن تأخذ بنظر الإعتبار وجهات النظر المختلفة كليا لهذين المجتمعين المختلفين بشأن هذه المعركة، وهي وجهات نظر تجاوزها براودل بسبب غياب المعلومات من الجانب العثماني.

ومع الكشف عن آلاف المدونات والتقارير في السجلات العثمانية بشأن العمليات المحيطـة بمعركـة ليبـانتو، نشـأ تعـارض بـين المعلومـات الجديـدة والسـابقة فـي التـاريخ البحري المتوسطي خلال القرن السادس عشر عموما. وأولى التحديات التي تظهر هـي الأهمية التي توفرها الوثائق العثمانية للنشاط العثماني في شمالي أفريقيا. فبعد أن كان المؤرخـون الغربيـون يصـفون العلاقـات بـين إسـطنبول وشـمالي أفريقيـا بأنهـا إسـلوب مـن

---

(1) Braudel, Op. Cit., pp. 1179-1182.

(2) عن تفاصيل الهدنة العثمانية ـ الإسبانية؛

Ibid., p. 1143 ff.

(3) إن المصدر الذي يستخدمه معظم الأكاديميين الأوربيين هما:

Hammer, Histoire de L'Empire Ottoman…;

الذي إعتمد على إستخدام محدود على المخطوطـات العثمانيـة، وعلـى ترجمـة جزئيـة لكتاب حاجي خليفة (كاتب جلبي) الموسوم "تحفة الكبـار فـي أسـفار البحـار". وربمـا لا توجد دراسة تركية حديثة عن عهدي سليم الثاني (1566-1574) أو مراد الثالث (1574-1595) أفادت من الأرشيف العثماني.

أساليب الحكم اللامركزي، فإن السجلات الأرشيفية للدولة العثمانية، لاسيما المذكرات الخاصة بالصدور العِظام، المسماة "مهمي دفتري" أي الدفاتر المهمة[1]، توثق إندفاعا إسلاميا آخر بإتجاه شبه الجزيرة الإيبيرية عندما حاول العثمانيون إعادة توطيد حكمهم بدمج المنطقة إداريا بمركز الدولة. وهنا لابد لنا، لوضع معركة ليبانتو ضمن إطارها التاريخي الصحيح، أن نستعيد بإختصار المعالم العامة للسياسة البحرية العثمانية لحقبة ما قبل ليبانتو، ثم نربطها بما حصل بعدها من تطورات، لنتمكن من فهم مغزى هذا الحدث البحري العظيم على نحو أفضل.

كان النشاط الإمبراطوري العثماني ضمن سواحل شمالي أفريقيا قد بدأ بعد مدة قصيرة من الإستيلاء على مصر[2]، عندما أرسل السلطان سليم الأول (1512–1520) وحدات عسكرية إلى الغرب نحو حدود تونس[3]. وفي المدة نفسها تقريبا إلتمس القباطنة المسلمون من شرقي البحر المتوسط، وهما الأخوان بربروسا، من السلطان العثماني مساعدة عسكرية لحماية القواعد التي كانوا قد أسسوها على طول ساحل المغرب الأوسط. وفيما بعد، عندما جهّز السلطان سليمان القانوني الأسلحة والمعدات والرجال لهؤلاء، وعيّن زعيمهم خير الدين بربروسا في سنة 1534 لمنصب الأميرال الأعظم (أمير البحر)، فإنه وضع بذلك أسس حدود الدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط[4].

---

(1) صُنفت أوراق (الدفاتر المهمة - مهمي دفتري) في مجموعة كامل كبكي من أرشيف الدولة العثمانية في إسطنبول. وثمة مزيد من الإشارات إلى أهمية هذه الأوراق في:

Hess, "The Moriscos…", pp, 1-25.

(2) للإطلاع على الإطار العام لتاريخ القوة البحرية العثمانية في الربع الأول من القرن السادس عشر؛

Hess, "The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire …", pp. 1892-1919.

(3) Ibid., p. 1911.

(4) أشر توسع الحدود العثمانية غربا بداية سلسلة من الحروب الحدودية القاسية بين العثمانيين والإسبان، التي أكدت مرة أخرى على الأهمية الستراتيجية للممرات الضيقة بين صقلية ومدينة تونس: العمليات في بينون الجزائر (1529)، وتونس (1534، 1535)، والجزائر (1541)، وطرابلس الغرب (1551)، وبجاية (1555)، وجربة (1560)، وأخيرا مالطا (1565).

وفي نهاية عهد السلطان سليمان القانوني (1566) تُظهر الوثائق العثمانية إستمرار الإهتمام العثماني بولاية الجزائر[1]، كما تُظهرُ تنظيما شاملا لهذه المنطقة الحدودية عن طريق الإدارة المركزية في إسطنبول. وهذا يدل على إن تركيز الإدارة العثمانية في شمالي أفريقيا والدمج الإقتصادي للمغرب في الدولة كان يكمن في قدرة العثمانيين على الوصول إلى شمالي أفريقيا بالطريق البحري الذي كان يلتف أسفل الدفاعات الحدودية الإسبانية في كل من مالطا، وصقلية، وتونس (حلق الوادي)[2].

وعندما بدأت هيبة العثمانيين بالتصاعد في العالم الإسلامي إستنادا إلى مبدأ الجهاد وحماية طريق الحج والعتبات المقدسة الإسلامية، سرعان ما أسفر التقدم العثماني في شمالي أفريقيا عن تحالف بينهم وبين مؤيدي مبدأ الجهاد من المغاربة[3]، وقباطنة سواحل شمالي أفريقيا، وأخيرا اللاجئين المسلمين الذين فروا من إسبانيا خلال عمليات التهجير الإسبانية وما بعدها. لكن ولاء جانب شمالي أفريقيا كان يعتمد على النجاح العسكري للعثمانيين وعلى الهيبة الدينية للسلطنة في إسطنبول[4].

---

(1) يستخدم العثمانيون تعبير " جزائر الغرب" على ولاية المغرب الأوسط. وقد آثرت هنا إستخدام كلمة الجزائر بدلا من ذلك التعبير.

(2) Hess, The Battle of Lepanto…, p. 59.

(3) ونقصد بهم سكان شمالي افريقيا في كل من الجزائر، وتونس، والمغرب.

(4) عندما شرع السعديون، وهم أسرة عربية كانت تستقر في جنوبي المغرب، بالادّعاء بزعم مضاد للحكم العثماني في شمالي أفريقيا، إستنادا إلى هيبتهم الدينية بوصفهم من أسرة الرسول الأعظم محمد (ﷺ)، وواصلوا جهادهم ضد البرتغاليين، فإنهم بذلك واجهوا العثمانيين بتحدٍ سياسي خطير في منطقة من العالم الإسلامي كانت ذات أهمية قصوى للعثمانيين، الذين كانوا، في تلك المرحلة، وعن طريق الادّعاء الديني، يواصلون تقدمهم السياسي في تلك المناطق. فضلا عن ذلك، فإن السعديين لم يترددوا في مواجهة العثمانيين في ميدان المعركة، بل وفرضوا الحصار على مدينة تلمسان في منتصف القرن. وبما إن الدولة العثمانية كانت تنظر بإرتياب إلى أية قوة سياسية منافسة ذات ادّعاء ديني على تلك الحدود البعيدة، فإن التقارب العثماني ـ المغربي سرعان ما أوصل النزاع الحدودي إلى صراع ذي مضامين سياسية بشان طبيعة الحكم العثماني في شمالي أفريقيا. عن بداية النزاع السعدي ـ العثماني؛

August Cour; L'établissment des dynasties des Chérifs au Maroc etleur rivalté avec les Turcs de la régence d'Alger (1509-1830), Paris, 1904.

وعن دور الأسرة السعدية في التنافس الإمبراطوري بين العثمانيين وآل هابسبرك؛

Abderrahmanne El-Moudden, "The Idea of Caliphate between Moroccans and Ottomans: Political and Symbolic Stakes in the

وفي شمالي أفريقيا، كما في البلقان، أصبحت أسرة آل هابسبرك المعارض الرئيس للتوسع العثماني خلال القرن السادس عشر. بيد إن الإسبان كانوا قد تبنوا ستراتيجية دفاعية لحدودهم في شمالي أفريقيا. وقد شاد الإسبان سلسلة من المواقع المحصنة على طول ساحل شمالي أفريقي[1]. وعندما وطد العثمانيون أنفسهم في الجزائر وطرابلس بعد فتح مصر سنة 1517، واجه الإسبان التقدم العثماني بطريقتين: توسيع قواتهم البحرية في البحر المتوسط، وإتخاذ كل من صقلية ونابولي مناطق حدودية كانت مهمتها الرئيسة إيقاف التوسع الإسلامي في غربي البحر المتوسط. وبين القواعد الكائنة في شمالي أفريقيا وإيطاليا، وضع الإمبراطور شارل الخامس المحاربين من فرسان القديس يوحنا في كل من مالطا وطرابلس سنة 1530 لإعاقة التقدم الإسلامي. وفي الوقت نفسه، كان وكلاء الإمبراطور يدعمون المتمردين في شمالي أفريقيا، مثل السلطان الحفصي مولاي حميدة في تونس، تجاه التوسع العثماني[2]. وعليه، فقد كان حصار مالطا سنة 1565 جزءا من نزاع حدودي متطور جدا وضع خطوطا حمراء على الضغط العثماني الذي إستمر نحو نصف قرن على الشبكة الدفاعية للإسبان، وأهمها تونس ذات الأهمية الستراتيجية لكلتا الإمبراطوريتين[3].

ومما لاشك فيه إن تولي السلطان سليم الثاني العرش سنة 1566 قد قلل من عزم العثمانيين على التوسع في الحوض الغربي للبحر المتوسط. فبعد سنتين من توليه قيادة الدولة العثمانية، صعّد العثمانيون من صراعهم السياسي مع الأسرة السعدية في المغرب[4] عن طريق تنصيب معارضين للسلطان الحاكم عبد الله الأغلب (1557–1574)، في الحصون العثمانية القريبة من الحدود السعدية[5]. وخلال المرحلة نفسها

16th and 17th Centuries", _Studia Islamica_, No. 82, 1995, pp. 103-112; Hess, "The Moriscos…", pp. 9-13.

(1) مثل مليلة (1497)، وبينون دي فيليس (1508)، ووهران (1509)، وبينون دي آرجيل (1510)، وبجاية (1510)، وطرابلس الغرب (1510)، وحلق الوادي (1535)، وقد ذكرناها سابقا.

(2) Ibid.

(3) Şerafettin Turan, Rodos'un Zaptından Malta Muhasarasına, in: Kanunî Armağam, Ankara, 1970, pp. 47-117.
إذ يوضح المؤلف سبب فشل الحصار على مالطا، وكيف تمكنت القوة البحرية العثمانية من إستعادة قوتها بسرعة.

(4) Hess, "The Battle of Lepanto…", p. 61.

(5) Hess, The Battle of Lepanto…;

طلب المسلمون في إسبانيا من السلطان تقديم مساعدة خلال إنتفاضتهم في غرناطة. ولغرض الإبقاء على الإدّعاء العثماني بحماية المسلمين، إستجاب السلطان سليم الثاني لمناشدة الموريسكيين، وأمر والي الجزائر بتجهيز الأسلحة والرجال للثوار المسلمين في شبه الجزيرة الايبيرية[1].

ومع ذلك، عند هذه المرحلة الحرجة، تطلبت الضرورات الحربية العثمانية وإحياء التجارة البحرية في البحر الأحمر فتح قبرص بدلا من شن حملة بحرية في غربي المتوسط[2]. ومع ذلك، أبلغ السلطان سليم الثاني المسلمين في إسبانيا بأنه سيرسل إسطولا عثمانيا لمساعدتهم حالما يتم القضاء على ممتلكات "الكفار" (ويقصد قبرص)[3]. ولكن عندما تجمعت وحدات الإسطول لفتح قبرص، حدثت ثورة الموريسكيين في أطراف (ألبو جراس) سنة 1568[4]، مجبرة الإمبراطور فيليب الثاني على إرسال وحدات عسكرية من إيطاليا إلى إسبانيا لغرض قمع ثورة داخلية أخرى[5]. وفي الوقت الذي تمكن فيه العثمانيون من فتح قبرص 1570–1571، أخمد دون جوان النمساوي ثورة موريسكية في إسبانيا[6]، متسببا بالمزيد من هجرة المسلمين إلى شمالي أفريقيا[7]، وإستمر الوالي العثماني في الجزائر عُلُج علي بتقوية الحدود عن طريق فتح مدينة تونس، وليس المرفأ الإسباني في حلق الوادي سنة 1569[8].

وعن السياسة العثمانية في المغرب العربي خلال القرن السادس عشر:
Michael Brett; "Morocco and the Ottomans: The Sixteenth Century in North Africa", *The Journal of African History*, Vol.25, No. 3, 1984, pp. 331-341.

(1) للتفصيل عن هذا الموضوع: التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، ص ص 196-203؛ إذ قدم وثيقتين عثمانيتين تبينان إهتمام الساسة العثمانيين بقضية الموريسكيين وثورتهم خلال هذه المرحلة.

(2) Hess, "The Moriscos...", p. 13-15.

(3) من غير الواضح فيما إذا كانت تونس تحتل أهمية أكبر من مساعدة المسلمين في إسبانيا في سياسة الدولة العثمانية في هذه المرحلة.

(4) Ibid.; Braudel, Op. Cit., pp. 1055-1066.

(5) Braudel, Op. Cit., p. 1056.

(6) Hess, The Moriscoss…, p. 16.

(7) Braudel, Op. Cit., pp. 1065-1066; Hess, The Moriscoss…, pp. 5, 13.

(8) Hess, "The Moriscos…", pp. 15-25.

في ربيع سنة 1570 وجّه الإسطول العثماني الوحدات الأولى لقوة إستطلاعية جنوبا بإتجاه جزيرة قبرص. ومواصلةً لفتح السواحل والجزر المطلة على الطرق التجارية في شرقي البحر المتوسط، توافق الإجتياح العثماني لقبرص سنة 1570 مع تمرد الموريسكيين وطردهم من إسبانيا سنة 1568–1570، وتعزيز السلطة العثمانية في تونس سنة 1569. على هذا الأساس، فإن ثلاث قوى متوسطية: البندقية، وإسبانيا، وصقلية، كان لها سبب وجيه في دعم عمل مشترك ضد "العدوان" العثماني، فسارعت، على هذا الأساس، إلى تشكيل العصبة المقدسة.

وخلال المرحلة الممتدة بين 1569–1571 تعزز الموقف البحري الستراتيجي للعثمانيين؛ إذ طهّر العثمانيون الجزء الجنوبي الشرقي من البحر المتوسط من المعقل المسيحي في قبرص، معززين بذلك سيطرتهم على الشرق. وعلى الرغم من جسامة الضرر الذي تعرض له الإسطول العثماني، وهو ضربية كبرى لجهاده ضد قوى التحالف الصليبي، فإن المصادر العثمانية لا تقدم لنا إشارة بأن المشكلات البحرية للسلطان قد تسببت بنقطة تحول في ثقة العثمانيين بأنفسهم؛ بدلا من ذلك، ففي مراسلاته مع المسلمين الآخرين، أظهر السلطان تصميما كبيرا على الإستمرار بمواجهة العدو بإقتباس الآية (216) سورة البقرة من القرآن الكريم:"(﴿) عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم(﴾)"[1]، معترفاً بالإهمال ومهدداً بالثأر لمعركة ليبانتو مع فتح الحصون المسيحية في الغرب.

ولغرض إيفائه بتعهده، شرع سليم الثاني بإعادة بناء القوة البحرية العثمانية. وبسرعة إستثنائية أظهر العثمانيون كفاءة في إعادة تشييد إسطولهم خلال مدة قياسية جدا بعد معركة ليبانتو[2]، كما جهزوا قوتهم البحرية بالبحّارة المتمرسين. ولحسن حظ العثمانيين، فإن الخسائر البحرية في سنة 1571 لم تشمل الإسطول العثماني في شمالي أفريقيا. وتحت إمرة والي الجزائر، القبطان الجديد، عُلُج (قيليج علي بعد إعادة تشييد الإسطول)[3] علي باشا، شكل البحارة المغاربة وسفنهم نواة لإسطول عثماني جديد[1].

---

(1) أحمد فريدون بك؛ منشآت السلاطين، جلد ثاني، إسطنبول، 1855.

(2) Imber; The Reconstruction of the Ottoman Fleet…, pp. 85-101.

(3) كان السلطان سليم الثاني قد كافأ عُلُج علي برتبة قبودان باشا ولقبه وأطلق عليه تسمية قيليج علي (أي السيف علي)، بعد أن تمكن من أسر نحو ثمانين سفينة من سفن التحالف المسيحي في ليبانتو؛ سرهنك، المصدر السابق، ص 560. من جانب

وبين معركة ليبانتو ونهاية سنة 1573 تشتت التحالف المسيحي بخروج البندقية منه، وإستعادت الدولة العثمانية قوتها البحرية. ولكن، إذا كان خروج البندقية من التحالف لأسباب إقتصادية، فإن الإسبان عملوا على الدفاع عن خطوطهم الحدودية من هجوم مسبق كان العثمانيون يعتزمون القيام به. على هذا الأساس، ففي سنة 1573 عزز دون جوان الحدود الوسطى للبحر المتوسط بإعادة غزو تونس وتحصينها[2]، ضمن إطار العمليات الحربية التي ميّزت حدود الدولة العثمانية مع آل هابسبرك خلال القرن السادس عشر[3].

فيما يخص العثمانيين، فإن هذه المرحلة نفسها شهدت تعاظم النشاط العثماني في مستويات عدّة؛ إذ أمر السلطان قباطنة البحر بمهاجمة المسافن الإسبانية أنّى ثقِفوها[4]، كما عمل السفراء العثمانيون على تحشيد مسلمي شمالي أفريقيا للجهاد ضد المسيحيين[5]. وأخيرا، قررت الدولة العثمانية إستعادة تونس من الإسبان[6]. ولتحقيق هذا الهدف هيّأ العثمانيون مصادر عسكرية هائلة، من بحارة وجنود وتجهيزات من مختلف المناطق الواقعة في شواطئ شمالي أفريقيا، والبلقان، والبحر الأسود، وشرقي الأناضول[7].

آخر، يشكك كولن إمبر بدور عُلُج علي في إعادة بناء الإسطول العثماني، معتمدا في أدلته على وثائق الأرشيف العثماني؛

Imber, The Reconstruction…, pp. 86-87.

(1) مصطفى سلانيكي؛ تاريخي سلانيكي، إسطنبول 1863، ص 109؛ بجوي، المصدر السابق، ص ص 498-500؛

Koloğlu, Op. Cit., pp. 530-531.

(2) لم يتمكن الإسبان من الإحتفاظ بتونس مدة طويلة بسبب التكاليف الضخمة التي كانت تتطلبها عملية بناء الحصون وحمايتها ضد هجمات المسلمين، فضلا عن عدم وجود خطة واضحة لديهم لمرحلة ما بعد السيطرة على المدينة. للتفاصيل عن هذه المسألة:

Braudel, Op. Cit., pp. 1066-1068; Berthier, Op. Cit., p. 111.

(3) يرفض فرناند براودل الطموح الشخصي بوصفه دافعا رئيسا لدى دون جوان لإعادة تحصين تونس سنة 1573؛

Ibid., p. 1131.

(4) Hess, The Battle of Lepanto…, p. 63.

(5) سرهنك، المصدر السابق، ص 562.

(6) Hess, The Battle of Lepanto…, p. 63.

(7) إن أوامر التعبئة لحملة تونس مذكورة في: "مهمي دفتري، رقم "24، وإن الأوراق التي تغطي المدة من شباط 1574 لغاية نيسان 1574 توضح الاحتياجات الرئيسة

وبين وقت وآخر، تؤكد المصادر العثمانية على أهمية حملة تونس لسنة 1574. فالقادة العثمانيون، مثل معاصريهم من آل هابسبرك، كانوا يعرفون المخاطر الملازمة لعمليات بحرية بعيدة، ولتوجيه حركة إسطول ضخم إلى مسافة بعيدة في منطقة مغلقة أمام المعاقل الحصينة لإمبراطورية آل هابسبرك، لاسيما إذا أخذنا بنظر الإعتبار سعة المساحة المائية للبحر المتوسط والحمولات الثقيلة للقوادس العثمانية، مما يجعلها عُرضة للعواصف المفاجئة[1]. وعلى الرغم من ذلك، غامر السلطان بالقوة العسكرية لإمبراطوريته لفتح تونس. ليس هذا فحسب، وإنما أرسل أوامر سلطانية واضحة لتشكيل تحالف ضد الإسبان، بين الثوار البروتستانت في الأراضي المنخفضة وما تبقى من الموريسكيين في إسبانيا[2].

وخلال صيف 1574 نفّذ العثمانيون حملتهم العسكرية على تونس بإسطول أكبر من الإسطول الذي إستخدمه كلا الطرفين في معركة ليبانتو[3]. ولم يقم الإمبراطور فيليب الثاني، بسبب إفلاس الدولة[4]، بأي رد فعل بحري إزاء هذه المغامرة المكلفة التي

للقوة الاستطلاعية من قوات، وتجهيزات ـ لاسيما البارود والكعك ـ ومجدفين. للمزيد من التفاصيل:

Hess, Op. Cit.

(1) Ibid.

(2) Hess, "The Moriscos…", passim.

(3) تمكن العثمانيون من استعادة تونس في الحادي عشر من تموز سنة 1574 بقيادة كل من سنان باشا وعُلُج (قيليج) علي، اللذين تمكنا من إنتزاع حلق الوادي من الإسبان في الخامس والعشرين من آب، في حين إستسلمت تونس نهائيا في الثالث عشر من أيلول؛

Berthier, Op. Cit., p. 112.

أما عن قوة الإسطول العثماني التي توجهت لفتح تونس، فيذكر فرناند براودل أرقاما تتراوح بين 230 قادسا ومركبا صغيرا إلى 247 قادسا وأنواعا أخرى من السفن؛ في حين يذكر أندرسون إن القوة البحرية العثمانية كانت مكونة من 280 قادسا، و 15 غاليسا (galease)، و 19 مركبا شراعيا، وسبعين ألف رجل. وفي آذار 1574وعد السلطان العثماني والي تونس بأن يقوم إسطول مكون من ثلاثمائة قادس بمهاجمة الحصون الإسبانية في تونس:

Braudel, Op. Cit.; Anderson, Naval Wars…, p. 56.

(4) للتفاصيل عن هذا الموضوع:

A. W. Lovett; "The Castilian Bankrupty of 1575", *<u>The Historical Journal</u>*, Vol. 23, No. 4, December 1980, pp. 899-911.

قام بها العثمانيون. وفي نهاية الصيف دمرت القطعات العثمانية الحصون الإسبانية التي تحرس المضائق بين صقلية وشمالي أفريقيا تدميرا كاملا[1].

أما فيما يخص الوضع الإمبراطوري للعثمانيين في العالم الإسلامي، فقد كان للإنتصار في تونس نتائج مهمة؛ إذ إستطاع السلطان إستعادة الهيبة العسكرية التي كان قد فقدها، بإنتصار باهر. فضلا عن ذلك، فإن الإدارة العثمانية إنتظمت في شمالي أفريقيا كله، بإستثناء مناطق المغرب الأقصى، كما إنطلق السلطان في مشروعه لإزاحة التحدي الغربي الذي كان يقف بوجه الهيمنة العثمانية. وأدت الهزيمة الإسبانية في تونس إلى صرف أنظار الإسبان عن المغرب الأوسط نهائيا، فأتاح إطمئنان العثمانيين لخطوطهم الخلفية حرية التحرك نحو المغرب على نحو أكثر. على هذا الأساس، إنتخب وزراء السلطان العثماني الجديد مراد الثالث (1574–1595) أحد أفراد الأسرة السعدية، وهو عبد المالك[2]، الذي كان قد نفي من المغرب وقاتل الجيش العثماني في تونس، مرشحا لخلع السلطان السعدي الحاكم، محمد المتوكل[3]. ولغرض تأمين مساعدته

(1) Hess, “The Battle of Lepanto…”, p. 65; Berthiern, Op. Cit., pp. 112-113;
ويرى المؤرخ العسكري جون غلمارتن إن حملة استعادة تونس تمثل آخر إنجاز بحري عثماني في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر؛ فبعد هذا الفتح بدأ نشاط الإسطول العثماني بالضعف؛
Guilmartin, Lepanto: The Battle that Saved Christendom?, p. 9

(2) هو عبد المالك بن محمد المهدي، الأمير السعدي الخامس 1576-1578. كان في السادسة عشرة من عمره سنة وفاة أبيه في 1557. وبينما كان أخوه عبد الغالب في سن الأربعين تلقب بالغازي في سبيل الله. أمه سحابة الرحمانية التي ولدت شقيقه عبد المؤمن؛ إبراهيم شحاتة حسن؛ وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب 986 هـ/ 1578م: قراءة تاريخية، الدار البيضاء، 1979، ص 305. من جهة أخرى تتناول اغلب المؤلفات العربية ولاسيما المغاربية ذكر إسم هذا الملك السعدي بإسم (عبد الملك)، بينما يؤكد إبراهيم حسن شحاتة إن إسمه (عبد المالك) وليس (عبد الملك) إستنادا إلى تحقيق الإسم الذي قام به هوداس (O. Houddas)، الأستاذ بكلية اللغات الحية بباريس سنة 1888؛ المصدر نفسه، ص 190.

(3) كانت الأسرة السعدية لا تعترف بالسلطان العثماني بصفته خليفة للمسلمين، وإنما حاكما لإمبراطورية إسلامية فحسب. بالمقابل، كانت الأسرة السعدية تدّعي أحقيتها بلقب الخلافة، بدعوى انتسابها لأشراف قريش. للتفاصيل عن هذا الموضوع؛
El-Modden, Op. Cit., pp. 103-112;
وعن دور محمد المتوكل في الصراع السعدي ـ العثماني: مجموعة بحوث، دعوة الحق، عدد خاص بمناسبة الذكرى الأربعمائة لمعركة وادي المخازن، العدد 8، السنة 19، الرباط، 1978؛ وعن اصل الأسرة السعدية وإنتقالها من الحجاز إلى

بإجتياح المغرب، أمر السلطان والي الجزائر بتجهيزه بالأسلحة الضرورية والقوات اللازمة، لتمكين أبي عبد الله السعدي[1] من إحتلال مدينة فاس سنة 1576، وإزاحة السلطان المغربي محمد المتوكل من عرشه[2]. بعد ذلك، تولى عبد المالك حكم المغرب تابعا للعثمانيين، متخذا إسم مراد الثالث، وأصبح اسمه يُذكر في صلاة الجمعة ووضع على العملة[3].

وبعد إمتداد النفوذ العثماني إلى المغرب أصبح للبرتغاليين، الأعداء القدماء للعثمانيين في المحيط الهندي، أكثر من سبب لضرب مناوئيهم المسلمين الرئيسين، إذ كان من الصعب على البرتغاليين، الذين كانوا يعانون من مشكلة إقتصادية بسبب حجم إمبراطوريتهم، وتكرر التهديد العثماني ضدهم في مناطق تمتد حتى سومطرة، تجاهل التهديد العثماني الجديد، لا في النقاط الأفريقية الغربية فحسب، بل لخطوط إتصالاتهم البحرية في المحيط الأطلسي أيضا[4]. وعلى الرغم من وجود دليل قوي بأن الدوافع الصليبية كانت قد أثرت في القرار البرتغالي اللاحق في مهاجمة المغرب صيف 1578[5]، إلا إن المعلومات التي توفرها الملفات الأرشيفية العثمانية تفترض وجود إعتبارات أخرى، أكثر عقلانية، تتعلق بحملة دون سيباستياني الفاشلة[6].

المغرب في القرن الخامس عشر الميلادي؛ حسين مؤنس؛ عالم الإسلام: دراسة في تكوين العالم الإسلامي وخصائص الجماعات الإسلامية، القاهرة، 1973، ص 50.

(1) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله السعدي؛ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري؛ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 5 ، الدار البيضاء، 1955، ص ص 69-86.

(2) Hess, "The Battle of Lepanto…", Op. Cit.

(3) Ibid.

(4) كتب غوزمان دي سيلفا (Guzmán de Silva)، السفير الإسباني في البندقية، إلى فيليب الثاني كيف إن البنادقة سيسروا من الفتح العثماني للمغرب، لأن من شان هذا العمل أن يعطي الملاحة الإسلامية قاعدة يمكن لهم من خلالها مهاجمة تجارة شبه الجزيرة الايبيرية ومن ثم ستستعيد البندقية موقعها المتفوق. للتفاصيل:
C. R. Boxer; "Portuguese and Spanish Projects for the Conquest of Southern Asia 1580-1600", *International journal of Asian History*, iii, 2, 1969, pp. 118-136; C. R. Boxer, "A Note on Portuguese Reactions to the Revival of the Red Sea Spice Trade and the Rise of Acheh, 1540-1600", *International Journal of Southeast Asian History*, x, 3, 1969, pp. 415-428.

(5) يؤكد نيفيل باربر وجود مثل تلك الدوافع لدى دون سيباستياني؛
Nevill Barbour; Morocco, London, 1965, p. 105.

(6) Hess, "The Battle of Lepanto...", p. 57.

وفي الوقت الذي إختار فيه ملك البرتغال مواصلة الحرب ضد المسلمين، تبنى فيليب الثاني سياسة معاكسة تجاه العثمانيين. فبعد الإنتصار العثماني في تونس سنة 1574، وإفلاس الدولة سنة 1575، بذل فيليب الثاني جهودا شاقة لحل الضغوطات المتعددة التي أخذت تواجه إمبراطوريته الواسعة، وقام بمحاولة أخرى لتأمين معاهدة مع العثمانيين بعد أن أدرك قدرتهم على تحجيم قوته في التوسع في المغرب الأقصى[1]. وفي الوقت نفسه، طلب الملك البرتغالي، بتحالفه مع الحاكم السعدي المخلوع محمد المتوكل، مساعدة عسكرية من إسبانيا لمهاجمة محميّ العثمانيين، أبي عبد الله السعدي[2]. حينذاك، وجد فيليب الثاني نفسه في وضع حرج لعقد مفاوضات سرية مع "عدو الدين" البرتغالي، في وقت كان يمثل فيه دور المدافع عن العالم المسيحي[3].

وفي شهر شباط من سنة 1578 عَلِم دون سيباستياني بوجود اتصالات دبلوماسية بين العثمانيين ووكلاء فيليب الثاني في إسطنبول[4]، أضافت سببا آخر لتعقيد شبكة مصالح الدولة الإسبانية التي كانت تمتد إلى ما وراء البحر المتوسط. وفي الوقت الذي أحبط فيه فيليب الثاني إجتياح المغرب، أكد لدون سيباستياني سيطرته على المفاوضات في إسطنبول. ومع ذلك، وإستمرارا على خطته بمهاجمة المغرب، تمكن ملكُ البرتغال من إقناع الإمبراطور الإسباني فيليب الثاني بتوفير الرجال والسفن له[5]. في هذه الأثناء إستمر تواتر السفراء الإسبان إلى إسطنبول للتوصل إلى السلام مع السلطان

---

(1) Geoffery Parker; "Spain, Her Enemies and the Netherlands 1559-1648", *Past and Present*, No. 49, November 1970, pp. 82-95.

(2) John Vogt,; "Saint Barbara's Legion: Portuguese Artillery In the Struggle For Morocco, 1415-1578", *Military Affairs*, Vol. 41, No. 4, Dec., 1977, pp. 176-182.

(3) عن السياسة الإسبانية تجاه مملكة الأشراف السعديين خلال السنوات التي سبقت الكارثة التي حلت بالجيش البرتغالي في معركة وادي المخازن؛
Berthier, Op. Cit., pp. 109-110;
إذ يؤكد على وجود سياسة محددة وقوية للعمل على مواجهة العثمانيين في الجزء الغربي من البحر المتوسط وتعطيل جميع محاولات السيطرة العثمانية على مراكش بهدف مزدوج: تأمين الحماية لشبه الجزيرة الإيبيرية من جانب، وتأمين حماية الملاحة في مياه مضيق جبل طارق، فضلا عن السواحل المغربية الأخرى من جانب آخر.

(4) Braudel, Op. Cit., pp. 1152-1161.

(5) E. W. Bovill; The Battle of Alcazar, London, 1952.

العثماني[1]. وفي هذا الوقت كان موظفو السلطان يتلقون أخبارا من شمالي أفريقيا بخصوص خطط الإجتياح البرتغالية[2]. وقبيل حدوث الإشتباك أرجأ السلطان مراد الثالث عقد التسوية مع فيليب الثاني، بعد تعيين والٍ على الجزائر لتسليم الوحدات الحدودية وتأييد عبد المالك[3].

حدثت معركة القصر الكبير في المغرب في الرابع من آب سنة 1578، وإنتهت بمقتل المتصارعين الثلاثة الذين كانوا يتحكمون بالوضع في ميدان المعركة، وهم كل من: سلطان المغرب عبد المالك، ومناوئه المخلوع محمد المتوكل، وملك البرتغال دون سيباستياني[4]. وعند نهاية الصراع كانت القطعات الإسلامية قد هزمت الجيش البرتغالي كليا، بعد أن قتلت وأسرت عددا كبيرا من قادة الجيش البرتغالي. وسرعان ما أسفر هذا الإنتصار الإسلامي عن إعتلاء أحمد المنصور (1578-1603)[5]، أخي عبد الله

---

(1) عن السياسة الإسبانية تجاه العثمانيين بعد معركة وادي المخازن؛
Berthier, pp. 110ff.

(2) Hess, “The Battle of Lepanto…”, p. 67.

(3) يذكر إن عبد المالك كان قد طلب مساعدة عسكرية من العثمانيين، فقررت الدولة العثمانية إرسال عُلُج علي لقيادة حملة إلى المغرب، ولكن لم يكن الغرض منها تقديم المساعدة لعبد المالك، وإنما لمراقبة تحركاته والحد من تطلعاته في السيطرة على المنطقة والإستقلال بها، والحصول منه على وعد بتوطيد سلطة العثمانيين المطلقة في أرجاء المغرب كافة. لكن عُلُج علي توفي قبل شن تلك الحملة؛
Berthier, Op. Cit., p. 114.

(4) لذلك تسمى في التاريخ بمعركة الملوك الثلاثة (نظرا لمقتل ثلاثة ملوك فيها)، ومعركة وادي المخازن (نسبة إلى الموضع الذي جرت فيه)، ومعركة القصر الكبير. للتفاصيل: مؤنس، عالم الإسلام، ص 50؛
Bovill, The Battle of Alcazar…, pp. 127-141.

(5) ولد أحمد المنصور بفاس سنة 1495، وهو إبن محمد الشيخ، وأخو كل من عبد الله الغالب وعبد المالك. عند إعتلاء محمد المتوكل العرش، إنضم إلى أخيه عبد المالك في الحملة العثمانية لتحرير تونس من الإسبان سنة 1574. وعندما إعتلى السلطان العثماني مراد الثالث العرش في سنة 1574، قرر مساعدة عبد المالك في إنتزاع حكم المغرب من إبن أخيه محمد المتوكل، فتمكن عبد المالك من دخول فاس مع أخيه أحمد المنصور بفضل المساعدة العثمانية. وبعد إنتصار المغرب في معركة وادي المخازن ووفاة عبد المالك في الرابع من آب 1578 بويع أحمد المنصور، وفي عهده شهدت الدولة السعدية أزهى عهودها في المجالات كافة. توفي بفاس ونقل جثمانه إلى مراكش ودفن في مقبرة السعديين، وكانت وفاته في العشرين من آب 1603. عن حياته وإنجازاته: إبراهيم حركات؛ "أحمد المنصور الذهبي كرجل دولة"، دعوة الحق، عدد خاص بمناسبة الذكرى الأربعمائة لمعركة وادي المخازن، العدد 8، السنة 19، الرباط، 1978، ص ص 57-79،

الغالب ، سلطانا سعديا حاكما[1]، ليعزز بذلك السيطرة العثمانية في أقاصي المغرب العربي[2].

يرى المؤرخ أندرو هِس إن الكارثة البرتغالية في القصر الكبير أحدثت ثورة في التاريخ المتوسطي خلال القرن السادس عشر. إذ إن إسبانيا، خلافا لرد فعلها خلال الحركات العسكرية الإسلامية بين 1568–1570، لم تتدخل في المغرب في أعقاب الهزيمة البرتغالية، بل على العكس، إستمرت بالتفاوض مع العثمانيين[3]. من جهة أخرى، قلب العثمانيون إتجاه توسعهم، بعد إنتصارهم على البرتغاليين، وضعف العالم الإسلامي في الشرق، وتدهور وضع المسلمين في إسبانيا، فبدأوا بإرسال القطعات والتجهيزات بإتجاه الحدود الفارسية في صيف 1578[4]. وخلال المدة نفسها أعرب سلطان المغرب أحمد المنصور عن رغبته في المحافظة على درجة من الإستقلال عن العثمانيين وآل هابسبرك، وذلك بالترحيب بالسفيرين العثماني والإسباني في وقت واحد[5]. وأخيرا، في آب 1580، تم عقد إتفاقية هدنة بين الإمبراطوريتين لإنهاء ما يقرب من قرن من الحروب الكبرى[6].

من وجهة نظر التاريخ الدبلوماسي لحروب البحر المتوسط، مثلت سنة 1580 أفضل تأريخ لعهد جديد في العلاقات الدولية في البحر المتوسط[7]. فإسبانيا، التي كانت تناور من الشمال والغرب لتوريط حلفائها الإنجليز والهولنديين، كانت قد استولت على البرتغال في تلك السنة[8]. أما الدولة العثمانية، فقد تحالفت مع بولندا ضد الروس، بعد أن

وهي أفضل دراسة متاحة حاليا عن هذه الشخصية؛ مؤنس، عالم الإسلام، ص 50؛

Bovill, The Battle of Alcazar, pp. 158-159.

(1) Ibid., p. 12-165.

(2) عن التحركات العثمانية خلال هذه المرحلة: الملاحق، (خارطة رقم 13)؛ وعن المناطق الساحلية للمغرب العربي: الملاحق، (خارطة رقم12).

(3) Hess, "The Battle of Lepanto…, pp. 67-68

(4) Braudel, Op. Cit., pp. 1166-1174.

(5) Hess, "The Battle of Lepanto…", p.68.

(6) عن نص إتفاقية الهدنة: الملاحق، (وثيقة رقم 2)

(7) Norman Housley; The Later Crusades 1274-1580: From Lyons to Alcazar, Oxford, 1992, pp. 291- 321.

(8) Braudel, Op. Cit., pp. 1176-1178.

أدركت عدم جدية المزيد من التوسع غربا[1]. وبعد سنة حوّلت قوتها نحو بلاد فارس[2]. وفي الوقت نفسه، حافظ السلطان السعدي أحمد المنصور على الطبيعة المستقلة للتاريخ المغربي عن طريق موازنة مصالح الإمبراطوريات العظمى ضد بعضها البعض[3].

إزاء رؤية من هذا النوع، ومع تعقب آثار الحملات العثمانية في شمالي أفريقيا بعد معركة ليبانتو، كيف يمكننا إذن فهم أثر معركة ليبانتو وتداعياتها في تاريخ الصراع في البحر المتوسط خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر؟

من المؤكد إن الهزيمة البحرية العثمانية في سنة 1571 قد حفّزت العثمانيين لإستعادة قوتهم البحرية ولمواصلة تقدمهم في الأجزاء الغربية من العالم الإسلامي. وسواءً من وجهة نظر المصادر الإسلامية أو المسيحية، فإن حملات مهمة ذات نتائج بعيدة المدى قد حدثت بعد معركة ليبانتو سنة 1571. وعلى مستوى التاريخ الدبلوماسي فإن نقطة التحول حدثت بعد معركة القصر الكبير. وإذا ما أخذنا بنظر الإعتبار تاريخ الحرب والدبلوماسية العثمانية . الإسبانية، فإننا سنرى إن حالة السلام الإسلامي . المسيحي إنتقلت سنة 1580 من شرقي البحر المتوسط ووسطه إلى غربه، بمعنى إنها نقلت السلام من البندقية إلى إسبانيا. وفي الوقت نفسه، أدى تنصيب أحمد المنصور إلى خلق دولة إسلامية مستقلة[4]، مما أدى إلى تشجيع المزيد من الحروب فيما بعد، حتى تمت تسوية حكم شمالي أفريقيا لصالح العثمانيين[5]، وهو إنجاز مهم في الإعتبارات الخاصة بالسيطرة على قواعد بحرية ستراتيجية.

إستنادا إلى ذلك، حاول بعض المؤرخين أن يثبتوا إن النجاح اللامع الذي حققته العصبة المقدسة في معركة ليبانتو قد أزال الشعور بعدم إمكان قهر العثمانيين. وربما كان الأمر كذلك. لكن النتائج الدبلوماسية لحقبة ما بعد ليبانتو قد أظهرت إن أيا من فيليب الثاني أو زعماء البندقية لم يتمكنوا من إحراز تفوق على العثمانيين لا في المدى القريب ولا في المدى البعيد.

---

(1) Hess, “The Battle of Lepanto…”, Op. Cit.

(2) Braudel, Op. Cit., pp. 1166-1174.

(3) E. W. Bovill; The Golden Trade of the Moors, 2nd ed., London, 1970, pp. 164-206.

(4) عن السياسة الإستقلالية لأحمد المنصور: مؤنس، عالم الإسلام، ص 50 وما بعدها.

(5) Hess, “The Battle of Lepanto…”, pp. 70-71.

بعد تغير الوضع السياسي في البحر المتوسط بين الإمبراطوريتين العثمانية والإسبانية[1]، تثار مسألة الأحوال التي أوقفت فيها الإمبراطوريتان الحرب فجأة، وحدوث حالة الإنفصال بين الطرفين. وهنا يظهر دور الدين، مجددا، في السياسات العامة في هذه المرحلة الحاسمة، فضلا عن إن المعلومات العثمانية الخاصة بتاريخ البحر المتوسط تظهر إن حالة الإنفصال بين الإمبراطوريتين قد حدثت بعد سلسلة من الإنتصارات الإسلامية لحقبة ما بعد ليبانتو. وفي ميدان التاريخ البحري، فإن ما أنهى النشاط البحري للعثمانيين لم يكن الضرر الذي حدث بالإسطول العثماني؛ إذ أظهرت حملة تونس السرعة التي يمكن بها إعادة بناء الإسطول وتجهيزه بالقوة البشرية اللازمة. لقد كان هاجس العثمانيين بحدوث صراع آخر في البحر المتوسط . ونقصد به معركة وادي المخازن . هو الذي أنهى الدور الرئيس للقوة البحرية في العمليات العسكرية العثمانية[2].

وعليه، فإذا ما كان هذان الإستنتاجان يفترضان إن الدراسات التقليدية عن تاريخ النشاط العثماني في البحر المتوسط قد أبخست قوة الدولة العثمانية، فإن الإنجازات التي تم تحقيقها بعد سنة 1571 أيضا قد حددت إلى أي مدى أسهمت البندقية في إنهاء الحرب الدينية واسعة النطاق في البحر المتوسط عندما غادروا العصبة المقدسة سنة 1573؛ فبعد معركة القصر الكبير لم تقم إسبانيا بمهاجمة المسلمين على إمتداد مضيق جبل طارق، بل وقعت هدنة مع العثمانيين[3]، وغزت جارتها البرتغال الكاثوليكية المهزومة وإستعدت لحرب مع إنجلترا البروتستانتية. العثمانيون، من جانبهم، تخلوا عن إخوتهم المسلمين في إسبانيا بعد سلسلة من الإنتصارات في شمالي أفريقيا وتوجهوا لمحاربة الصفويين. ليس هذا فحسب، وإنما وجهوا جهودهم مرة أخرى إلى المحيط

---

(1) Sanjay Subrahmanyam; A Tale of Three Empires: Mughlas, Ottomans, and Habsburgs in a Comparative Context, Duke University Press, 2006, (*).

(2) عبد الرحمن بن عبد الله السعدي؛ تاريخ السودان، باريس، 1964، ص ص 215، 277.

(3) لم تُبحث مسألة الهدنة والمفاوضات بين العثمانيين وآل هابسبرك على نحو وافٍ إلا في كتاب فرناند براودل؛

Braudel, Op. Cit., pp. 1143-1237.

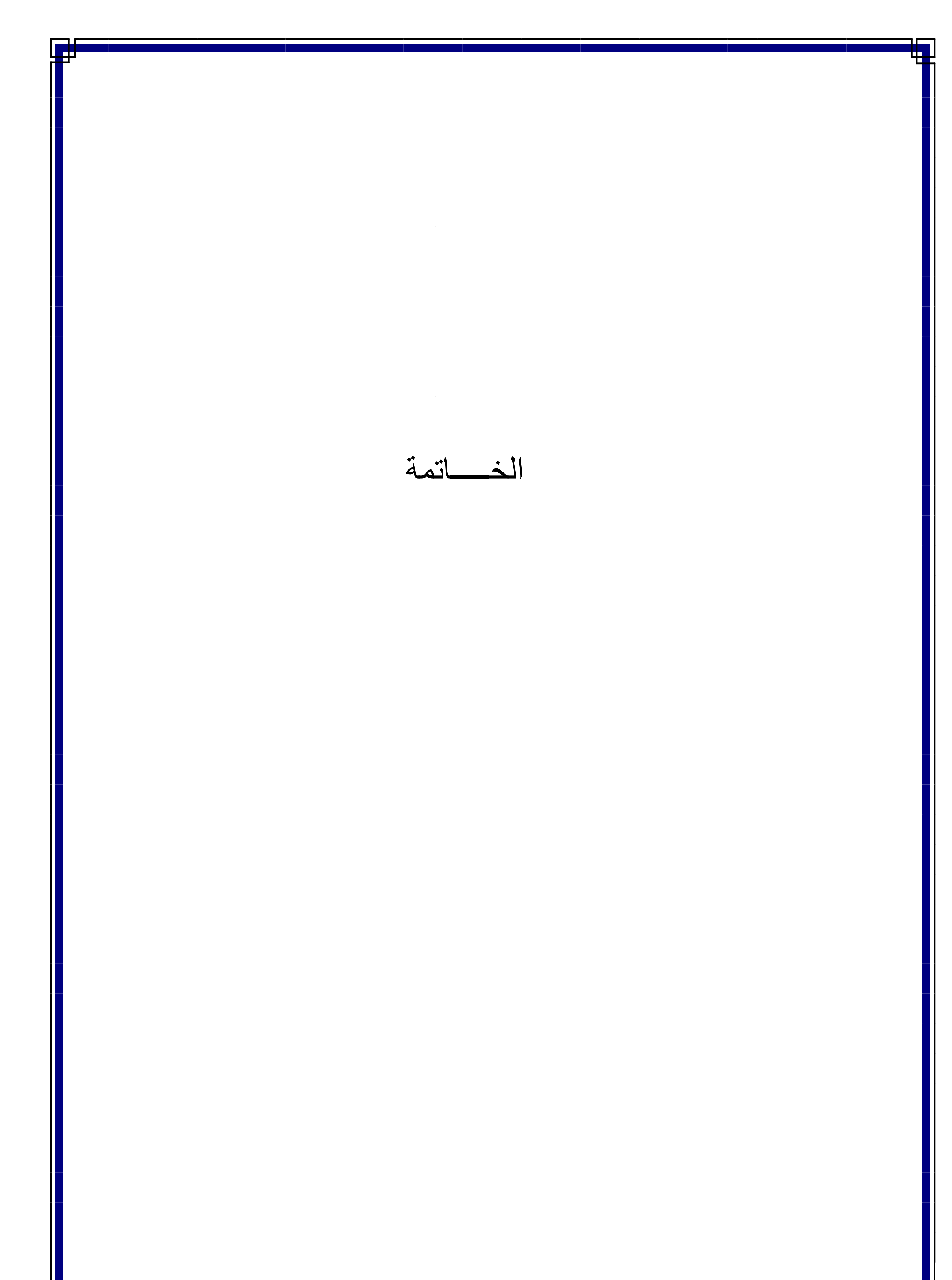
الهندي، بمعنى إن الجهد الذي كان متركزا على البحر المتوسط إنتقل إلى منطقتين خارجيتين هما المحيط الأطلسي والمحيط الهندي[1].

على هذا الأساس، إذا ما أخذنا بنظر الإعتبار حضارات البحر المتوسط بوصفها وحدة متجانسة، فإن معركة ليبانتو تحتل مكانتها في تاريخ البحر المتوسط بوصفها نزاعا حدوديا كبيرا في الصراع العنيف بين حضارتين مختلفتين وقويتين نسبيا. إن حصار مالطا سنة 1565، وثورة الموريسكيين 1568–1570، ومعركة ليبانتو 1571، وحملات تونس 1569–1574، والهزيمة البرتغالية في معركة القصر الكبير 1578، لا توضح درجة العداوة فحسب، وإنما تبين حدود الصراع الطويلة بين الحضارتين أيضا، وهي منطقة إنقسام لم تكن محكومة بالمعارك فحسب، بل بمدى تمكن الدولة العثمانية والدول الأوربية في فرض أو عدم فرض هيمنتها على البحر المتوسط. وبحلول سنة 1580 بات من الواضح إن الدولة العثمانية تمكنت من إزاحة التهديد الإسباني عن شمالي أفريقيا، فضلا عن تحطيم البندقية.

إذن، لو جردنا معركة ليبانتو من إطارها الإسطوري، الذي وضعه لها المؤرخون الغربيون، وهم مسؤولون عنه عن قصد، فإننا نرى إن النتائج التي تفاخروا بها تبدو أكثر تواضعا بكثير مما زعموا. بيد إننا يجب أن لا ننسى إن الأحوال الداخلية لأوربا القرن السادس عشر كانت مسؤولة إلى حد كبير عن تضخيم هذا الحدث التاريخي. على أية حال، فعندما توصل العثمانيون والإسبان إلى الهدنة خلال 1580، فإنهم لم يعززوا بذلك إنقسام البحر المتوسط إلى شطرين سياسيين متمايزين فحسب، بل إلى شطرين حضاريين لهما صبغة دينية بين العالمين الإسلامي والمسيحي على نحو كبير. وعلى الرغم من الجهود الضخمة التي بذلها العثمانيون خلال مرحلة الصراع العنيف، فإنهم لم يتمكنوا إلا من مدّ سيطرتهم على مناطق شمالي أفريقيا، وهي مناطق مهيّأة، لأسباب عدّة، لتقبّل إمتداد النفوذ العثماني وإستيعابه. أما القوى المسيحية، فقد إحتفظت بهيمنتها على معظم أجزاء الشطر الشمالي من البحر المتوسط. بمعنى آخر، إن العثمانيين أخفقوا في فرض هيمنتهم الكاملة على البحر المتوسط وتكوين قوة بحرية متوسطية.

---

(1) Ibid., pp. 1166, 1174-76; Subrahmanyan, Op. Cit., p. 9.



الخــــاتمة

الخـــــاتمة

بعد هذه الرحلة الطويلة مع النشاط البحري العثماني في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، ما هو الإستنتاج الذي يمكن أن نخرج به من هذه الدراسة؟

كان تحقيب التجربة البحرية العثمانية خلال مدة الدراسة إلى أربعة ادوار مهما في بيان نقاط التحول الرئيسة التي مر بها النشاط البحري العثماني إبتداءً من سنة 1453 حتى سنة 1580. فالمرحلة الأولى (1453–1503) هي مرحلة النشوء، إذ شهدت بناء إسطول عثماني وتقدمه نحو الأجزاء الشرقية من البحر المتوسط، وتحييد البندقية من ساحة الصراع البحري، بمعنى إنها كانت مرحلة انطلاق إيجابية. وشهدت المرحلة الثانية (1513–1546)، وهي مرحلة التفوق والازدهار، تطورا جديدا في ميدان الصراع البحري، تجلت فيه قدرة العثمانيين على فرض هيمنتهم على أجزاء واسعة من شمالي أفريقيا وتحدي القدرة البحرية لإمبراطورية آل هابسبرك، لاسيما بعد التعاون مع قباطنة البحر، أمثال خير الدين بربروسا وأخيه عُرُوج. وإتسمت المرحلة الثالثة (1547–1565) بتأرجح كفتي الصراع البحري بين القوتين، إذ لم تتمكن أي منهما من إزاحة الأخرى من ميدان الصراع. وعلى الرغم من النجاحات التي حققها العثمانيون في هذه المرحلة، إلا إنها ظلت محصورة ضمن المناطق الوسطى من البحر المتوسط، فضلا عن إن الإسبان تمكنوا من إيقاف التوسع العثماني غربا بعد إلحاق الهزيمة بهم أثناء حصار مالطا سنة 1565. أما المرحلة الرابعة (1566–1580) فقد مثلت سنوات حسم الصراع سلبا بخصوص قدرة العثمانيين البحرية، لاسيما بعد إنكفائهم نحو الشرق وعدم متابعة سياستهم في فرض هيمنتهم البحرية الكاملة على البحر المتوسط بعد النكسة التي تعرض لها الإسطول العثماني في ليبانتو سنة 1571.

ومن خلال نقاط التحول الرئيسة الأربع هذه يمكننا القول إن الدولة العثمانية تمكنت من تكوين قوة بحرية متوسطية قوية، ولكن هذه القوة لم تتمكن من تلبية الطموحات الستراتيجية للسلاطين العثمانيين في فرض الهيمنة العثمانية الكاملة على البحر المتوسط، وذلك يعزى إلى إن السياسة البحرية العثمانية لم تكن صائبة.

ومن خلال هذه الدراسة لاحظنا إن الحروب البحرية الطويلة للقرن السادس عشر إنتهت إلى إنقسام البحر المتوسط على شطرين. وكان العثمانيون، خلال حملاتهم

البحرية الأولى قد ترسخوا سادة للشطر الشرقي. وقد أثبتنا مسبقا إن إمتداد الإمبراطورية العثمانية على حزمة كبيرة من سواحل شرقي البحر المتوسط كان كافيا لتأهيلها لتكون قوة بحرية. وكان من المفترض أن يلجأ العثمانيون إلى تبني ستراتيجية دفاعية. ولكن الذي حصل هو العكس تماما، إذ إنهم إعتمدوا ستراتيجية هجومية مكّنتهم من تحقيق إنجازات بحرية لا يُستهان بها. وكانت جميع المحاولات في القوة البحرية العثمانية محددة بعاملين أساسيين: توافر المصادر لبناء السفن؛ والقدرة على توفير القوة البشرية لعمليتي التشييد والإبحار. وبمرور الزمن، بتزايد الفجوة التقنية بين الإمبراطورية العثمانية والقوى البحرية الأوربية، أصبح الحصول على تقنية أجنبية أكثر صعوبة وكلفة. فهل تسبب ذلك في إنكفاء القدرة البحرية العثمانية؟

كتب التواريخ التقليدية، بل وحتى الدراسات الأكاديمية، التي تناولت القوة البحرية العثمانية تصر على إنها، حتى خلال أوجها، كانت مجرد مقلدة للقوة البحرية البندقية، مما أدى إلى تراجعها أمام ظهور القوى الأطلسية التي حلت محل البندقية . إسبانيا والبرتغال تحديدا. على هذا الأساس، هناك وجهة نظر تقول إن القوة البحرية العثمانية كانت متخلفة عن الركب. ولكن، من وجهة نظرنا، فإن هناك منظورًا بديلاً يبدو أكثر صحة في حالة القوة البحرية العثمانية خلال أوجها؛ فالقوة البحرية العثمانية، لو أخذنا بنظر الإعتبار إعتمادها الصارم على السفن البحرية التجارية، قد طورت تنظيما مرنا: إنها أدمجت في هيكليتها الأساطيل الإقليمية للقباطنة الذين يُطلق عليهم في المصادر الغربية تسمية "القراصنة". وهؤلاء "القراصنة" لم يكونوا بالفعل قراصنة أو قطاع طرق بالمعنى الحرفي لمفهوم القرصنة؛ فما كان قد سُمح لهم القيام به، بعد دخولهم منظومة السلطة العثمانية، قد حُدد جيدا ضمن تقاليد القانون البحري العثماني وأعرافه، وكان بإمكانهم إحداث أضرار على العدو لتمويل نشاطاتهم وللمحافظة على تجديد أساطيلهم أو ترميمها، ومن ثم خدمة القوة البحرية العثمانية عندما يتم إستدعاؤهم. بمعنى آخر، كانوا البديل الأمثل لما كان يقدمه غيرهم من التجار البحريين للقوى البحرية، فضلا عن إنهم أبقوا طاقمهم في حالة إستعداد تام للحرب بطريقة لا يمكن معها حتى للتدريب أو نقل الأفكار والمعارف أن يضاهيها. وإذا ما كان هؤلاء القباطنة قد هيمنوا على البحر المتوسط أكثر مما كانوا عليه في أي مكان آخر، فإن سبب ذلك يرجع إلى إن السيادة فيه لم تكن تتبع أحدا، سواءً من المسلمين أو المسيحيين، فكان كل منهما يعدّ نفسه في حالة حرب مع الآخر، مما ترتب عليه إمكان تبرير الهجمات على الخصم بوصفها

عمليات مشروعة. وقد إستخدم العثمانيون في تلك الهجمات ضروبا عدّة من السفن المناسبة لما كانوا يعدّونه مجال توسعهم الطبيعي.

لقد كان إسلوب "البحرية المرنة" الذي إتبعه العثمانيون إستجابة رائعة للوقائع التي واجهوها. وهكذا رأينا إن "الغزاة" العثمانيين، عند نهاية القرن الخامس عشر، في الوقت الذي كانوا يوسّعون فيه حدود دولتهم، التي أصبحت إمبراطورية بعد نجاح جهادهم ضد البيزنطيين، قد دفعوا حدودهم إلى المياه المحيطة بشرقي البحر المتوسط لتكوين دولة بحرية محددة بالمتطلبات العسكرية والإدارية لدولة إسلامية الطابع.

ولإنجاز أهدافهم ضمن مجالات بحرية، فإن السلاطين العثمانيين نظموا تجربة بحرية متوسطية شرقية منحتهم، بإستخدام القوادس والمدافع، وتجنيد القوة البشرية من مناطق البلقان وشمالي أفريقيا، قوة لمواجهة الإسبان وغيرهم من القوى المسيحية لتوسيع المواقع البرية التي إكتسبوها والدفاع عنها، فضلا عن حماية مناطق التجارة الساحلية. ولكن تحقيق تلك الأهداف لم يأتِ مرة واحدة، بل تدريجيا. وفي نهاية عصر السلطان سليم الأول 1520، بدأت التجربة العثمانية بالتبلور عندما أخذت التقنية البحرية العثمانية مكانتها، إلى جانب القوى الأخرى، بتقسيم الأرض والبحر الذي يفصل أوربا عن العالم الإسلامي، لاسيما بعد فتح مصر والسيطرة على الممر التجاري الذي كان يربط أوربا بالهند وبلدان الشرق الأقصى.

وفيما بعد، وإزاء خلفية الصراع الذي بلغ ذروته خلال القرن السادس عشر، فإن فرضية عدم كفاءة العثمانيين في تبني الأساليب الأوربية المختلفة وتطويرها، أو في الأقل، مسايرة تفوقها، قد أثبتت فشلها كليا. إذ إن السلاطين العثمانيين العِظام، لاسيما السلطان سليمان القانوني، الذين واجهوا مشكلات توسع الإمبراطورية العثمانية، أنشأوا إمبراطورية مترامية الأطراف فوق حطام دول الشرق القديمة، المماليك ودويلات شمالي أفريقيا، وأثبتت المؤسسات البحرية العثمانية نجاحها، من الناحية السوقية في الأقل. وبمقاييس ذلك العصر، فإن العثمانيين واجهوا التحديات البحرية المتوسطية على إختلاف أنواعها بنجاح معقول، بعد إكتمال نضج الإمبراطورية وتماسكها. وقد تبين إن الرد العثماني على الغارات البحرية الأوربية قد دحض الحجة القائلة إن السفن الشراعية الغربية كانت متفوقة دائما على السفن العثمانية، في جزئه المتوسطي تحديدا؛ بدلا من

ذلك، فإننا نرى العثمانيين يهاجمون البندقية مرارا، ويضربون الحصار على مالطا، فضلا عن سيطرتهم على العديد من الجزر والشواطئ المنتشرة في البحر المتوسط، بل وحتى أكثر من ذلك، فبدلا من رؤية هزيمة ليبانتو 1571 بوصفها تطورا في تاريخ الصراع البحري الإسلامي . المسيحي لصالح القوى الأوربية، فإن الدليل العثماني، المتمثل بإعادة بناء الإسطول ومواصلة تركيز السيطرة على شمالي أفريقيا بإنتزاع المرافئ التي كانت تحتلها إسبانيا في تونس سنة 1574، وأخيرا، الإنتصار الكبير في معركة وادي المخازن سنة 1578، قد أثبت نجاح السفن العثمانية في مقارعة الأساطيل الأوربية، ليسفر عن بديهية تاريخية فرضها الوجود البحري العثماني: إن البحث عن السلام هو النتيجة المنطقية التي توصل إليها الفرقاء المتخاصمون بعد سلسلة الحروب الدامية. من هنا يمكننا أن نزعم إن الدولة العثمانية نجحت في أن تكون قوة بحرية.

ومع ذلك كله، فإن ذلك لا يكفي لكي نقول أن الدولة العثمانية أصبحت قوة عالمية، إعتمادا على القوة البحرية التي أنشأتها، كما يزعم بعض المؤرخين، أو إنها نجحت فعلا في تبني الأهداف السياسية الكبرى لسلاطين آل عثمان، لأسباب عدة، من أهمها إن النشاطات البحرية العثمانية لم تواكب الأبعاد الجديدة للعالم الذي عاصرته. ويرجع السبب في ذلك إلى السياسات الخاطئة المتبعة في البحر المتوسط؛ إذ كان العمود الفقري في السياسة البحرية العثمانية مبدأ الحرب، الذي لم يكن، أو لا يمكن أن يكون، قد شجع دورا عثمانيا قويا في البحر المتوسط؛ فقد واصلت الدولة العثمانية سياستها التقليدية في القضاء على الوضع السياسي والتجاري للبندقية في البحر المتوسط. ولغرض تحقيق هذا الهدف، فإنها اتبعت سياسة خاطئة بتشجيع الدويلات الإيطالية الأخرى المنافسة للبندقية، وهي دويلات ضعيفة نسبيا من الناحيتين السياسية والعسكرية، ولا يمكن أن تكون قد أدت دورا فاعلا في مساندة العثمانيين.

الشئ الآخر، إن السلطان سليمان إتخذ فرنسا حليفا له في ميدان البحر المتوسط. لكن فرنسا لم تكن قوة بحرية متوسطية. وبالنتيجة، فلم يكن بمقدورها أن تحل محل البندقية في المنطقة، وهذا خطأ آخر.

على هذا الأساس، كان الحل المعقول الوحيد نحو سياسة عثمانية فاعلة في البحر المتوسط، خلال القرن السادس عشر، إقامة تعاون وثيق مع البندقية، وليس التصادم

معها. فالإيطاليون، وقبل كل شئ، البنادقة، كانوا مهتمين جدا بإقامة تفاهم مشترك مع السلطان العثماني من أجل المحافظة على وضعهم التجاري المتميز ومواجهة الضغط الإقتصادي البرتغالي بعد إستكشاف رأس الرجاء الصالح. ومن المؤسف حقا إن العثمانيين قد أضاعوا فرصة تاريخية كبرى بعدم التعاون مع البندقية لضرب النفوذ البرتغالي الذي كان يهدد كلا الطرفين، وهذا يعني إن العثمانيين لم يدركوا المتغيرات العالمية . عالم ما بعد الإستكشافات الجغرافية الأوربية ونتائجها الثورية، عالم التنافس وليس الإحتكار. بكلمة أخرى، إنهم لم يفهموا كيف يبدأوا أو كيف يتخذوا الخطوات الضرورية للمحافظة على السلام مع عالم متغير خلال القرن السادس عشر.

وخلال عهد السلاطين العِظام، لاسيما السلطان سليمان القانوني، الذي كان مدركا لأهمية العالم الجديد للأوربيين ولمنافسيه شارل الخامس وفيليب الثاني فيما بعد، كانت الإمبراطورية العثمانية بحاجة إلى سياسة بحرية وتجارية أكثر فاعلية في البحر المتوسط وفي المحيط الهندي لموازنة سياسة أباطرة آل هابسبرك، أو مواجهة تقدّم أوربا في المحيطين الأطلسي والهندي. وكان من شأن سياسة بناءة كهذه أن توازن القوى الداخلية المتنافسة، فضلا عن توجيه سياستها الخارجية نحو الوجهة الصحيحة.

لقد فضّل السلطان سليمان تكرار هجماته ضد فيّنا، وضد الجانب المسيحي من البحر المتوسط، وضد بلاد فارس، على فتح المغرب، مثلا، والوصول إلى مصادر الذهب ومناطق العبيد في غربي أفريقيا، فضلا عن ساحل المحيط، أو منافسة القوى المسيحية الأوربية الأطلسية الناشئة. ثم إن الإستكشافات الأوربية قد أنهت الإحتكار التقليدي للوساطة الإسلامية بين الشرق والغرب، بل وكسرت حدود التحدي التقليدية بين الشرق والغرب أيضا، وخلقت حدودا خاصة بها، بمعنى إنها وضعت أبعادا جديدة للتحدي بين الشرق والغرب لم يأخذه العثمانيون بنظر الإعتبار، أو لم يعالجوه في سياستهم البحرية المتوسطية على نحو صحيح. ولئن كان العثمانيون قد أنهوا القوة البندقية في البحر المتوسط، فإن هذا الفراغ قد مُلئ من جانب قوى بحرية ناشئة في غربي أوربا . الإنجليز تحديدا، وليس من جانب الإسطول العثماني أو قدرة الإمبراطورية العثمانية نفسها على الإخضاع. بإختصار، فإن العثمانيين، والسلطان سليمان تحديدا، كانوا قد أسسوا سياسة بحرية متوسطية غير صائبة لم تمكنهم من فرض هيمنتهم الكاملة على البحر المتوسط. وبالنتيجة، لا يمكننا القول إنها كانت قوة عالمية.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

المصـــــــــــادر

أولا: المخطوطات:

- **خير الدين بربروسا**؛ مذكرات البحار المجاهد خير الدين بربروس رحمه الله، نسخة خطية أملاها خير الدين بربروسا على زميله البحار سيد علي ألمرادي، محفوظة في مكتبة جامعة اسطنبول.

ثانيا: الكتب الوثائقية:

- **Sandoval, Fray Prudencio**; History of the Life and Facts of Emperor Carlos V, Oxford, 1956, (translated from the original Spanish of 1614 by Ronald Thopson).
- **Sanuto, Marino**; The Diaries, Oxford, 1976.

ثالثا: الموسوعات

- The Cambridge Modern History, Cambridge, 1969.
- The Cambridge History of Islam, P.M. Holt, Ann K. S. Lambton, and Bernard Lewis (eds.), (2 Vols.), Cambridge, 1970.
- The New Cambridge Modern History, Cambridge, 1968.
- The New Encyclopaedia Britannica, Chicago, 1979.
- Encyclopaedia Britannica, 2005, Delux Edition, (CD ROM).
- Encyclopaedia of Islam, 2nd ed.
- Wikipedia Free Encyclopedia (*).

المـــــراجع

أولا: الكتب

1. العربية والمعربة

- **إبن اشنهو، عبد الحميد بن أبي زيان**؛ دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر، الجزائر، 1972.
- **اوزتونا، يلماز**؛ تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: د. محمود الأنصاري، مجلدان، استانبول، 1988.
- **ايفانوف، نيقولاي**؛ الفتح العثماني للأقطار العربية 1516–1574، ترجمة: يوسف عطا الله، بيروت، 1988.
- **بروشين، ن؛ ليبيا تحت حكم الفرسان والأخوية المالطية، 1510–1551**، موسكو، 1977.
- **بو عزيز، يحيى**؛ الموجز في تاريخ الجزائر، الجزء الأول، الجزائر، 1965.
- **جب، هاملتون وبوون، هارولد**؛ المجتمع الاسلامي والغرب، ترجمة:د. احمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة: د. احمد عزت عبد الكريم، جزءان، القاهرة، 1970.
- **الجيلالي، عبد الرحمن بن محمد**؛ تاريخ الجزائر العام، ط 4، بيروت، 1980.
- **حسن، إبراهيم شحاتة**؛ وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب 1578، الدار البيضاء، 1997.
- **رويسي، أتوري**؛ ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، تعريب وتقديم: خليفة محمد التليسي، بيروت، 1974.
- **سرهنك، إسماعيل**؛ حقائق الأخبار عن دول البحار، جزءان، القاهرة، 1312هـ (1894م).
- **السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله**؛ تاريخ السودان، باريس، 1964.
- **شاخت، جوزيف و بوزورث، كليفورد**؛ تراث الإسلام، الجزء الأول، ترجمة، د. محمد زهير السمهوري، د. حسين مؤنس، و د. إحسان صدقي العمد، تعليق وتحقيق، د. شاكر مصطفى، مراجعة، د. فؤاد زكريا، العدد 8، الكويت، 1985.
- **الشناوي، عبد العزيز محمد**؛ الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، أربعة أجزاء، القاهرة، 1980.
- **العسلي، بسام**؛ خير الدين بربروس، بيروت، 1980.
- ـــ؛ الجزائر والحملات الصليبية (1547. 1791م)، بيروت، 1980.
- **فارس، محمد خير**؛ تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي، بيروت، 1969.
- **فهمي، علي محمود**؛ التنظيم البحري الإسلامي في شرق المتوسط، ترجمة: قاسم عبدة قاسم،

بيروت، 1981.

- **كلو، أندريه**؛ غازي الغزاة سليمان القانوني، تعريب: محمد الزرفي، تونس، 1991.
- **لامب، هارولد**؛ سليمان القانوني سلطان الشرق العظيم، ترجمة: شكري محمود نديم، مراجعة: احمد ناجي القيسي ومحمود الأمين، بغداد، 1961.
- **المدني، أحمد توفيق**؛ حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492-1792م)، الجزائر، 1976.
- **المطوي، محمد العروسي**؛ السلطنة الحفصية: تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، تونس، 2006.
- **مصطفى، أحمد عبد الرحيم**؛ في أصول التاريخ العثماني، القاهرة، 1982.
- **مؤنس، حسين**؛ عالم الاسلام: دراسة في تكوين العالم الاسلامي وخصائص الجماعات الاسلامية، القاهرة، 1973.
- **الناصري، أبو العباس احمد بن خالد**؛ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 5 و6، الدولة السعدية، الدار البيضاء، 1955.
- **يحيى، جلال**؛ المغرب الكبير، (أربعة أجزاء)، بيروت، 1981.

2. الأجنبية

أ. الإنجليزية

- **Abun-Nasr, Jamil M**.; A History of the Maghrib, Cambridge, 1971.
- **Allen, W. E. D**.; Problems of Turkish Power in the Sixteenth Century, London, 1963.
- **Anderson, Roger Charles**; Naval Wars in the Levant: 1559-1856, Liverpool, 1952.
- **Argenti Philip P.**; The Occupation of the Chios by the Genoese and their Administration of the Island 1346-1566, (2 Vols.), London, 1958.
- **Barbour, Nevill**; Morocco, London, 1965.
- **Beeching, Jack**; The Galleys at Lepanto, New York, 1982.
- **Bigelow, Roger**; The Rise of Spanish Empire in the Old World and in the New, New York, 1918.
- **Black, Jeremy**; European Warfare 1494-1660, London - New York, 2002.
- **Bostan, İdris**; "The Province of Cezayer-I Bahr-I Sefid"; in: The Kapudan Pasha, His Office and his Doman, Elizabeth Zachariadus (ed.), Rethymnon,

2002.

- **Bovill, E. W.**; The Battle of Alcazar: An Account of the Defeat of Don Sebastian of Portugal at *El-Ksar el-Kebir*, New York, Oxford, 1954.
- ——————.; The Golden Trade of the Moors, 2nd ed., London, 1970.
- **Bracewell, Catherine Wendy.;** The Uskoks of Senj: Piracy, Banditry and Holy War in the 16th-Century Adriatic, Ithaca, 1992.
- **Bradford, Ernle**; The Sultan's Admiral: The Life of Barbarossa, 2nd ed., Oxford, 1969.
- **Brandi, Karl**; Carlo V, trans. by: Leone Ginzburg and Ettore Bassan, Torino, 2001.
- **Braudel, Fernand**; The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Phillip II, 2 Vols., translated from the French by Siân Reynolds, 2nd ed., London, 1974.
- **Brosch, Moritz**; The Height of Ottoman Power; in: The Cambridge Modern History, Vol. 1, Cambridge, 1969, 104-139.
- **Brummett, Palmira;** Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery, New York, 1994.
- **Bury, J. B.;** The Ottoman Conquest; in: The Cambridge Modern History, Vol. 1, Cambridge, 1969, pp.67-103.
- **Cipolla, Carlo**; Guns, Sails and Empires: Technological Innovation and the Early Phases of European Expansion, 1400-1700, New York, 1965, 78-81.
- **Claugh, Chambers C. H. and Mallett, M. E. (eds.);** War Culture and Society in Renaissance Venice, London, 1993.
- **Creasy, Edward S**.; History of the Ottoman Turks, Beirut, 1961.
- **Curry, Commander E. Hamilton**; Sea-Wolves of the Mediterranean: The Grand Period of Muslim Corsairs, London, 1910
- **Davies, R. Trevor**; The Golden Century of Spain 1501- 1621, London, 1961.
- **Elliott, J H.;** Imperial Spain 1469-1716, London, 1963.
- **Fisher, Sydney Nettleton**; The Foreign Relations of Turkey 1481-1512, Urbana, 1948.
- **Fisher, Sydney Nettleton**; The Middle East: A History, New York, 1959.
- **Freeman, Edward**; The Ottoman Power in Europe: it's Nature, its Growth, and its Decline, London, 1877.
- **Goffman, Daniel**; The Ottoman Empire and Early Modern Europe: War in the Early Modern World, Jeremy Black (ed.), Cambridge, 2003.
- **Gombrich, E. H.**; “Celebrations in Venice of the Holy League and the Victory

of Lepanto", in: Studies in Renaissance and Barouque Art, ed. Jeanne Coutauld, London, 1967.

- **Guilmartin, John F.**; Gunpower and Galleys: Changing Technology and Mediterranean Warfare at Sea in the Sixteenth Century, New York 1974.
- ————————; "The Tactics of the Battle of Lepanto Clarified: The Impact of Social, Economic, and Political Factors on Sixteenth Century Galley Warfare"; in: New Aspects of Naval History, Craig L. Symonds (ed.), United States Naval Academy, 1981. pp. 41-65.
- **Hakluyt, Richard**; The Principal Navigations and Voyages of English Nation, London, 1599-1600, (3 Vols.).
- **Hare, Christopher**; A Princess of Italian Reformation: Giulia Gonzaga 1513-1566, London & New York, 1912.
- ————————; A Great Emperor Charles V: 1519-1558, London, 1917.
- **Helm, M. A.**; History of Europe 1450-1660, London, 1976.
- **Hess, Andrew C.;** The Forgotthen Frontier: A History of the Sixteenthe Century Ibero-African Frontier, Chicago, 1978.
- **Heywood Colin**; The Frontier in Ottoman History: Old Ideas and New Myths; in: D. Power and N. Standen (eds.); Frontiers in Questions, Eurasian Borderlands, 700-1700, London, 1999**.**
- **Housley, Norman**; The Later Crusades, 1274-1580: From Lyons to Alcazar, Oxford, 1992.
- **Imber, Colin;** The Ottoman Empire, 1300-1650, The Structure of Power, London, 2002.
- **İnalcık, Halil**; The Ottoman Empire, The Classical Age, 1300-1600, London, 1994.
- ———————— and **D. Quataert** (eds.); "The Ottoman State: Economy and Society, 1300-1600," in: An Economic and Social History of the Ottoman Empire, 1300-1914, Cambridge, 1993.
- ————————**(ed.);** The Ottoman State and its Place in World History, ed. By: Kemal H. Karpat, Washington, 1974**.**
- ———————— ; "State, Sovereignty and Law during the Reign of Süleyman"; in: Halil İnalcık and Cemal Kafadar (eds.); Süleyman the Second and His Time, İstanbul, 1993**.**
- ————————; "The Ottoman Succession and its Relation to the Turkish Concept of Sovereignty"; in: Halil İnalcık (ed.); The Middle East and the Balkans under the Ottoman Empire: Essays on Economy and Society,

Bloomington, 1993.

- **Jennings, Ronald C.**; Christians and Muslims in Ottoman Cyprus and the Mediterranean World: 1571-1640, New York, 1993.
- **Kamen, Henry**; Golden Age Spain, New Jersey, 1988.
- **Khalife, Haji;** History of the Maritime Wars of the Turks, translated from old Turkish of **Haji Khalifeh** by: James Mitchell, London, 1831.
- **Kinross, Lord**; the Ottoman Centuries: The Rise and Fall of the Turkish Empire, New York, 1977.
- **Koenigsberger, H. G. and G. L. Mosse**; Europe in the Sixteenth Century, New York, 1968.
- **Koloğlu, Orhan;** "Renegades and the Case of Uluç / Kiliç Ali"; in: Rossella Cancilia (ed.); Mediterraneo in Armi, (secc. XV-XVIII), Vol. 2, Palmero, Associane Mediterraneo, 2007, pp. 513-531.
- **Kritovoulos**; History of Mehmed the Conqueror, Charles T. Rigg (trans.), Princeton, 1954.
- **Lane, Frederic Chapin.**; Venice: A Maritime Republic, Baltimore, 1973.
- ————————————; Ships and Shipbuilders of the Renaissance. Baltimore, Maryland, 1992.
- **Laroui, Abdallah**; The History of the Maghrib: An Interpretive Essay, New Jersey, 1977.
- **Leathes, Stanley**; Habsburg and Valois; in: The Cambridge Modern History, Vol. I, Cambridge, 1969, 66-103.
- **Lewis, Michael**; Armada Guns, London, 1961.
- **Lynch, John**; Spain under the Habsburgs, 2nd ed., Oxford, 1981.
- **Mahan, Alfred Thayer**; Influence of the Sea Power upon History 1660-1783, 20th ed., Boston, 1890.
- **McCarthy, Justin;** The Ottoman Turks: An Introductory History to 1923, London & New York, 1997.
- **McNeill, William H.**; Europe's Steppe Frontier, 1500-1800, A Study of Eastward Movement in Europe, Chicago, 1964
- ————————————.;Venice, the Hinge of Europe 1091-I797, Chicago, 1974
- **Miller, Townsend**; The Castles and the Crown, New York, 1963.
- **Montes, Sanchez Juan;** French, Protestants, and Turks: The Spaniards before the International Policy of Carlos V, Granada, 1995.
- **Pastor, Ludwig von**; the History of the Popes, from the Close of the Middle Ages, ed., R. F. Kerr, London, 1923-1953.

- **Pierson, Peter**; Philip II of Spain, London, 1975.
- **Poole, Stanley-Lane**; The Barbary Corsairs, London, 1891.
- **Poole, Stanley-Lane & Kelly, J. D. Jerrold**; The Story of Barbary Corsairs, London, 1890.
- **Prescott, William H**.; History of the Reign of Philip the Second, King of Spain, 2 Vols. (new ed.), Philadelphia, 1891.
- **Pryor, John H.**; Geography, Technology, and War: Studies in the Maritime History of the Mediterranean 649-1571, Cambridge, 1988.
- **Quinn, Rodney S.**; Barbarosa the Sword of Islam: Galley War in the Mediterranean, Maine, 2005.
- **Ranke, Leopold von**; The Turkish and Spanish Empires in the 16th and 17th Centuries, trans. Walter K. Kelley, Philadelphia, 1854**.**
- **Rose, Susan**; Medieval Naval Warfare 1000-1500, London and New York, 2002.
- **Rycaut, Paul**; The Present State of the Ottoman Empire, London, 1668.
- **Shaw, Stanford J. and Shaw, Ezel Kural**; History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, 2 Vols. Cambridge, 1976-1977.
- **Skilliter, S. A. William;** Harborne and the Trade with Turkey 1578-1582: A Documentary Study of the First Anglo-Ottoman Relations, Oxford, 1977.
- **Smith, Colin**; Christians and Moors in Spain, (2 Vols.); 1195-1614, Warminister, 1989.
- **Tenenti, Alberto;** Piracy and the Decline of Venice 1580-1615, Berkeley, 1967.
- **Theunissen, Hans Peter Alexander**; Ottoman- Venetians Diplomatics: The Áhd Names, The Historical Background and the Development of a Category of Political-Commercial Instruments together with Annotated Edition of Corpus of Relevant Documents, (N.P.), 1998.
- **Tracy, James D**.; Emperor Charles V Impresario of War: Campaign Strategy, International Finance, and Domestic Politics, Cambridge, 2002.
- **Turnbull, Stephen**; The Ottoman Empire 1326-1699 (Essential Histories), New York- London, 2003.
- **Watson, Bruce Allen**; Sieges: A Comparative Study, Westport, 1993.
- **Weil Althea**; The Navy of Venice, London, 1910.
- **Williams, Phillip;** The Sound and the Fury: Christian Perspectives on Ottoman Naval Organization, 1590-1620; in: Rossella Cancilia (ed.); Mediterraneo in Armi, (secc. XV-XVIII), Vol. 2, Palmero, Associane Mediterraneo, 2007, pp. 575- 592.
- **Yildirim, Onur**; "The Battle of Lepanto and Its Impact on Ottoman History and Historiography", in Rossella Cancila (ed.), Mediterraneo in Armi, (secc. XV-XVIII), vol. 2, Palermo: Associazione Mediterranea, 2007, pp. 533-556.

ب. التركية

- **بجوي، إبراهيم** ، تاريخ بجوي، اسطنبول 1866.
- **خليفة، حاجي (كاتب جلبي)؛** تحفة الكبار في أسفار البحار، مطبعة بحرية، (بلا مكان الطبع) 1329 هـ (1911م).
- **سلانيكي، مصطفى؛** تاريخي سلانيكي، اسطنبول 1863.
- **فريدون بك، احمد؛** منشآت السلاطين، اسطنبول، 1855.

- **Arıkan, Muzaffer** and **Toledo, Paulino**; XIV. – XVI Yüzyıllarda Türk-İspanyol İlişkileri ve Denizcilik Tarihimizle İspanyol Belgeleriz Las Relacions Turco-Espanolas en los singles XIV y XVI: Documentos Espanoles relativos a la historia naval Ottomana, Ankara, 1995
- **Bostan, Idris**; Kürekli ve Yelkenli Osmanlı Gemileri. Istanbul, 2005.
- ——————; Osmanlı Bahriye Teskilatı: XVII Yüzyılda Tersâne-i Âmire. Ankara, 1992.
- **Çelebi, Katip**; Tuhfetü'l-Kibâr fi Esfâr'l-Bihâr, ed. Şaik Gökyay, İstanbul, 1973.
- **Gaid, Maouloud**; Türkler İdaresi'nde Cezayir, trans: Faik Melek, Ankara, 1996.
- **Danişmend, İsmail Hami**; İzahlı Osmanlı Tarihi Kronojisi, (5 Vols.), Istanbul, 1971.
- **Güçer, Lütfi**; Asırlarda Osmanlı İmparatorluğu'nda Hububat Meselesi ve Hububattan Alınan Vergiler (The Grain Problem and the Taxes on Grain in the Ottoman Empire during the Sixteenth and Seventeenth Centuries, Istanbul, 1964.
- **Hammer-Purgstall, Joseph von**; Büyük Osmanlı Tarihi, Vol. 5, trans: Mümin Çevil and Erol Kılıç, İstanbul, 1990.
- **Hammer, Joseph**; Osmanlı Tarihi, Cilt I, Istanbul, 1991.
- Kıbrıs'ın Fethi (1570-1571), Ankara, Genel Kurmay Askeri Tarih ve Stratejik Etut Başkanlığı, Ankara, 1985.
- **İnalcık, Halil**; "Osmanlı Deniz Egemliği", in: Türk Denizcilik Tarihi, Bülent Arı (ed.), Ankara, 2002.
- **Öztuna, Yılmaz**; Büyük Türkiye Tarihi, Üçüncü Cilt, Istanbul, 1977.
- **Turan, Şerafettin**; Rodos'un Zaptından Malta Muhasarasına, in: Kanunî Armağam, Ankara, 1970.
- **Tülbentçi, Fridun Fazıl;** Barbaros Hayrettin Geliyor, Ankara, (N. D.).
- **Uzunçarsılı, Ismail Hakkı**; Osmanlı Devletinin Merkez ve Bahriye Teskilatı, Ankara: Türk Tarih Kurumu Basımevi, 1988.

- ————————————; Osmanlı Tarihi, II Selim'in Tahta Çıkından 1699 Karlofça Andlaşmasına Kadar, Vol. III. Part I, Türk Tarih Kurumu Basımevi, Ankara, 1983.

ج. الفرنسية

- **Ahrweiler, Helen**; Byzance et la mer, Paris, 1966.
- **Charrière Ernest**; Négociations de la France dance le Levant, " Collection de documents inédits sur l' histoire de France", I[st] serirs, Paris, 1840-1860, (4 Vols.). 1943.
- **Cour, August**; L'établissment des dynasties des Chérifs au Maroc etleur rivalté avec les Turcs de la régence d'Alger (1509-1830), Paris, 1904.
- **Féraud, Charles**; Annales Tripolitaines, Paris, 1927.
- **Guiga, Tahir**; Dorgouth Raīs, Le magnifique seigneur de la mere, Tunis, 1974.
- **Hammer, Baron Purgstall von**; Histoire de L'Empire Ottoman, J.J. Hellert, (trans.), Paris, 1835-1841.
- **Hazai, György**;"A Propos de l'Histoire du Titre Kapudan Paşa"; in: The Kapudan Pasha, His Office and his Domain, Elizabeth Zachariadus (ed.), Rethymnon, 2002.
- **Heyd, William von;** histoire du commerce du Levant au Moyen Âge, Amsterdam, 1959.
- **Joly ,Henry**; La corse française au XV[e] siècle, Lyons, 1942.
- **Julien, Charles-André**; Histoire de l' Afriqe du Nord. Paris, 1931.
- **Lavisse, Ernest**; Histoire de France depuis jusqu'à la révolution, Paris, I, 1903-1911.
- **Lesure, Michel;** Lepante: la crise de l'empire Ottoman, Paris, 1972.
- **Meterier, Ernest**; Histoire de I' Afrique septenrionale (Berbérie), T. III, Paris, 1891.
- **Monchicourt, Charles**; L' expedition espagnole de 1550 contre l' île de Djerba, Paris, 1913.
- **Perez, Jean**; L'espagne du XVI siècle, Paris, 1973.
- **Petit Édouard**; André Doria, un amiral condottiere XVIe siècle, 1466-1560, Paris, 1887.
- **Rousseau, Alphonse**; Annales tunisiennes, Algiers, 1864.
- **Veinstein, Gilles**; "La Dernière Flotte de Barberousse"; in: the Kapudan Pasha,

His Office and his Domain, Elizabeth Zachariadus (ed.), Rethymnon, 2002.
- **Zellar Gaston**; La réunion de Metz à la France, 1552-1648, Paris-Strasbourg, 1972.
- ——————; Le siège de Metz par Charles-Quint, oct-dec.. 1552, Nancy, 1943.

ثانيا: البحوث والدراسات

1. العربية

- **التميمي، عبد الجليل**؛ "تأملات جديدة حول مصيرية الموريسكيين–الاندلسيين بعد سقوط غرناطة وحتى طردهم من الأندلس 1609"، المجلة التاريخية المغربية، السنة 21، العدد 75–76، تونس، مايس 1994، ص ص353–359.
- ـــــ؛ "رؤية منهجية لدراسة العلاقة العثمانية– المغربية في القرن 16م"، المجلة التاريخية المغربية، ص ص 71–107.
- ـــــ؛ "حول مؤتمر (دين وهوية الموريسكيين الاندلسيين ومصادر وثائقهم) المنعقد بتونس من 19 الى 25 سبتمبر (أيلول)"، المجلة التاريخية المغربية، السنة 11، العدد33–34، حزيران (جوان) 1984، ص ص213– 222.
- ـــــ؛ "الخلفية الدينية للصراع الإسباني . العثماني على الايالات المغربية في القرن السادس عشر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 10–11، تونس، جانفي (يناير) 1978، ص ص 5–41.
- ـــــ؛ "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين"، المجلة التاريخية المغربية، السنة 8، العدد 23–24، تونس، نوفمبر، 1981، ص ص 187–203.
- **العابد صالح محمد**؛ "الحروب الصليبية دوافعها وبواعثها الممهدة"، المورد، المجلد السادس عشر، العدد الرابع، 1408هـ . 1987، ص ص 5–14.
- **العدول، جاسم محمد حسن**؛ "عُروج: دوره في أحداث المغرب العربي وحوض البحر المتوسط الغربي"، التربية والعلم، العدد الثاني، الموصل، شباط، 1980، ص ص191–231.
- **مصطفى، احمد عبد الرحيم**؛ "خير الدين بربروسا: مجاهد أم قرصان؟"، العربي، العدد257، الكويت، ابريل 1980، ص ص60–64.
- **واينر، جيروم ب**؛ "المغرب وقراصنة المغاربة في القرن السابع عشر"، تعريب: طارق العسكري وعبد الهادي التازي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، العدد 29–30، (بلا مكان)، 1979.

2. الأجنبية

أ. الإنجليزية:

- **Abou-El-Haj, Rifaat**; An Agenda for Research in History: The History of Libya between the Sixteenth and Nineteenth Centuries**,** *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 15, No. 3 Aug., 1983, pp. 305-319.
- **Anderson, J. L. ; "**Piracy and World History", *Journal of World History*, Vol. 6, Issue 2, 1995, pp. 175-199.
- **Armstrong, A**; " The Italian Wars of Henry II", *The English Historical Review*, Vol. 30, No. 120, October 1915, pp. 602-612.
- ————————; (book review): "Le Baron Alphonse de Roble; La Traité de Cateau- Cambrésis", *The English Historical Review*, Vol. 5, No. 14, January 1890, pp. 159-164.
- **Archibald R. Lewis**; "The Islamic World and the Latin West, 1350-1500", *Speculum*, Vol. 65, No. 4 Oct., 1990, pp. 833-844.
- **Ayalon, David** ; "The End of the Mamlūk Sultanate: (Why did the Ottomans Spare the Mamlūks of Egypt and Wipe out the Mamlūks of Syria?)", *Studia Islamica*, No. 65 1987, pp. 125-148.
- **Barkan, Omer Lutfi and McCarthy, Justin** ; **"**The Price Revolution of the Sixteenth Century: A Turning Point in the Economic History of the near East**"**, *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 6, No. 1 Jan., 1975, pp. 3-28.
- **Beazley, C. Raymond** ; "Prince Henry of Portugal and the African Crusade of the Fifteenth Century**",** *The American Historical Review*, Vol. 16, No. 1, Oct., 1910, pp. 11-23.
- **Blackburn, J. Richard** ; "The Collapse of Ottoman Authority in Yemen, 968/1560-976/1568**"**, *Die Welt des Islams*, New Ser., Vol. 19, Issue 1/4 1979, pp. 119-176.
- **Bowen, Ezra ; "**Ships**"**, *The Scientific Monthly*, Vol. 27, No. 1 Jul., 1928, pp. 57-64.
- **Boxer, C. R.**; "Portuguese and Spanish Projects for the Conquest of Southern Asia 1580-1600", *International journal of Asian History*, iii, 2, 1969, pp. 118-136.
- **Boxer**, **C. R.**; "A Note on Portuguese Reactions to the Revival of the Red Sea Spice Trade and the Rise of Acheh, 1540-1600", *International Journal of Southeast Asian History*, x, 3, 1969, pp. 415-428.

- **Brauer, Ralph W.** ; "Boundaries and Frontiers in Medieval Muslim Geography", _Transactions of the American Philosophical Society_, New Ser., Vol. 85, No 6 1995, pp. 1-73.
- **Brett, Michael (Author of Review)**; "Review: Morocco and the Ottomans: The Sixteenth Century in North Africa" , Reviewed Work(s): Ibn Khaldun: An Essay in Reinterpretation, by: Aziz Al-Azmeh.
- **Brown, Horatio F.** ; "The Venetians and the Venetian Quarter in Constantinople to the Close of the Twelfth Century", _The Journal of Hellenic Studies_, Vol. 40, Part 1 1920, pp. 68-88.
- **Brummett, Palmira** ; "The Overrated Adversary: Rhodes and Ottoman Naval Power" , _The Historical Journal_, Vol. 36, No. 3 Sep., 1993, pp. 517-541.
- ——————; "The Ottomans as a World Power: What We Don't Know about Ottoman Sea-Power", in: fleet, Kate (ed.); The Ottomans and the Sea, Rivista d' Informazione e di Studi per La Diffusione Conoscenza Della Cultra Dell'Oriente Soprattutto Musulmano, _Oriente Moderno_, XX, (LXXXI), N. S., 1, 2001,
- **Çizakça, Murat**; "The Ottoman Empire: Recent Research on Shipping and Shipbuilding in the Sixteenth to Nineteenth Centuries", _Research in Maritime History_, 9, 1995, pp. 213-228.
- **D'Angelo, Michela**; "In the 'English' Mediterranean (1511-1815)", _Journal of Mediterranean Studies_, Vol. 12, No. 2, 2002, pp. 271-285.
- **Cabrera, E.**; "The Medieval Origins of the Great Landed Estates of the Guadalquivir Valley", _The Economic History Review_, New Series, Vol. 42, No. 4, Nov., 1989, pp. 465-483.
- **Darling, Linda T.** ; "Contested Territory: Ottoman Holy War in Comparative Context", _Studia Islamica_, No. 91, 2000, pp. 133-163.
- ——————; Ottoman Politics through British Eyes: Paul Rycaut's the Present State of Ottoman Empire, _Journal of World History_, No. 1, Vol. 5, 1994.
- **Davies, Arthur;** "Prince Henry the Navigator", _Transactions and Papers_, _Institute of British Geographers_, No. 35, Dec., 1964, pp. 119-127.
- **Dawkins, R. M.**; "A Picture of the Battle of Lepanto", _The Journal of Hellenic Studies_, Vol. 50, Part I, 1930, pp. 1-3.
- **DeVries, Kelly**; The Lack of a Western European Military Response to the Ottoman Invasions of Eastern Europe from Nicopolis (1396) to Mohacs (1526), _The Journal of Military History_, Vol. 63, No. 3, Jul., 1999, pp. 539-559.
- **Dotson**, **John E.**; "The Foundation of Venetian Naval Strategy from Pietro II Orseolo

to the Battle of Zonchio: 1000-1500", *Medieval and Renaissance Studies*, Vol. 32, California, 2001, pp. 113-125.

- **Fenlon, Iain**; "Lepanto and the Arts of Creation", *History Today*, Volume: 45. Issue: 9, Sep., 1995.
- **Fontes, Manuel da Costa** ; "The Batalha de Lepanto in the Portuguese Oral Tradition", *Hispanic Review*, Vol. 47, No. 4 (Autumn, 1979, pp. 487-503.
- **Finlay, Robert** ; "Fabius Maximus in Venice: Doge Andrea Gritti, the War of Cambrai, and the Rise of Habsburg Hegemony, 1509-1530", *Renaissance Quarterly*, Vol. 53, No. 4, Winter, 2000, pp. 988-1031.
- ————————; "The Immortal Republic: The Myth of Venice during the Italian Wars (1494- 1530)", *Sixteenth Century Journal*, Vol. 30, No. 4 Winter, 1999, pp. 931-944.
- **Fisher, Sydney Nettleton** ; "Civil Strife in the Ottoman Empire, 1481-1503", *The Journal of Modern History*, Vol. 13, No. 4, Dec., 1941, pp. 449-466.
- **Fischer, Stanley, Ebeid W. Makram, Michelin, J. W.** "Mediterranean Colonies", *Journal of Comparative Legislation and International Law*, 3rd Ser., Vol. 1, No. 2, 1919, pp. 174-181.
- **Forell, George W**.; "Luther and the War against the Turks", *Church History*, Vol. 14, No. 4, Dec. 1945, pp. 256-271.
- **Gabrieli, Francesco**; "Greeks and Arabs in the Central Mediterranean Area", *Dumbarton Oaks Papers*, Vol. 18, 1964, pp. 57-65.
- **Grima, Joseph F**.; "Rowers on the Orders' Galley (c. 1600-1650)", *Journal of Maltese Historical Society*, No. 13, Vol. 2, 2001, pp. 113-126.
- **Guilmartin, Jr., John Francis.**; "Ideology and Conflict: The Wars of the Ottoman Empire, 1453-1606", *Journal of Interdisciplinary History*, Vol. 18, No. 4, The Origin and Prevention of Major Wars Spring, 1988, pp. 721-747.
- ————————————————; "The Galley in Combat", *The Quarterly Journal of Military History*, Winter 1997, Volume 9, Number 2, pp 20- 21.
- **Hess, Andrew C.**; "The Moriscos: an Ottoman Fifth Column in Sixteenth-Century Spain?", *American Historical Review*, 74 1968, 1-25.
- ——————————.; "The Evolution of the Ottoman Seaborne Empire in the Age of Oceanic Discoveries, 1453-1525", *American Historical Review*, LXXV, No. 7, 1970, pp. 1892-1919.
- ——————————; "The Battle of Lepanto and Its Place in Mediterranean History", *Past and Present*, No. 57, Nov., 1972, pp. 53-73.
- ——————————.; "The Ottoman Conquest of Egypt (1517) and the Beginning

of the Sixteenth- Century World War", *International Journal of Middle Eastern Studies*, 4, 1973, pp. 55-76.

- **Imber, Colin H.**; "The Costs of Naval Warfare: The Accounts of Hayreddin Barbarossa's Herceg Novi Campaign in 1539", *Archivum Ottomanicum*, 4 1972, pp. 203-16.
- ———————; "The Navy of Suleyman the Magnificent", *Archivum Ottomanicum*, 6, 1980, pp. 211-82.
- ———————; "The Reconstruction of the Ottoman Fleet after the Battle of Lepanto, 1571-1572", *Studies in Ottoman History and Law*, Istanbul, 1996, pp. 85-101.
- **Inalcik, Halil;** "Capital Formation in the Ottoman Empire", *International Journal of Economic History*, Vol. 29, No. I, 1969, pp. 97-140.
- ———————; "Case Study in Renaissance Diplomacy: The Agreement between Innocent VIII and Bayezid II on Djem Sultan", *Journal of Turkish Studies*, 3, 1979, pp. 209-30.
- ———————; "Ottoman Methods of Conquest", *Studia Islamica*, No. 2 ,1954, pp. 103-129.
- ———————; "An Outline of Ottoman-Venetian Relations," Extract from the Volume, *Venezia centro di mediazione tra Oriente e Occidente*, (Secoli XV-XVI). Vol. I, Aspetti i Problemi, 1973, pp.83-90.
- ———————; "Mehmed the Conqueror (1432-1481) and His Time", *Speculum*, Vol. 35, No. 3, Jul., 1960, pp. 408-427.
- ———————; "The Policy of Mehmed II toward the Greek Population of Istanbul and the Byzantine Buildings of the City", *Dumbarton Oaks Papers*, Vol. 23,1969, pp. 229-249.
- ———————; "Capital Formation in the Ottoman Empire", *International Journal of Economic History*, xxix, 1, 1969, pp.97-140.
- **Isom-Verhaaren, Christine**; "Barbarossa and His Army Who Came to Succor All of Us: Ottoman and French Views of Their Joint Campaign of 1543-1544", *French Historical Studies*, Vol. 30, No. 3, Summer 2007, pp. 395-425.
- **Issawi, Charles;** "The Christian-Muslim Frontier in the Mediterranean: A History of Two Peninsulas", *Political Science Quarterly*, Vol. 76, No. 4, December, 1961, pp. 544-554.
- **Jansen, De Lamar**; "The Ottoman Turks in Sixteenth Century French Diplomacy", *The Sixteenth Century Journal*, Volume XVI, No. 4, 1985, pp.451-470.

- **Kahane, Henry; Kahane, Renée** ; "Turkish Nautical Terms of Italian Origin", *Journal of the American Oriental Society*, Vol. 62, No. 4 Dec., 1942, pp. 238-261.
- **Kortepeter, Carl M.**; "Ottoman Imperial Policy and the Economy of the Black Sea Region in the Sixteenth Century", *Journal of the American Oriental Society*, Vol. 86, No. 2, Apr., 1966, pp.86-113.
- **Labib, Subhi** ; "The Era of Suleyman the Magnificent: Crisis of Orientation", *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 10, No. 4 Nov., 1979, pp. 435-451.
- **Lane, Frederic C.** ; "Venetian Shipping During the Commercial Revolution", *The American Historical Review*, Vol. 38, No. 2, Jan., 1933, pp. 219-239.
- ———————— ; "Recent Studies on the Economic History of Venice", *The Journal of Economic History*, Vol. 23, No. 3, Sep., 1963, pp. 312-334.
- **Lewis , Archibald R.;** "The Islamic World and the Latin West, 1350-1500", *Speculum*, Vol. 65, No. 4, Oct., 1990, pp. 833-844.
- **Lewis, Edward**; **"**Responsibility for Piracy in the Middle Ages", *Journal of Comparative Legislation and International Law*, 3rd Ser., Vol. 19, No. 1, 1937, pp. 77-89.
- **Libby, Jr, Lester J.**;"Venetian Views of the Ottoman Empire from the Peace of 1503 to the War of Cyprus", *Sixteenth Century Journal*, Vol. 9, No. 4, Central Renaissance Conference Winter, 1978, pp. 103-126.
- **Livermore, H. V.;** "On the Conquest of Ceuta", *Luso-Brazilian Review*, Vol. 2, No. 1, Summer, 1965, pp. 3-13.
- **Lovett, A. W.**; "The Castilian Bankrupty of 1575", *The Historical Journal*, Vol. 23, No. 4, December 1980, pp. 899-911.
- **Martin , B. G. ;** "Mai Idris of Bornu and the Ottoman Turks, 1576-78", *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 3, No. 4, Oct., 1972, pp. 470-490.
- **McLachlan, K. S.** ; "Tripoli and Tripolitania: Conflict and Cohesion During the Period of the Barbary Corsairs (1551-1850)", *Transactions of the Institute of British Geographers*, New Series, Vol. 3, No. 3, Settlement and Conflict in the Mediterranean World 1978, pp. 285-294.
- **Miller, William;** "The Ionian Islands under Venetian Rule", *The English Historical Review*, Vol. 18, No. 70, April, 1903, pp. 209-239.
- ————————**.**; "The Last Venetian Islands in the Aegean", *The English Historical Review*, Vol. 22, No. 86 , April, 1907, pp. 304-308.

- **Mitler, Louis**; "The Genoese in Galata: 1453-1682, *International Journal of Middle Eastern Studies*, Vol. 10, No. 1, February 1979, pp. 71-91.
- **El-Moudden, Abderrahmanne**; "The Idea of Caliphate between Moroccans and Ottomans: Political and Symbolic Stakes in the 16th and 17th Centuries", *Studia Islamica*, No. 82, 1995, pp. 103-112
- **Munro, Dana C.** ; "The Popes and the Crusades", *Proceedings of the American Philosophical Society*, Vol. 55, No. 5, 1916, pp. 348-356.
- **Nader , Helen**; "The End of the Old World", *Renaissance Quarterly*, Vol. 45, No. 4, Winter, 1992, pp. 791-807.
- **Necipoğlu , Gülru** ; "Süleyman the Magnificent and the Representation of Power in the Context of Ottoman-Hapsburg-Papal Rivalry" , *The Art Bulletin*, Vol. 71, No. 3, Sep., 1989, pp. 401-427.
- **Nickel, Helmut**; "The Battle of the Crescent", *The Metropolitan Museum of Art Bulletin* , New Series, Vol. 24, No. 3, Nov., 1965, pp. 110-128.
- **Özveren, Eyüp & Yıldırım, Onur**; "An Outline of Ottoman Maritime History, *Maritime History*", No. 28. New Directions in Mediterranean Maritime History, edited by Gelina Harlaftis and Carmel Vassallo, St. John's, Newfoundland, Canada, 2004, 147-170.
- ————————————; "Procurements of Naval Supplies during the Sixteenth Century: Venetian *Arsenale* and Ottoman *Tersane* Compared", (Draft), Ankara, 2006.
- **Özveren, Eyüp**, "Shipbuilding, 1590-1790," of the *Fernand Braudel Review*, A Journal Center, Vol. XXIII, No. 1, 2000, pp. 15-86.
- **Parker, Geoffery**; "Spain, Her Enemies and the Netherlands 1559-1648", *Past and Present*, No. 49, November 1970, pp. 82-95.
- **Queller, Donald E.; Day, Gerald W.** ; "Some Arguments in Defense of the Venetians on the Fourth Crusade", *The American Historical Review*, Vol. 81, No. 4, Oct. 1976, pp. 717-737.
- **Raccagni, Michelle** ; "The French Economic Interests in the Ottoman Empire", *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 11, No. 3, May, 1980, pp. 339-376.
- **Rapp, Richard T.** ; "The Unmaking of the Mediterranean Trade Hegemony: International Trade Rivalry and the Commercial Revolution", *The Journal of Economic History*, Vol. 35, No. 3, Sep., 1975, pp. 499-525.
- **Rose, Constance H.**; "New Information on the Life of Joseph Nasi Duke of Naxos: The Venetian Phase", *The Jewish Quarterly Review*, New Ser., Vol. 60,

No. 4, Apr., 1970, pp. 330-344.

- **Rose, Susan**; "Islam Versus Christendom; The Naval Dimension, 1000-1600", _The Journal of Military History_, Vol. 63, No. 3, July, 1999, pp. 561-578.
- **Roth, Cecil;** "Joseph Nasi, Duke of Naxos, and the Counts of Savoy", _The Jewish Quarterly Review_, New Ser., Vol. 57, The Seventy-Fifth Anniversary Volume of the Jewish Quarterly Review 1967, pp. 460-472
- **Setton, Kenneth M.**; "Penrose Memorial Lecture. Pope Leo X and the Turkish Peril", _Proceedings of the American Philosophical Society_, Vol. 113, No. 6, Dec. 1969, pp. 367-424.
- **Smith, Lacey Baldwin**; "Henry VIII and the Protestant Triumph", _The American Historical Review_, Vol. 71, No. 4, Jul., 1966, pp. 1237-1264.
- **Soucek, Svat**; "The Rise of the Barbarossas in North Africa", _Achivum Ottomanicum_, 3, 1971, 240-51.
- ————; "Piri Reis and Ottoman Discovery of the Great Discoveries", _Studia Islamica_, No. 79, 1994, pp. 121-142.
- **Thompson, I. A. A.** ; "The Appointment of the Duke of Medina Sidonia to the Command of the Spanish Armada", _The Historical Journal_, Vol. 12, No. 2, 1969, pp. 197-216.
- **Topping, Peter** ; "Venice's Last Imperial Venture", _Proceedings of the American Philosophical Society_, Vol. 120, No. 3, Jun., 1976, pp. 159-165.
- **Toynbee, Arnold Joseph** ; "The Ottoman Empire in World History", _Proceedings of the American Philosophical Society_, Vol. 99, No. 3, Jun., 1955, pp. 119-126.
- **Vogt, John** ; "Saint Barbara's Legion: Portuguese Artillery In the Struggle For Morocco, 1415-1578", _Military Affairs_, Vol. 41, No. 4, Dec., 1977, pp. 176-182.
- **Walter, E. and Monnereau**; "Negotiations Between Charles Quent and Kkeir ed-Din", _Afrique Ruvue_, 86, 1871, pp. 23-65.
- **Yapp, M. E.** ; "Europe in the Turkish Mirror, _Past and Present_, No. 137, The Cultural and Political Construction of Europe", Nov., 1992, pp. 134-155.

ب.الفرنسية:

- **Berthier, P.;** "Les iberiques Face au Peril Turc sur le Maroc, a la Veille de la Bataille de Wadi-l- Makhazin", (4 août 1578), _Revue d' Histoire Maghrebine_....,, pp. 109-114.
- **Bourrilly, V. L.**; "L'Ambassade de La Forest et de Marillac à Constantinople,

1535-1538”, <u>Revue Historique</u>, No. 76, May-June 1901.
- **Braudel, Fernand**; “ Les Espagnolls et l' Afrique du Nord de 1492 à 1577”, in: <u>Revue Africaine</u>, 1928.
- **Monchicoury, C.**; “Épisodes de La carrièrt tunisienne de Dragut”; in: <u>Revue Tunisienne</u>, 1917, pp. 317-324.
- **Simbola, Pinuccia Franca (trans.)**; Îles, corsares et pirates dans la Méditerranée Médiévale, <u>*Médiévales*</u>, no. 47, Paris, automne 2004, pp. 17-30.
- **Temimi, Abdeljelil;** “Lettre de la Population Algeroise au Sultan Selim 1[er] en 1519”, <u>Revue d’ Histoire Maghrebine</u>, Tom. V, Tunis, Jan. 1976, pp. 95-101.
- **Veinstien, G**.; “A perçus sur l’entrée de l’Ile de Djerba dans l’Orbit Ottomane”, <u>Revue d’ Histoire Maghrebine</u>, Tom. 10, Tunis, 1983, pp. 395-410.
- **Wintzer, Paul**;“Bougie, place forte espagnole”, in: B. <u>Soc. Géogr. D' Alger</u>, 1932, pp.

ج – التركية

- **Özbaran, Salih;** “Galata Tersanesinde Gemi Yapımcıları, 1529-1530’, <u>Güneydoğu Araştırmaları Dergesi</u>, Nos. 8-9, 1980, ss. 97-102.

ثالثا: الأطالس التاريخية

- **مؤنس، حسين**؛ أطلس تاريخ الاسلام، القاهرة، 1987.
- **زيادة، نقولا (وآخرون)**؛ أطلس العالم، بيروت، 1986.
- **Moore, R. I. (General ed.);** The Hamlyn Historical Atlas, London, 1981.
- **Soucek, Svat;** Potolan, the Khalili Portolan Atlas, Nour Foundation, 1995: especially "Piri Reis and Turkish Mapmaking after Columbus", pp. 10-33.

رابعا: رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه

- **الجبوري، رابحة محمد خضير عيسى**؛ موقف القوى الإسلامية من التوسع الأوربي في المغرب العربي 1492– 1578 (دراسة تاريخية)، إطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، 2006.
- **عباس علي، ضياء محمد جميل**؛ الدولة العثمانية في عهد السلطان محمد الثاني الفاتح (1451–1481، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، 2002.
- **العبيدي، سمير عبد الرسول عبد الله**؛ طرابلس الغرب أثناء احتلال الإسبان وفرسان القديس يوحنا

(1510–1551)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، 2003.

- **العدول، جاسم محمد حسن؛** الدولة العثمانية إبان حكم السلطان سليم الأول، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، 2004.
- **القرة غولي، نهار محمد نوري؛** الإدارة البريطانية في قبرص، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، 2003.
- **القيسي، محمود عبد الواحد محمود؛** العلاقات الخارجية للدولة الكارولنجية في عهد شارلمان (768–814)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، 2003.

- **Ataus, Ayşe Devrim;** Trade, Piracy and Naval Warfare in the Central Mediterranean: The Maritime History and Archaeology of Malta, Unpublished PhD Dissertation, Texas A & M University, 2004.
- **Gürkan, Emrah Safa;** Ottoman Corsairs in the Western Mediterranean and their Place in the Ottoman-Habsburg Rivalry (1505-1535), Unpublished MA Thesis, Department of History, Bilkent University, Ankara, 2006.
- **Rothman, Ella Natalie;** Between Venice and Istanbul: Trans-Imperial Subjects and Cultural Mediation in the Early Modern Mediterranean, Unpublished PhD Dissertation, University of Michigan, 2006.
- **Weiner, Jerome Bruce**; Fitna, Corsairs, and Diplomacy:. Morocco and the Maritime Sates of Western Europe, 1603–1672, Unpublished PhD Dissertation, Columbia University, 1972.
- **Wright, Diana Gilliland;** Bartolomio Minio: Venetian Administration in 15th Century Nauplion, PhD Dissertation, The Catholic University of America, Washington DC, 1999.

خامسا: المصادر المنشورة على شبكة المعلومات الدولية (الانترنت):

- **Abulafia, David; The Great Sea: A Human History of the Mediterranean.** http://www.eui.eu/HEC/ResearchTeaching/20052006-Autumn/sem-abulafia-nov.pdf
- **The Barbary Corsairs by Cindy Vallar.** http://www.cindyvallar.com/barbarycorsairs.html
- **Bostan, Idris; Ottoman Maritime Arsenals and the Shipbuilding Technology in the 16th and 17th Centuries, Foundation of Science and**

Technology and Civilization, January 2007.
http://www.muslimheritage.com/uploads/Ottoman_Maritime_Arsenals1.pdf

- **Caravels and Carracks.**
  http://www.angelfire.com/ga4/guilmartin.com/chapter3.html
- **Edward, John**; Chriatian Córdoba: The City and its Region in the Middle Ages, Appendex II, Money and its Value. http://libro.uca.edu/edwards/appendix2.htm
- **Galley Terms.** http://www.d.umn.edu/~ahartley/Galley_terms.html
- **Galete, Jan; The Sea Power of Habsburg Spain and the Development of Eoropean Navies 1500-1700. prepared to the conference Gurra y Sociedad en la Monarquí Hispánica: Politica, Estrategia y Cultura en la Europa Moderna (1500-1700), Madrid, 9-12 March 2005.**
  http://www.historia.su.se/personal/jan_glete/Glete-Sea_Power_Habsburg_Spain.pdf
- **Guilmartin, John F.;The Galley in Combat, *MHQ: The Quarterly Journal of Military History*, Winter 1997, Volume 9, Number 2, pp 20-21.**
  http://www.angelfire.com/ga4/guilmartin.com/Galley.html
- **Guilmartin, John F.; Lepanto: The Battle that Saved Christendom? Prepared for the Centre d'Études d'Histoire de la Défense Conference Autour de Lépante: Guerre et Géostratégie en Méditerranée au Tournant des XVIe et XVIIe Siecles, Paris, 22-24 October 2001, 1st Revision, 28 October 2001.** http://www.angelfire.com/ga4/guilmartin.com/CEHD.html
- **The Knights of Malta: Dragut's Attack on Gozo of 1551.**
  http://www.sanandrea.edu.mt/Senior/CyberFair/knights/3a.html
- **Koloğlu, Orhan; The "Mediterranean" of the Turks.**
  http://www.obiv.org.tr/2003/ORTADOGU/OrhanK.pdf
- **Milanes, Victor Mallia; Charles V's Donation of Malta to the Order of St. John.** http://www.orderofmalta.org/pdf/pub/Charlesv_donation.pdf
- **The Military Revolution Debate: Readings on the Military Transformation of Early Modern Europe, edited by Clifford J. Rogers, West view press, Boulder, San Francisco, Oxford, 1995, pp. 299-333.**
  http://www.angelfire.com/ga4/guilmartin.com/Revolution.html
- **Morse, Eric; Crusader Knights, Turks and Byzantines: Address to the Sovereign Order of the Knights of St. John of Malta, Rhodes and Jerusalem, National Club, Toronto, November 17, 2003.**
  http://www.emorse.com/Words/Knights%20of%20Malta.pdf
- **Nafpaktos The Naval Battle of Lepanto.**

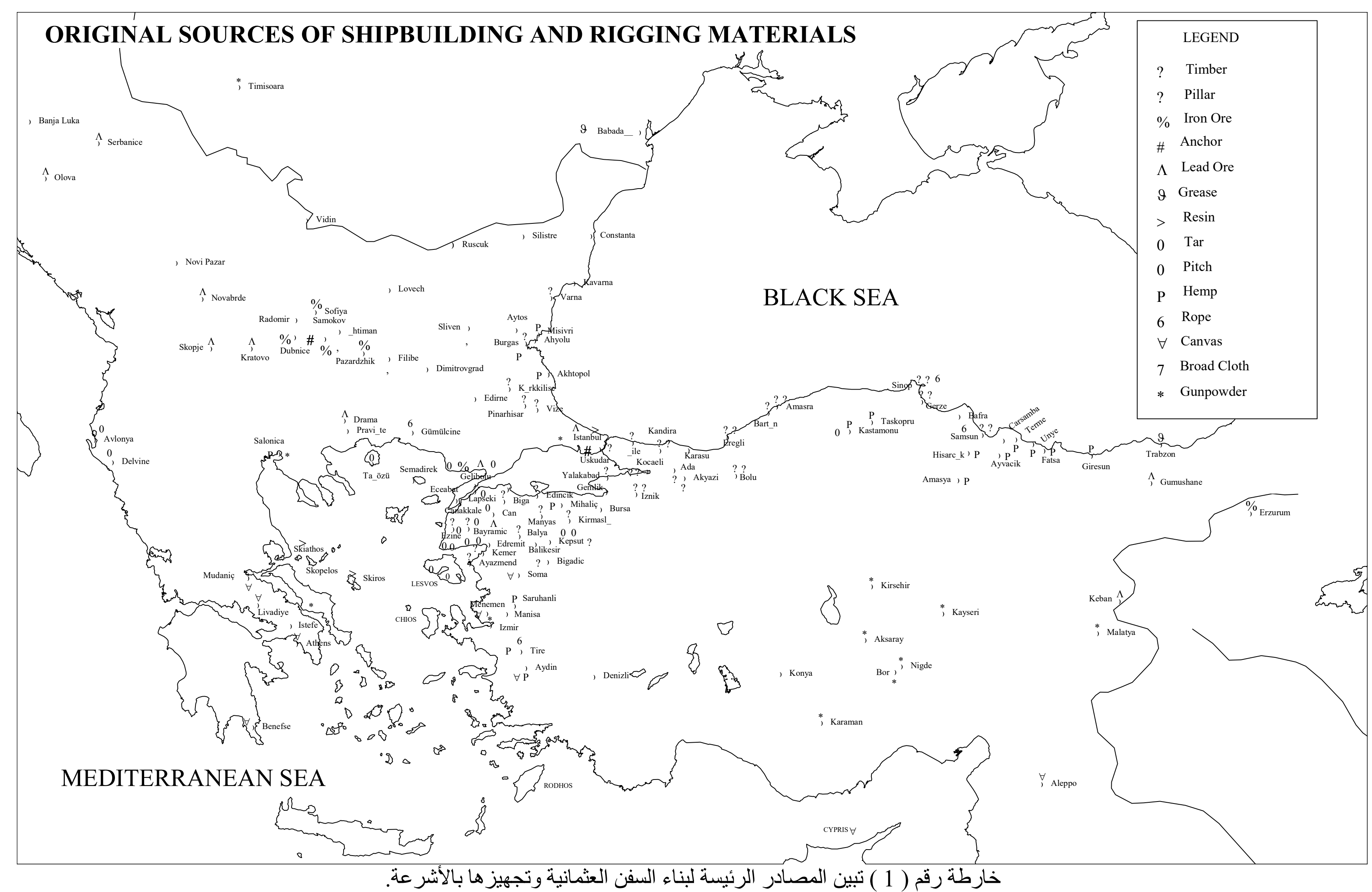
http://www.nafpaktos.com/battle_of_lepanto.html

- **New York Times, September 28, 1986 Malta, Where Suleiman Laid Siege.** Siegehttp://query.nytimes.com/gst/fullpage.htm
- **Soucek, Svat; "The Ottomans and Their Rivals, Galleys and Galleons, Portolan Charts and Isolarii," from his Piri Reis & Turkish Mapmaking after Columbus: The Khalili Portolan Atlas, Nour Foundation, 1995, pp. 10-33.** http://coursesa.matrix.msu.edu/~fisher/hst373/readings/soucek.html
- **Subrahmanyan, Sanjay; A Tale of Three Empires: Mughals, Ottomans, and Habsburgs in a Comparative Context, (Duke University Press, 2003).** http://muse.jhu.edu/cgi-bin/subrahmanyam.html
- **The Tactics of the Battle of Lepanto Clarified: Gunpowder and Galleys: Changing Technology and Mediterranean at Sea.** http://www.angelfire.com/ga4/guilmartin.com/Lepanto.html
- **Trischitta, Marcello Maria Marrocco; The Knights of Malta: A Legend Toward the Future, Italy.** http://www.orderofmalta.ie/irish_assocation/History.pdf
- **The Weapons of Sixteenth Century Warefare at Sea.** http://www.angelfire.com/ga4/guilmartin.com/Weapons.html

خامسا: الصحف

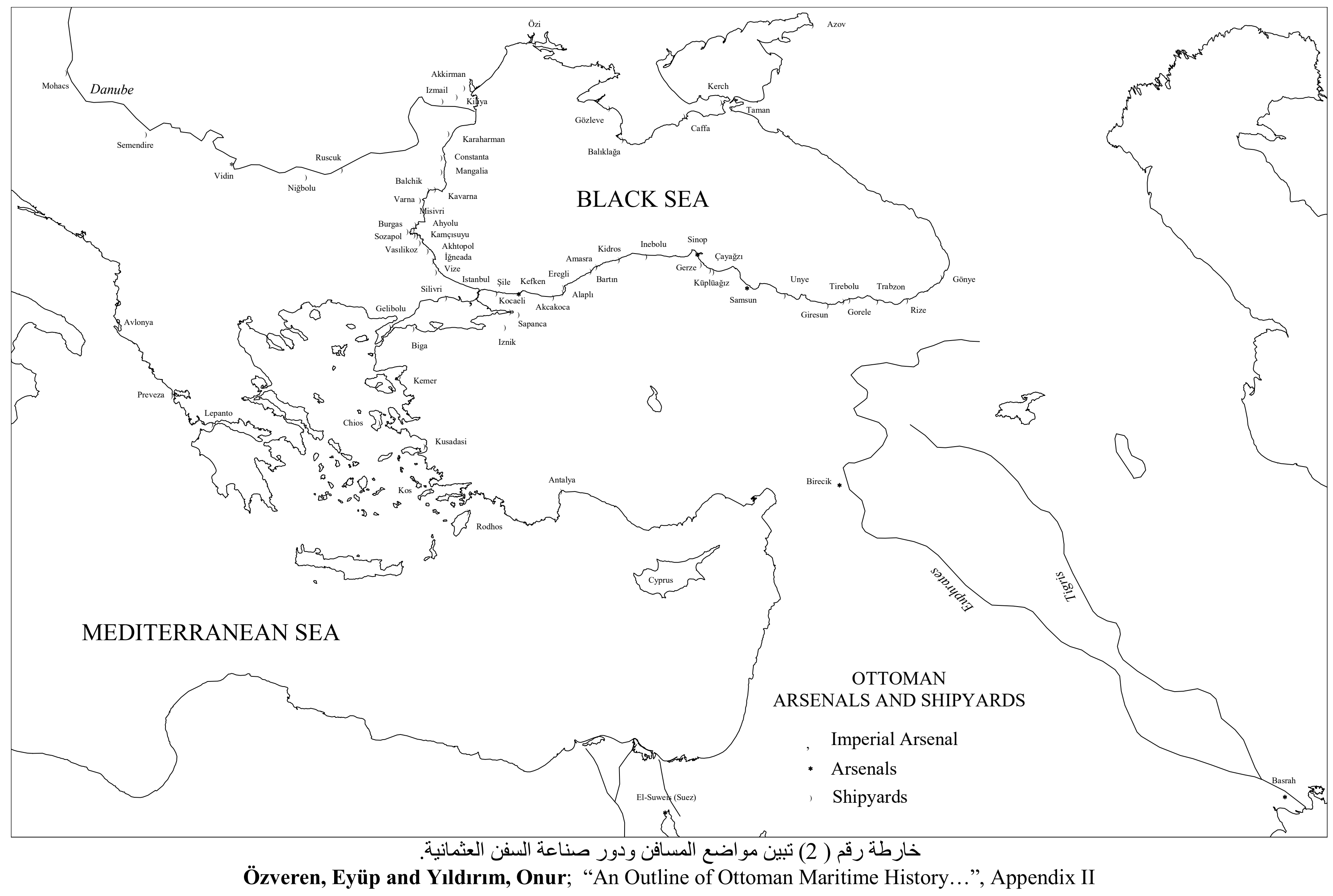
New York Times; Malta, Where Suleiman Laid Siege, By Judith Miller;. September 28, 1986.

المـــــــــلاحق



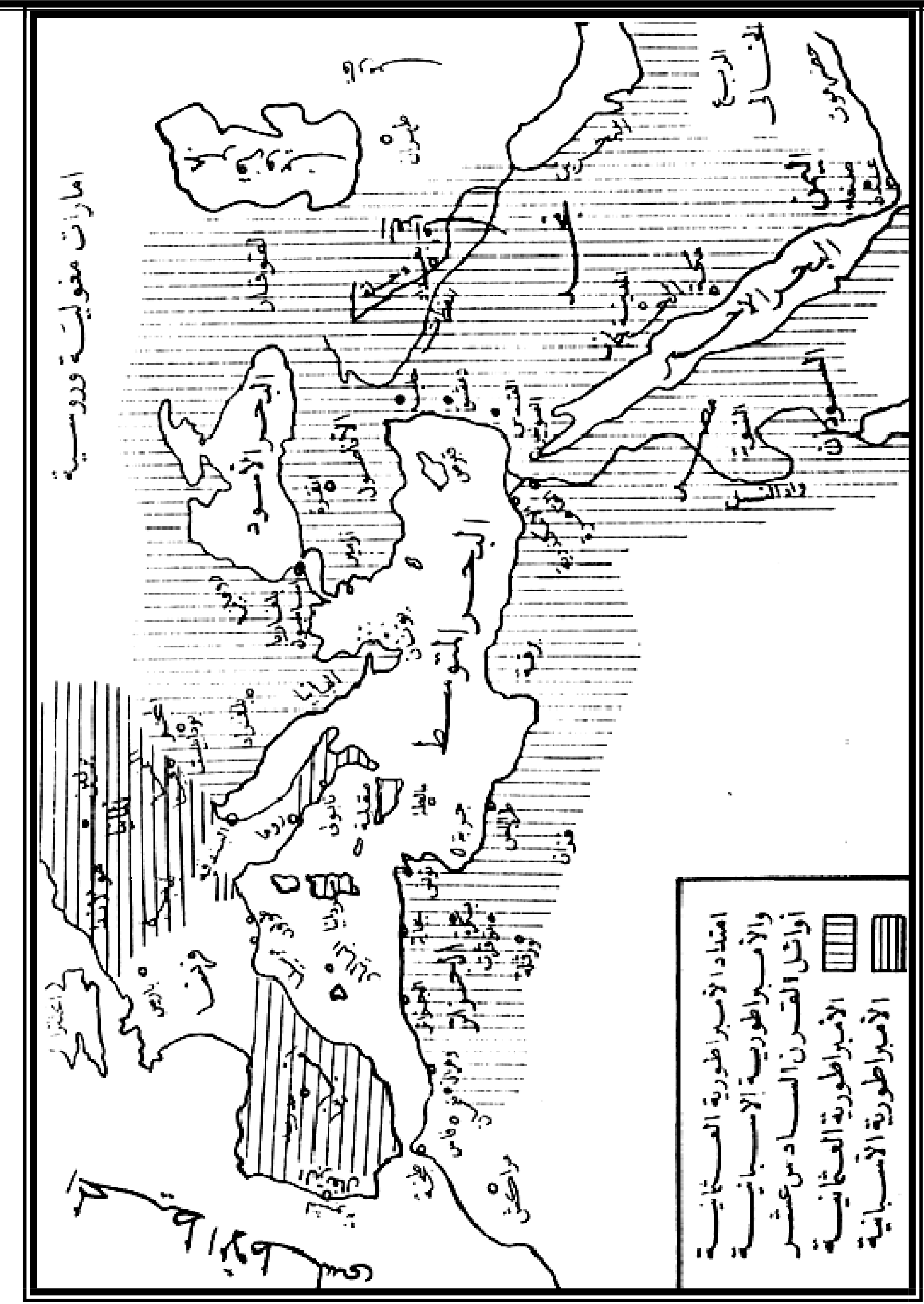
خارطة رقم (1) تبين المصادر الرئيسة لبناء السفن العثمانية وتجهيزها بالأشرعة.

Özveren, Eyüp and Yıldırım, Onur; "An Outline of Ottoman Maritime History…" , Appendix I.



خارطة رقم (2) تبين مواضع المسافن ودور صناعة السفن العثمانية.

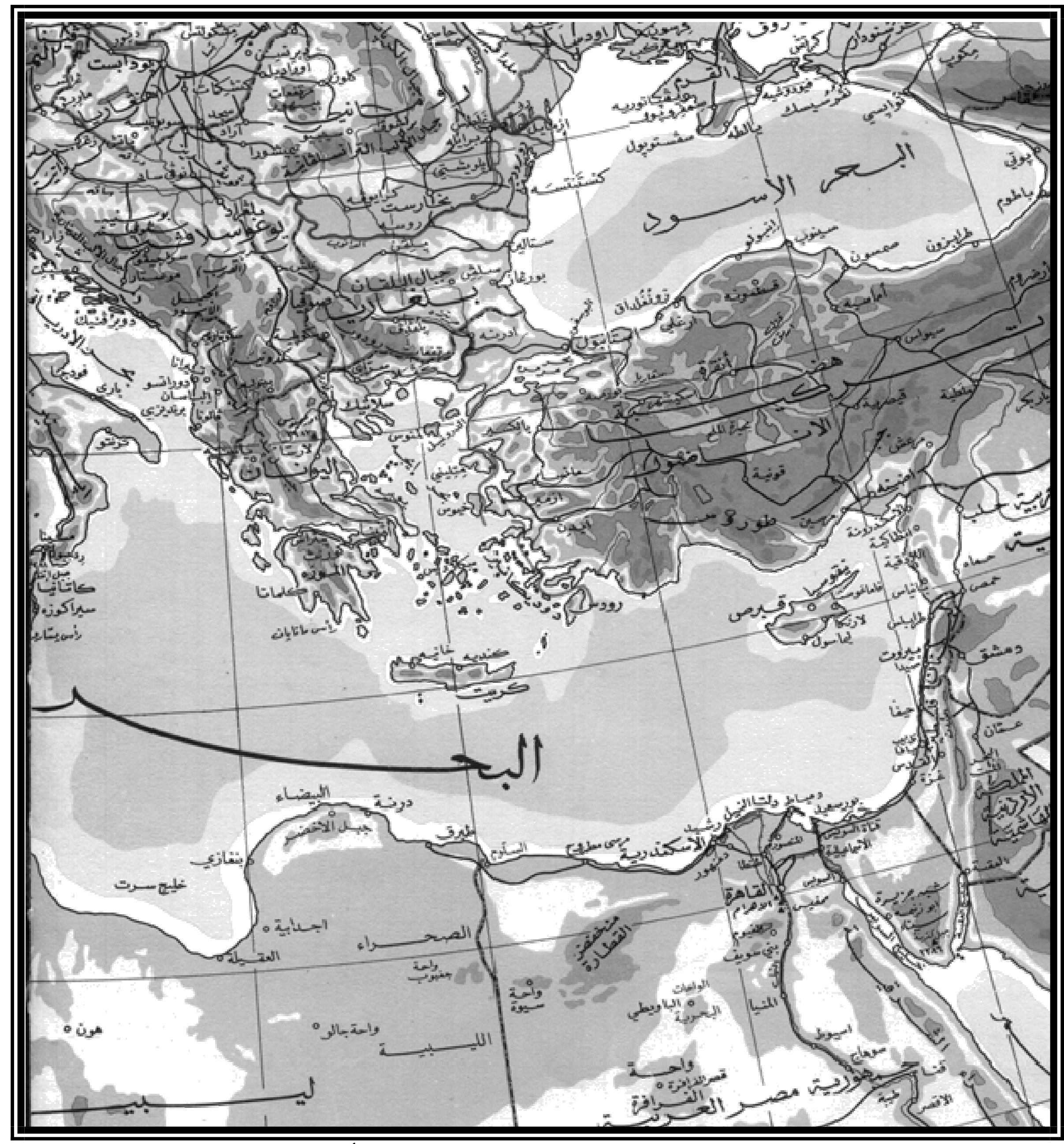
Özveren, Eyüp and Yıldırım, Onur; "An Outline of Ottoman Maritime History…", Appendix II



خارطة (3) تبين إمتداد الإمبراطوريتين العثمانية والإسبانية[1]

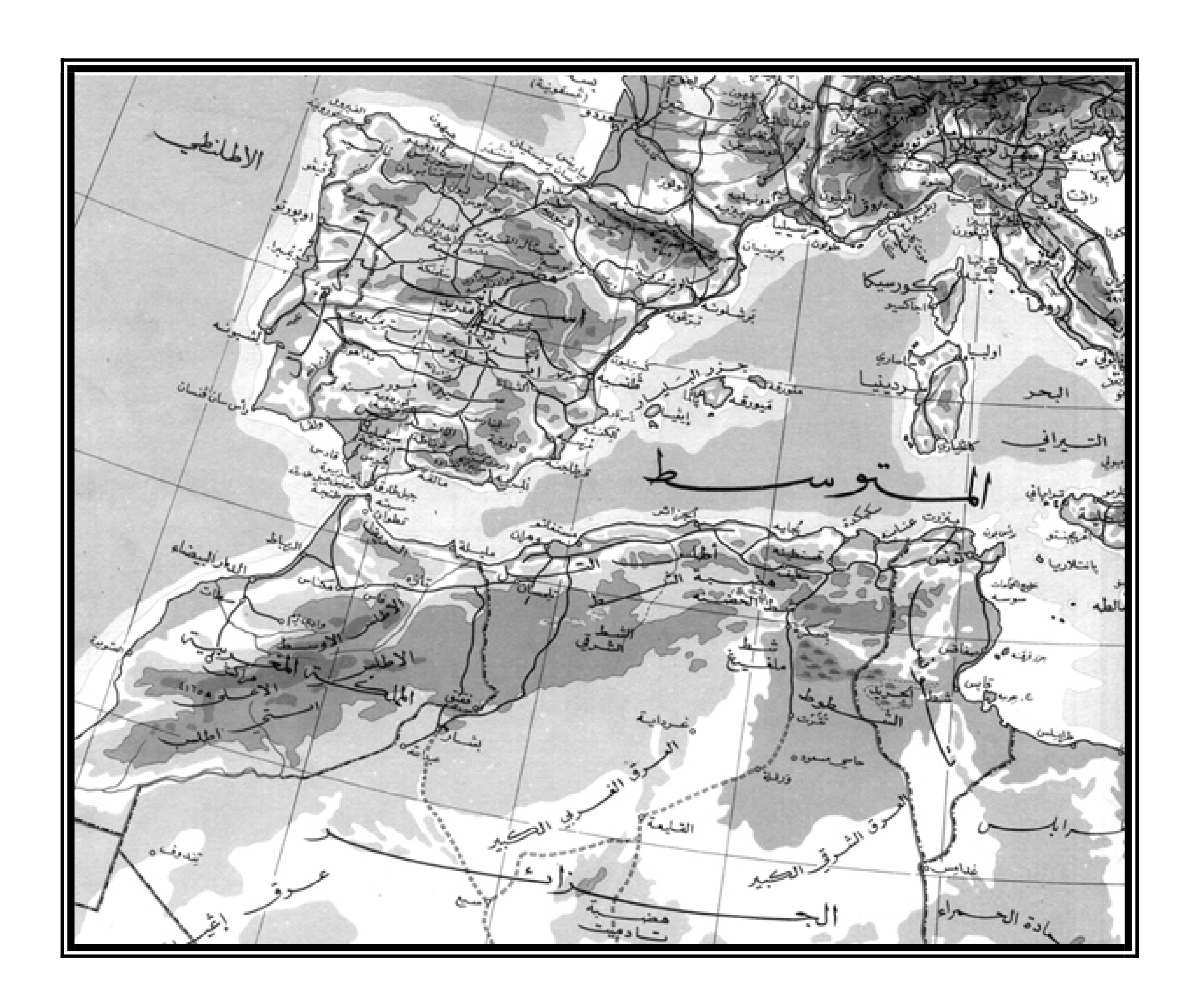
---

(1) أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة...، ص 195.



خارطة (**4**) الجزء الشرقي من البحر المتوسط[1]

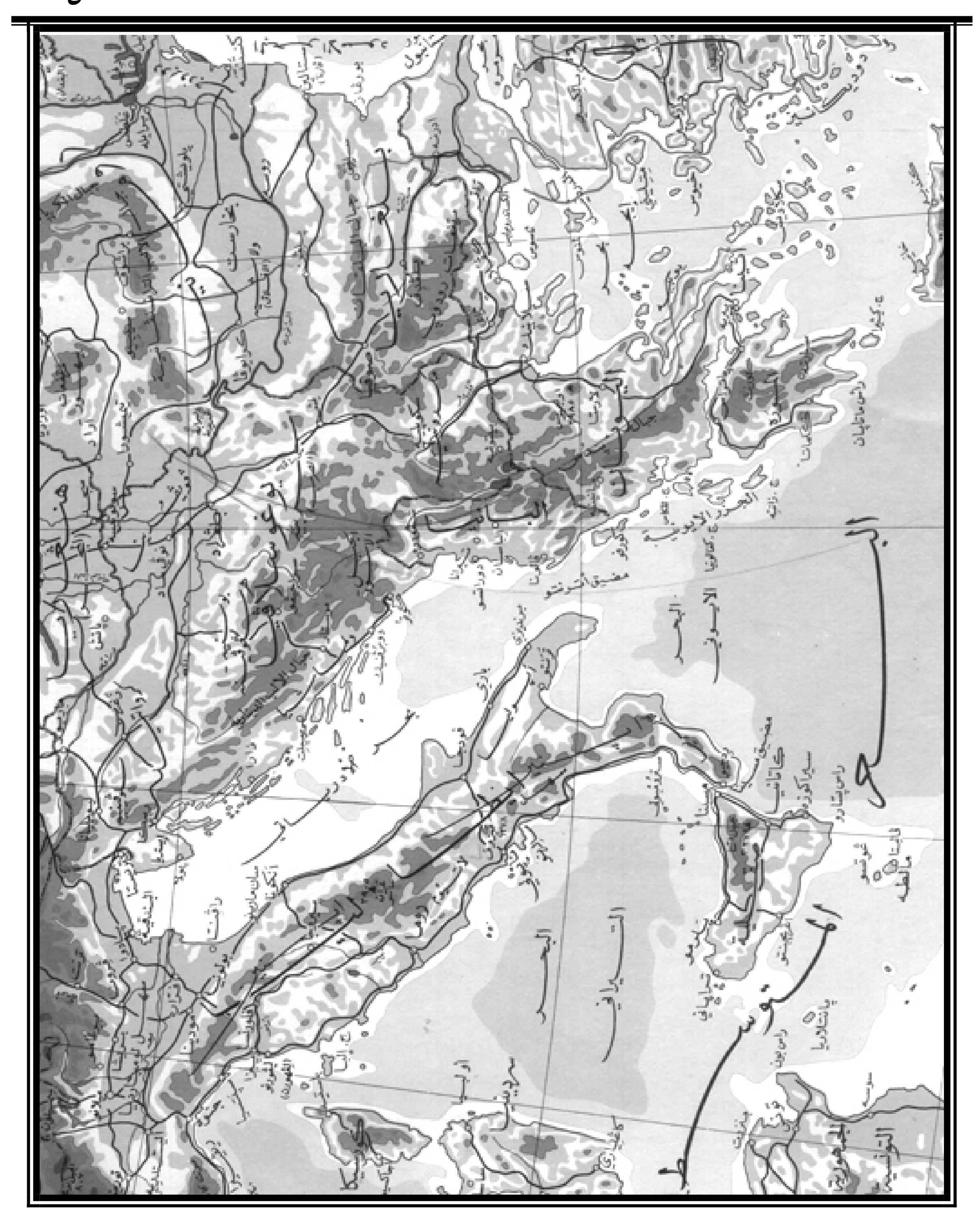
(1) نقولا زيادة (وآخرون)؛ أطلس العالم، بيروت، 1986، ص 56.



خارطة (5) الجزء الغربي من البحر المتوسط[1]

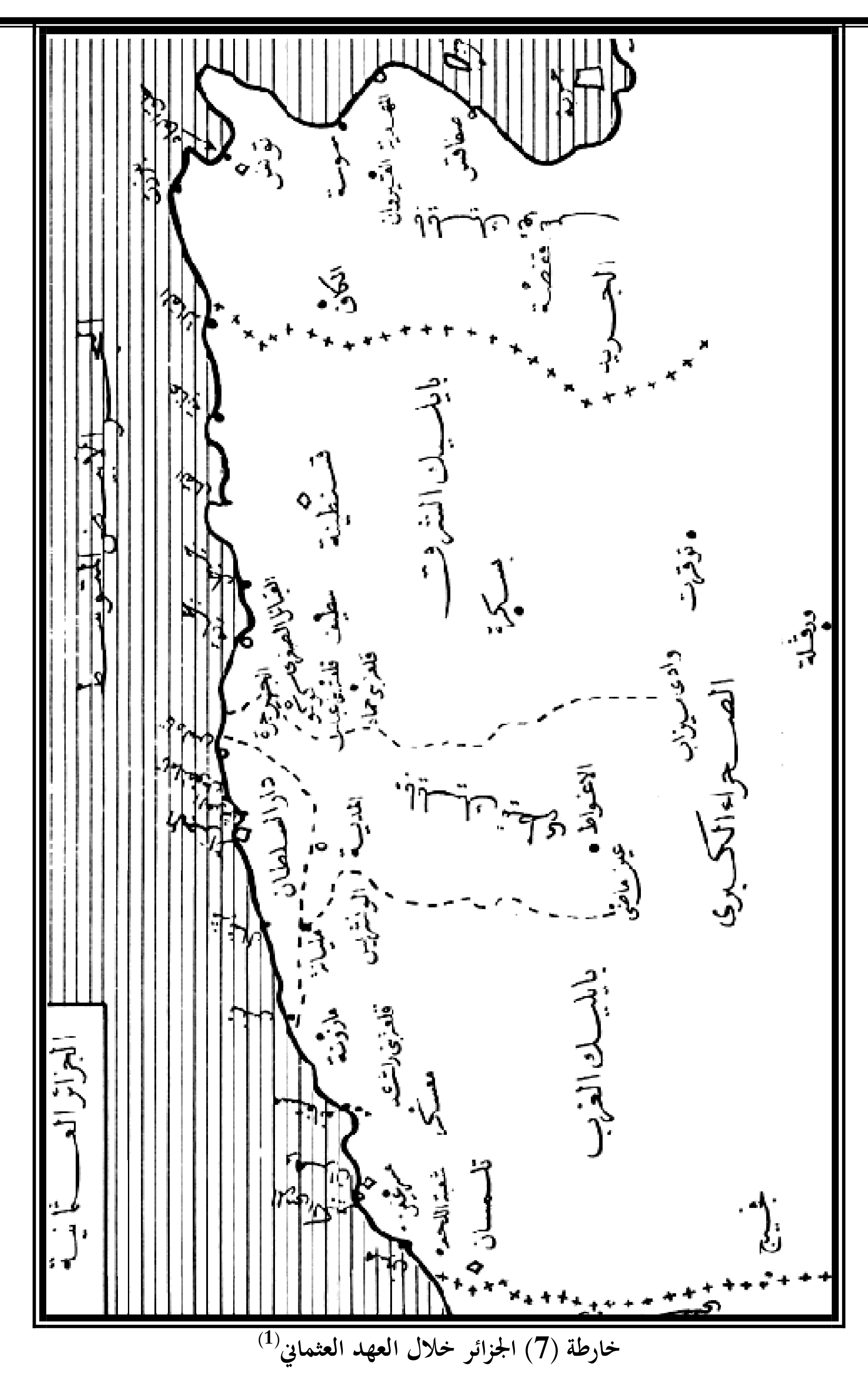
---

(1) نقولا زيادة وآخرون، المصدر السابق، ص 57.



خارطة (6) سواحل اليونان وايطاليا[1]

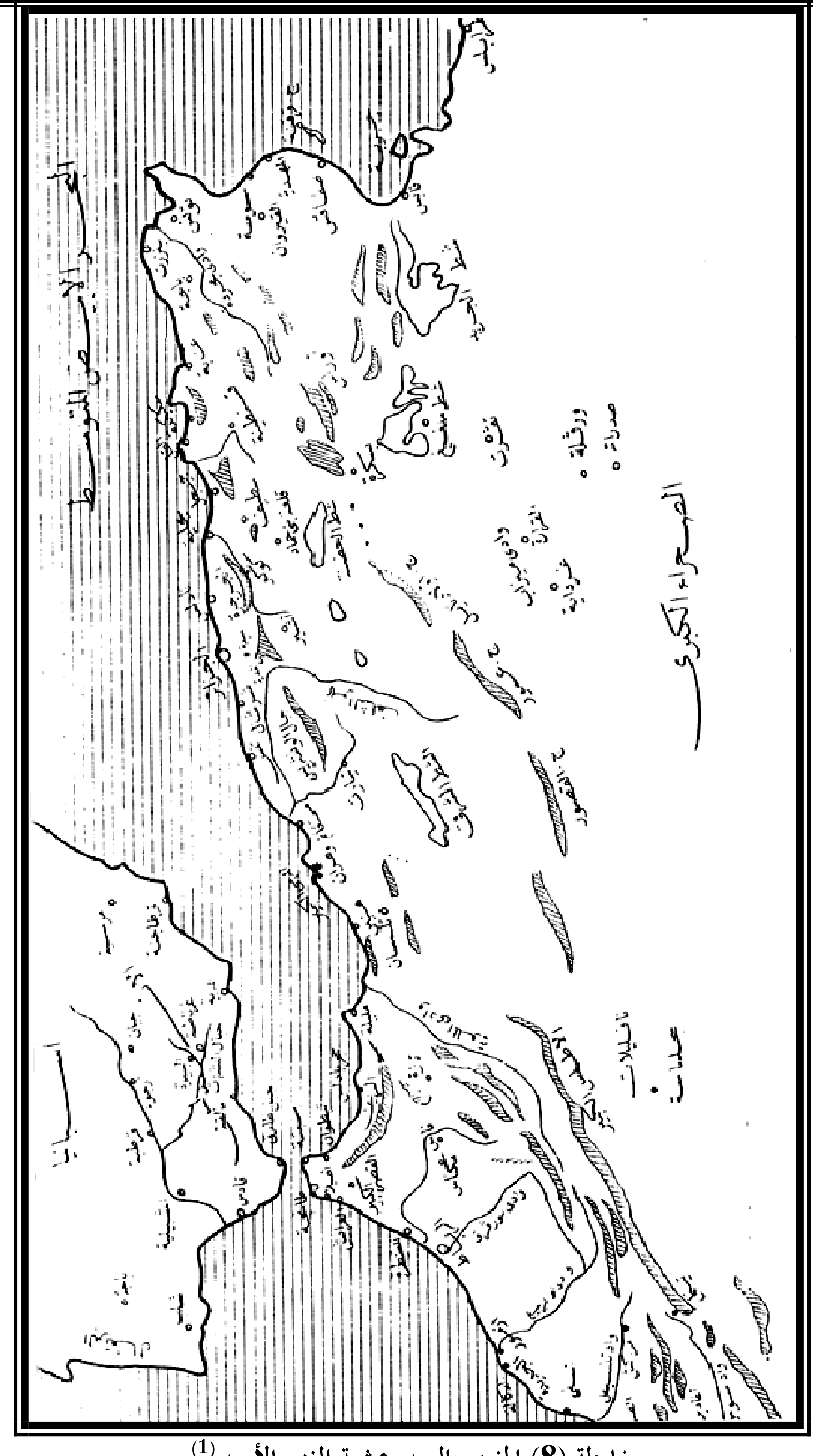
(1) نقولا زيادة وآخرون، المصدر السابق، ص 79.



خارطة (7) الجزائر خلال العهد العثماني[1]

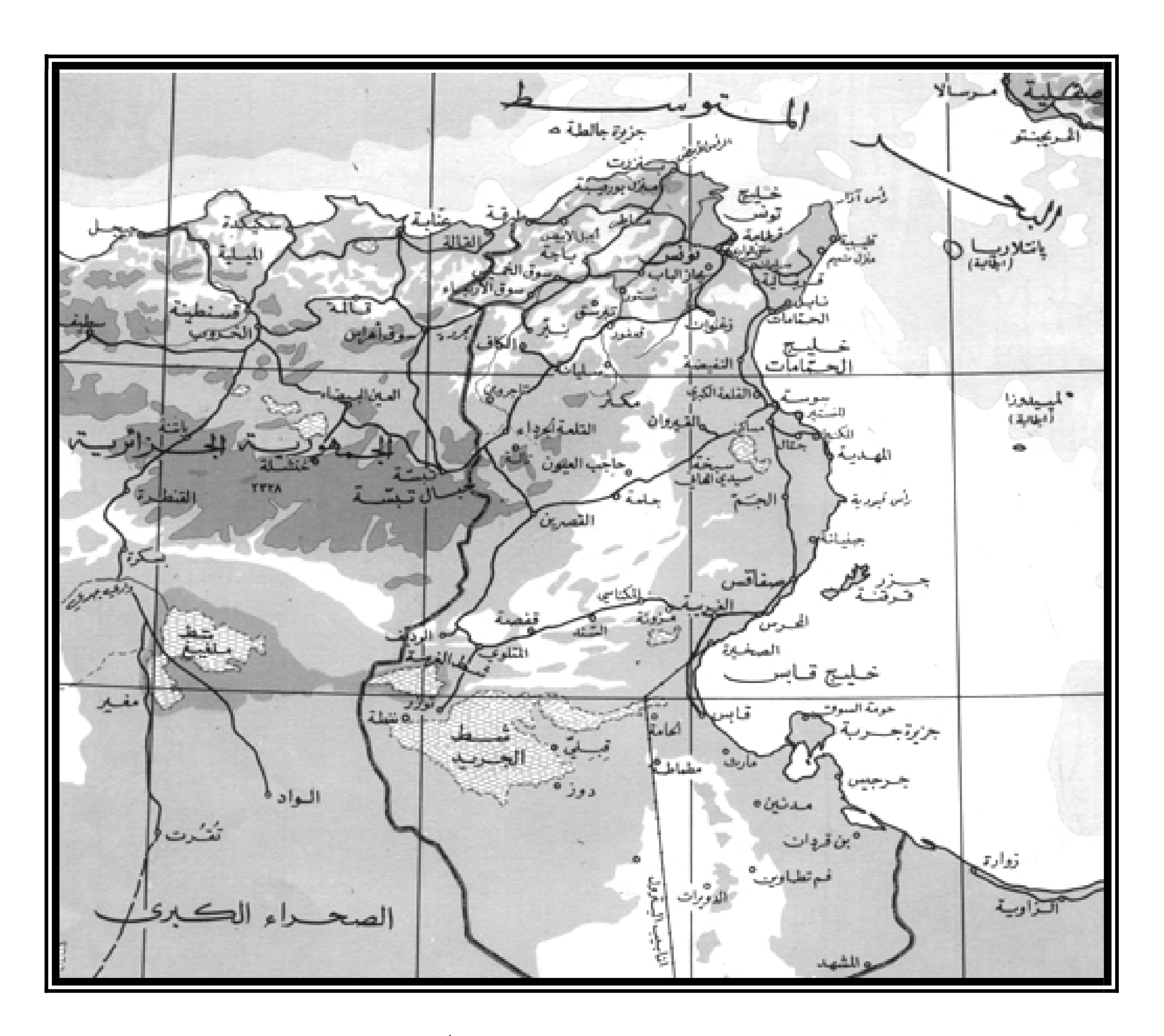
---

(1) المدني، المصدر السابق، ص 195.



خارطة (8) المغرب العربي عشية الغزو الأوربي[1]

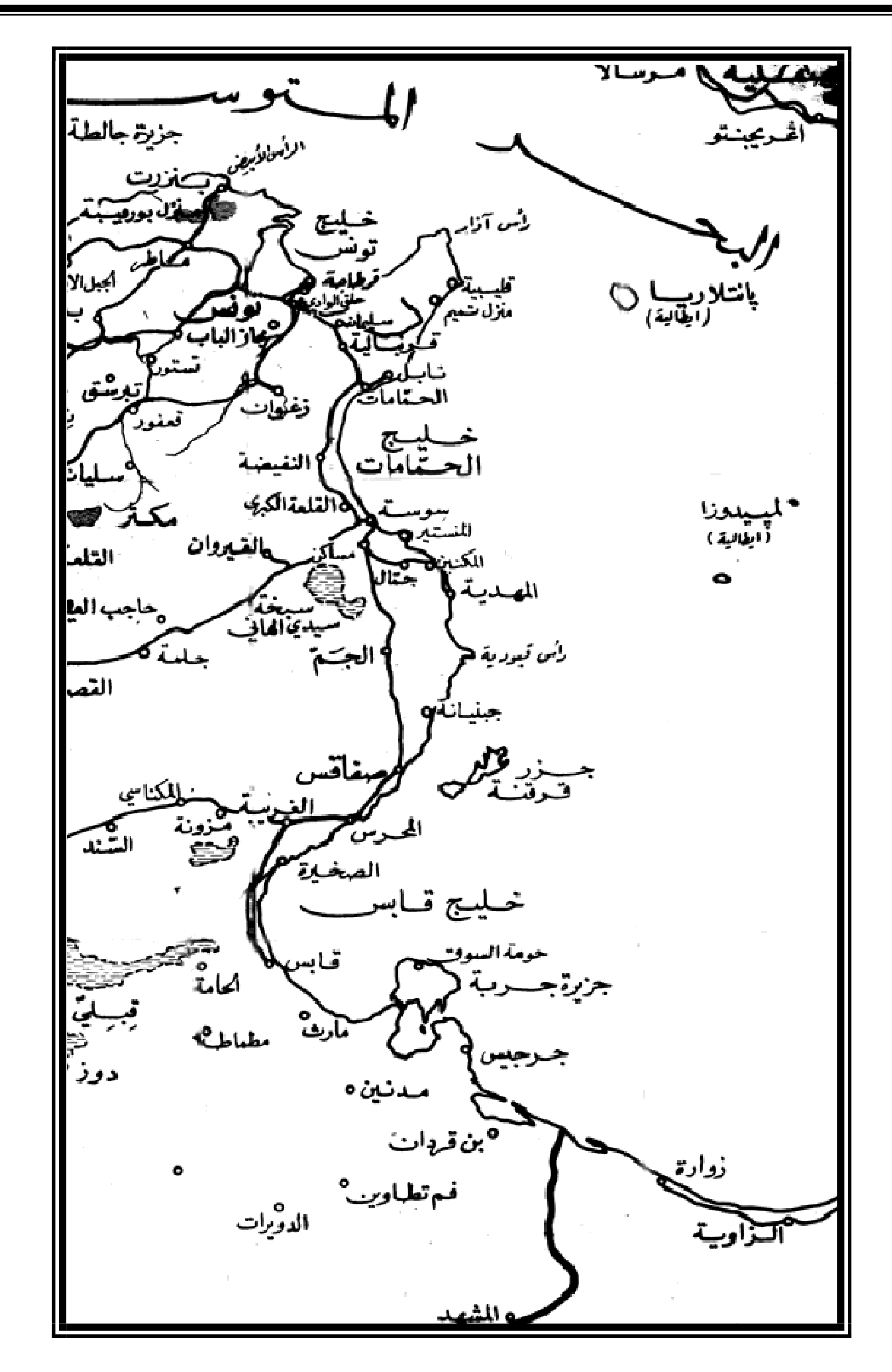
(1) المدني، المصدر السابق، ص 525.



خارطة (**9**) تونس وسواحلها[1]

---

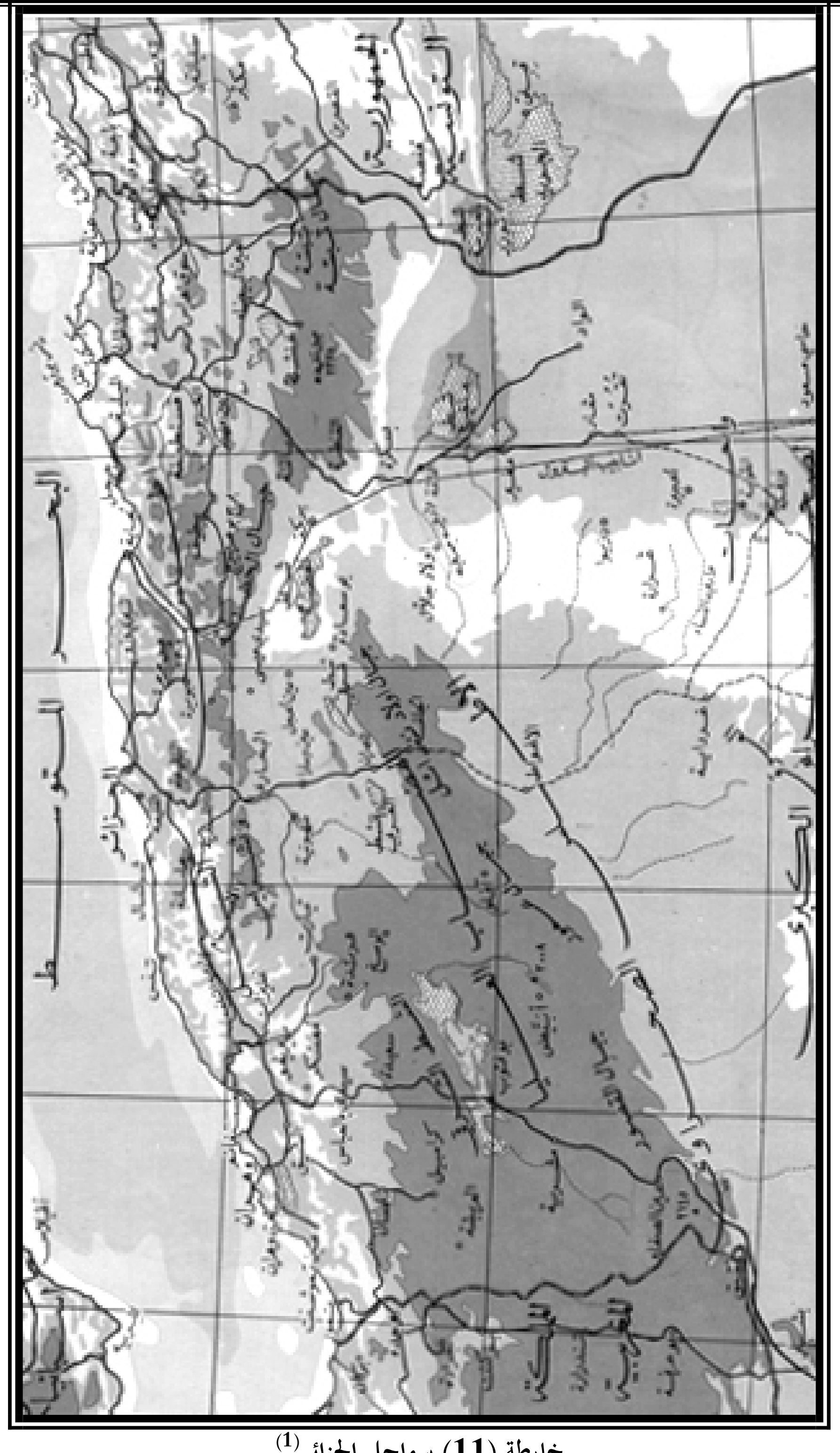
(1) زيادة وآخرون، المصدر السابق، ص 61.



خارطة (**10**) الجزء الشرقي لسواحل تونس وجزرها[1]

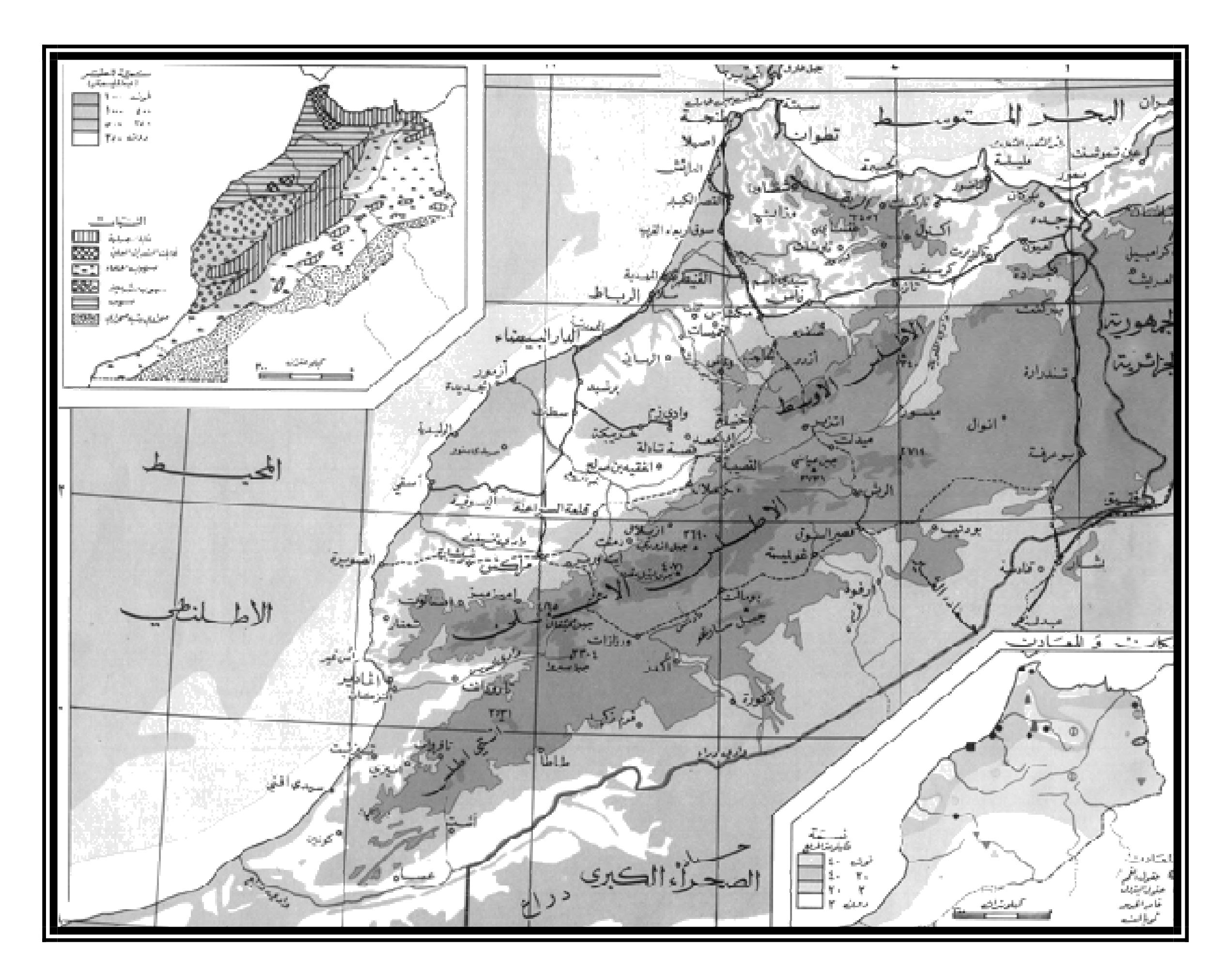
---

(1) زيادة وآخرون، المصدر السابق، ص 61.



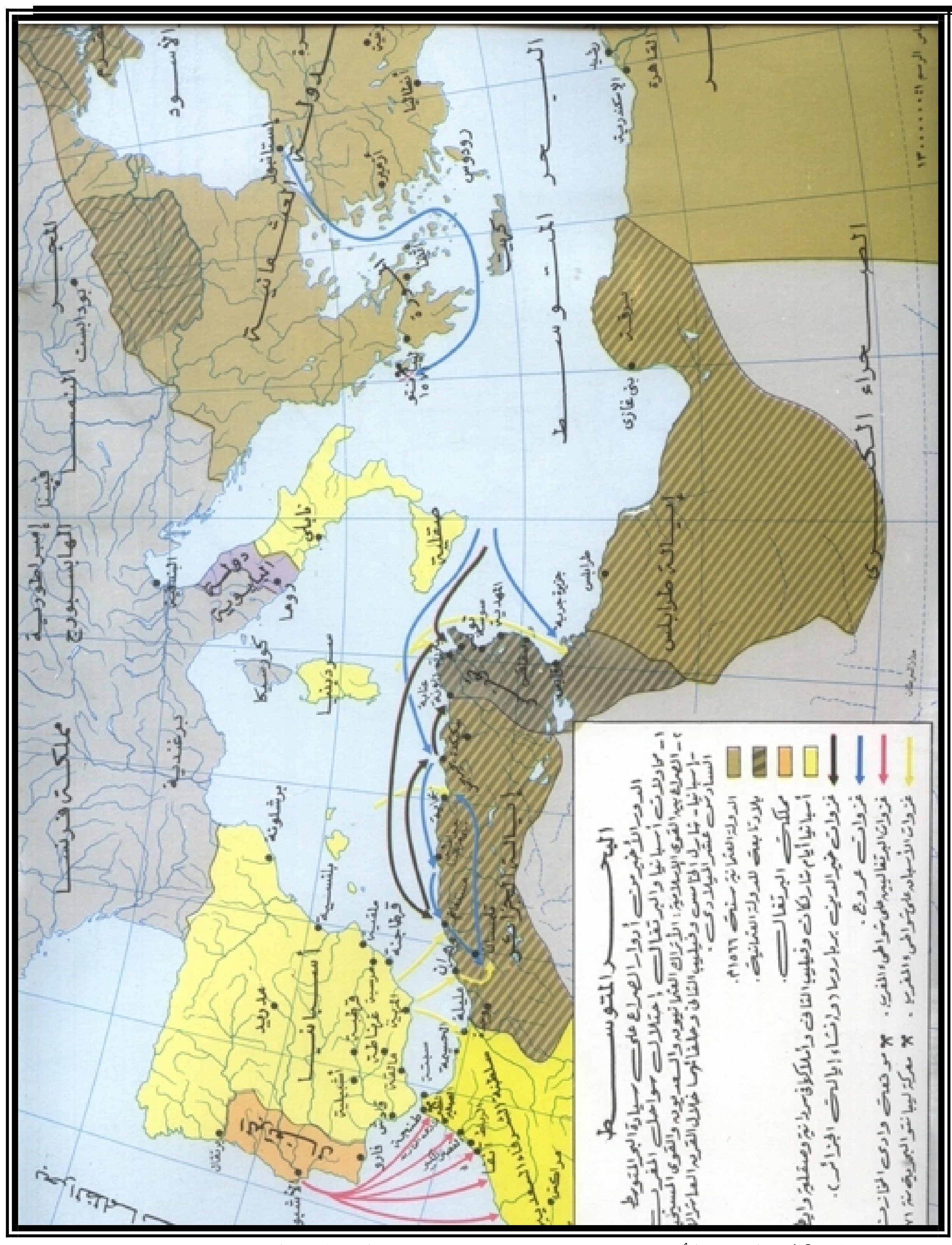
خارطة (11) سواحل الجزائر[1]

(1) زيادة وآخرون، المصدر السابق، ص 62.



خارطة (12) سواحل المغرب العربي[1]

(1) زيادة وآخرون، المصدر السابق، ص 63.

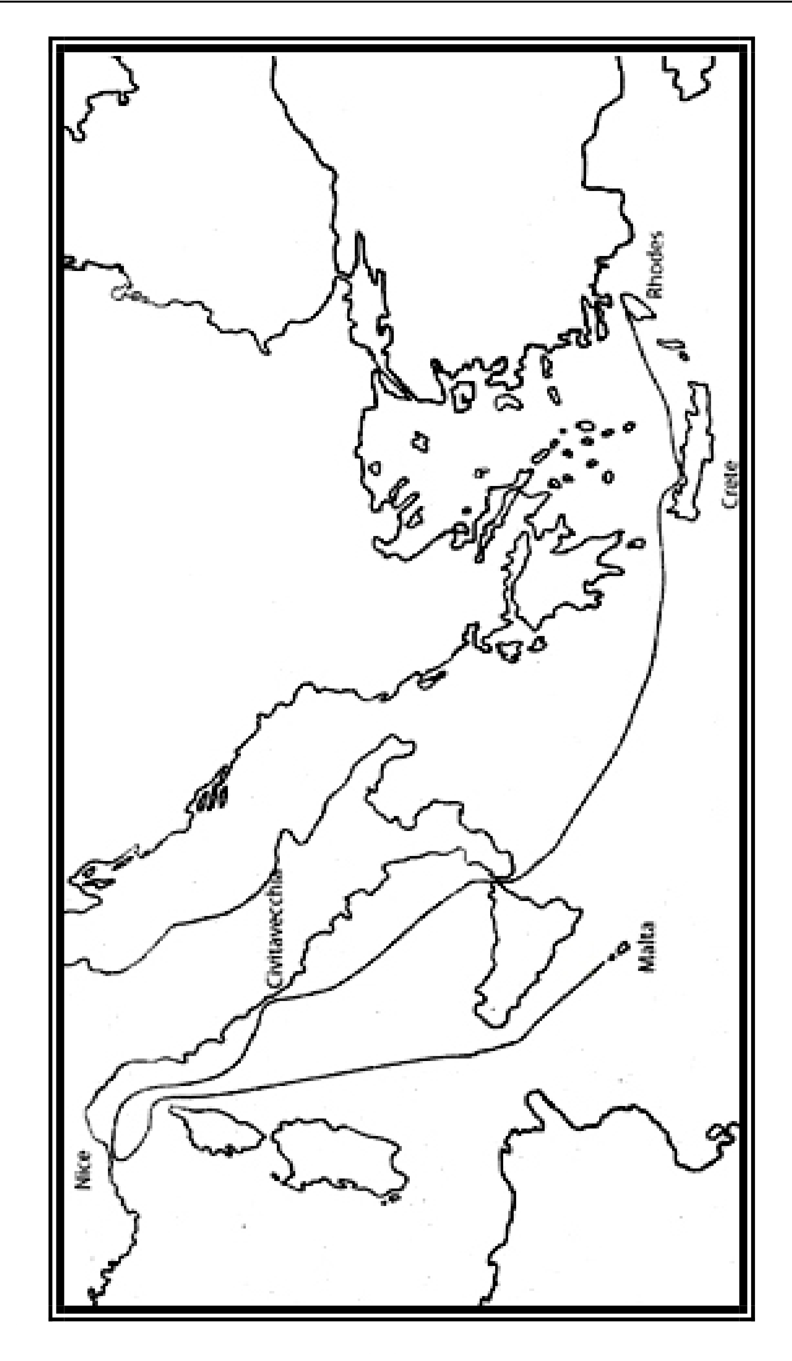


خارطة (13) المراحل المتأخرة من الصراع على السيادة في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر (حسين مؤنس؛ أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، 1987، ص 349).



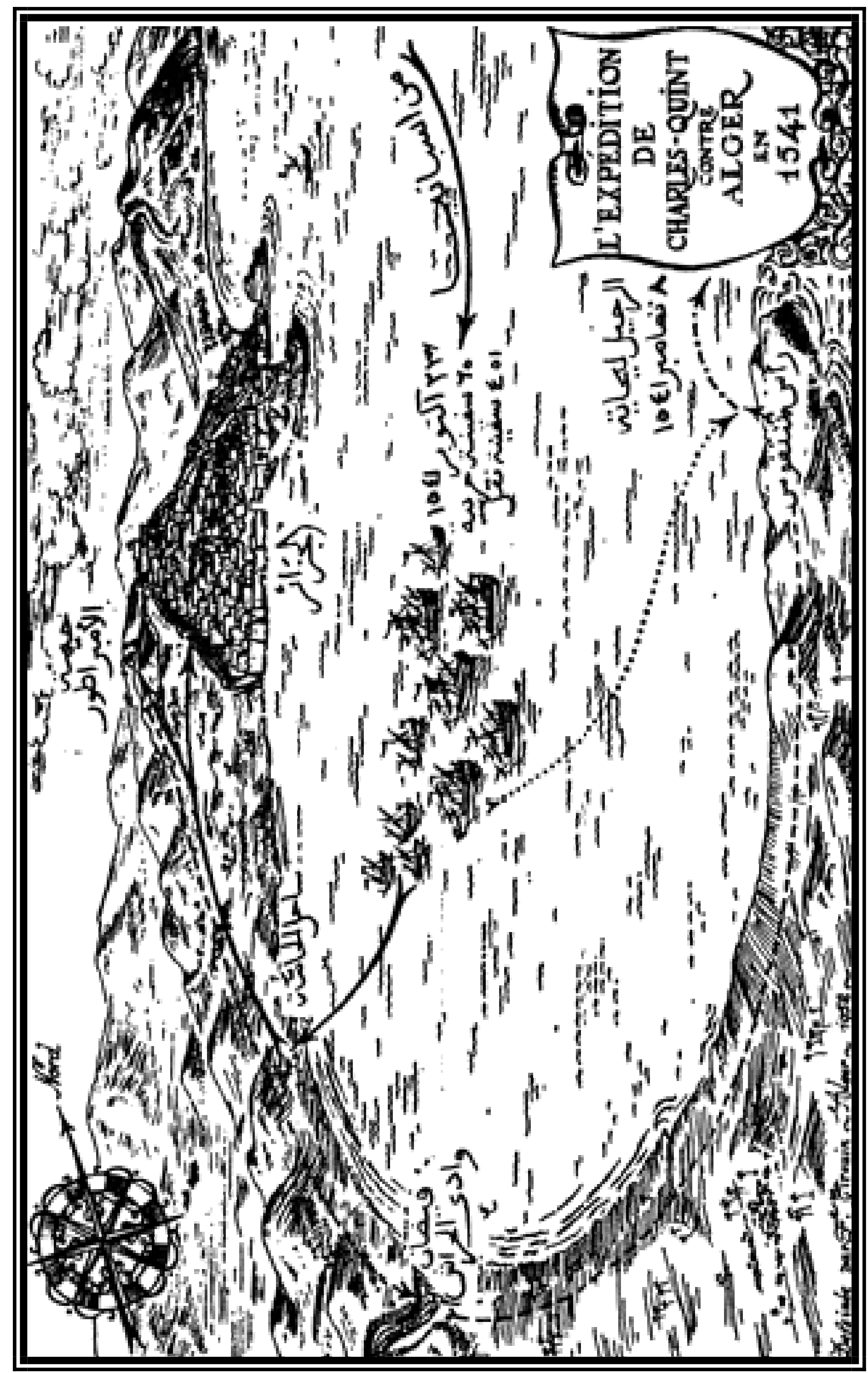
خارطة (14) النفوذ العثماني في البحر المتوسط وأوربا وشمالي أفريقيا

(مؤنس، المصدر السابق، ص 347)



خارطة (15) فرسان القديس يوحنا في مرحلة التيه (1522–1530)[1]

(1) Ayşe Devrim Ataus, Trade, Piracy, and Naval Warfare…, p. 148.



خارطة (16) مخطط يبين معركة الجزائر سنة 1541[1]

(1) المدني، المصدر السابق، ص 258.

وثيقة رقم (1)

رسالة القاضي الخطيب الفقيه الإمام وعموم تجار وشعب الجزائر حفظها الله[1]
(سنة 1519)
(النص الأصلي بالفرنسية)[2]

الدعاء بالنصر والخير لمقام السلطان العالي وتحقيق أمانيه كلها.

إن خدمكم في الجزائر يكتبون لمقامكم لإبلاغكم إنهم يعيشون أياما عصيبة، ولديهم الأدلة على تلك الأحداث الجِسام، ويؤكدون تمسكهم بجلالتكم، ويعبرون عن عميق إحترامهم. وهذه الرسالة لم تتضمن التفاصيل كلها وكل ما خفي من أحداث. وسنكون سعداء بأن يشملنا جلالتكم برعايته لنكون من ضمن رعاياه. ومهما يكن، فإن جلالتكم هو سندنا الأسمى. ولن نكتمك من الأمر شيئا، فإن دماءنا وإخلاصنا ستكون مدعاة لرضاك عنا أبدا. إننا طوع أمرك، وليس لدينا أحد غيرك نوليه إحترامنا، وسنزداد شرفا بعد أن نحظى برعاية جلالتكم.

إن أحداث الصراع الخطير الذي فرضه أعداء الله على المؤمنين الذين أحرزوا النصر ليطول شرحها. وهذا هو تسلسل وقائعها.

بعدما إجتاح الأعداءُ الإسبانُ بلادَ الأندلس إتجهوا نحو وهران، وإحتلوا قلعة المدينة، ومنها قاموا بمهاجمة (مؤخرة) البلاد بأكملها. وبعد إحتلال كل من بجاية وطرابلس ظلت مدينتنا الجزائر مركزا منعزلا وسط دائرة [الأعداء]. وسادنا القلق عندما أحاط بنا الأعداء من الجهات كلها. بعدها فوّضنا أمرنا إلى الله. إلا إن الأعداء إستمروا بمحاصرتنا لكي نكون تحت سيطرتهم وفي ظل حمايتهم. فإجتمعنا لتدارس الحال، وخرجنا بنتيجة مفادها إن الصعوبات والمشكلات قد تفاقمت. ومن أجل تجنب إراقة الدماء وتشتيت العوائل وخطفها، وإنقاذا لنسائنا وأولادنا وأموالنا، عقدنا إتفاقا مع المسيحيين، على أمل أن يحقق الله النصر لنا. وكان هدف الكفار بعد الإستيلاء على وهران وبجاية وطرابلس الإبحار نحونا بقصد إحتلالنا وتفريقنا وإخضاعنا.

في هذه المرحلة وصل الملك عُرُوج، ناصر الدين وحامي حمى المسلمين، المجاهد بإسم الله، يرافقه عدد معين من المحاربين إلى بلادنا، فحييناه تحية المنقذ، وأزال الخوف عنا بفضل الله. وقد وصل إلينا الملك عُرُوج من تونس مباشرة بهدف إستعادة بجاية من الكفرة وإعادتها مدينة مزدهرة إلى المسلمين. فما أن وصلوا إلى قلعة بجاية حتى تم تطويقها مع المجاهد الفاضل الفقيه أبي العباس أحمد بن القاضي، فدكوا قواعدها وهدموا أسوارها.

وما أن لاحظ الكفار إن قلعتهم قد تصدعت وأوشك هلاكهم بعدما إحتل المقاتلون المسلمون أحد أبراج القلعة،

---

(1) أرشيف طوب قابي رقم 6465. ومن المؤكد ان هذه الرسالة المعنونة الى الباب العالي باللغة العربية كما يدل الى ذلك عنوانها، وإن الترجمة التركية للرسالة التي وجهها للشعب الجزائري قد وُجدت في ملفات طوب قابي.

(2) Temimi, Abdeljelil; “Lettre de la Population Algeroise au Sultan Selim 1[er] en 1519”, *Revue d’ Histoire Maghrebine*, , pp. 98-101.

حتى هرب بعض الكفار. أما الآخرون فكان نصيبهم نار جهنم بإذن الله. لقد حاصر المسلمون الكفارَ ليل نهار بالوسائل الممكنة كافة، وتخلى عن عُرُوج بعض مرافقيه، فظلّ يقاتل مع نفر قليل من الرجال فقط. وكان هدف عُرُوج الوصول إلينا لإنقاذه، إلا إن الله تغمده برحمته بعد أن خرّ صريعا في تلمسان. عندها وصل إلينا أخو عُرُوج، المجاهد بإسم الله التقي خير الدين، (خير خلف لخير سلف لعُرُوج)، ليدافع عنا.

وقد حكمنا هذا الرجل بالعدل، وطبق الشريعة الإسلامية بدقة، وغالبا ما يذكر جلالتكم ببالغ الإعجاب والإحترام. وقد كرس خير الدين حياته كلها للجهاد، متمسكا بقوة بطاعة الله الذي نصره، ولم يكن يطمع بجاه أو سلطان. إن آماله كلها معقودة على جلالتكم، وسيكون سعيدا بأن يحظى بالمثول أمام عظمة سلطانكم. أما نحن فإن تعلقنا الشديد به لا رجعة عنه.

ليس ثمة من إختلاف بشأن الطريقة، ولاسيما تلك التي أثبت فيها قدرة وشجاعة عندما قادنا إلى الجهاد بإسم الله، بنيّة صادقة وقلب مطمئن، وكان معنا في السرّاء والضرّاء من أجل إعلاء كلمة الله. إن إيماننا مثل الشعلة الوضّاءة التي تؤدي إلى الصراط المستقيم.

بعد تقديم هذا الوصف، يود خدمكم إبلاغ جلالتكم إن رئيسنا خير الدين ينوي زيارة جلالتكم. إلا إن رؤساء مدينة الجزائر توسلوا إليه خشية أن يواجهوا بمفردهم الكفار الساعين إلى الحرب.

إننا في وضع مأساوي ضعيف وبائس. ولهذا السبب فإننا نبعث لجلالتكم الفقيه العالم الشيخ أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد.

إن رئيسنا، ونحن أنفسنا، خدمٌ لجلالتكم، وكذا الحال فيما يخص سكان منطقة بجاية، شرقها وغربها، نضعها جميعا تحت خدمتكم.

إن العالم أبا العباس، وهذه الرسالة، يوضحان الحال بكل ما جرى في هذه البلاد. والسلام ختام.

بداية ذي القعدة، سنة **925** (هجرية).

(نص الرسالة باللغة التركية القديمة في الصفحة الآتية)

مترجم مكتوب قاضي وخطيب وفقها وايمه وتجار وامنا وكافه رعايا وعامه براياي مدينه جزاير

مقام عالي سلطانيه دعاء سعد ونصركه اقصاي آماله ايرشدرد ايصال الخلقدن صكره مدينه جزايرده اولن بنده لرك
بازوهب اعلام ايلدكلري بودركه مقام عظيملريكوزه بيزوم باغزده برمرتبده تعظيم واردركه ايام اوزدن وجوهنه ولزومنه معترفلرز
وباب مرفعكوزه بروجهله اجلال ايدرزكه مكتوبات اوزكه مكتومنه وافي دكلدر بيز سادتيا پامكوزله فرحلرز ودمام عنوجنيكوزه
ارتسامله مستبشرلرز وبيزه بروجهله اعتماد ايدرزكه باطني وظاهري خالص واوايلي واولقري صحيحتدر امركوزي سامعلرز
بوسنه لرباشنده جناب معظمكوزه غايت تعظيمدن غيري نسنه يوقدر ومقام اشرفكوزك مترقي ومنهي طلب ايدرز بوسنه لر ه
اعداي دينه حادث اولن اهوال الله واالله دوستلري اولن مؤمنلرك نصري وعدو الله اولن كافرلرك هزيمتي ايله اخبار ضوابطه ايدر
وحادثه دخي جليله در اما محصولي بودركه طايفه طاغيه اندلس وكنه مستولي اولدقده وهركز قلعه سنه استقال ايلدي
سايربلاده تعدي ايلمك ايچون پس كلوب بجايه ايله طرابلسي الدقدن صكره كه بيزوم شهرمز اولن جزاير باقي قالدي وسط دايره ده
قلن نقطه كبي غريب وحاير قالدق هرجانبدن اهل كفر بيزه مضايقه ويردي بيزهمان حبل متين دينه تشبث ايدوب اللهه
صغندق پس طايفه طاغيه بيزي طلب ايلديكه تحت ذمتنه ادخال ايليه بيز داخي نظر ايدوب كوردككه محنت وشدايد مشتد
اولدي بالضروره حق تعالي اهل تثليث اوزرنه نصرت ميسر ايلنجه نفسلرمز وحرملرمز واولادمز واموالمزي قورتارمق ايچون
صلح ايلدك وسبي وتفريق خوفندن مدارا ايلدك انا لله وانا اليه راجعون بومضايقه دن صكره كه كفار كلوب وهرا ايچي
وبجايه وطرابلسي الدي قصد ايلديكه كيلريله بيزه دخي مستولي اوله اسير ايليه وبربرمزدن تفريق ايده ناكاه نامهرد بن
وحامي مسلمين ومجاهد في سبيل الله اولن اوروج بك برمقدار غازيلر ايله چيقه كلدي بيز داخي اني قبول واكرامله استقبال ايلدك
زيرا خوفمزدن الله فضليله بيزي خلاص ايتدي مشار اليه اوروج بك بيزه كلمزدن اول تونس شهرندن بجايه حصارنه كلش ايدي
اعداي دينه آلوب اخوان مسلمين ايچون تعمير ايلمك قصدنه پس قلعه مزبوره مجاهد صالح فقيه ابو العباس احمد بن قاضي ايله محاصره
ايدوب اركاننه تزلزل ويروب بنيانني هدم ايليوب قلعه يه كيردكلرنده كافرلر بنيه لرنك اختلالني ومنيعلرنك حلولني مشاهده
ايلديلر قلعه مزبوره نك ارباسنده مسلمانلر هجوم ايدوب عظيم البنا برترجين الديلر عنوه قلعه يه داخل اولديلر كافرلرك اولقلعه ده
بعضي قلعه ده وبعضيكه روحلري ناره اولاشمديني حق تعالي معجل ايلش ايدي قتل اولندي والحاصل مسلمانلر اول كافرلر ايله انواع محاربه
ومقاتله ايله آناء الليل والنهار اثرا هزدن غروب دكين جنكلر ايلديلر تاكه مشار اليه اوروج بكوك اصحابندن برجماعت مفارقت ايلديلر
مشار اليه جماعه قليله ايله اول كافرلر آراسنده قلدي مشار اليه بيزه كلوب ملاقي اولمغه واعدا ودينندن بيزي خلاص قلمغه سبب
بواولمش ايدي پس مشار اليه اوروج بك تلمسان شهري محاصره سنده رحمه الله شهيد اولدقده قرنداشي مجاهد في سبيل الله ابو التقي
خير الدين خير خلف اولوب بيزي حامي اولدي عدل تامندن وشرع شريف نبويه اتباعندن غيري نسنه سي كورمدك منكوب
حالا مقام اعلاكوزي غايت تعظيمله تعظيم وامر جهاده استقلاله ورب العبادك رضاسنه مالني ونفسني بذل ايلمكده
اولوب اعلاء كلمة اللهه حريص اولمغين وجمله آمالي سلطنت عليه كوزه منوط وكمال احترامكوزه اوزره مبسوط اولدقي اجلدن
بيزوم داخي محبتمز اوكا حقتده خالص وثابت اولمشدر نيجه محبت ايليالوم كه بيزوملة بيله اتلث بيلده ساعدر اقدام اوزره
كلوب بيزوملة بيله جهاد في سبيل اللهه نيت خالص وقلب صادقله توجه ايلشدر وشدت ورخاده حق تعاليك امري
اوزرنه قايم اولمغه اتفاق ايدوبدرد عقيده ايمانيه ده كوكب وهاج ودليل واضح المنهاج بكدر ولحالة هذه بوبنده لرك
مقام عاليه اعلام ايلدكلري اولدركه منكور امير خير الدين جانب اعلاكوزه كتمكه عزيمت ايلمش ايدي بلده مزبوره نك عرفاسي
تضرع ايدوب قوميوبرمديلر كفره طاغيه دن خوف ايلدكوزدن اوترو زيرا نصاري بيزه زياده ايرامز قصدده در بيز خود غايت
منعف وضلالكتدهيز بوسببدن اوترو باب اعلاكوزه فقيه عالم مدرس سيدي ابي العباس احمد بن علي بن احمد ارسال ايلدي بيز
منكوره امير حوز له جناب اعلاكوزك خدمتكارلريوز واقليم بجايه وغرب وشرق اهاليسي مقام اعلاكوزك خدمتكارلريدر وساير
بوبلاده واقع اولن اموري ايشبو مكتوبلر وارد قدم مقام اعلاكوزه مزبور اعلام ايليه كركدر والسلام عليكم ورحمة الله
وبركاته وحرر في اوايل شهر ذي القعده من عام خمسة وعشرين وتسعماية

ذكر اولنان بلده جزايرده جامع اعظمده منزوي ومعتكف اولن عبيد الله وخويدم فقراء اهل السنة محمد
بن منصور بن علي الحلبي داخي مكتوب كوندرب ايرهني عزيمتده ذكر اولنان قوم ضعفا ايله منكور خير الدين كلوب
ايرنجه هلاككه قريب اولمشلرايدي ومرة بعد اخرى فرنكلره اوغرايوب محتاج اولدقلرني وحاليا دعا
دوام دولت پادشاهيه مداومت ايلدكلرني اعلام ايلمش

وثيقة رقم (2)

رسالة الهدنة بين السلطان مراد الثالث والإمبراطور فيليب الثاني سنة 1580 [1]

قدّم سفيركم الموجود حاليا في بلاطنا الهمايوني التماسا لعرش سموّنا ومقام عدلنا الملكي. إن عتبة مركز عظمتنا المفخّمة، وبلاطنا الهمايوني ذا السلطة الكليّة هو مَقْدَسُ السلاطين الآمرين ومعقل حكام العصر.

لقد وردنا إلتماس صداقة وإخلاص من جنابكم. ولغرض أمن الدولة وسلامتها وفيض الرعية وهدوئهم، فإنكم رغبتم بإقامة صداقة مع مقام عظمتنا الجليلة. ولغرض ترتيب بناءٍ للسلام ووضع شروطٍ لمعاهدة، فقد صدرت معاهدة عدالتنا في هذه الشؤون. أيضا، بخصوص أيّ مما كان قد كُتب ووُصف بالتفصيل، فإننا أبلغنا وضمّنا معرفتنا السامية وسيادتنا التي تغطي العالم.

والآن، فأن عرشنا، الذي يطوّق العالم، مفتوح وغير مغلق لمصادقة أي عدو. وإن أولئك الذين يؤيدون إقامة وتطوير صداقة أكثر إخلاصا، والذين يعرضون المأوى والإخلاص سوف لن يُعاقوا أو يُردوا بأية حال من الأحوال. ودائما، فإن مقاصدهم السليمة سوف تلاقي إهتمام [؟[2]]الفضائل العالية المقام لحكامنا.

وبما إن أكثر [مقاصد] سلاطيننا المتعبدين هي أن يكونوا [أصدقاء] لأصدقائكم وأعداء لأعدائكم، فإن أملكم قد لاقى قبول معالينا، وتقرر إرسال رسالة معالينا المُعلّمة بعلامة[3] سموّنا المجيدة الملوكية.

من الضروري... عند وصول [هذه الرسالة]، القول، بعد هذا الإلتماس المُقدّم الى مقام سعادتنا على أساس الإخلاص والصراحة، أن لا يتسبب فوضويوكم وقراصنتكم بإلحاق السوء والأذى لرعية أراضينا المحمية في البر والبحر، وأن يتم إيقافهم والسيطرة عليهم.

على أساس الإخلاص والتكامل عليك أن تكون وفيا مخلصا وثابتا وعليك أن تحترم شروط الهدنة. ومن جانبي أيضا سوف لن يحدث ما يتعارض مع هذه الهدنة كليا. وفيما إذا كان قادتنا البحريون في البحر، أو [قراصنتنا]، أو قادتنا المتواجدون على حدود أراضينا المحمية، فإن أوامرنا المطاعة عالميا سوف تُرسل، وإن الضرر والمضايقات سوف لن تصل الى بلدكم أو دولتكم أو أصحاب الإعمال الذين يأتون من تلك المنطقة من جانب أي احد.

وفي عصر سعادتنا ومقام سعادتكم الملوكي تقرر أن يعمّ الإزدهار والرخاء. وبالحالة نفسها، إذا كان من أهدافكم بناء السلام والرخاء وإنشاء معاهدة وسلام، أرسل من دون تأخير رجلا إلى عرشنا الموفور وأبلغ عن وضعك. وطبقا لذلك، سوف يُؤمر بصدور عهدنا الهمايوني[4].

---

(3) Hess, "The Battle of Lepanto…", p. 69.

(2) علامة الإستفهام موجودة بالنص الأصلي.

(3) المونوغرام: علامة ترمز الى شخص ما، وتتكون من أحرف اسمه الأولى مرقومة على نحو متشابك.

(4) مهمي دفتري، رقم 43177: 322، الحادي عشر من آب 1580. وهذه النسخة هي نسخة فريدة من الهدنة الهمايونية مع إسبانيا، وقد كتبت لتقرأ علنا. ترجمها أندرو هِس من التركية

أبرز الشخصيات خلال المرحلة

السلاطين العثمانيون

السلطان	مدة حكمه	مدة حياته
محمد الفاتح (الثاني)	1481-1451 /1446-1444	1481-1432
بايزيد الثاني	1512 -1481	1512-1447
سليم الأول	1520 -1512	1520-1456
سليمان القانوني	1566 -1520	1565 -1494
سليم الثاني	1574 -1566	1574 -1524
مراد الثالث	1595 -1574	1595 -1546

ملوك إسبانيا وإمبراطورية آل هابسبرك

الملك	مدة حكمه	مدة حياته
فرديناند الثاني	1516 -1479	1516 -1452
ماكسميليان الثاني	1547 -1503	1576 -1527
شارل الخامس	1556 -1519	1558 -1500
فيليب الثاني	1598 -1556	1598 -1527

ملوك فرنسا

الملك	مدة حكمه	مدة حياته
شارل الثامن	1498 -1483	1498 -1470
لويس الثاني عشر	1515 -1498	1515 -1462
فرانسوا الأول	1547 -1515	1515 -1594
هنري الثاني	1559 -1547	1559 -1519
فرانسوا الثاني	1560 -1559	1560 -1544

القديمة الى الإنجليزية. وفي بعض المواضع ترجم مصطلح (عهد) بكلمة (معاهدة)، على الرغم من إن هذه كلمة عهد تتضمن إلتزاما أكبر مما تسمح به الشريعة الإسلامية. وكانت هذه المفاوضات قد جرت في إسطنبول تمهيدا لتوقيع معاهدة دائمة. وليس من الواضح فيما إذا كان الجزء الثاني من المفاوضات قد حصل أم لا. على أية حال، فإن الرسالة في الملحق تؤكد إقامة الهدنة. عن الترجمة الإنجليزية للمعاهدة، أنظر:
Hess, “The Battle of Lepanto…”, p. 69.

شارل التاسع	1560– 1574	1550– 1574
هنري الثالث	1574– 1589	1551– 1589

ملوك انجلترا

الملك	مدة حكمه	مدة حياته
هنري السابع	1485– 1509	1457– 1509
هنري الثامن	1509– 1547	1491– 1547
إدوارد السادس	1547– 1553	1537– 1553
ماري	1553– 1558	1516– 1558
إليزابيث	1558– 1603	1533– 1603

بابوات روما

البابا	مدة توليه	مدة حياته
بايوس الثالث	أيلول . تشرين الأول 1503	1534– 1503
يوليوس الثاني	1503– 1513	1443– 1513
ليو العاشر	1513– 1521	1475– 1521
أدريان السادس	1521– 1523	1459– 1523
كليمنت السابع	1523– 1534	1478– 1534
بول الثالث	1534– 1549	1468– 1549
يوليوس الثالث	1550– 1555	1487– 1555
مارسيللوس الثاني	نيسان . مايس 1555	1501– 1555
بول الرابع	1555– 1559	1476– 1559
بايوس الرابع	1559– 1565	1499– 1565
بايوس الخامس	1566– 1572	1504– 1572
غريغوري الثالث عشر	1572– 1585	1502– 1585
سكستس الخامس	1585– 1590	1521– 1590

أساتذة فرسان القديس يوحنا (مالطا بعد سنة 1530)[1]

الأستاذ الأعظم	مدة توليه	مدة حياته
بيير آوبوسون	1476- 1503	1423- 1503
إيميري آمبويس	1503- 1512	؟ - ؟
غاي دي بلانكفورت	1512- 1513	؟ - ؟
فابريزيو ديل كاريتّو	1513- 1521	؟ - ؟
فيليب فاليريس دي لزلي . آدم	1521- 1534	1464- 1534
بييرو دي بونتي	1534- 1535	؟ - 1353
ديدير دي سانت جايل	1535- 1536	؟ - ؟
جوان دي هوميديس كوسكون	1536- 1553	؟ - ؟
كلاود دي لا سنغلي	1553- 1557	1494- 1557
جان باريسوت دي لا فالييت	1557- 1568	1494- 1568
بيير دي مونتي	1568- 1572	؟ - ؟
جان دي لا كاسييه	1572- 1581	1502- 1581

(1) List of Grand Masters of the Knights Hospitaller, Wikipedia (*).

ثبت بالمصطلحات البحرية والإدارية العثمانية[1]

عجمي أوغلان (Agemî Oglan): شاب مسيحي جُند من بين الدفشرمة للخدمة في القصر، أو في الإدارة، أو في كتائب القابقولي (Kapıkulu).
التاجي (Altaçi): حبل لإدارة أشرعة القوادس.
آلاي باي (Alay Beyi): آمر السباهية (Sipahis) المالكين للتيمار (Timar)، وهو نفسه يملك تيمارا في السنجق (Sancak) نفسه، بصفته سباهيا.
آلا سنسايل (Alla Sensile): مصطلح إيطالي يشير إلى ترتيب المجاديف في القادس. وفي القادس من هذا النوع هناك جدافَين في المقعد الواحد، كل واحد منهما يشدّ مجدافا منفصلا. وكان هذا النظام شائعا حتى منتصف القرن السادس عشر.
أقجة (Akçe): عملة فضية، وهي الوحدة الرئيسة للحساب في الإمبراطورية العثمانية، بلغت قيمتها في منتصف القرن السادس عشر ما يتراوح بين خمسين إلى ستين أقجة نسبة إلى الدوقة الذهبية.
آغا العزاب (عزبلر آغاسي . Azaplar Ağası): المسؤول الأعلى لجنود العزاب الإقليميين.
آغا الإنكشارية (يني شري آغاسي . Yeniçeri Ağası): المسؤول الأعلى للإنكشارية.
أل سكالوجيو (Al Scaloccio): مصطلح إيطالي يشير إلى توزيع المجاديف في القادس. وفي القادس الإيطالي من نوع alla scaloccio فإن كل المجدفين في كل منصة كانوا يسحبون مجدافا واحدا.
عسكري (Askerî): مصطلح يُطلق على طبقة العساكر، تمييزا لهم عن الرعية، ويتكونون من القابي قولو Kapıkuku، والجنود، والسباهية أصحاب التيمارات، وعوائلهم، وبعض الموظفين في خدمة السلطان وعوائلهم.
آت جيميسي (At Gemisi): سفينة مشاة. أنظر: Palandaria.
عوارض (Avariz): ضريبة استثنائية تفرضها الحكومة على الرعية عند الضرورة أو الأحوال الإستثنائية، وتكون قابلة للدفع نقدا، أو عينا، أو على شكل خدمات.
أعزب (Azap):

(1) Imber, Colin H.; "The Navy of Suleyman the Magnificent", <u>*Archivum Ottomanicum*</u>, 6, 1980, pp. 277-282.

1. موظف يعمل على قادس، يخدم بإمرة ريّس.
2. مجدّف أعزب (kürekçi azap)، وهو من مجندي الخدمة السنوية.
3. أحد أفراد قوات الُعزّاب، وهم جنود إقليميون يخدمون في حاميات أو حصون.

عزبستان (Azabistan): تعني حرفيا "محل العُزّاب"، وهو مصطلح يعني عُزّاب (جمع أعزب)، وهم موظفون في الإسطول العثماني.

بارجيا (Bargia): نوع من أنواع الغاليونات الصغيرة التي كانت تُستخدم في البحر المتوسط، بصفة مركب حمولة أساسا. يُسمى بالإيطالية barza، وبالتركية barca.

باستردة (Bastarda): مصطلح إيطالي يُطلق على القادس الثقيل، له ستٌ وعشرون مقعد مجدف أو أكثر على كل جانب. تُسمى بالتركية باشتردة Baştarda.

بدل (Bedel): بدل نقدي عن الخدمة العسكرية أو غيرها.

بينوبت تيمار (Benöbet Tımar): تيمار يشغله اثنان من السباهية على نحو مشترك، ممن ذهبا في حملة عسكرية في سنوات متعاقبة.

بك (Bey): انظر: سنجق بيه Sancak bey.

بيلربي (Beylerbeyi):
1. حاكم بيلربلك، أعلى درجة في الحكومة الإقليمية.
2. ولاية (إيالة): اكبر وحدة إدارية في الإمبراطورية.

بيلربلك (Beylerbelik): منصب البيلربي ووظائفه.

بوتا (Botta): وحدة قياس إيطالية.

بولوك (Bülük): قسم، أو كتيبة، أو وحدة.
1. كتيبة من موظفي قادس بقيادة ريّس.
2. وحدة (كتيبة) من الإنكشارية، أو غيرها من تنظيمات القابي قولو.

كرّاك (Carrack): غاليون كبير ذو ثلاثة صوارٍ، مربع الأشرعة عند الجؤجؤ، وثلاثي الأشرعة عند الصاري المزيني، وله كوثل مرتفع، وقلاعٌ أمامية، وهي أعرض في القعر مما عليه عند ظهر المركب. وكانت تُستخدم إما بصفة سفن حربية أو مراكب تجارية، لاسيما من جانب البرتغاليين الذين كانوا يجوبون طريق الهند.

جبلو (Cebelü): خادم أو تابع مسلح، جلبهُ إلى الحرب سباهيٌ صاحبُ تيمار.

شراكسة (Circassians): وهم قطعات الجنود المماليك في مصر، الذين تم تنظيمهم بعد الفتح العثماني مباشرة.

كوغ (Cog): نوع من أنواع الغاليون كان يُستخدم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بصفة سفينة حربية أو مركب تجاري. يسمى بالإيطالية cocca، وبالتركية Köke.

جاووش (Çavuş): موظف في الديوان الهمايوني، غالبا ما كان يُرسل إلى الولايات بصفته مبعوثا عن الحكومة لنقل الأوامر وتنفيذها.

جفتلك (Çeftlik): وحدة أرض زراعية تبلغ مساحتها ما يتراوح بين 60–150 دونما، يديرها أحد الرعية.

دفتردار (Defterdar): خازن، وزير مالية.

1. دفتردار الخزانة الإمبراطورية (hizane-I âmire dfefterdarı): وهو وزير المالية في الإمبراطورية، وعضو الديوان الإمبراطوري.
2. دفتردار العرب (Arap defterdarı): هو دفتردار الولايات الآسيوية، . أُسس في حلب.
3. ناظر الأموال.

دفشرمة (Devşirme):

1. تجنيد الأطفال المسيحيين في مناصب القصر، أو الإدارة، أو كتائب القابوقولي.
2. شاب مجنّد.

ديوان (Divan): مجلس، مجلس الدولة.

دونم (Dönüm): وحدة قياس مساحة أرض، تبلغ 940 مترا مربعا.

أمين (Emin): موظف أجير تعينه الحكومة لإدارة قسم، أو وظيفة، أو فرع من فروع عوائد الحكومة.

فرمان (Ferman): مرسوم إمبراطوري.

فيجي (Fiçi): برميل، طن، وحدة قياس وزن.

فيلورين (Filorin):

1. عملة نقدية ذهبية أوربية.
2. عملة نقدية ذهبية عثمانية، مرادفة للدوكة البندقية، تساوي ما يتراوح بين خمسين إلى ستين أقجة.

فوستا (Fusta): قادس خفيف.

غاليسا (Galleassa): قادس كبير ثلاثي الصواري، ذو اثنتين وثلاثين منصة أو أكثر على كل جانب. ويكون المجدفون تحت غطاء وفوقهم بطريات المدفعية، نحو عشر قطع لكل جانب. إستُخدمت الغاليسات من جانب الجنويين أول مرة في معركة ليبانتو. تُسمى بالتركية معونة أو

مؤونة (mavna).

قادس (Galley): سفينة الحرب القياسية في البحر المتوسط حتى القرن السابع عشر. وهو سفينة طويلة، ذات نِسب تتراوح بين 5–8 :1 (الطول والعرض)؛ وعادة ما يكون ذا صارٍ واحد أو صاريين، ويحمل أشرعة مثلثة. وللقادس القياسي ما يتراوح بين أربعة وعشرين إلى ست وعشرين منصة على كل جانب، مع ثلاثة مجدفين أو أكثر على كل منصة. وكانت القوادس تحمل في مقدمتها ثلاثة مدافع أو أكثر على جسر قيدومها (مقدمة القادس). يُطلق عليه باللغة التركية تسمية قادرغة (kadırga).

غاليوت (Galliot): قادس خفيف له ما يتراوح بين ست عشرة إلى أربعة وعشرين منصة على كل جانب. يُطلق عليه باللغة التركية تسمية كالياتا (kalyata).

غريبار (Gripar): نوع من القوادس الصغيرة كان يُستخدم في البحر المتوسط خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

جومي (Gümi): المشرف على عمّال القادس.

خاص (Has): أرض السلطان، أو الأمير، أو البيلربي، أو السنجق بك، تدرّ عائدا سنويا يزيد عن مائة ألف أقجة.

خاصة (Hassa): شئ من ممتلكات السلطان، تستخدمه أو تستملكه الدولة.

حصار إرنلري (Erenleri): حراس القلعة، وهم الجنود الذين يُزوّد بهم حصن.

الإنكشارية (Janissaries): بالتركية يني شري (yeniçeri): قوات المشاة الرئيسة للسلطان، يتم تجنيدهم عن طريق نظام الدفشرمة، وتُدفع أجورهم من الخزينة.

قاضي (Kadi):قاضٍ يدير كلا من الشريعة الإسلامية والقانون، وهو الرئيس الأعلى للقضاء.

قانون (Kanun): قانون أو قوانين علمانية (مدنية) يُصدرها السلطان، تمييزا لها عن الشريعة الإسلامية.

قانون نامة (Kanunname): دستور القوانين؛ مجموعة من القوانين السلطانية.

قابيجي باشي (Kapicibaşi): رئيس الحُجّاب في القصر.

قابي قولو (Kapikulu): "خادم في الباب العالي": دفشرمة متخرج من مدرسة القصر، وُظّف في الخدمة العسكرية، أو الإدارية، أو في الخدمة بالقصر.

قابودان (Kapudan): آمر الإسطول، أو العَمارة، أو كتيبة سفن.

1. أميرال البحر (قابودان دريا): لقب الأميرال الأعظم لإسطول البحر المتوسط.
2. قابودان باشا: لقب القابودان دريا حينما يتبوأ درجة بيلربي أو وزير.

3. قابودان بيه: لقب القابودان دريا حينما يتبوأ درجة سنجق بك.

قرة مرسل (Karamürsel): سفينة شراعية صغيرة، مربعة الأشرعة، مفردة السطح، كانت تُستخدم في المشرق بصفة مركب حمولة.

قضاء (Kaza): الوحدة الإدارية والقضائية للقاضي، وهي فرع ثانوي للسنجق.

كيثودا (Kethüda): قهرمان[1]، أو وكيل، أو ممثل عن تنظيم الحكومة.

1. كيثودا الأرسنال، وكيثودا العُزّاب (tersane kethüdası, azaplar kethüdası): هو لقب رئيس القباطنة والموظفين المقيمين في كل من غالاطة وغاليبولي. وكان الكيثودا في غالاطة مندوب القابودان دريا.
2. القيّم على نقابة التجار والصُنّاع (craft guild).
3. كيثودا الباب العالي (قابي كيثودا . kapı kethüdası): وهو ممثل السنجق بك في اسطنبول، أو والٍ إقليمي آخر.

كَيل (Kile): وحدة وزن كانت تُستخدم في قياس النباتات الحبيّة (كالحنطة والشعير وغيرها): عشرون أوقة، أو ما يعادل 25,65 كيلو غراما.

كومباراسي (Kumbaraci): المدفعي؛ المسؤول عن إطلاق القذائف؛ جنود القذّافين الخاصين (cemaat-I kumbaraciyan-I hassa): الجنود القذّافين المستخدمين في الإسطول والمقيمين في كل من غالاطة وغاليبولي.

ليفانت (Levant): لص بحر (كذا) أو قرصان مسلم.

ماهونة (Mahone):

1. غاليسا.
2. مركب نقل عسكري يشبه الغاليسا، لكنه من دون مجاديف، وله شراع مربع. يُطلق عليه بالتركية تسمية مؤونة أو معونة (mavna).

مالية (Maliye): وظيفة مالية؛ وظيفة تعني الفرامين المالية التي تحمل طغراء السلطان، ويوضع عليها توقيع الدفتردار.

مُـثْ (Mut): وحدة سعة، تختلف طبقا للمكان، كانت تُستخدم في قياس الحبوب. وكان مُثْ البصرة يساوي 112,5 لتر. و مُثْ قرة مان يساوي 69,5 لتر، و مُثْ قونية يساوي 225 لترا.

مهمي دفتري (Mühimme Defteri): سجلّ محفوظ في أرشيف بشفكالت (Beşvekâlet Arşivi) في إسطنبول، يضم نسخا من الفرامين التي صدرت من الديوان الهمايوني.

---

(1) ورد في قاموس المورد إن القهرمان هو الوكيل المسؤول عن تدبير القصر أو الإقطاعة الخ. بما في ذلك الإشرافُ على الخدم وجباية الإيجارات وتدوين الحسابات.

مسلم (Müellem): أحد الجنود المتطوعين من سكان الإمبراطورية المسلمين، الذي يؤدي مختلف المهام العسكرية وغيرها مقابل إعفاء من ضريبة العوارض وبعض الضرائب الأخرى.

ناحية (Nahiye): وحدة إدارية أقل درجة من القضاء.

ناظر الأموال (Nazir-I Emval): دفتردار مصر.

نوروز (Nevruz): العيد السنوي الفارسي، الذي يوافق الإعتدال الربيعي.

أودا باشي (Odabaşi):

1. آمر فرقة إنكشارية، أو غيرها من تنظيمات القابوقولي.
2. رئيس العُزّاب في قسم أدنى من اليلكنجي (yelkenci) والريّس (reis).

أوقة (Okka): وحدة وزن؛ 400 درهم؛ 1,283 كيلو غراما.

بالانداريا (Palandaria): مركب مربع الشراع ذو مِسحبة مسطحة كان يُستخدم في نقل الخيالة والمدفعية في المسافات القصيرة. وله فتحة عند المؤخرة لإيواء الخيول. كان العثمانيون فقط هم الذين يستخدمون هذا النوع من السفن. يُسمى بالتركية آت جيميسي (at gemisi).

بيادة (Piyade):

1. جندي مشاة.
2. جنود يمتلكون جفتلك معفوون من بعض الضرائب مقابل أداء بعض الخدمات للحكومة. وفي القرن السادس عشر كانوا يُستخدمون عادة بصفة عمال غير بارعين مع الجيش. وكانوا يُعرفون إما بالإسم الفارسي بيادة (piyade)، أو بالإسم التركي يايا (yaya).

قنطال (Quintal): وحدة وزن تساوي 56,449 كيلو غراما: قنطار (بالتركية).

رعية (Reaya): رعايا الإمبراطورية غير العسكريين، الدافعون للضرائب، تمييزا لهم عن طبقة العساكر.

ريّس (Reis):

1. آمر؛ بالاستخدام البحري، قبطان مركب.
2. ريّس الخاصة (hassa reis): قبطان مركب مملوك للدولة.
3. قبطان مع كتيبة أو مجموعة من السفن (bölüklü reis): قبطان قادس يقود كتيبة من العُزّاب.
4. قبطان من دون كتيبة أو مجموعة من السفن (bölüksüs reis): قبطان قادس لا يقود كتيبة من العُزّاب.
5. متفرقة ريّس (müteferrika reis): ربما قبطان من دون كتيبة، الأول في خط التعيين لقيادة كتيبة عُزّاب.

6. قبطان متطوع (gönüllü reis): قبطان قرصنة يخدم في الإسطول الهمايوني.

سنجق (Sancak): وحدة إدارية يحكمها سنجق بك، وحدة إدارية اصغر من البيلربلك، تُعرف أيضا بإسم "لواء".

سنجق بك (Sancak beyi): حاكم سنجق وآمر السباهية فيه. يُعرف أيضا بإسم أمير لواء (mir-i liwa).

سري بولوك (Ser-i Bölük): رئيس بولوك في أي تنظيم.

سباهي:

1. خيّال.
2. سباهي مالك لتيمار: خيّال مالك لتيمار في الولايات مقابل الخدمة العسكرية.

سو أتيسي (Su Ateci): النازح (مَن يطرح الماء من السفينة بوساطة دلو الخ.)

صوباشي (Subaşı): مالك تيمار يخدم في الجيش تحت إمرة آليا بك (alya beyi)، ويقود كتيبة من السباهية المالكين للتيمارات. وكان مسؤولا عن المحافظة على النظام العام في مقاطعته.

شاكرت (Şakirt): صبي يتمرن على مهنة؛ مبتدئ؛ شخص قليل الخبرة.

شايكا (Şayka): مركب شراعي ذو مِسحبة مسطحة، متراكب الألواح (أو الصفائح)، يحمل ما يتراوح بين خمسة وثلاثين إلى أربعين جنديا، كثيرا ما كان يستخدمه القوزاق خلال القرن السابع عشر.

شريعة (Şeriat): القانون المقدس في الدين الإسلامي، تمييزا له عن القانون الوضعي.

تذكرة (Tezkere):

1. شهادة رسمية.
2. شهادة صادرة من بيلربك إلى الحكومة المركزية، لتقديم توصية عن تيمار.

تيمار (Timar): إقطاعة من الأرض تساوي اقل من عشرين ألف أقجة سنويا، تؤخذ عوائدها مقابل الخدمة العسكرية. وكانت على نوعين:

2. تيمار يُملّك بموجب (tezkereli tımar): وهو تيمار مُنح بموجب شهادة صادرة بإسم السلطان، بناءً على تذكرة من البيلربك.
3. تيمار يُمنح من دون تذكرة (tezkeresiz tımar): وهو تيمار يُمنح مباشرة من البيلربك، من دون تذكرة.

طوبجو (Topçu): مدفعي؛ رجل في سلاح المدفعية.

1. مدفعيو الباب العالي (topçuyani-I dergâh-i âli): سلاح مدفعية السلطان الرئيس، أحدى كتائب القابي قولو.

2. جنود المدفعية الخاصة (cemaat-i topçuyan-i hassa): جنود المدفعية المقيمين في غاليبولي للخدمة في الإسطول الهمايوني.
تفنكجي (Tüfenkçi): حامل بندقية من نوع موسكيت أو عرقوب. وجنود الموسكيت (cemaat-i tüfenkçiyan): هم فرقة من مستخدمي الموسكتير تأسسوا في مصر بعد الفتح العثماني.
وزير (Vizir): 1. وزير السلطان وعضو الديوان الإمبراطوري. 2. صدر أعظم: الوزير الأول وممثل السلطان. وزير بالتركية.
يايا (Yaya): أنظر: بيادة (Piyade).
يلكنجي (Yelkenci): الثاني ي قيادة فرقة العُزّاب، بعد الريّس مباشرة.
يوروك (Yürük): 1. بدو تركي من الأناضول أو الروميللي. 2. أحد أقسام اليوروك في الحكومة أو وظائفها.
زعيم (Zaim): مالك زعامت.
زعامت (Zeamet): إقطاعة من الأرض تساوي عشرين ألف أقجة سنويا أو أكثر، تؤخذ عوائدها مقابل الخدمة العسكرية.

أشهر الانتصارات، والفتوحات، والمكاسب الإقليمية البحرية العثمانية حتى نهاية القرن السادس عشر

السنة	الحدث
1081	فتح كل من سميرنا (أزمير)، وأورلا (Urla)، وجيشمة (Çeşme)، وسيجاكيك (Sığacık)، وفوكايا (Foça–Phocaea) على الساحل الإيجي للأناضول من جانب الأمير شاكا بك، وإنشاء أول إسطول بحري سلجوقي أناضولي مكون من خمسين مركبا (33 سفينة شراعية و 17 سفينة مجدافية) في السنة نفسها التي انشأ فيها شكا بك دار صناعة سفن في أزمير.
1089–1090	أول فتح تركي لجزيرتي ليسبوس (1089)، وخيوس (1090) في بحر إيجة بوساطة إسطول شاكا بك.
1090	إسطول الأمير شاكا بك يهزم الإسطول البيزنطي بالقرب من جزر قويون (Koyun) جنوبي خيوس في التاسع عشر من مايس، الذي اشر أول انتصار بحري سلجوقي أناضولي في الحروب البحرية.
1091	إسطول الأمير شاكا بك يفتح جزر ساموس ورودس في بحر إيجة.
1095	إسطول الأمير شاكا بك يفتح المدينة الساحلية الستراتيجية في خليج ادراميتيوم / إدرمت (Adramyttium / Edremit) على الساحل الإيجي للأناضول ومدينة إبيدوس على مضيق الدردنيل.
1220–1237	الإمبراطور السلجوقي الأناضولي علاء الدين كيقباذ الأول يفتح علانية (Alanya) ويؤسس دارا لصناعة السفن التركية فيها. وبذلك تصبح علانية مقر الإسطول التركي المتوسطي. وفيما بعد علاء الدين كيقباذ الأول يؤسس الإسطول التركي في البحر الأسود في قاعدته سينوب.
1308	فتح جزيرة إمرالي (İmralı) وبداية الوجود العثماني في بحر مرمرة.
1321	العثمانيون يفتحون مودانيا (Mudanya)، وأول عملية تواجد بحري عثماني في تراقيا، جنوب شرقي أوربا.
1333	العثمانيون يفتحون المدينة الساحلية الستراتيجية جيملك (Gemlik) الواقعة على بحر مرمرة.
1334–1348	انتصارات بحرية للقبطان العثماني عمر بك ضد الأساطيل البيزنطية والجنوية جنوبي سواحل بحر إيجة في كل من الأناضول، ورودس، ومضيق الدردنيل، ومقدونيا والمورة.
1337	العثمانيون يفتحون المدينة الساحلية الستراتيجية وخليج إزمت (نيقوميديا) على بحر مرمرة.
1341	تحالف مع الإمبراطور البيزنطي (1346) بعد زواج بين السلطان أورخان والأميرة ثيودورا إبنة جون السادس سانتاكوزينوس.
1351	عملية إنزال بحرية عثمانية في كل من تراقيا وشبه جزيرة البلقان من اجل مساعدة الإمبراطورية البيزنطية، وهزيمة الصرب والبلغاريين، وامتلاك أولى القلاع العثمانية في أوربا.
1352	فتح اسكودار (سكوتاري) وكالكيدون (Chalcedon) على الجانب الأناضولي من القسطنطينية، وجزيرة مرمرة، وتراقيا، وغاليبولي.

1373	أولى الفتوحات والمكاسب في مقدونيا.
1374-1384	أول حصار على سلانيك (1374)، وبداية التقدم العثماني نحو صربيا (1375)، وبلغاريا (1376)، وألبانيا (1383)، والبوسنة والهرسك (1384).
1387	فتح سلانيك ومقدونيا.
1389	فتح شمالي بلغاريا، وجنوبي رومانيا، ومعظم شبه جزيرة البلقان.
1392	فتح شمالي ألبانيا وجنوبي مونينيغرو.
1396	فتح ألبانيا.
1397	فتح بعض المستوطنات الساحلية على سواحل بحر إيجة التابعة لليونان وتأسيس بضعة إمارات عثمانية على سواحل البحر الأسود من جهة الأناضول.
1415-1416	فتح بضعة جزر في بحر إيجة
1417	فتح ميناء سامسون الستراتيجي في البحر الأسود.
1423	إعادة فتح ألبانيا، وفتح بضعة مستوطنات ساحلية في المورة.
1423-1430	حرب عثمانية . بندقية.
1424	فتح ميناء سينوب الستراتيجي في البحر الأسود.
1426	فتح أزمير.
1430	إعادة فتح سلانيك.
1448-1450	إعادة فتح ألبانيا.
1453	فتح القسطنطينية (اسطنبول)، وإمبروس، وليمنوس، وثاسوس.
1458-1460	فتح المورة ودوقية أثينا.
1461	فتح إمبراطورية طرابزون والمستوطنة الجنوية في أماسرا.
1462	فتح الجزر الجنوية في شمالي بحر إيجة، بضمنها ليسبوس.
1463-1479	حرب عثمانية . بندقية.
1466	فتح قلاع وحصون في ألبانيا.
1470	فتح إيوبيا.
1477-1478	فتح المرافئ البندقية في ألبانيا.
1479	فتح كل من: جورجيا على البحر الأسود، وكيفالونيا، وزانتة، وليفكادا على البحر الأيوني.
1497	إعادة فتح ألبانيا نهائيا.

1499	فتح مونتينيغرو.
1499-1503	حرب عثمانية . بندقية.
1499	معركة زانجيو (Zanchio).
1500	معركة مودون.
1503	إعادة فتح المورة.
1512	فتح مولدافيا.
1516	فتح سوريا.
1516-1517	إنتزاع الجزائر من الإسبان.
1517	فتح مصر ونهاية الإمبراطورية المملوكية.
1522	إنتزاع جزيرة رودس من فرسان القديس يوحنا، الذين استقروا في صقلية أولا وفي جزيرة مالطا فيما بعد.
1527	فتح كل من دلماشيا، وكرواتيا، وسلوفينيا، والبوسنة.
1529	حرب عثمانية . إسبانية بالقرب من جزيرة فورمنتيرا.
1534	إنتزاع تونس أول مرة من الإسبان، وإعادة فتح المورة.
1537	فتح دوقية ناكسوس، وسايروس، وإيجينا، وآيوس، وباروس، وتينوس، وكارباثوس، وكوسوس.
1538	معركة بريفيزا.
1538	فتح كاستلنوفو (Herceg Novi) في دلماشيا.
1538-1539	إنتزاع عدن واليمن من البرتغاليين، وفتح جدة والحجاز في شبه الجزيرة العربية.
1539	فتح كل من: ريسان، وسكياثوس، وسكايروس، وأندروس، وسيريفوس.
1539-15340	إعادة فتح كاستلنوفو.
1541	إيقاع الهزيمة بالإسطول الإسباني . الإيطالي في الجزائر.
1544	إيقاع الهزيمة بالإسطول الإسباني . الإيطالي في البحر التيراني، والانقضاض على مملكة نابولي.
1547-1548	إعادة إنتزاع اليمن من البرتغاليين.
1551	إنتزاع طرابلس الغرب من هيمنة إسبانيا ومالطا.
1552	إيقاع الهزيمة بالإسطول الإسباني . الإيطالي بالقرب من بونزا.
1552	إنتزاع كل من عُمان، وهرمز، وقطر من البرتغاليين.
1553	فتح المغرب.

1555	إيقاع الهزيمة بالإسطول الإسباني . الإيطالي بالقرب من بيومبينو (Piombino).
1560	معركة جربة.
1566	فتح خيوس ونهاية الوجود الجنوي في بحر إيجة.
1568-1570	إعادة فتح كل من: صنعاء (1568)، وعدن (1569)، وباقي اليمن (1570).
1570	معركة غوزو.
1570-1572	إنتزاع قبرص من جمهورية البندقية.
1571	إنتزاع دلماشيا من جمهورية البندقية.
1574	إنتزاع تونس من الإسبان.
1578	إيقاع الهزيمة بالإسطول البرتغالي جنوبي الساحل المغربي (وادي المخازن).

أهم المكاسب الإقليمية قصيرة الأجل[1]

السنة	الحدث
1446	السيطرة على المورة.
1480	الحصار الأول على اوترانتو والسيطرة عليها.
1487	السيطرة على ملقا في إسبانيا.
1501	السيطرة على جزيرة بيانوس.
1514	السيطرة على جيجل في الجزائر وعلى المهدية في تونس.
1526	السيطرة على كابو باسيرو (Capo Passero) في صقلية.

(1) History of Turkish Navy, Wikipedia, (*).

1529	السيطرة على جزيرة بينون.
1530	السيطرة على جزيرة كابريرا (Cabrera).
1534	السيطرة على كل من سان لوسيدو، وسينتارو، وكابري، وبروسيدا، وتونس.
1535	إعادة الاستيلاء على كابري.
1537	الحصار الثاني على اوترانتو والاستيلاء عليها، وعلى كاسترو، وأوغينتو.
1538	الاستيلاء على ديو في الهند.
1538	السيطرة على خليج بريفيزا، وجزيرة ليفكادا، وشرقي الادرياتيك، والجزر الإيجية التابعة لجمهورية البندقية، وكانديا في كريت.
1540	السيطرة على كل من: غوزو، وبانتيليريا (Pantelleria)، وكابرايا.
1543	السيطرة على كل من: ريغيو كالابريا، ومسينا، ونيس، و (Antibes)، و (Île Sainte-Marguerite)، وموناكو، وسان ريمو، و (La Trubie).
1544	الاستيلاء على كل من: بونيفاسيو في كورسيكا، و (Castiglione della Pescaia)، وتالامون (Talamone)، وأوربيتيللو، وغروزيتّو، ومونتيانو، وبورتو إيركول، وجزيرة غيغليو، وإسجيا، وفوريو، وأخيرا جزيرة بروسيدا.
1545	السيطرة على كل من: كابريرا، ومونتيروسّو، وكورنيلغيا، ورابااللو، وبيلغي، وليقانتو.
1546	السيطرة على كل من: المهدية، وصفاقس، وبلاد السوس (سوسة)، والموناستر في تونس؛ و (Laiguegla) وأندورا في (Laiguegla)؛ وغوزو في مالطا.
1547	إعادة السيطرة على غوزو في مالطا.
1548	السيطرة على كل من: كاستيللامير ديستابيا، وبوزوللي، وبروسيدا في خليج نابولي.
1550	إعادة السيطرة على كل من: المهدية، والسوس، والموناستير في تونس، وربااللو في ليغوريا.
1551	إعادة الاستيلاء على غوزو، والسيطرة على تاغيا (Taggia)، وريفا بريغوسو في ليغوريا.
1552	الاستيلاء على كل من: بانتيليريا، و وبونزا، وماسا لوبرنسة، وسورينتو، وبوزولي، ومينتورنو، ونولا.
1553	السيطرة على كروتون وكاستيللو في كالابريا؛ ومارسيانا مارينا، وريو، ووبيانوسا في كابري.
1554	السيطرة على فيستة (Vieste) بالقرب من فوجيا؛ وعلى ألبا وكورسيكا.
1555	السيطرة على كل من باولا وسانتو نوسيتو في كالابريا، وبابولونيا في ألبا، وباستيا في كورسيكا، واوسبيداليتّي في ليغوريا.
1556	السيطرة على (Bergeggi)، وسان لورينزو في ليغوريا؛ وقفصة في تونس.
1557	السيطرة على كارياتي في كالابريا.

1558	السيطرة على كل من: غريان، ومصراتة، وتوغرت، وجربة، وريغيو كالابريا، والجزر الايولية، وماسا لوبرنسة، وسورينتو، ومينورقا.
1563	السيطرة على غرناطة في إسبانيا، ونابولي في ايطاليا والحصون التي حول المدينة، و(Chiaia).
1565	السيطرة على حصن سانت إيلمو وحامية كاستيغليا على سانت ميخائيل في مالطا.
1585	السيطرة على لانزاروتة (Lanzarote) في جزر الكناري في المحيط الأطلسي.

أهم الحصارات وعمليات الإنزال البحري غير الحاسمة[1]

السنة	الحدث
1372	أول عملية عثمانية لإنزال بحري في كل من أثيكا، والمورة، وبحر الأدرياتيك.
1390	أول حصار عثماني للقسطنطينية.
1390–1390	إنزال بحري في كل من: خيوس، وأيوبيا، واثيكا، والمورة.
1394	إنزال بحري في المورة.
1395	الحصار العثماني الثاني للقسطنطينية.
1397	الحصار العثماني الثالث للقسطنطينية.

(1) History of Turkish Navy, Wikipedia, (*).

1399-1397	إنزال بحري في كل من: ثيساليا، والمورة، والبانيا، وأيوبيا.
1400	الحصار العثماني الرابع للقسطنطينية.
1422	الحصار العثماني الخامس للقسطنطينية.
1454	إنزال بحري في جزر الدوديكانيز.
1478-1477	عمليات إنزال في ليبانتو في اليونان، وفينتو في ايطاليا.
1481-1480	الحصار الأول لرودس.
1490-1487	إنزال بحري في جزر البليار، وكورسيكا وبيسا.
1495-1490	إنزال بحري في (Elche)، والميريا، وملقة.
1496	إنزال بحري في خليج تارانتو.
1500	إنزال بحري في كورفو.
1501	إنزال بحري في بومبينو.
1501	إنزال بحري في جزر البليار والأندلس.
1505	إنزال بحري في كل من: رودس، وكالابريا، وصقلية والأندلس.
1506	إنزال بحري في صقلية.
1509-1508	إنزال بحري في ليغوريا.
1510	إنزال بحري في كابو باسيرو في صقلية.
1510	إنزال بحري في كل من: بجاية، ووهران، ومدينة الجزائر.
1511	إنزال بحري في ريغيو كالابريا.
1512	إنزال بحري في الأندلس ومينورقا.
1514-1513	إنزال بحري في كل من: (Alicante)، وملقا، وشرشال.
1514	قصف بجاية، وعملية إنزال في كل من: سبتة، وجزر البليار، وسردينيا، وصقلية.
1516	إنزال بحري في ألبا وليغوريا.
1517	إنزال بحري كل من: كابو ليميتي، وكابو ريزوتو، وكالابريا.
1519	إنزال بحري في كل من: بروفنس، وطولون، و (Îles d'Hyères) في فرنسا.
1521	إنزال بحري في جزر البليار.
1525	إنزال بحري في سردينيا.
1526	عملية إنزال في كورون، وريجيو، وكالابريا، وكاستيغنانو، وكابو سبارتيفنتو، ومسينا، وتوسكانيا، وكامبانيا.
1527	إنزال بحري في المدن الساحلية الإيطالية والإسبانية.
1529	إنزال بحري في الأندلس.
1530	إنزال بحري في صقلية، وجزر البليار، ومارسيليا، وبروفنس، وليغوريا، وسردينيا،

	وبيومبينو.
1531	إنزال بحري في جزر فافيغنانا، وكالابريا، وبوغليا، وطرابلس الغرب، وإسبانيا.
1532	إنزال بحري في سردينيا، وبونيفاسيو، ومونتيكريستو، وإلبا، ولامبيدوسا، ومسنا، وكالابريا.
1534	إنزال بحري في ريجيو كالابريا، و (Gaeta Villa)، وسانتا لوسيا، وسانت إيسيدورو، وسبيرلونغا، وفوندي، وتيراسينا، وأوستيا، وبونزا، وصقلية، وسردينيا، وقصف الموانئ في خليج نابولي.
1535	إنزال بحري في إسبانيا، وجزر البليار، وتلمسان.
1537	إنزال بحري في كالابريا، وكورفو.
1538	إنزال بحري في كريت في اليونان.
1539	إنزال بحري في كاتارو، وبيسارو، وكورفو، وكريت.
1540	إنزال بحري في صقلية، وكورسيكا، وإسبانيا.
1543	إنزال بحري في كامبانيا، و لازيو، والاقتراب من نهر التيبر في ايطاليا.
1544	إنزال بحري في سان ريمو، وبورغيتو سانتو سبيريتو، و (Ceriale)، وفادو ليغور، وبيومينو، وسيفياجيا، وسردينيا، وغوزو، وبوزولي، وكابو بالينورو، وكاتونا، وفيومارا، وكالانا، وكارياتي، وليباري.
1545	إنزال بحري في إسبانيا، وجزر البليار، وصقلية، وليغوريا، ومينارولا، وريوماغيور، ولاسبيزيا.
1546	إنزال بحري في ليغوريا، وسان لورينزو ألمير.
1547	إنزال بحري في كل من مالطا، وصقلية، والجزر الأيونية، وجزيرة سالينا، وبوغليا، وسليف، وكالابريا، وكورسيكا.
1549	إنزال بحري في راباللو، وسان فروتوسو، وبورتوفينو، وسان ريمو، وكورسيكا، وكالابريا.
1550	إنزال بحري في سردينيا، وإسبانيا، وكورسيكا، وغوزو، وليغوريا، والمهدية، وتونس، وجربة.
1551	إنزال بحري في موانئ البحر الأدرياتيكي، وصقلية، ومالطا.
1552	إنزال بحري في أوغوستا وليساتا في صقلية، وتاولامينا، وخليج بوليكاترو، وبالمي، وخليج نابولي، وسردينيا، وكورسيكا، ولازيو.
1553	إنزال بحري في صقلية، وتافولارا، وسردينيا، وبورتو إيركول، وبيومبينو، وبورتو فيرايو.
1554	إنزال بحري في دلماشيا، ودوبروفنك، وأوربيتيللو، وتوسكانيا.
1555	إنزال بحري في كابو فاتيكانو، وسيراميكا، وسان لوسيدو في كالابريا، وبيومبوني في إلبا، وكالفي في كورسيكا، وسردينيا، وسان ريمو، وليغوريا.
1556	إنزال بحري في لامبيدوسا.

1558	إنزال بحري في مضيق مسينا، وأمالفي، وخليج ساليرنو، و (Torre del Greco)، وتوسكانيا، وبيومبوني، وإسبانيا.
1561	إنزال بحري في سترومبولي، وغوزو، وخليج نابولي.
1562	حصار وهران.
1563	إنزال بحري في ملقة، وحصار آخر على وهران والمرسى الكبير اللذين تسيطر عليهما إسبانيا، وإنزال بحري في ليغوريا، وسردينيا، واوريستانو، ومارسيلينو/ وإيركولينو، وبوغليا، وأبروزو، وسان جيوفاني بالقرب من مسينا، وكابو باسيرو في صقلية، وغوزو في مالطا.
1565	حصار مالطا.
1566	إنزال بحري في بوغليا.
1571	إنزال بحري في كورفو.
1573	إنزال بحري في بوغليا وكورفو.
1574	إنزال بحري في المغرب.
1576	إنزال بحري في كالابريا.

أهم المعاهدات البحرية لتأمين الملاحة التجارية[1]

السنة	الحدث
1352	توقيع معاهدة مع جمهورية جنوا.
1365	توقيع معاهدة مع جمهورية راغوسا.
1386	توقيع معاهدة مع السلطنة المملوكية.
1479	توقيع معاهدة مع جمهورية البندقية.
1503	توقيع معاهدة مع جمهورية البندقية.
1522	توقيع معاهدة مع جمهورية البندقية.
1536	توقيع معاهدة مع فرنسا.
1540	توقيع معاهدة مع جمهورية البندقية.
1569	توقيع معاهدة مع فرنسا.

(1) History of Turkish Navy, Wikipedia, (*).

1573	توقيع معاهدة مع جمهورية البندقية.
1579	توقيع معاهدة مع إنجلترا.
1581	توقيع معاهدة مع فرنسا.

جدول بأسماء أهم القباطنة العثمانيين وسنوات توليهم[1]

ت	إسم القبطان	من	إلى
1	سرّوقة باشا	1401	؟
2	جاولي بك	؟	1412
3	بلطة أوغلو سليمان باشا	1451	1453
4	حمزة بك	1453	1456
5	خاص يونس بك	1456	1459
6	قاسم بك	1459	1460
7	كاظم إسماعيل بك	1461	1462
8	يعقوب بك	1462	1463
9	زاغانوس باشا	1463	1466

(1) Kaptan Pashas, Wikipedia, (*).

10	ولي محمود باشا	1466	1478
11	جديك أحمد باشا	1478	1480
12	مسيح باشا	1480	1491
13	جوفيكي سنان باشا	1491	1492
14	قرة نيشانجي داوود	1492	1503
15	كجك داوود باشا	1503	1506
16	هرسك زادة أحمد باشا	1506	1511
17	إسكندر آغا باشا	1511	1512
18	سنان باشا	1514	1516
19	جعفر آغا باشا	1516	1520
20	بارلاك مصطفى باشا	1520	1522
21	بيرم باشا	1522	؟
22	كورد أوغلو مصلح الدين ريّس	؟	؟
23	سليمان باشا	؟	1531
24	كيمانكش أحمد بك	1531	1533
25	خير الدين بربروسا	1533	1546
26	محمد صوقللو باشا	156	1550
27	سنان باشا	1550	1553
28	بيالة باشا	1553	1569
29	مؤذن زادة علي باشا	1569	1571
30	قيليج علي باشا	1571	1587
31	جغالة زادة يوسف سنان باشا	1591	1595
32	جغالة زادة يوسف سنان باشا	1599	1604
33	درويش باشا	1604	؟
34	دلي حسين باشا	1632	1635
35	دلي حسن باشا	1639	1641
36	قرة موسى باشا	؟	1647
37	قلاووز قوصة علي باشا	1647	1648
38	درويش محمد باشا	1652	1652
39	قرة مراد باشا	1653	1655
40	مرزيفونلو قرة مصطفى باشا	1666	1670

41	ميزو مورتو حسين باشا	1695	1701
42	بلطجي محمد باشا	1704	1704
43	قيمق مصطفى باشا	1721	1730
44	حاجي حسين باشا	1732	1732
45	خوجة بكر باشا	1732	1733
46	محمد باشا	1735	؟
47	أحمد راتب باشا	1743	1753
48	أغريبوزلو إبراهيم باشا	؟	1769
49	مندل زادة حسام الدين باشا	1770	1770
50	جزايرلي غازي حسن باشا	1770	1789
51	خوجة يوسف باشا	1789	؟
52	كجك حسين باشا	1792	1803
53	محمد قدري باشا	1803	1804
54	حافظ إسماعيل باشا	1804	1805
55	حاجي محمد باشا	1806	1808
56	سعيد علي باشا	1808	1808
57	عبد الله رامز أفندي	1808	1808
58	خوجة محمد خسرو باشا	1811	1818
59	عبد الله باشا	؟	1821
60	نصّوح زادة علي باشا	1821	1822
61	عبد الله باشا	؟	؟
62	جنكل أوغلو طاهر محمد باشا	1832	1836
63	أحمد فوزي باشا	1836	1839
64	طوبال عزت باشا	1840	.
65	داماد محمد علي باشا	1836	1848
66	محمود باشا	1853	؟
67	عاطش محمد باشا	1836	1863

جدول بالمسافات بين سواحل شمالي أفريقيا (بالأميال البحرية)[1]

من . إلى	المسافة بالميل البحري
جبل طارق . وهران	225
وهران . تِنِس	110
تِنِس . شرشال	41
شرشال . الجزائر	40
الجزائر . عنّابة	104
عنّابة . جيجل	30
جيجل . بيزرتة	205
بيزرتة . تونس	55
تونس . سوسة	120
سوسة . صفاقس	86
صفاقس . جربة	54
جربة . طرابلس	130
جبل طارق . الجزائر	410
الجزائر . تونس	391
الجزائر . تِنِس	91
تونس . مالطا	232
مالطا . طرابلس	200
طرابلس . خليج سيرانو	350
جربة . مالطا	210

(1) E. Hamilton Curry; Sea-Wolves of the Mediterranean: The Grand Period of Muslim Corsairs, London, 1910, pp. 369;
(والميل البحري: مقياس للسرعة البحرية يساوي 1853 مترا في الساعة، ويعادل 6080 قدما).

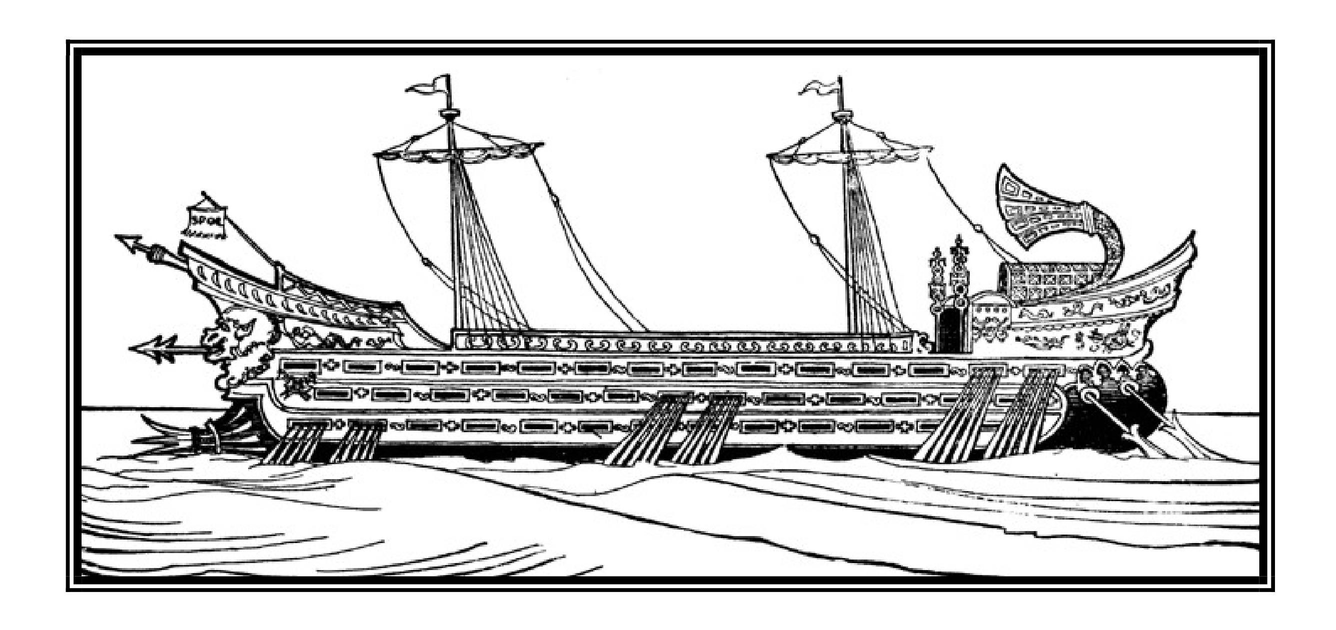
صور لبعض أنواع السفن

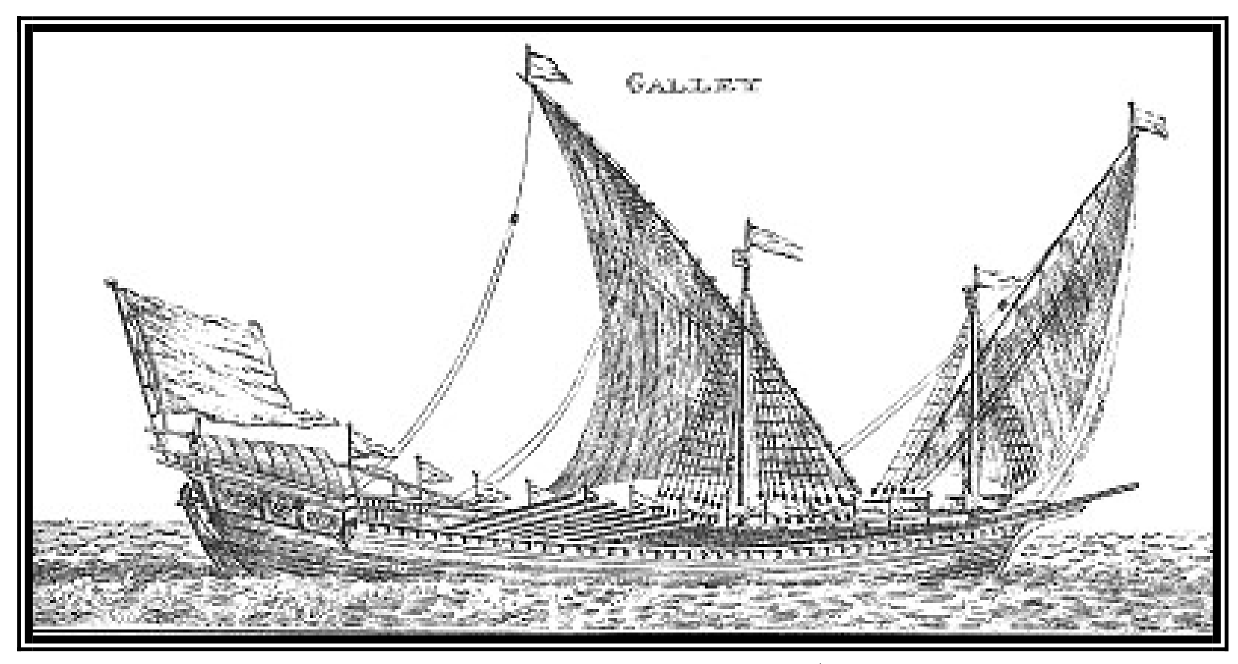


شكل (1) سفينة إمداد



شكل (2) سفينة كمال ريّس من نوع كوغة في عهد السلطان بايزيد الثاني





شكل (3) و(4) نماذج من القوادس



شكل (5) قادس

بعض مراسلات الباحث مع المؤرخين الأجانب

From: "Stanford Shaw" <shaw@bilkent.edu.tr>
To: "Anis Anis" <anisalkaysi@yahoo.com>
Subject: Re: Greetings from Iraq
Date: Mon, 20 Nov 2006 07:39:54 +0200

Dear Anis Bey,

I am very glad to learn that my books have been of some use to you, and also that you are doing research on the Ottoman navy in the 16th century. Let us hope that some day you will be able to go to Istanbul to do further research in the Basbakanlik Arsivi (http://www.devletarsivleri.gov.tr/) as well as in the historic archives of the Turkish Navy, which are located in Istanbul.

I hope you are able to continue your work despite the great difficulties which have been arising in Baghdad in recent years.

I will be happy to answer your questions if I can, though I have very little information about Hayruddin Barbarosa.

I have had very little contact with Iraq in recent years, though I used to consult with an Iraqi historian named Abbas al-Azzawi many years ago, and more recently had dinner with Celal Talabani, before he became President, and his wife.

Best wishes, and much good luck,
Stanford Shaw

Best wishes
Stanford Shaw

رسالة المؤرخ ستانفورد شو للباحث بتاريخ العشرين من تشرين الثاني، **2006**.

Subject:	RE: about : The Ottomans as a World Power
Date:	Fri, 6 Apr 2007 14:50:24 -0400
From:	"Brummett, Palmira J" <palmira@utk.edu>
To:	"Anis Anis" <anisalkaysi@yahoo.com>

Dear Dr. Anis al-Qaysi,

Thank you for your email and the attached thesis. Unfortunately the materials you seek are not available in digital form. But if you will send me your address in Baghdad I will be happy to send you hard copies. I realize, given the dire consequences of the long war and occupation, that mail service may not be good, but let me know. Given our shared interests, I look forward to reading your own work in the future. With Best Regards, Palmira Brummett

Prof. Palmira Brummett

University of Tennessee, Dept. of History

915 Volunteer Blvd., 2611 Dunford Hall

Knoxville, TN 37996

رسالة المؤرخة بالميرا برومت للباحث بتاريخ السادس من نيسان **2007**.

From:	"Colin Imber" <colin.h.imber@manchester.ac.uk
To:	"Anis Anis" <anisalkaysi@yahoo.com>
Date:	Mon, 27 Nov 2006 13:00:24 +0000

Dear Professor al-Qaysi,

Unfortunately I do not have electronic copies of the items that you are looking for, apart from the book: 'The Ottoman Empire: the Structure of Power'. I am attaching the chapter on the navy from that book – it really repeats what I and others have said earlier, and does not add anything new. If you are in a position to travel to Jordan, I think it possible that they may have copies of the articles there. It is perhaps worth enquiring at Al al-Bayt University. If you require any other chapters from the book, please let me know and I can send them by e-mail.

With best wishes,

Colin imber

رسالة المؤرخ كولن إمبر للباحث بتاريخ السابع والعشرين من تشرين الثاني **2006**.

Date:	Sun, 25 Sep 2005 23:16:55 +0200
From:	"michela d'angelo" <mdangelo@unime.it
To:	"Anis Anis" <anisalkaysi@yahoo.com

Dear Anis,

I am very happy to receive your email.
I will send soon my essay. As regard the books, I fear that in Messina it will be almost impossible to find them, but I will try to ask some friends in Italy.

I suppose that you know the recent essay of Eyup Ozveren and Omar Yldirim (University of Ankara), "An Outline of Ottoman Maritime History", in Research in Maritime History, n. 28 (2004). If you don't have it, let me know and I will send a copy and the email of the authors.

Moreover, I would like to inform you that in Messina we are preparing a conference of the Mediterranean Maritime History Network (MMHN) and I will be happy if you could participate with a paper on your subject. In the attached file you will find the call for papers.

how do you live and stay in Baghdad?
I think often of the difficulties of the people. Let me know if I can be helpful for you in any way.
best wishes for your work.
greetings or (in Italian language) "ciao".
michela

michela d'angelo
mdangelo@unime.it

رسالة المؤرخة ميشيلا دي أنجيلو للباحث بتاريخ الخامس والعشرين من أيلول **2005**.

Date:	Fri, 14 Sep 2007 09:30:57 -0500
From:	"Isom-Verhaaren, Christine" <CIsom-Verhaaren@ben.edu
To:	"Anis Anis" <anisalkaysi@yahoo.com

Dear Anis A. Mahmoud al-Qaysi,

I am happy to send you a copy of my article. I will send it as an attachment to this email. Unfortunately, they did not send me the reprints yet so if you have trouble with the attachment I will send you a photocopy. I hope this will have the page numbers as they should be. Please let me know if you have any trouble receiving the article.

Good luck with your work and I hope to be able to see it when you are finished.

Sincerely,
Christine Isom-Verhaaren

رسالة المؤرخة كريستين إيسوم . فيرهارن للباحث في الرابع عشر من أيلول **2007**.

From:	"James D. Tracy" <tracy001@umn.edu
To:	anisalkaysi@yahoo.com
Date:	Wednesday, July 18, 2007 3:41 PM

Dear Mr. Al-Qaysi,

Thank you for your query re my EMPEROR CHARLES V. I have extorted chapters 7 and 8, dealing with Charles's Mediterranean campaigns, and have put it in the mail to you care of the Dept. of History, College of Arts. University of Baghdad. I hope you find the material useful for your dissertation. You might also want to contact my colleague, Prof. Giancarlo Casale (to whom I copy this message), who has worked on Ottoman naval activity in the Indian Ocean during the same period.

Sioncerely yours,

James Tracy

رسالة المؤرخ جيمس تريسي للباحث بتاريخ الثامن عشر من تموز **2007**.

Abstract

This dissertation tackles the Ottoman Naval Activity in the Mediterranean Sea during the Sixteenth Century. The primary hypothesis of this dissertation is to prove that the Ottoman Empire, although it was sea-power, was not a world power as some historians assume.

To prove this hypothesis, we have to ask some questions like:

1. What actually are the terms and limits by which we define “a world power”, (in the sixteenth century for example), and did the Ottoman Empire fit that definition?
2. What exactly are the terms and limits by which we define “a sew-power”, and did the Ottoman Empire, in any time given period, fit that definition?
3. When, and how, it is reasonable to talk about the Ottoman Empire having a navy, and is the use of that term anachronistic?
4. What exactly were Ottoman imperial ambitions; how did sea-power fit into those ambitions; and how are our constructions of those ambitions connected to our assumptions about Ottoman ideology?
5. What exactly was Ottoman policy towards the sea at any given time, and was that policy integral to the state, or incidental?

To answer these questions is not an easy task, for we have to prove that the Ottoman Empire has an active naval power, then to prove it was a world power. To achieve this goal, we have to “periodize” the Ottoman activity according to the major turning points during the sixteenth century. Here, according to this “periodization”, we have four major turning points: the emergence period; the rise period; the ranging period; and the decline one. Accordingly, we divided the dissertation into four chapters or periods: the **First chapter / period** covers the formative years of Ottoman activity (1453-1503), in which we discussed the effect of environment (the Mediterranean) on the naval activity; the major types of Ottoman ships; the corsair / privateering complicity; and finally the early Ottoman activity in the Agean and Mediterranean seas 1453-1503. the **Second chapter / period** covers the transformation of Ottoman naval activity from east to the west of Mediterranean and the rise of the famous Barbarossas (Urudj and Hayruddin) 1513-1546, and submission of the latter to Ottoman sultan Selim I to be, later on, the first Ottoman governor of Algeria during the reign of sultan Suleyman the Magnificent after his promotion to a high rank in the Ottoman service. The **Third chapter / period** deals with the ranging period 1547-1566, which witnessed the Torgud Re'is as a heir to Hayruddin Barbarossa, and his three major naval events of Tripoli 1551, Djerba 1560, and Malta 1565, to be followed by the death of sultan Suleyman in the following year. The **Four chapters / period** marked a turning point in the Ottoman naval activity in the Mediterranean. In spite of that Ottoman navy witnessed some major achievements during the latter years of

sixteenth century (Tunis 1569,1574; Cyprus 1570-71; and Alcazar 1578), but the Battle of Lepanto (1571) proved that the Ottoman Empire could not impose itself as a master on the Mediterranean, not to say a world power, and the sea ended to divide into two major political, cultural, and religious parts for centuries to come.

Conventional histories of Ottoman naval power insist that even during its heyday it was merely imitative of the Venetian navy and was as such doomed to fall behind once the rising Atlantic powers displaced Venice. There is, thus, a view that the Ottoman navy was somewhat backward to begin with. In our view, however, there is a more accurate alternative perspective on the state of the Ottoman navy during its heyday. The Ottoman navy, given its restricted reliance on the merchant marine, developed an ingeniously 'flexible' organization. It incorporated into its structure the regional corsair fleets. These corsairs were not actually the pirates or sea bandits they are often made out to be. What they were allowed to do was well-defined within the customs and traditions of the Ottoman law of the sea. They could inflict damage on the enemy to finance their activities and maintain and renew their fleets and yet serve the Ottoman navy when they were called upon. In a sense, they were a second-best substitute to what the merchant marine normally did for the navy. Furthermore, they kept their crews in a state of readiness for warfare that even regular drilling could not match. The Ottoman's 'flexible navy' was a creative response to the realities that they confronted.

Ottoman activities, however, did not match the new dimensions of the world that they were coeval with, or, simply, the contemporary politico-economic map of a changing world. The backbone of the Ottoman naval policy was only the war principal of Jihād, which could not or did not promote a durable, solid, or active Ottoman role in the Mediterranean. Suleyman, as well as his father Sultan Selim and his son Sultan Selim II, challenged the Spanish penetration into Islamic North Africa, but none of them ever created a constructive Ottoman policy there. The African coast became a "corsair" coast for centuries to come.

Suleyman the Magnificent and Selim II continued the traditional Ottoman policy to end the political position of Venice in the Mediterranean. To reach this goal, they also kept up the traditional Ottoman policy of encouraging the other Italian trade republics, Venice's relatively weak rivals, who could never take an active role to support the Ottomans.

Suleyman also took France as an ally in the Mediterranean, but France was not, or not yet, a Mediterranean naval power. Consequently, she could not replace Venice in the area. In addition, the Greek, Armenian, and the Jewish merchants -in fact, the intermediaries between the Ottoman business and the West - could not inaugurate the big maritime and trade business between East and West. In spite of

their vital role for the Ottoman Empire, we have to keep in mind that they were then second-class subjects.

In the sixteenth century, the only reasonable solution toward a constructive Ottoman policy in the Mediterranean world would have been close cooperation with Venice. The Italians, and above all the Venetians, had been very interested in mutual understanding with the Ottomans in order to hamper the Portuguese economic pressure following the discovery of the Cape of Good Hope. Unfortunately, the ottomans did not perceive the situation, or the scope of a new world; the world after European Discoveries and their revolutionary results; a world of competition, not monopoly. In other words, they did not understand how to initiate and to take the necessary steps to keep peace with the changing world of the sixteenth century.

It was during the reign of the great Ottoman Sultans, namely Suleyman the magnificent, who was well-informed about the increasing significance of the Americas for Europe and for his imperial rival, Charles V of Habsburg, that the Ottoman Empire was obviously in need of a more constructive maritime and trade policy in the Mediterranean and the Indian Ocean to counter-balance Charles's policy of Europe's progress in the Atlantic and the Indian Oceans. A constructive policy would also have counter-balance the overwhelming the internal problems, and at the same time to direct its foreign policy into the right way.

Instead, Suleyman preferred to repeat his attacks upon Vienna, the Christian side of Mediterranean, and Persia than to take Morocco and reach the gold sources and slave areas of West Africa, as well as the Atlantic coast in order to correctly face or compete with the rising transatlantic/Atlantic European/ Christian powers. Furthermore, the European oceanic discoveries ended not only the traditional monopoly of the Muslim intermediaries between East and West and erect new ones. In other words, the European oceanic discoveries set new dimensions for the East/West challenge that the Ottomans did not really or sincerely take into consideration.

The Ottomans ended the Venetian power in the Mediterranean, but the vacuum was filled by the rising maritime powers of Western Europe, and not by the Ottoman fleet or the capacity of subject of the Ottoman Empire itself. To sum up: the Ottomans, and Sultan Suleyman the Magnificent specifically, had established inadequate Mediterranean policy.

Ottoman Naval Activity
in the Sixteenth-Century Mediterranean

A Dissertation

Submitted to the Board of College of Arts, University of Baghdad, in partial fulfillment of the requirements for the (PhD) degree in Modern History

By

Anīs A. Mahmūd Al-Qaysi

Supervised by

Prof. Ibrahīm Khalaf Al-Obaydi (PhD)

Baghdad 2008